

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الأول من المجلد الثالث



تونس

٩



بيروت

حقوق الطبع محفوظه

١٤٠٨ھ - ١٩٨٨م

دار الحديث : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٢
العنوان البرقي: دار هيلاب - بيروت - لبنان



(شكل ١) الخطيب
معهد الدراسات بفرنس .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ط
تمهيد بقلم المؤلف	١
الباب الأول : ديباجة في التسكان	
الفصل الأول : إيطاليا	٦
الفصل الثاني : الحياة التسكانية	١١
الفصل الثالث : الفن التسكاني	١٩
الفصل الرابع : رومة تحت حكم الملوك	٢٦
الفصل الخامس : سيطرة التسكانيين	٣١
الفصل السادس : مواد الجمهورية	٣٤

الكتاب الأول : الجمهورية

جدول تاريخي	٤٣
الباب الثاني : الكفاح في سبيل الديمقراطية	
الفصل الأول : الأشراف والعامه	٥٥
الفصل الثاني : دستور الجمهورية	٥٥
١ - المشترعون	٥٥
٢ - الحكام	٦١
٣ - بداية القانون الروماني	٦٧
٤ - جيش الجمهورية	٧١
الفصل الثالث : فتح إيطاليا	٧٦
الباب الثالث : هنيبال يحارب رومة	
الفصل الأول : قرطاجنة	٨٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : ريجولوس	٩٣
الفصل الثالث : هملكار	٩٧
الفصل الرابع : هنتيال	١٠١
الفصل الخامس : سهر	١٠٩

١١٧ الباب الرابع : روما الرواقية

الفصل الأول : الأسرة	١١٨
الفصل الثاني : دين رومة	١٢٢
١ - الآلهة	١٢٢
٢ - الكهنة	١٣٤
٣ - الأعياد	١٣٥
الفصل الثالث : الأخلاق	١٤١
الفصل الرابع : الآداب	١٥٠
الفصل الخامس : الزراعة	١٥٨
الفصل السادس : الصناعات	١٦١
الفصل السابع : المدينة	١٧٠
الفصل الثامن : بعد الموت	١٧٥

١٧٨ الباب الخامس : فتح بلاد اليونان

الفصل الأول : الإغتيلا على بلاد اليونان	١٧٨
الفصل الثاني : تبدل أحوال رومة	١٨٣
الفصل الثالث : الآلهة الجدد	١٩٥
الفصل الرابع : بداية عصر الفلسفة	١٩٩
الفصل الخامس : النهضة الأدبية	٢٠٥
الفصل السادس : كاتو والمعارضون المحافظون	٢١٤
الفصل السابع : يجب أن تسمى قرطاجنة من الوجود	٢٢٠

الكتاب الثاني : الثورة

جدول الحوادث لتاريخية	٢٢٩
-----------------------	-----

الصفحة	الموضوع
الباب السادس : الثورة الزراعية	
٢٣٢	الفصل الأول : للعوامل التي نبتت البلاد للثورة
٢٣٧	الفصل الثاني : تيوبيريوس جيراكس
٢٤٢	الفصل الثالث : كيوس جيراكس
٢٤٩	الفصل الرابع : ماريوس
٢٥٢	الفصل الخامس : ثورة إيطاليا
٢٥٦	الفصل السادس : صلا السعيد
الباب السابع : الحركة الرجعية الأخرسية	
٢٦٣	الفصل الأول : الحكومة
٢٧٠	الفصل الثاني : أصحاب الملايين
٢٧٨	الفصل الثالث : المرأة الجديدة
٢٨١	الفصل الرابع : كاتوثان
٢٨٣	الفصل الخامس : اسهارتك
٢٨٧	الفصل السادس : ميمى
٢٩٢	الفصل السابع : شيشرون وكاتلين
الباب الثامن : الأدب في عهد الثورة	
٣٠٥	الفصل الأول : لكريشيوس
٣٠٦	الفصل الثاني : في طبيعة الأشياء
٣١٩	الفصل الثالث : حبيب لزيبا
٣٢٣	الفصل الرابع : العلماء
٣٢٩	الفصل الخامس : فلم شيشرون
الباب التاسع : قيصر	
٣٤١	الفصل الأول : للرتبع
٣٤٦	الفصل الثاني : للقتل
٣٥٢	الفصل الثالث : الأخلاق والسياسة
٣٥٧	الفصل الرابع : فتح بلاد غالة

صفحة	الموضوع
٣٦٥	الفصل الخامس : فساد الديمقراطية
٣٦٩	الفصل السادس : الحرب الأهلية
٣٨١	الفصل السابع : قيصر وكليوباترة
٣٨٧	الفصل الثامن : قيصر الحاكم
٣٩٥	الفصل التاسع : بروتس
٤٠٢	الباب العاشر : أنطونيوس
٤٠٢	الفصل الأول : أنطونيوس وبروتس
٤١٣	الفصل الثاني : أنطونيوس وكليوباترة
٤١٨	الفصل الثالث : أنطونيوس وأكتافيانا
٤٢٢	المراجع
٤٤١	فهرس الأعلام

فهرس الأشكال والصور

الشكل ١	الخطيب	أول الكتابيه
٢ »	خريطة إيطاليا وصقلية	أمام صفحة ٦
٣ »	قبر تسكانى فى مرفقى	» » ٢٠
٤ »	رأس امرأة	» » ٢٢
٥ »	أبلو فباى	» » ٢٤
٦ »	خريطة رومة القديمة	» » ١٧٠
٧ »	السوق الرومانية الكبرى	» » ١٧٤
» »	هيكل كاستر وبلس	» » ١٩٦
٩ »	مهمى	» » ٢٩٠
١٠ »	ساينفو	» » ٣١٦
١١ »	قيصر	» » ٣٤٢
١٢ »	قيصر	» » ٣٨٦

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثالث ، من مجلدات قصة الحضارة ، وقد سماه المؤلف قبصر والمسح لأن هذا المجلد يبحث في حضارة رومة وبداية الحضارة المسيحية حتى عام ٣٢٥ بعد الميلاد . وسيكون هذا الجزء الذي بين يدي القارئ واحداً من أربعة أجزاء يكمل بها المجلد الثالث من هذه الموسوعة ، ويشمل أولها قصة الحضارة الرومانية من أقدم العهود إلى مقتل يوليوس قيصر والحرب الأهلية التي أعقبت موته ، ويقص الثاني قصة الحضارة الرومانية من ٣٠ ق م إلى منتصف القرن الثاني بعده ، ويشمل الثالث عهد الإمبراطورية إلى نهاية القرن الثاني ، وينتهي هذا المجلد بالجزء الرابع ، ويروي قصة الصراع بين المسيحية والوثنية من بدايتها إلى انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وقد كانت خطة المؤلف الأولى تهدف إلى أن تتم السلسلة في خمسة مجلدات كبرى لكنه حين أصدر هذا المجلد الثالث جعلها ستة ثم عاد في أواخر العام الماضي حين أصدر المجلد الخامس في عصر النهضة فزادها إلى سبعة لأنه خص النهضة بمجلد والإصلاح الديني بمجلد آخر ، والحق أن عصر النهضة خليق بأن يفرد له مجلد خاص لأنه بداية العصر الحديث ، وفيه استيقظ العقل البشري من سباته الطويل ونبتت بذور الحضارة التي ازدهرت في هذه الأيام .

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بقيمة هذا المجلد فهو كالمجلدين السابقين تراث الشرق القديم وتراث اليونان فى غزارة المادة ودقة البحث ، وحسب القارئ أن يطالع على ثبت المراجع مجملة ومفصلة ليعرف الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع مادته وتحقيقها .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننوه مرة أخرى بفضل الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية التى اختارت الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت طبعه ونشره ، والقراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على اقتنائه لإقبالاً كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على مواصلة العمل فى ترجمة هذه الموسوعة التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها .

محمد برراة

مارس سنة ١٩٥٥

تمهيد

هذا المجلد - وإن يكن وحدة مستقلة بذاتها - هو القسم الثالث من كتب تاريخ الحضارة التي كان المجلد الأول فيها تراث الشرق ، والمجلد الثاني حياة اليونان . وإذا سمحت لنا ظروف الحرب القائمة (*) ، ووهبنا الله نعمة الصحة فسيكون المجلد الرابع وهو عصر الإيمان . معداً للنشر في عام ١٩٥٠ . والخطة التي نسير عليها في هذا العمل هي الخطة التاريخية التركيبية ، التي تقتضى بدراسة النواحي الهامة في حياة الشعب وعمله وثقافته وتفاعلها وتأثير كل منها في الأخرى .

أما الطريقة التحليلية في كتابة التاريخ - وهي كذلك طريقة لاغنى عنها من الناحية العلمية ولا تقل الحاجة إليها عن الحاجة إلى الطريقة التركيبية - فهي التي تدرس ناحية واحدة من نواحي النشاط الإنساني - كالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو العالمية أو الفاسفية أو الأدبية أو الفنية - في حضارة بعينها أو جميع حضارات العالم . وعيب هذه الطريقة التحليلية أنها تفصل جزءاً من كل فصلا يشوّهه . أما عيب الطريقة التركيبية فهو أنها ، إذ تتطلب من عقل واحد أن يعتمد على معرفته الشخصية في حديثه عن كل ناحية من نواحي إحدى المدنيات المعقدة التي تمتد آلاف السنين ، إنما تتطلب المستحيل . وليس في وسع من يتصدى إلى هذا العمل أن يتجنب الأخطاء في الدقائق والتفاصيل ، ولكن العقل الهائم بحب الفلسفة - وهي إدراك الأشياء عن طريق علاقاتها بعضها ببعض - هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها عقل لا يقدر بغير هذه الطريقة أن يقنع بسير أغوار الماضي . إن في وسعنا أن نطلب

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هذا المجلد في عام ١٩٤٤ وثار الحرب العالمية الثانية مشتعلة . (المترجم)

للفلسفة عن طريق العلم ، وذلك بدراسة ما بين الأشياء من علاقات في المكان ، أو أن نطلبها عن طريق التاريخ بدراسة ما بين الحوادث من صلوات في الزمان ، وفي مقدورنا أن نعرف عن طبيعة الإنسان بدراسة سلوكه وأعماله في خلال ستين قرناً من الزمان أكثر مما نعرفه عنها بقراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، وسبنوزا وكانت . وما أصدق قول نشة في المعنى : « ما أضيع الفلسفة كلها أمام التاريخ في هذه الأيام (*) » .

وإن دراسة الماضي لتعد بحق عديمة النفع إذا لم يجعل هذا الماضي مسرحية حية ، أو إذا لم تضي لنا دراسته ظلمات حياتنا الحاضرة . أليس قيام مدينة رومة وارتقاؤها من بلدة صغيرة في مفترق الطرق حتى سادت العالم المعروف وقتئذ ، وما أسبغته من أمن وسلام على رقعة واسعة من الأرض تمتد من جزيرة القرم إلى مضيق جبل طارق ، ومن نهر الفرات إلى سور هديران ، وما نشرته من أصول الحضارة القديمة في عالم البحر الأبيض المتوسط وفي غرب أوروبا ، وما قامت به من كفاح للاحتفاظ بما كسبته من أن تظغى عليه بحار الهمجية التي تكتنفه من كل جوانبه ، ثم تصدعها الطويل البطيء ، وانهارها آخر الأمر ، وترديها المشؤوم في ظلمات الجهالة والفوضى ، أليس هذا كله أعظم مسرحية مثلها الإنسان ، اللهم إلا إذا ظننا أن أعظم منها وأكثر روعة تلك المسرحية الأخرى التي بدأت حين وقف قيصر والمسيح وجهاً لوجه في ساحة پيليت pilate والتي دامت حتى أضحت حفنة من المسيحيين المضطهدين المطاردين بما أوتيت من صبر وجلد وما قاست من اضطهاد وما حل بها من رعب وهول ، نقول حتى أضحت هذه الحفنة من المسيحيين في بداية الأمر حلقة لأعظم إمبراطورية في التاريخ ، ثم سيدتها ، ثم ورثتها بعد تصرم أجلها

(*) Human, All Too Human الترجمة الإنجليزية طبعة نيويورك سنة ١٩١١ .

ولكن هذه المسرحية الكبيرة بالنسبة لنا معنى أعظم مما يبدو بالنظر إلى فخامتها؛ وطول زمانها واتساع المسرح التي تمثل عليه : ذلك أنها تشبه شيئاً عجيباً عظيم الدلالة حضارة هذه الأيام ، والمشاكل القائمة فيها ، وتلقى عليها ضوءاً يندرننا بسوء المصير . وهذا هو ما نقيده من دراسة حضارة من الحضارات دراسة تشمل جميع نواحيها وأدوار حياتها - ففي وسعنا بهذه الدراسة الشاملة أن نوازن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها بما يقابلها من مراحل وعناصر في مجرى ثقافتنا نحن ، فنأخذ من هذه الموازنة ، وبما أعقب المراحل الماضية الشبيهة بمرحلتنا الحاضرة ، عظة لنا تبعث فينا الحذر أو الإقدام . وما أشبه الكفاح الذي قام بين الحضارة الرومانية والهمجية في داخل الإمبراطورية وخارجها بالكفاح القائم في العالم في هذه الأيام . وفي مشاكل رومة البيولوجية وانحلالها الخلقى معالم تهدينا نحن سواء السبيل ؛ وإن الصراع الطائفي الذي قام بين ولدي جراكس *The Cracchi* وبين مجلس الشيوخ ثم بين ماريوس وسلا *Marius & Sulla* ، وبين قيصر وبمبي ؛ وبين أنطونيوس وأكتافيان لموعين الصراع القائم بيننا في هذه الأيام ، والذي لا تكاد تخبو ناره حتى تشتعل من جديد ، فقاتلهم فترات السلم التهاماً ؛ وإن فيما كانت تبدله شعوب البحر الأبيض المتوسط من جهود المستبثس لتحفظ لنفسها بقببس من ضياء الحرية تنزعه من تلك الدولة الطاغية لنذيراً بما ينتظرنا نحن من واحب ثقيل .

وإن قصة رومة لى في واقع الأمر قصتنا نحن .

أمدخل

أصل الرومان

الباب الأول

ديباجة في التسكان

٨٠٠ - ٥٠٨ ق. م

الفصل الأول

إيطاليا

ليتصور القارئ في خياله صورة ضياع ساكنة في أودية الجبال ، ومروج فسيحة على منحدراتها ، وبحيرات معلقة في وهاد التلال ، وحقول خضراء أو صفراء تمتد إلى شطآن البحار الزرقاء ، وقرى وبلدان يخيم السكون والحمول حين تسطع عليها شمس الظهيرة ، فإذا مالت نحو المغرب انتعشت وسرت فيها الحياة ، ومدن تحيط بها الأتربة والأقذار ولكن كل ما فيها جميل من أصغر الأكواخ إلى أفخم الكنائس الكبرى - لقد كانت هذه هي صورة إيطاليا منذ ألقى عام ، ولا تزال هي صورتها في هذه الأيام .

وقد تحدث بليني Pliny الأكبر عن بلاده^(١) فقال عنها : « ليس على ظهر لأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها في جمالها وروعة مناظرها » وأنشد فيها فرجيل يقول : « هنا الربيع الدائم والصيف حتى في غير أشهره » هنا تلد الأنعام مرتين في العام ، وتثمر الأشجار مرتين^(٢) ، ولقد كانت أشجاره الورد في بيستم Paestum تزهو في السنة مرتين وكانت في شمال البلاد سهولة خصبة كثيرة كمهولة منتوا Mantua

« يطعم التيم (٥) » من مجازيها المعشوشبة (٣) . وتمتد في شبه الجزيرة العظيمة سلسلة جبال الأبين امتداد العمود الفقري في جسم الإنسان ، فيتقرب بها شاطئ البلاد الغربي الرياح الشمالية الشرقية الباردة وتنبع منها أنهار تروى الأرض بمائها وتنحدر مسرعة لتصبه في خلجان البحر ذات المنظر الخلاب . وتقوم جبال الألب في الشمال لتصد عن البلاد المغيرين ، أما في سائر أطراف البلاد فإن أمواج البحر الصاخبة تتلاطم بشطآن كثير منها وعر قائم صعب المرتقى . لقد كانت هذه البلاد في تاريخها القديم خليقة بأن تجزى أهلها الخجدين خير الجزاء وأوفاه ، وكانت ذات موقع حربي هام في حوض البحر الأبيض المتوسط يمكنها من السيطرة على العالم القديم .

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعها ، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تبتلع جهود الأجيال المتعددة وتطمرها في أطباق الرماد أو تحرقها بحم البراكين ، ولكن الموت كان في هذه البلاد ، كما هو في معظم بلاد العالم ، مصدراً للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن اللحم المختلطة بالمواد العضوية كانت مورداً لإخصاب التربة لا يتضب له على مدى الأيام معين (٤) . لقد كانت بعض الأرضين منحدره وعره لا تصلح للزراعة ، وكان بعضها الآخر منافع تنتشر منها حمى الملاريا ، ولكن الكثير منها قد بلغ من خصب التربة ما جعل بوليبيوس Polybius يعجب من وفرة الطعام وقلة ثمنه في إيطاليا القديمة (٥) ، ويقول إن في وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما تخرجه من الغلات ونوعها حين يشاهد نشاط أهلها وقوتهم وشجاعتهم . ويظن ألفيري Alfieri أن « الشجرة - الآدمية » تنتعش في إيطاليا خيراً مما تنتعش في سائر بلاد العالم (٦) . بل إن الطالب الهيب في هذه الأيام نفسها ليعتريه بعض الرجل

(*) هكذا يسميه الديميري وهو الذي يسميه العامة في مصر بالأوز الدراق Olor واسمه

العلمي Cygnus . (المترجم) .

من هوة مشاعر ذلك الشعب المدهش الخلاب - من عضلاته المفتولة ،
ومن سرعة حبه وغضبه ، ومن عيونه الكتومة أو البراقة الملتببة ؛ وإن
الكبرياء والحميا اللذين كانا منشأ عظمة إيطاليا ، واللذين قطعاً أوصالها
في أيام ماريوس Marius وقبصر Caesar وفي عصر النهضة الأوربية ،
لا يزالان يجريان حتى الآن في الدم الإيطالي في انتظار قضية عادلة أو حجة
أظلية . والرجال كلهم إلا القليل النادر منهم مكتملو الرجولة وسيموالخلق ،
والنساء كلهن تقريباً حسان ، يمتازن بالقوة والشجاعة . وهل في العالم بلاد
أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً
التي يشملها تاريخ تلك البلاد ؟ وهل في العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب
رحى التاريخ - في نظم الحكم أولاً ثم في الدين ، ثم في الفن ؟ لقد ظلت
رومه مدى سبعة عشر قرناً - من كاتو الرقيب Cato Censor إلى ميكل
أنجلو مركز العالم الغربي .

أما أصل الإيطاليين فيقول عنه أرسطو : « يقول أصدق الناس حكماً
في هذا البلد إنه لما أصبح إيطالس Italus ملك أثنتريا Oenotria بدّل أهل
البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أثنثوريين بل تسموا إيطاليين» (٧) ،
ولقد كانت أثنتريا هي مكان الإصبع الكبرى في الحذاء الإيطالي ، ومعنى
هذا اللفظ هو « أرض النبيذ » لكثرة ما كان فيها من الكروم . ويقول
توكيديديس Thucydides إن إيطالس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا
أثنتريا في طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم (٨) ، وكما
أن الرومان قد أطلقوا على الهلنيين جميعاً اسم الأغارقة ، وهو اسم جماعة
قليلة هاجرت من شمال أتيكا Attica إلى نابلي ، فكذلك توسع الإغريق في
معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر
الپو Po إلى أقصى طرفها الجنوبي .

وما من شك في أن فصولاً كثيرة من تاريخ إيطاليا لا تزال مطمورة في
أطباق ثراها المزدهم بالأهلين ، ويدل ما كشف فيها من آثار ثقافة العصر

الحجرى القديم على أن سهولها كانت عامرة بالسكان قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام على أقل تقدير . ثم ظهرت فيها ثقافة تنتمى إلى العصر الحجري الحديث بين عامى ١٠,٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد : وكان أصحاب هذه الحضارة أقواماً طوال الرؤوس تسميهم الروايات القديمة لجورى Liguri أو صقلى Siceli ، وكانوا يصنعون الفخار الساذج الخشن وزينونه بتقوش مؤلفة من خطوط . كذلك كان هؤلاء الأقسام يصنعون أدوات وأسلحة من الحجارة المصقولة ويؤنسون الحيوان ويصيدونه هو والسملك ، ويدفنون موتاهم . ومنهم من كانوا يسكنون الكهوف ، ومنهم آخرون يسكنون أكواخاً من القش والطين . ومن هذه الأكواخ الأسطوانية تدرج فن العمارة تدرجاً مستمراً حتى وصل إلى « بيت رميولوس Romulus » المستدير القائم على الهلاتين Palatine وإلى هيكل فستا Yesta فى السوق العامة Forum وقبر هديران Hadrian الفخم .

وغزت قبائل من أوربا الوسطى شمالى إيطاليا حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ولعل هذا الغزو لم يكن الأول من نوعه . وقد أدخلوا فى البلاد عادة لإقامة المباني على قوائم خشبية فى الماء ليتقوا هجمات الوحوش والآدميين ، واستقر هؤلاء الغزاة فى بحيرات جاردا Garda ، وكومو Como ، ومجورى Meggiorه وغيرها من البحيرات الساحرة التى لاتزال تغرى الأجانب بالذهاب إلى إيطاليا ؛ ثم نزحوا فيما بعد إلى جنوب البلاد ، فلما لم يجدوا فيها من البحيرات الكثيرة ما كانوا يجدونه فى الشمال ، أقاموا مساكنهم على الأرض اليابسة ، ولكنهم رفعوها أيضاً على أسس من القوائم الخشبية . وكان من عادتهم أن يحيطوا هذه المساكن بالأسوار والخنادق ، وقد انتقلت هذه العادة إلى غير إيطاليا وأضحى من المظاهر المألوفة فى المعسكرات الرومانية وفى قصور العصور الوسطى . وكانوا يشتغلون برعى الماشية والضأن ، وفلاحة الأرض ، وصناعة النسيج ، وحرق الفخار ، وصناعة العدد الجرم من الآلات والأسلحة البرنزية ، ومنها الأمشاط ومشابك الشعر

والأمواس والملاقط وغيرها من الأدوات التي لا يكاد الإنسان يصدق أنها ظهرت في ذلك العهد البعيد . وكان البرنز قد ظهر في إيطاليا في أواخر أيام العصر الحجري الحديث (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) (٩) . وكانوا يتركون فضلات منازلهم تراكم حول قراهم ، وبلغ من كثرتها أن أطلق على ثقافتهم اسم ثقافة ترامار *Terramare* - أى التمثط (*) الأرضى - وهى نفايات غنية بالعاصر الخصبية . ومبلغ علمنا أن هؤلاء الأقوام هم الأسلاف الأقربون للكثرة العظمى من سكان إيطاليا في العصور التاريخية .

وأخذ المقيمون في وادى الپو من أبناء أهل هذه الأثماط استخدام الحديد عن ألمانيا ، وصنعوا منه أدوات خيراً من أدواتهم السابقة ، واستغانوا بها على نشر ثقافتهم الفلانوفية من مركزها في فلانوفنا *Vilanova* القريبة من مدينة بولونيا *Bologna* إلى أقاصى جنوب إيطاليا . ومن حقنا أن نعتقد أن دماء الأمبريين *Umbrians* والسبيين *Sabines* واللاتين *Latins* ولغاتهم ، وأهم فنونهم ، كلها مستمدة من هؤلاء الأقوام : ثم حدثت هجرة أخرى جديدة حوالى عام ٨٠٠ ق . م أخضع أصحابها الفلانوفيين وأنشأوا بين نهر التبير وجبال الألب أعجب حضارة في سبلات المجلس البشرى .

(*) التمثط الطين الرقيق أو العجين، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة *Marl* الانجليزية .

(المترجم)

الفصل الثاني

الحياة التस्कانية

يكتنف تاريخ التسكان غموض شديد يضايق المؤرخ أشد الضيق . لقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة رومة مائة عام أو أكثر من مائة ، وخلفوا في أعماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ رومة متعذرين دون دراسة تاريخهم . ولكن الآداب الرومانية رغم هذه الآثار قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النصف الجهر بأنها تجاوزت سن الشباب . ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية ، أو ما سجل منها ، تبدأ من أيامهم ؛ فقد وجد مختلطاً بمخلفاتهم نحو ثمانية آلاف نقش وكثير من أعمال الفن ، كما وجدت شواهد على أدب ضائع يشمل الشعر والمسرحيات وكتب التاريخ (١٠) . غير أن لغتهم لم يحل من رموزها إلا عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه ، ولا يزال العلماء الآن حيارى أمام ما يكتنف هذه المعضلة التسكانية من غموض أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شميليون .

ومن أجل هذا لا يزال الجدل يثور حول التسكانيين : من هم ؟ ومن أين جاءوا إلى إيطاليا؟ ومتى جاءوا إليها؟ ولعل الباحثين قد سجلوا بنيد الروايات القديمة أسرع مما ينبغي ؛ ذلك أن المتحذلقين مولعون على الدوم بتفنيد ما يقبله الناس من الآراء ، ويسوءهم ما يبتى في عقولهم منها . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان والرومان يرون أن من القضايا التي لا تحتاج إلى برهان أن التسكانيين قد جاءوا من آسية الصغرى (١١) . والحق أن في دينهم ، وثيابهم ، وفنهم ، شواهد كثيرة توحى بأصلهم الآسيوي ، وإن كان فيها أيضاً عناصر كثيرة يلوح أنها من أصل إيطالي . وأغلب الظن أن حضارة إتروريا Etruria قد نشأت من الثقافة

الفلانوفية Villanovan وأنها تأثرت من الناحية التجارية بخضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن التسكانيين أنفسهم ، كما كانوا هم يعتقدون ، قد غزوا البلاد من آسية الصغرى ؛ والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديا Lydia ومهما يكن أصلهم فإن تفوقهم في التقتيل قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة في تسكانيا .

ولسنا نعرف المكان الذى رسوا فيه حين قدموا بجرأ إلى إيطاليا ، ولكننا نعرف أنهم شادوا أو فتحوا أو وسعوا مدناً كثيرة - مدناً لاقرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم ، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب ، بل مقامة كثرتها من الآجر المحروق أو الحجارة . ثم ارتبطت اثنتا عشرة محلة من هذه المحلات فتكون منها اتحاد غير وثيق تسيطر عليه تاركوناي Tarquinii (المعروفة حتى هذه الأيام باسم كرنيتو Corneto) ، وأرتيوم Arretium (أرزو Arezzo) ، وپروزيا Perusia (بروجيا Perugia) ، وقياى Veii (ايولا فارنيزى Iola Farnese) (*) .

وتضافرت في هذه البلاد صعاب النقل في الجبال والغابات مع التحاسد والتنافر المتأصلين في الطبيعة البشرية ، كما تضافرا في بلاد اليونان ، على إنشاء دويلات من مدن مستقلة ، إذا اتحدت لصد غارات أعدائها اعتزت كل منها بسلاحتها منفردة عن غيرها ؛ وكثيراً ما كانت تقف لتشاهد العدو الخارجى يغير على أنحواتها حتى خضعت كلها لرومة واحدة في إثر واحدة . ولكن هذه المدن المتحالفة ظلت طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية في إيطاليا ، وكان لها جيش حسن التنظيم ، به فرق من الفرسان ذائعة الصيت ، وأسطول بحرى كان في وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذى لا يزال إلى اليوم يسمى

(*) هذه هي الأسماء الرومانية ، أما الأسماء التسكانية فغير معروفة .

البحر الترهيني (أو البحر الإتروري أى التسكاني) (٥) .

وقد بدأ الحكم في المدن التسكانية كما بدأ في رومة بالنظام الملكي ، ثم صار حكماً أليركيا تقوم به « الأسر الأولى » ، ثم تخلى هذا الحكم تدريجياً للأسر ذات الأملاك عن حق اختيار الحكام الذين كانوا يبدلون في كل عام . وفي وسعنا أن نستدل مما على قبور الأهلين من رسوم ملونة ونقوش محفورة على أن هذا النظام كان نظاماً إقطاعياً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض ويستمتعون بما يخرج الأبقان والأرقاء الثلانو فيون بكدهم من خيرات ، بعد أن تركوا لهم حاجتهم منها . وقد أصلحت أرض تسكانيا في عهد هذا النظام ، فجفت مستنقعاتها وقطعت غاباتها ، وأنشئ في قراها نظام للرى ، وفي مدنها نظام للمجارى لم يكشف حتى الآن عما يماثله في بلاد اليونان في ذلك العهد نفسه . وقد أنشأ المهندسون التسكانيون مجارى تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، وطرقاً في الصخور والتلال (١٢) . ونرى العمال التسكانيين في ذلك العهد البعيد وهو عام ٧٠٠ ق . م يستخرجون النحاس من شاطئ إبطاليا الغربى ، والحديد من جزيرة إلبا Elba ، ونرى الحديد الغفل يصهر في بيدولونيا Populonia ، والحديد المطاوع يباع في جميع أنحاء إيطاليا (١٣) ، وكان التجار التسكانيون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهاني ويأتون بالكهرمان والقصدير والرصاص والحديد من بلاد أوروبا الشمالية ، وينقلونها في نهري الرين والرون وفوق جبال الآب ، ويبيعون المنتجات التسكانية في جميع ثغور البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وما وافى عام ٥٠٠ ق . م أو نحوه حتى أصدرت المدن التسكانية الكبرى عملة خاصة بها .

(*) كان اليونان يسمون الإترسكين Etruscans الترهيني Tyrheni والترسيني Tyrseni . أما الرومان فكانوا يسمونهم الإترسكي Etrusci أو التسكي Tusci . ولعل الاسم اليونانى مأخوذ كما أخذ لفظ Tyrant من كلمة ترها Tyrtha وفى اسم غابة في ليديا . والراجع أن كلمة Tower (البرج) مشتقة هى الأخرى من هذا الأصل .

وتمثل الرسوم التي نراها على القبور هؤلاء الأقوام في صورة خلائق قصار القامات ، ممتلئى الأجسام ، كبار الرؤوس ، لا يكاد يوجد فرق بين ملامحهم وملامح أهل الأناضول ، ووردى الهشرة وخاصة نساءهم ؛ وإن تكن الأصباغ الحمراء قديمة قدم الحضارة ذاتها^(١٤) ، واشتهرت نساؤهم بجمالهن^(١٥) . وتلمح في وجوه بعض الرجال الرقة والنبيل . وكانت الحضارة في ذلك العهد قد بلغت من الرقي مرحلة الخطر كما نستدل مما عثر عليه في قبورهم من قناطر للأسنان الصناعية^(١٦) ؛ وقد انتقل إليهم طب الأسنان ، كما انتقل الطب والجراحة ، من بلاد مصر واليونان^(١٧) . وكانوا جميعاً رجالاً ونساء يطيلون شعر الرأس ، وكان رجالهم يرسلون لحاهم . أما ثيابهم فكانت على الطراز الأيونى Ionian تتكون من قيص داخلي ومتر خارجي هو الذى تطور حتى أصبح الكساء الرومانى المعروف باسم التوجا Toga . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين بالتزين ، وقد عثر المنقبون في قبورهم على كثير من الحلى .

وإذا كان لنا أن نحكم على التسكانيين من الصور المرححة التي نراها على قبورهم ، قلنا إن حياة هؤلاء الأقوام كان فيها مشاق الحرب ، ونعيم الترف ، وبهجة الأعياد والألعاب . فكان الرجال يشنون الحرب العوان ، ويمارسون ضروباً من ألعاب الرجولة ، ويصيدون الحيوان ، ويصارعون الثيران في المجتلد ، ويسوقون بأنفسهم عرباتهم في الطرق الخطرة ، وكانت تجرها في بعض الأحيان أربعة جياد تسير في صف . وكانوا يتبارون في رمى القرص والحربة ، والقفز من فوق الأعمدة ، والسباق والمصاعاة والملاكمة والمجالد . وكانت هذه الألعاب تمتاز بقسوتها ، لأن التسكانيين كالرومان كانوا يرون أن من الخطر أن يتركوا الحضارة تهتعد كثيراً عن الوحشية . وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون في رفع الأثقال ، ولعب الترد ، والنفخ في الناي ،

والرقص . وتتخلل الرسوم التي في القبور مناظر من مرح الشراب تزيل ما يجيم عليها من كآبة ، وهي في بعض الأحيان مقصورة على الرجال دون النساء ، يتحدثون فيها عن الخمر ، وفي بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء ، وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب ويتكثون مثنى مثنى على أرائك وثيرة ، يأكون ويشربون ، ويقوم على خدمتهم العبيد ، وتسليهم الراقصات والمغنيات(١٨) ، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء .

وأكبر الظن أن السيدة التي تُحتضن وقتئذ من الحظايا الشبهات بحظايا اليونان (الهيتيريا) Hetaira . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله الرومان فإن فتيات تسكانيا كان يسمح لهن بالحصول على بائنتهن عن طريق الدعارة ، شأنهن في هذا شأن فتيات آسية اليونانية ، وفتيات السموراى اليابانيات(١٩) . وشاهد ذلك أنا نرى شخصية في إحدى مسرحيات بلوتس Plautus تهتم فتاة تسمى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسمها على الطريقة التسكانية(٢٠) . ولكن النساء مع ذلك كانت لهن منزلة عليية في إثوريا ، وتمثلهن الرسوم تمثيل من لهن مقام عال في جميع مناحى الحياة ، وكان الأبناء ينتسبون إلى أمهاتهم ، وفي ذلك أيضاً ما يوحى بأن القوم من أصل أسبوى(٢١) . ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تاركون الأول Tarquin قد برعت في العلوم الرياضية والطب براعتها في تدبير الدسائس السياسية(٢٢) . ويقول المؤرخ اليونانى ثيوپميس Theopompus إن النساء في إثوريا كن ملكا مشاعا(٢٣) . ولكننا لا نجد فيما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت وجود هذه الطوبى الأفلاطونية ، بل إن كثيراً من الصور تمثل مناظر الروابط الزوجية ، والحياة العائلية ، والأطفال يسرحون ويمرحون حول أبويهم وهم سواء في سداجتهم وجهلهم .

وكان في الدين كل البواعث التي تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلج التسكانيون على آلتهم كل الصفات التي تبعث الرهبة في القلوب وتكبح جماع الفتيان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات . وكان أعظم الآلهة هو تينيا *Tinia* المتصرف في الرعد والبرق . وكان من حوله جماعة من الأرباب يأترون بأمره ، لا تأخذهم في ذلك رافة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا من العظمة حداً يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ، ولهذا نستطيع القارئ عنراً إذا أغفلنا نحن ذكر هذه الأسماء .

وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما منتوس *Mantaus* مانيا *Mania* سيد العالم السفلى وسيدته . وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأترون بأمرهما . وكان أشد الأرباب غضباً لاسا *Lasa* وبين *Mean* إلهة الأقدار التي تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما ، وتسلح بقلم ومداد تستخدمهما في الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بها أوامرها التي لا تتحول عنها . وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت في صورة تماثيل صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور .

ولعل العلم المقدس ، علم معرفة الغيب بدراسة أكياد الضأن أو طيران الطير ، قد جاء إلى التسكانيين من أرض بابل . ولكن الرواية التسكانية تقول إن الذي كشف لهم عن هذا العلم غلام مقدس هو حفيد تينيا ، وقد خرج إلى الحياة من أخذود محراث ، وفاه ساعته بحكمة الحكماء ، وكانت الطقوس التسكانية تنتهي إلى التضحية بالضأن والثيران والآدميين . فكان الضحايا من بني الإنسان يذبجون أو يدخنون أحياء في مياتم العظام . وكان أسرى الحرب يذبجون أحياناً طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم الفوقيون *Phoceaxs* في أليا *Alalia* عام ٥٣٥ ق . م في سوق كليري العامة *Caere* ، وصحى بنحو ثلثمائة من الرومانيين في عام ٣٥٨ ق . م

في تاركويناي * ويلوح أن للتسكاني كان يعتقد أن في وسعه أن يطلق روحاً من الجحيم نظير كل رجل يقتله من أعدائه (٢٤) .

وكان أهم مظاهر الدين التسكاني هو الإيمان بوجود الجحيم في الدار الآخرة ؛ فقد كانت روح الميت ، كما نراها في الصور والنقوش التي على القبور ، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث تناح لها الفرصة في يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها في الحياة الدنيا . فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، كان لها بلا ريب أثر في شعر فرجيل Virgil (المستمد من قصص متوا التسكانية) وفي فكرة المسيحيين عن الجحيم ، وفي حجوم دانتي Dante's Inferno التسكاني الذي سرت إليه عن طريق هؤلاء المسيحيين من خلال عشرين قرناً من الزمان ، وكان الأرباب بمنجاة من هذا التعذيب ، كما كان في وسع الأحياء من أصدقاء الموتى المعذبين أن يقصروا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين . فإذا نجحت الروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلي إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التي صورتها آمال الأحياء على القبور .

وكان التسكانيون يدفنون موتاهم في الأحوال العادية ، وكان الموسرون منهم يوضعون في توابيت الطين المحروق أو الحجارة حفرت على السطوح العليا أغطيتها صور أشخاص متكئين ، يشبه بعضهم الموتى الذين كانوا في التوابيت ، ويشبه بعضهم الصورة اليونانية الباسمة التي كان اليونان الأقدمون يصورون بها أبلو Apollo ؛ ولقد كان لهذه الصور أيضاً أثرها في فن العصور الوسطى . وكان الموتى في بعض الأحيان يحرقون ، ويوضع رمادهم في أوعية تزين أحياناً بصور الأموات . وكان الوعاء أو القبر في بعض الأحيان في صورة البيت ، وفي بعضها الآخر كان القبر المنحوت في الصخر يقضم إلى حجرات ، وهيأ لحياة الميت

في الدار الآخرة بالأثاث والآنية والمزهريات ، والملابس ، والأسلحة ،
والمرايا وأصباغ الزينة والجواهر ، وقد عُثِر في قبر في كاري Caere
على هيكل رجل محارب راقد على سرير من البرنز كامل الشكل ، وإلى
جانبه أسلحته وعجلته الحربية ، ووجدت في حجرة خاف حجرة هذا
الميت حلى وجواهر لسيدة لعلها زوجته وقد اكتسى التراب - الذي كان
في يوم من الأيام جسمها المحبوب - بثياب عرسها (٢٥) .

الفصل الثالث

الفن التسكاني

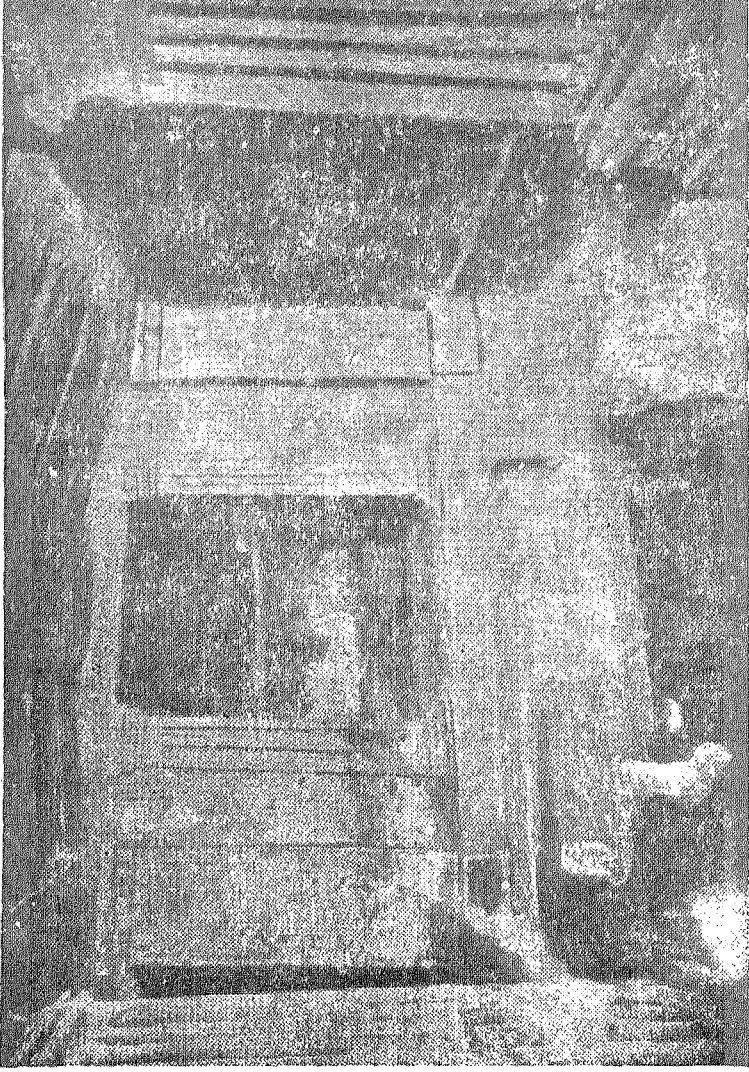
يكاد الفن التسكاني أن يكون وحده كل ما نعرف عن تاريخ التسكانيين ، فني وسعنا أن نتبع فيه آداب الشعب وأخلاقه ، وما كان للدين والطبقات من سلطان ، وما كان لصلاته بأسية الصغرى ومصر وبلاد اليونان ورومة من أثر في تبدل أحوال هذا الشعب الاقتصادية والثقافية . لقد كان هذا الفن شديد التقييد بالعرف والتقاليد الدينية ، وإن كانت المهارة الفنية قد أكسبته الكثير من الحرية ؛ وكان يكشف عن حضارة وحشية مظلمة ، ولكنه يعبر عنها في قوة ؛ وقد حدد أشكاله الأولى وأنماطه الفن الشرقي - الأيونى ، والقبرصى ، والمصرى ، وسيطرت النماذج اليونانية على نمته وخزفه . وأما في العمازة والتصوير فإن الفن التسكاني كان تسكانياً خالصاً فذاً في نوعه .

ولا يتعدى ما بقى من آثار فن العمازة التسكانية بضع قطع قليلة مبعثرة وبعض القبور ؛ ولا تزال أجزاء من أسوار المدن الإثروية قائمة حتى اليوم - وهي مبان ثقيلة خالية من الملاط ولكنها شديدة التماسك قوية . وتدل بيوت أغنياء التسكانيين على ما كانت عليه أشكال البيوت الإيطالية في العهد القديم : فقد كان الواحد منها يتكون من سور خارجي يحجب سكان البيت عن أعين من في خارجه ، ومن إيوان أو حجرة استقبال في وسطه ، وفي سقف الإيوان فتحة ينزل منها المطر إلى صهريج في أسفل البيت ، ومن حول الإيوان طائفة من الحجرات الصغيرة يواجهها في أغاب الأحيان مدخل ذو عمد . وقد وصف فيثروفيوس Vitruvius المهندس والبناء هياكل التسكانيين وصفاً ينطبق في بعض الأحيان على قبورهم أيضاً ويستفاد من هذا الوصف أن الهياكل كانت في جوهرها تتبع

الطرز اليونانية ، غير أن « الطراز التسكاني » قد أدخل بعض التعديل على الطراز الدوري ، بأن ترك العمد خالية من الحزوز ، وأقامها على قواعد ، وجعل نسبة الطول إلى العرض في جسم المبد كنسبة ٦ : ٥ بدل النسبة الأتيكية Attic الرشيقة وهي ٦ : ٣ . وفي وسعنا أن نصف الهيكل التسكاني وصفاً موجزاً بقولنا إنه يتكون من بناء رئيسي من الآجر ورواق من الحجارة ، ومن عوارض فوق العمد ومقصات من الخشب ، ومن نقوش وحلي من الطين المحروق ؛ ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربوة ، ويطل بالألوان الزاهية من داخله وخارجه . وكذلك نستطيع أن نقول على قدر ما وصل إليه علمنا بتاريخ التسكانيين لأنهم أدخلوا في إيطاليا العقود والقباب في الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية - كأبواب المدن ، وأسوارها ، ومجاري المياه ومصارفها . ويلوح أنهم جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا Lydia ، وكانت هذه قد أخذتها عن بلاد بابل (*) ، ولكنهم لم يتبعوا تلك الطريقة البديعة طريقة تغطية مساحات واسعة من الأراضي بالأبنية الخالية من العمد والعوارض الكثيرة المختلطة المقبضة المملة . وقد ظلوا في معظم الأحوال يتبعون الأساليب التي هيأها لهم اليونان ، وتركوا إلى رومة أن ترتفع بالأقواس والمنحنيات إلى ذروة الكمال فتحدث بذلك انقلاباً عظيماً في فن العمارة .

والخزف أشهر ما أخرجته بلاد إتروريا ، تزدهم به كثير من متاحف العالم وإن كان من يطوف بهذه المتاحف لا يرى في هذا الخزف من الكمال ما يبرر أن تحشد هذه الكميات الكبيرة منه . فالمزهريات التسكانية ، إذا لم تكن منقولة عن الأنماط اليونانية ، لا ترتفع فوق الدرجة الوسطى في تصميمها ، وهي فخمة خشنة في صنعها ، وبدائية همجية في زينتها . وليس ثمة فن من

(*) وكانت تستخدم في المقابر والهيكل المصرية وفي قصور فينوى . وتبلغ بعض العقود الرومانية من القدم ما بلغت أي القود الباقية في إتروريا (٢٦) .



(شکل ۳) قبر تسکانی فی مرقتی (

الفنون قد شوه الجسم البشرى كما شوهه الخزف التسكاني ، أو أخرج من الوجوه المنتكرة البشعة أو الحيوانات الفظة ، أو الشياطين المهولة ، أو الآلهة المروعة ، أكثر مما أخرجها هذا الخزف . غير أن الآنية السوداء المصنوعة في القرن السادس قبل الميلاد تسرى فيها قوة إيطالية ، ولعلها تمثل تطوراً محلياً من الأنماط للأفلاطونية . وقد عثر على مزهريات جميلة في فلسي Vulci وتاركويناي - نقلت من أثينة أو صنعت على مثال الزهريات الأتيكية ذات الرسوم السوداء . ويلوح أن مزهرية فرانسوا Francois وهي جرة كبيرة ذات عروتين عثر عليها في شيوزي Chiusi فرنسي يسمى بهذا الاسم - يلوح أن هذه المزهرية من صنع الفنانين اليونانيين كليتيبا Clitias وإرجتيمس Ergotimus . أما آنية رماد الموتى التي صنعت في العهد المتأخرة ، والتي رسمت عليها صور حمراء على أرضية سوداء ، فهي رشيقة الصنع ولكنها أيضاً صناعة يونانية بلا ريب ، وإن كثرتها لتدل على أن صناع الخزف الأتيكيين قد سيطروا على الأسواق التسكانية ولم يبقوا فيها للصناع الوطنيين إلا المصنوعات التي لا تمت إلى الفن بصلة . وفي وسعنا أن نقول عن فن الخزف بوجه عام إن اللصوص كانوا على حق حين تركوا كل هذا الخزف في القبور التسكانية بعد انتهابها .

لكننا لا نستطيع أن نستخف هذا الاستخفاف كله بفن البرنز التسكاني ذلك بأن الذين كانوا يصبون المصنوعات البرنزية في إتروريا قد وصلوا بهذا الفن إلى درجة الكمال . ويكاد ما صنعوه منه أن يبلغ من الكثرة ما بلغته الآنية الخزفية ، وحسبنا شاهداً على هذه الكثرة أن مدينة واحدة من مدنهم كان فيها على قولهم ألفاً تمثال برنزي . ويرجع معظم ما وصل إلينا من المصنوعات البرنزية إلى عهد سيطرة الرومان على تلك البلاد . وأشهر هذه الروائع الفنية كلها تماثلان هما تماثل الخطيب الذي يقف الآن في متحف العاديات في مدينة فلرنس Florence تحف به هالة من المهابة الرومانية والتحفط البرنزي ، وتتمثال الهولة الذي عثر عليه في

أوزو Arezzo عام ١٥٥٣ الذى أعاد إليه سلبنى الفنان الإيطالى بعض ما حطم من أجزائه . وثانى التمثالين بشع المنظر ، وأكبر الظن أنه يمثل الوحش الذى ذبحه بلروفون Bellerophon ، له رأس أسد وجسمه ، وذيل أفعى ، وقد نبت له فى ظهره رأس جدى ، غير أن قوته وصقله تنسياننا ما فى خيلته من شذوذ وخرابة . وقد أخرج صناع البرنز التسكانيون آلاف الآلاف من التماثيل الصغيرة والسيوف ، والخوذات ، والدروع ، والحرب ، وآنية للطهو ولحفظ رماد الأموات ، والنقود ، والأفقال ، والسلاسل ، والمراوح ، والمرايا ، والسرر ، والمصابيح ، وحاملات الشموع ، بل صنعوا منه العربات نفسها . ومن يزور متحف الفن فى نيويورك يرى فى صدره عربة تسكانية جسمها ودواليها من الخشب ولكن البرنز يكسو الجسم وإطار الدواليب ، وقد نقش فى أعلى مقدمها صور من البرنز غاية فى الرشاقة . وكان كثير من الأدوات البرنزية يحفر عليه أشكال دقيقة جميلة . وكانت طريقتهم فى هذا أن يغطوا السطح الذى يريدون نقشه بالشمع ، ثم يرسموا عليه الشكل الذى يريدونه بقلم معدنى ذى سن حادة ، يغمسون طرفها فى بعض الأحماض ، فتحفر الخطوط التى يزول عنها الشمع فى معدن البرنز ، ثم يذاب الشمع كله بعدئذ . وكان الفنان التسكاني وارث الفنانين المصرى واليونانى ، وتدهما فى النقش على الفضة والذهب والعظام والعاج .

أما النحت فى الحجارة فلم يكن فى يوم ما فناً شائعاً فى إتروريا . فقد كان الرخام فيها نادراً ، ويبدو أن محاجر كرازا Carrara لم تكن قد عرفت بعد . لكن الصلصال الجميل كان فى متناول الأيدي ، وسرعان ما تشكل وظهر فى صور آلاف مؤلفة من نقوش و تماثيل صغيرة وزينات للقبور والدور من الطين المحروق . وقد أنشأ أحد الفنانين التسكانيين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد مدرسة لتعليم فن النحت فى فياى Veii أخرجت على يديه آية الفن التسكاني ، وهى تمثال أبولو فياى Apollo of Veii الذى عثر عليه فى عام ١٩١٦ فى موضع هذه المدرسة ، والذى ظل



(شكل ٤) رأس امرأة
من قبر تسكانى فى كراچتو

إلى عهد قريب قائماً في فلاجوليا Villa Giulia في رومة . وقد صنع هذا التمثال الجذاب على غرار تماثيل أبولو اليونانية والأتيكية المنحوتة في ذلك الوقت ؛ وهو ذو وجه يكاد يكون وجهاً نساءياً كالذى نشاهده في صورة مونا ليز Mona Lisa ، ويفتر ثغره عن ابتسامة رقيقة، وأسنان مائلة مقوسة ، وجسمه تسرى فيه دلائل الصحة والجمال والحياة . ويطلق الطليان على هذا التمثال اسم « أبولو الذى يمشى » il Aqollo che Cammina . وقد ارتقى المثالون التسكانيون في هذا التمثال وفي غيره من الصور الجميلة الكثيرة المنقوشة على توابيت الموتى ، ارتقوا بالأنماط الأسبوية من صور الشعر والشباب إلى درجة الكمال . أما في تمثال الخطيب فقد أوجدوا هم أو وارثوهم الرومان فناً من التصوير الواقعى .

وقد تعاون فن الرسم التسكانى مع فن إيطاليا اليونانية على نقل فن آخر من الفنون إلى رومة . ولقد وصف بلنى الأكبر Pliny المظلمات التى وجدت في أرديا Ardea بأنها « أقدم من رومة نفسها » ، وقال عن مظلمات كثيرى إنها « أقدم من السابقة » وإنها « تفوقها روعة وجمالاً (٣٧) » واستخدمت في الرسم الأوانى الخزفية ، وجدران المنازل والقبور من الداخل ؛ ولم يبق لنا إلا مظلمات القبور والرسوم على المزهريات ، ولكنها تبلغ من الكثرة حداً نستطيع معه أن نتبع كل ما مر بفن التصوير التسكانى من أدوار مختلفة— من طرز شرقية ومصرية ، تنتقل عن طريق اليونان والإسكندرية إلى طرز رومة وبمبي . ونجد في بعض المقابر النماذج الإيطالية الأولى للنوافذ ومداخل الدور ، والأعمدة ، وكلات الأبواب ، وغيرها من الأشكال الهندسية المعمارية ، مصورة بالألوان على الجدران الداخلية ، ولا تفرق في شيء عما نجده منها في مدينة بمبي . وكثيراً ما نرى ألوان هذه المظلمات حائلة ، ولكن القليل منها يبدو جديداً براقاً إلى حد يدهش له الرأى ، بعد أن مضى عليه أكثر من عشرين قرناً من الزمان . أما من حيث

القواعد الفنية فإن هذه الرسوم لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ،
فالصور القديمة لم تراعى فيها قواعد المنظور .

ولم يستخدم الضوء والظل لتمثيل العمق والامتلاء ، والصور رفيعة أشبه
من هذه الناحية بالصور المصرية ، ويحيل إلى الناظر إليها أنه يراها من
خلال مرآة محدبة أفقية ؛ والوجوه كلها جانبية أيا كانت الجهة التي تشير
إليها القدمان ؛ غير أن فن المنظور يظهر في النماذج المتأخرة ، كما أن التناسب
بين أجزاء الجسم المختلفة يراعى بمهارة وأمانة . لكن هذه الصور وتلك
يبدو عليها نزق ومرح وخبث لا يسع الإنسان معها إلا أن يدهش مما كان
يحيط بالحياة التسكانية من بهجة إذا كانت قبورهم مفرحة إلى هذا الحد .

فهنا رسوم تمثل رجالا يقتتلون ، أو يستمتعون بمشاهدة القتال ،
أو يتصارعون ويشاقفون في المجتلدات ، ويصيدون الآساد والخنازير البرية
بشجاعة الرجال الذين يراهم النظارة ، أو يتوقعون أن يروهم ، ويلاكمون
أو يصارعون في ساحة الصراع والنظارة يتناقشون بقوة تفوق قوة المصارعين ،
ويركبون خيولهم أو يسوقون عرباتهم حول المدرج ، أو يصيدون السمك
في هدوء واطمئنان عظيمين . ويمثل أحد الرسوم زوجين يدفعان قارباً على
مهل في مجرى هادئ المياه : ألا ما أقدم حكمة الحكماء . وفي صورة على
قبر من قبور كثيرى يُرى رجل وزوجته متكئين على أريكة ، والرجل
متوج الرأس بالغار ، ويعاهد زوجته وفي يده كأس من الشراب على أن
يكون وإفياً لها مخلصاً على الدوام ، وتبتسم الزوجة وتصدقه وإن كانت
تعرف أنه يكذب عليها .

ويرسم المصور التسكافى على جدار مقبرة أخرى ما ارتسم في ذهنه من
صورة الجبة . ويصور المرح الدائم ، ويصور الولدان يرقصون رقصاً عنيفاً
على أصوات المزمار المزدوج والقيثارة . ويلوح أن المزمار ، والقيثارة ، والصفارة
والبوق ، كانت مستلزمات كل وليمة وكل حفلة عرس أو جنازة ، وأن



(شکل ه) ابلو قای - رومه

حب الموسيقى والرقص كان من المظاهر الجميلة في الحضارة التـسـكـانية :
ونرى الصور المرسومة على جدران قبر اللبوة في كرنيتوز Corneto تدور
حول نفسها في جنون المـخـمـورين (٢٨) .

* * *

وكان طبيعياً أن يوسع التـسـكـان أملاكهم نحو الشمال والجنوب ، وأن
يمدوا سلطانهم إلى قواعد جبال الألب ، وإلى مدن كـمـبـانـيا Campania اليونانية ،
وأن يجدوا أنفسهم بعدئذ وجهاً لوجه أمام رومة الناشئة على الشاطئ
الآخر من نهر التـيـبـر Tiber : وقد أنشأوا لهم مستعمرات في قرونا Verona
بدوا Padua ، ومنتوا Mantua ، وبارما Parma ، ومودينا Modena ،
وبولونيا Bologna ، وفي الجهة الأخرى من جبال أپنين Appenine في
ريميني Rimini ، ورافنا Ravenna ، وأدريا Adria ، وهي قرضة صغيرة سمي
باسمها البحر الأدرياوى ، وأحاطوا رومة بمستعمرات تـسـكـانية في فيدينى
Fidnae ، وبرنيستى Paraeneste (پاسترينا Palestrina) وكبوا Capua ،
ولعلمهم استقروا أيضاً في مسكولم Musculum (« تسكانيا الصغرى ») :
وما وافى عام ٦١٨ ق . م - كما تقول رواية مشكوك في صحتها ولكنها تحدد
هذا التاريخ تحديداً عجيباً - حتى استولى أحد المغامرين التـسـكـان على عرش
رومة ، وظلت الأمة الرومانية مدى قرن كامل تسيطر عليها قوة التـسـكـانيين
ويتشكلون حضارتها .

الفصل الرابع

رومة تحت حكم الملوك

وعبر نهر التيبر حوالي عام ١٠٠٠ ق م جماعة مهاجرون من فلانوافا واستقروا في لاتيوم Latium ، ولا يعرف أحد هل غسّاب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم في تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم في ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجري الحديث ، أو أبادوهم ، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم . ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية التي كانت قائمة في هذا الإقليم التاريخي العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلي Naples تجتمع وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التي لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا في الأعياد الدينية السنوية أو فيما كان يقوم بينها من حروب . وكان أكبر هذه المدن هي ألبا لنجا Alba Longa القائمة عند سفح جبل ألبان Mt. Alban ، والراجح أن موضعها كان في موضع قصر جندلفو Cnstel Gandifo الذي يأوى إليه البابا في أيام الصيف في الوقت الحاضر . ومن ألبا لنجا تحرك جماعة من اللاتين - ولعل ذلك كان في القرن الثامن قبل الميلاد - مدفوعين بحب الغزو أو بازدياد عددهم لكثرة من ولد لهم من الحفدة والأبناء ، تحركوا قرابة عشرين ميلاً نحو الشمال الغربي ، وأنشأوا المدينة التي صارت فيما بعد أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة .

ولسنا نعرف عن نشأة رومة أكثر مما ذكرناه في النقرة السابقة التي ليس فيها إلا ما هو فروض غير موثوق بصحتها . ولكن القصص الرومانية تروى عن ذلك الأصل الشيء الكثير . ذلك أنه لما حرق الغاليون المدينة في عام ٣٩٠ ق م احترقت في أغلب الظن معظم سجلاتها التاريخية ، فاتسع المجال

أمام خيال أهلها ، وأغرتهم وطنيتهم إلى تصور أصل المدينة في صورة مطلقة من كل القيود ، فحددوا تاريخ بنائها في اليوم الذي يوافق اليوم الثاني والعشرين من شهر إبريل عام ٧٥٣ ق.م ، وأخذوا يؤرخون الحوادث «من عام تأسيس المدينة » A.U.C. anno urbis conditae ، وأخذت مائة قصة وألف قصيدة تصف خروج إينياس Aeneas ابن أفرديتي — فينوس (الزهرة) Aphrodite-Venus من طروادة المحترقة ، ومجيئه إلى إيطاليا بألمة مدينة برام Priam (*) وما كان فيها من صور مقدسة ، بعد أن قاسى الأهوال في البلاد الكبيرة التي مر بها ، ولاقى ألوان العذاب من سكانها . وتزوج إينياس من لافينا Lavnia ابنة ملك لاتيوم ، وتقول القصة إن نمتور Numitor أحد أحفادهما جلس على عرش ألبا لنيجا حاضرة لاتيوم بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج . ثم اغتصب العرش منه رجل يدعى أمليوس Amulius وأخرجه من المدينة ، وأراد أن يقضى على أسرة إينياس كلها فقتل جميع أبنائه الذكور ، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلفيا Rhea Si via على أن تصبح كاهنة لفستا Vesta ، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى المات . ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء ، « وفتحت صدرها لتتلقى النسيم » (٢٩) واستغرقت في النوم وهي واثقة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين . وأسر جمالها قلب المريخ Mars فحملت منه بتوأمين ، فلما وضعتهما أمر أمليوس بإغراقهما في النهر ، فوضعا فوق رمس ، وأشفقت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر ، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو — في رواية أخرى -- زوجة راع تدعى أكالا لارنتيا Acca Larentia ويكنونها لوبا Lupa لأن حبا عارم كحجب الذئاب . فلما شب رمبولوس Romulus وريموس Remus قتلا أمليوس ، وأعادوا نمتور إلى العرش ، وسارا تحدهما قوة الشباب وعزيمته لكي ينشئا لها مملكة على تلال رومة .

(*) يقصد طروادة . (المترجم)

ولم يكشف علم الآثار عن شيء يؤيد هذه القصص التي تروى عن
تشأة رومة وعهدا الأول ؛ ولعل في هذه القصص شيء من الحقيقة ،
فليس بعيد أن يكون اللاتين قد أرسلوا نفراً منهم ليشيدوا مدينة رومة
لكي يتخلوها حصناً يقيهم شر السكان الذين كانوا يوسعون رقعة بلادهم
في ذلك الاتجاه . وكان موقع المدينة على بعد عشرين ميلاً من شاطئ البحر ،
ولم يكن موقعاً ملائماً للتجارة البحرية ، ولكنه كان من المستحب في تلك
الأيام أيام القرصان المغيرين النهائيين أن تكون مواقع المدن بعيدة عن شاطئ
البحر قليلاً ، أما من حيث التجارة الداخلية فقد كانت رومة عند ملتقى
طريقي التجارة ، طريق النهر والطريق البري الممتد من الشمال إلى الجنوب ؛
ولم يكن موقعها بالموقع الصحي ، فقد كانت الأمطار وفيضانات الأنهار ،
ومياه العيون ، تملأ المناقع الكثيرة في السهل المحيط بالمدينة ، ومن ثم
كانت شهرة التلال السبعة ؛ وتقول الرواية إن أول ما استوطنه المهاجرون
من هذه التلال هو تل پلاتين *Palatine* ، ولعل سبب ذلك أن جزيرة قرب
سفح هذا التل قد يسرت للمستعمرين عبور نهر التيبر وإقامة جسر عليه ؛
ثم استوطنوا بعدئذ سفوح التلال المجاورة واحداً في إثر واحد ، وما لبثوا
أن عبروا النهر وشادوا القاتيكان *Vatican* والجانكيولوم *Janiculum* (*) .
ثم تحالفت القبائل الثلاث - اللاتين والسبينيون والسكان - التي استوطنت
التلال وأنشأت منها اتحاداً يسمى السبينيوم هو الذي نشأت فيه على مهل
مدينة رومة .

وتقول القصة القديمة بعدئذ إن رميولوس أراد أن يأتي بأزواج لرجالها ،
فأعد ألعاباً عامة دعا إليها السبينيون وغيرهم من رجال القبائل الأخرى ، وبينما
كان السباق جارياً في مجراه إذ انقضت الرومان على نساء السبينيون فاستولوا

(*) لقد كان في رومة أكثر من هذه التلال السبعة المتواضعة ، ولم تكن هذه
« السبعة » هي بعينها في جميع الأوقات . غير أنها في أيام شيشرون كانت هي *Palatine*
Capitoline, Caelian, Esquiline, Aventine, Viminal, quirinal.

عليهن . وطرردوا الرجال من حلبة السباق ، فإكان من تيتس تاتيوس
Titus Tatius ملك قبيلة الكيوريين Curites السبئية إلا أن شن الحرب على
رومة ، وسار بجيوشه لغزوها . وفتحت تريبيا Tarpeia ابنة الروماني الموكل
بإحدى القلاع القائمة على الكبتولين باب القلعة إلى الغزاة . وقد جازوها على
عملها بأن دقوا عظامها بدروعهم ، وأطلقت الأجيال التي جاءت من بعد اسمها
على « صخرة تريبيا » التي كان يلقي من فوقها المقصى عليهم بالإعدام ليلقوا
حرفهم . ولما اقترب جنود تاتيوس من تل البلاطين سعت نساء السبئيين -
اللاتي كن يشعرن بنعم الأسر - إلى عقد هدنة بين الطرفين ، وحججن في
هذا أنهن سيخسرن أزواجهن إذا انتصر الكيوريون ، وسيخسرن إخوتهن
أو آباءهن إذا انهزموا . ونجح النساء في سعيهن وأقنع رميولوس تاتيوس ملك
السبئيين بأن يشاركه ملكه ، وأن تنضم قبيلته إلى اللاتين ، فتصبح من مواطني
رومة ، ومن ذلك الوقت سمى أحرار رومة بالكيوريين أو الكويريين
(Quirites Curites) (٣٠) . ولعل في هذه القصة الخيالية كلها هي الأخرى
بعض الحقائق - أو لعل النعرة الوطنية قد صاغت لتخفي بها فتح السبئيين
مدينة رومة .

وحكم رميولوس رومة زمناً طويلاً رفع بعدها إلى السماء في عاصفة ،
واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحبين ، يعبدونه باسم كويرينوس
Quirinus (٣١) . ولما مات تاتيوس أيضاً اختار رؤساء الأسر الكبيرة رجلاً
من السبئيين يدعى نوما پمپيليوس Numa Pompilius ملكاً على رومة . والراجع
أن السلطة السياسية الحقيقية فيما بين تأسيس رومة وسيطرة التسكان عليها كانت
في أيدي هؤلاء الرؤساء أو السناتوريين ، على حين أن أعمال الملك كانت كأعمال
الأركان باسليوس Archon basileus في مدينة أثينة في هذا الوقت عينه ،
ولا تخرج عن أعمال الكاهن الأكبر (٣٢) . وتصور الأفاصيص الملك نوما
السبئي في صورة شبيهة بالإمبراطور ماركس أوريليوس Marcus Aurilius ،
تصوره فيلسوفاً وقديساً معاً . ويقول عنه ليني Livy لأنه :

« عمل على أن يبعث في قلوب الشعب الخوف من الآلهة ، ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً في قلوب ... الأقسام الهمج ؛ وإذ كانت جهوده في هذه السبيل لا توصله إلى الهدف الذي يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة غير حكمة البشر ، فقد ادعى أنه كان يلتقي في الليل بإيجيريا Egeria الحورية المقدسة ، وإنه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التي هي أحب الطقوس إلى السماء ، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة (٢٢) .

ولما أفلح توما في توحيد دين قبائل رومة المختلفة ، وإزالة ما بينها من فروق في العبادات ، قوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً (٢٣) ، ويقول شيشرون إن نوما ، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحرب والقتال إلى شئون الدين ، نشر لواء السلام بين شعبه مدى أربعين عاماً (٢٤) .

وأعاد خليفته تلس هستليوس Tullus Hostilius إلى الرومان حياتهم العادية التي ألفوها من قبل « ولما رأى أن قوى الدولة آخذة في الانحلال لطول عهداها بالخمول أخذ يتطلع إلى حجة يتنوع بها لإيقاد نار الحرب (٢٥) » ، واختار عدواً له مدينة ألبا لئجا التي كانت هي أصل مدينة رومة ومنشأها ، فغزاها ودمرها عن آخرها . ولما نكث ملك ألبا بوعدده أن يحالفه أمر به تلس فشد إلى عربتين سارتا في اتجاهين متضادين فزق جسمه إرباً (٢٦) ، ولم ير خليفته أنكس مارتوس Ancus Martius بأساً في اتباع هذه الفلسفة العسكرية ، فقد كان أنكس يعلم كما يقول ديوكاسيوس : Dio Cassius

أنه لا يكفي من يمشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ؛ بل إنه كلما اشتدت رغبة الإنسان في هذا السلم اشتد تعرضه للأذى . وكان يرى أن الرغبة في الهدوء لا تحمي الإنسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحرب ، وكذلك كان يعتقد أن الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذين يسمرون في حماسهم لهذا البعد (٢٧) .

الفصل الخامس

سيطرة التسكانيين

وتروى الأقاليم بعدئذ أن دمراتس Demaratus ، وهو تاجر ثرى نقي من كورنث ، جاء ليعيش فى تاركويناي حوالى عام ٦٦٥ ق.م ، وتزوج بامرأة تسكانية (٢٨) ثم هاجر ابنه لوسليوس تاركوينيوس Lucius Tarquinius إلى رومة وارتفعت مكانته فيها ، ولما مات أنكس اغتصب العرش أو رفعه عليه حلف من الأسر التسكانية فى المدينة ، والاحتمال الثانى أرجح مع الأول . فيقول ليفى Livy إنه أول ملك سعى إلى التاج وأتى خطبة يطلب فيها معونة السوق أى المواطنين الذين لا يستطيعون أن يثبتوا انتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة ؛ وزاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus ، كما زاد نفوذ التسكانيين فى شئون رومة السياسية والهندسية والدينية والفنية ؛ وحارب تاركون السهنيين وانتصر عليهم ، وأخضع لاتيوم Latium كلها لسلطانه ، ويقال إنه استخدم موارد رومة ليجمل بها تاركويناي وغيرها من المدن الإتروية ، ولكنه جاء أيضاً بالفنانين التسكانيين واليونان إلى عاصمة ملكه وزينها بالهياكل الفخمة (*) ويلوح أنه كان يمثل سلطان الأعمال التجارية والمالية المتزايد على سلطان الأشراف ملاك الأراضي الزراعية .

وحكم تاركون الأول ثمانية وثلاثين عاماً ثم قتله الأشراف غيلة لأنهم أرادوه

(*) ولعله أيضاً أنشأ فيها الجارى لتنظيفها ، وهمزو إليه المؤرخون الرومان إنشاء الكلوكا مكسيما Cloaca Maxima أو البالومة الكبرى ، ولكن بعض العلماء يقولون هذا للفصل إلى القرن لثانى قبل الميلاد (٤٠) .

أن يحدوا من سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين ، ولكن تناكوليل Tanquil أرملة تاركون تولت الأمر بنفسها ، واستطاعت أن ترفع ابنها سرفيوس تليوس Servius Tallius على العرش . ويقول شيشرون إن سرفيوس هذا هو أول ملك روماني استطاع « أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب » (٤١) أى أن تختاره الأسر الكبيرة . وحكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً ، وأنشأ حول رومة خندقةً وسوراً ليحميها من الغارات ، ولكن كبار الملاك لم يرضوا عن حكمه ودبروا المؤامرات لخلعه ، فقابل هذا بأن تحالف مع الأثرياء من العامة (Plebs) وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقوى بذلك مركزه ، فبدأ بإحصاء السكان والأملاك ، وقسم الأهلين طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القديمة محتفظة بكيانها ، ولكنه رفع تجاهها طبقة من الإكزيتي equites ومعناها الفرسان — أى الرجال الذين كان في مقدور كل منهم أنه يعدله جواداً وسلاحاً ينخرط بهما في سلك فرقة الفرسان في الجيش (*). وتبين من الإحصاء أن هناك ٨٠,٠٠٠ شخص يستطيعون حمل السلاح . وإذا قدرنا أن أسرة كل جندي من هؤلاء الجنود تتألف منه ومن زوجه وولد واحد ، وأن لكل أسرة من أربع أسر عيلاً رقيقاً ، فإننا لا نكون مخطئين إذا قدرنا سكان رومة والبلاد المحيطة بها الخاضعة لسلطانها حوالي عام ٥٦٠ ق.م بنحو ٢٦٠,٠٠٠ نسمة . وقسم سرفيوس هؤلاء السكان إلى خمس وثلاثين قبيلة جديدة ، ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلوات القرابة ، وفعل بذلك ما فعله كليستينيز Cleisthenes في أتيكا Attica بعد جيل من الوقت . فأضعف ما كان للأشراف — أى الطبقة التي كانت تضع نفسها بفضل مولدها فوق سائر الطبقات — من تماسك سياسي وقوة انتخابية . ولما قام تاركون آخره

(*) وهذا اللفظ بمعناه القديم ذو صلة بكلمة Knight (فارس) الإنجليزية ، ولكن مرهان ما فقد لفظ equites معناها الأول . وأصبح معناه الطبقة الوسطى العليا أو طبقة رجال الأعمال .

هو حفيد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus واتهم سرفيوس Servius بأنه يحكم حكماً غير شرعي ، استفتى سرفيوس . الشعب فنال « ثقته الاجتماعية » كما يقول ليفي Livy (٤٢) ، غير أن تاركوين لم تقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على اغتيال سرفيوس ، ونادى بنفسه ملكاً على رومة (*).

وأصبحت الملكية في عهد تاركوينيوس سوبربس Tarquinius Superbus « المتكبر » مطلقة السلطان ، كما أصبح للسكانين النفوذ الأعلى في البلاد ، ولكن الأشراف كانوا من قبل يرون أن الملك Rex إن هو إلا السلطة التي بكل إليها مجلس الشيوخ Senate تنفيذ أحكامه ، وأنه الكاهن الأكبر للدين القومي ، ولذلك لم يستطيعوا أن يصبروا طويلاً على سلطانه غير المحدود . ومن أجل هذا قتلوا تاركوينيوس برسكس ولم يحاولوا الدفاع عن سرفيوس . ولكن هذا الملك الجديد كان شراً من الملك الأول ، فقد أحاط نفسه بحرس خاص وحقر الأحرار بأن فرض عليهم السخرة شهوراً طويلاً ، وأمر بصلب المواطنين في السوق العامة ، وقتل عدداً كبيراً من زعماء الطبقات العليا في البلاد ، وحكم حكماً وحشياً ساخراً أغضب جميع أصحاب الرأي فيها (**)(٤٤) . وظن هذا الملك أن النصر في ميدان القتال يكسبه حب الشعب ورضاه ، فهاجم الروتليين Rutili والفلشيين Volscians . وبينما كان هو مع الجيش في الميدان اجتمع مجلس الشيوخ وأعلن خلعهم (٥٠٨ ق.م) ، وكان ذلك انقلاباً خطيراً في تاريخ رومة .

(٥) قل أن يوجد من العلماء من يميل إلى الأخذ بأقوال إلتوريس Eltor Pais المسرفة في التشكك ، والتي تأتي تصديق كل ما يروى من تاريخ رومة قبل عام ٤٤٣ ق . م لأنه حسب زعم هذا المؤرخ مجرد أساطير . وهو يعتقد أن تاركوين الأول والثاني علمان حل شخص واحد لم يوجد قط (٤٣) . ويرى بعضهم أن الرواية المأثورة عن تاريخ رومة بعد رمبولوس يمكن قبولها مع تعديل في بعض أجزائها ، وأن قبوله هذا « يفسر الظاهرة » تفسيراً خيراً مما يفسره أي افتراض آخر .

(٥٥) أكبر الظن أن ما يروى عن تاريخ آل تاركوين قد سرته الدعارة التस्कانية ودعاري الأرسقراطية الرومانية . ذلك أن معظم تاريخ رومة الأول قد كتبه رجال يمثلون طبقة الأشراف أو يعجبون بهذه الطبقة ، كما كان كتاب تاريخ الأباطرة فيما بعد من أشعاع مجلس الشيوخ أمثال تاسيتس Tacitus .

الفصل السادس

مولد الجمهورية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدبياً ، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام . انظر مثلاً إلى ما يقوله ليفي وهو أن سكستس تاركوين **Sextus Tarquin** ابن الملك كان في معسكر أبيه في إحدى الليالي يناقش لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس **Lucius Tarquiniu Collatinus** أحد أقربائه في فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض ليه . كلاتنس أن ينطلقا على ظهري جواديهما إلى رومة ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما في أواخر الليل . فوجدنا زوجة سكتنس في وليمة مع بعض صاحباتها ، أما لكريشيا **Lucretia** زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها . وتناقت نفس سكتنس ليحرب وفاء لكريشيا ويستمتع بجمها ، فما كان منه إلا أن عاد في السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته . وأرسلت لكريشيا تستدعي أباهما وزوجها ، وأخبرتتهما بما حدث لها ، ثم انتحرت بطعنة خنجر . وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس چونيوس بروتس **Lucius Junius Brutus** أحد أصدقاء كلاتنس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من رومة . وكان هو نفسه ابن أخي الملك ، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه ، وتظاهر هو بالحنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه ، ولذلك سمى بروتس **Brutus** أي الأبله . فلما وقعت هذه الحادثة ركب مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من رومة . وكان الملك في أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة . وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى

قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده . وفر تاركوين إلى بلاد إتروريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه (١٥)(*) .

ودعيت في رومة وقتئذ جمعية من أهلها الجنود فاخترت بدل الملك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين (***) متعادلين في السلطان ، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له ، يحكمان مدة عام واحد . وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختر بدله پيليوس فاليريوس Publius Valirius الذي لقب فيما بعد پيليكولا Publicola - أي « صديق الشعب » - ، لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية في دستور رومة وهي : أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام ؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية . وفاليريوس هو الذي سن السنة التي كانت تختم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام في وقت السلم من حق الشعب وحده .

وأهم نتائج هذه الثورة اثنتان : أولاها أنها حررت رومة من سلطان التسكانيين ، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر . أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه ، فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضي التي وهبها لهم سرفيوس

(*) يرى معظم العلماء من أيام نيهبر Niebuhr أن قصة لكريشيا من خلق الخيال وشيكسير . ولسنا نعرف ما في هذه القصة من حقيقة وما فيها من خيال الشعراء . ويرى البعض أن بروتس نفسه شخصية خرافية ، ولكن أكبر الظن أن الذين يقولون بهذا يرفون في تشككهم .

(**) أو قائدين يلقب كل منهما بريطور Praetor - كما تقول رواية أخرى .

ونخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذى كان لهم فى عهد الملكية (٤٧). وقال الظافرون إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية ، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء .

وكان لإخراج آل تاركوين من رومة ، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ تذكيراً بزوال زعامة التسكانيين من وسط إيطاليا . ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين ، استجاب لدعوته لارس پورسنا Lars Porsena ، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فجمع جيشاً كبيراً من مدن إتروريا المتحدة وزحف به على رومة . ودبرت فى رومة نفسها وفى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرشها . وقبض على المتآمرين ، وكان من بينهم ابنا بروتس ، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ، إذ شهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأسهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة — أو لعل هذه قصة تروى وليست حقيقة واقعة . ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم پورسنا ، وقد خلد هوراشيس كككيز Horatius Cocles اسمه فى الأغاني اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر (*). ولكن رومة استسلمت لپورسنا (٤٨). على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالمجد . ونزلت عن بعض أملاكها إلى قبلى veii والمدن اللاتينية التى كان ملوك رومة قد انتهبواها (٤٩). وأظهر پورسنا للمدينة المغلوبة بعض الحماقة إذ لم يطلب إعادة تاركوين إلى عرشها . وكان الأشراف فى إتروريا قد طردوا منها أيضاً الملوك وظلت رومة بعد هذه الاضطرابات ضعيفة

(*) انظر قصيدة لورد مكولى فى مجموعة قصائده المسماة *Lays of Ancieur Rome*

(المترجم)

مدى جيل من الزمان ، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقياً دائماً الأثر .
وقضت هذه الثورة على قوة التيسكانيين ، ولكن آثار النفوذ التيسكاني
ودلائله ظلت باقية في الحضارة الرومانية إلى آخر أيامها . ولعل أقل هذا
النفوذ أثراً هو ما كان في اللغة اللاتينية ؛ بيد أن الأرقام الرومانية هي في
أغلب الظن أرقام تيسكانية^(٥٠) ، ولعل لفظ رومة نفسه مشتق من اللفظ
التيسكاني رومون **Rumon** ومعناه نهر^(٥١) . وكان الرومان يعتقدون أنهم
أخذوا عن إتروريا الاحتفالات التي كانت تقام عند عودة قائد روماني
منتصر ، والأثواب الموشاة بإطار أرجواني ، والمقعد العاجي (الشبيه بمقاعد
العربات) الذي يجلس عليه الحكام ، والعصى والفؤوس التي كان يحملها
أمام كل قنصل اثنا عشر ضابطاً ، والتي كان يرمز بها إلى حقه في ضرب
الناس وقتلهم^(٥٢) . وكانت عملة رومة تزدان بمقدم سفينة قبل أن يكون
لرومة سفن ب زمن طويل - وكانت هذه الصورة ترسم على العملة التيسكانية
رمزاً لنشاطها التجاري وسسلطانها البحري . وكان من عادة الأشراف
الرومان من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد أن يرسلوا أبناءهم إلى المدن
التيسكانية ليتلقوا فيها التعليم العالي ، وكان من بين ما يتلقونه فيها من
العلوم الهندسية والمساحة والفنون المعمارية^(٥٥) . وكانت الملابس الرومانية مأخوذة
عن الملابس التيسكانية أو لعل هذه وتلك مأخوذتان عن أصل واحد .

وجاء الممثلون الأولون إلى رومة كما جاء إليها اسمهم **historiones**
من إتروريا . وإذا جاز لنا أن نصدق ليقي فإن تاركوينيوس برسكس هو

(*) وقد وجدت في أحد القبور التيسكانية في فتيولونيا **Vetulonia** بلطة من حديد
ذات رأسين ، ويد محاطة بثمانية قضبان حديدية^(٥٣) . وكانت البلطة ذات الرأسين تتخذ رمزاً
للسلطان من عهد لا يقل في القدم عن عهد الحضارة المينوية في كريت . وكان الرومان يطلقون
على البلطات والقضبان المحيطة بها اسم الحزم - (الفاشات) . أما عدد الضباط الاثني عشر
الذين يحملون هذه البلطة والذين يسمون بالرومانية لكتورين **Lictors** (من **Ligare** وسماتها
بربط) فيرجع إلى الاثني عشر مدينة التي كانت يضمها الاتحاد التيسكاني ، وكانت كل واحدة
منها ترسل ضابطاً يصحب الرئيس لهذا الاتحاد^(٥٤) .

الذى بنى أول ساحة كبرى *Circus Maximus* ، واستورد خيول السباق والمصارعين للألعاب الرومانية من *إتورريا* والتسكانيون هم الذين أدخلوا في رومة المصارعات الوحشية ، ولكنهم هم الذين وضعوا النساء فيها في منزلة لم تكن لهن في بلاد اليونان . وقد شاد المهندسون التسكانيون أسوار رومة ومصاريف الفضلات من بيوتها ، وهم الذين استحوطت على أيديهم من مناقع وخمة إلى حاضرة محمية متمدنة . وأخذت رومة عن *إتورريا* معظم مراسمها الدينية ، كما أخذت عنها عادات زجر الطير والعرافة والإنباء بالغيب : ولقد ظلت وظيفة المتنبئ بالغيب جزءاً مقررأ في كل جيش روماني إلى أيام الإمبراطور *Julian* (أى إلى عام ٣٦٣ ب . م) وكان الاعتقاد السائد أن *رميولوس Romulus* قد خطط حدود رومة حسب المراسم والطقوس التسكانية . وعن *إتورريا* أخذ الرومان حفلات عرسهم وما فيها من رموز إلى عادة الأسر القديمة وحفلات جنازتهم كما أخذوا عنها موسيقاهم وآلات طربهم (٥٦) . وكان معظم فناني رومة من التسكانيين ، كما كان الشارع الروماني الذى يعمل فيه الفنانون يسمى *Vicus Tuscus* (البيوت التسكانية) ، ولعل الفنانيين أنفسهم قد تسربوا إلى رومة عن طريق *لايوم* من *إغريق* كـ *كامبانيا Campania* . وكان فن النحت في رومة متأثراً أعمق الأثر بأقنعة الموتى التى كانت تغطى بها صور الأسر — وهى عادة أخذت من *إتورريا* .

وزين المثالون التسكانيون هياكل رومة وقصورها بالتماثيل البرنزية وبالصور المجسمة على الآجر والحفورة فيه . وخلف مهندسو البناء التسكانيون في رومة « طرازاً تسكانياً » لا يزال حتى اليوم باقياً في كنيسة القديس بطرس . ولعل ملوك رومة التسكانيين هم الذين شادوا فيها أولى العمارات الكبيرة وجولوها من طائفة من الأكواخ الطينية أو العشش الخشبية إلى مدينة مشيدة من الخشب والآجر والحجارة . ولم تشهد رومة مثل ما شهدته من المباني في عهد التسكانيين إلا في عهد قيصر .

ولكن ينبغي لنا ألا نغفل في هذا الوصف ، فهما يبلغ ما أخذته رومة
عن جيرانها من الكثرة فقد ظلت في جميع مظاهر الحياة الأساسية محتفظة
بطابعها الخاص ، فليس في التاريخ التسكاني ما يوحي بمميزات الخلق الروماني ،
وهي التأديب الذاتي وما فيه من جد ، ووقار ، والقسوة ، والجرأة ،
والوطنية ، والإخلاص ، والصفتان الأخيرتان هما اللتان استطاع بهما
الرومان على طول الزمن أن يفتحوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأن
يحكموها فيما بعد ، فلما تحورت رومة من سيطرة التسكانيين انفسح
المجال أمامها لتمثيل تلك المسرحية الفذة مسرحية عظمة الوثنية ثم اضمحلها
في العالم القديم .

الكتاب الأول

الجمهورية

٥٠٨ - ٣٠ ق. م

جدول تاريخي

ق . م

- ٨١٣ - تأسيس قرطاجنة .
- ٥٥٨ وما بعدها - قرطاجنة تستولى على غرب صقلية وسردينيا وقورسقة الخ .
- ٥٠٩ - تأسيس الجمهورية الرومانية .
- ٥٠٨ - حروبها مع التيسكانيين ؛ هوراشيس ككلايز .
- ٥٠٠ - هانو يرتاد ساحل إفريقيا الغربية .
- ٤٩٤ - انشقاق العامة الأول ، إنشاء منصب التربيون (*) .
- ٤٩٢ - كوريولانس .
- ٤٨٥ - الحكم على اسبوريوس كاسيوس .
- ٤٥٨ - ٤٣٩ - سنتاتس يمين دكتاتوراً (حاكماً بأمره) .
- ٤٥١ - لجنة العشرة الأولى .
- ٤٥٠ - الجداول الاثني عشر .
- ٤٤٩ - الانشقاق الثاني للعامة .
- ٤٤٥ - شريعة كانبوليا في الزواج .
- ٤٤٣ - إنشاء نظام الرقابة .
- ٤٣٢ - القانون الأول لمنع تزيف الانتخابات .
- ٣٩٦ - الرومان يستولون على فياي .
- ٣٩٠ - الغالة ينهبون رومة .
- ٣٦٧ - قانون ليكينييا يخلف قانون الدين .
- ٣٤٣ - ٣٤١ - الحرب السمنية الأولى .
- ٣٤٠ - ٣٣٨ - حرب اللاتين ؛ وانحلال الحلف اللاتيني .
- ٣٣٩ - قانون بيليا يقضى على حق مجلس الشيوخ في الرفض .
- ٣٢٧ - ٣٠٤ - الحرب الحمنية الثانية .
- ٣٢٦ - قانون پايتليا يخفف قانون الدين .
- ٣٢١ - هزيمة الرومان في مشاهب كودين .

(٥) آثرنا إبقاء الأسماء الرومانية لهذه المناصب كما هي ، لأن كل ترجمة لها لا تدل على حقيقةها ، ولعل لفظ أطربيون الذي جاء في بعض أشعار العرب هو تعريب للفظ تربيون .
(المترجم)

	ق . م
قانون فاليريا وحق استئناف الأحكام ؛ قانون أوجليا وحق الانتخاب لوظائف الكهنة .	٣٠٥ -
الحرب السمنية الثالثة .	٢٩٨ - ٢٩٠
انشقاق العامة الأخيرة ؛ قانون هورتنسيا وسلطان الجمعية .	٢٨٧ -
روما تحتل معظم أجزاء إيطاليا اليونانية .	٢٨٣ -
بيروس في إيطاليا وصقلية .	٢٨٤ - ٢٧٥
انتصارات بيروس في هرقليا وأسكيولم .	٢٨٥ - ٢٧٩
رومة تستولى على تارتوم .	٢٧٣ -
الحرب البونوية الأولى .	٢٦٤ - ٢٤١
هملكار بركة يفتزو صقلية .	٢٤٨ -
هزيمة الأسطول القرطاجي قرب جزائر إيجاديا ، صقلية ولاية رومانية .	٢٤٦ -
حرب الجنود المرتزقة على قرطاجنة .	٢٤٦ - ٢٣٦
ممرحية ليهيوس أندرونكس Levius Andronicus الأول .	٢٣٦ -
قرطاجنة تسلم مردانية وقورسقة إلى رومة .	٢٣٩ -
هملكار في أسبانيا .	٢٣٧ -
ممرحية نيمبوش Naevius الأولى .	٢٣٥ -
مخاربة قرصان إلبيريا Illyris .	٢٣٠ -
رومة تستولى على غالة الجنوبية .	٢٢٢ -
هانيبال يتولى القيادة في أسبانيا .	٢٢١ -
الحرب البونوية الثانية .	٢١٩ - ٢٠١
هانيبال يعبر جبال الألب ويهزم الرومان في واقعى تيسينس Ticeinus وتريبيا Trebia .	٢١٨ -
هانيبال يهزم الرومان عند بحيرة تيزميني Trsimene ؛ فاييوس مكسيمس Fabius Maximus يصبح دكتاتورا .	٢١٧ -
انتصارات هانيبال عند كانى Canas .	٢١٦ -
معاهدة هانيبال وفليب الخامس .	٢١٥ -
فلوتس Plautus .	٢١٤ -
الحرب المقدونية الأولى .	٢١٤ - ٢٠٥
الرومان يستولون على مرقوسة .	٢١٣ -
سهيوس أفريكانس الأكبر في أسبانيا .	٢١٠ - ٢٠٩

ق . م	
هزيمة هزدروبال في موقعة متورس .	- ٢٠٧
استيلاء هانيبال إلى إفريقية .	- ٢٠٣
سهيو يهزم هانيبال في اقامة زاما Zama ؛ كوثن فابيوس بكتور يلمس تاريخ رومة الأول .	- ٢٠٣
أسبانيا وولاية رومانية .	- ٢٠١
الحرب المقدونية الثانية .	١٩٧-٢٠٠
لينيوس Innius .	- ١٩٩
واقعة مجنيزيا Magnesia .	- ١٨٩
تحريم عبادة باكس Bachus	- ١٨٦
كانو الأكبر يتولى الرقابة .	- ١٨٤
الحرب المقدونية الثالثة .	١٧١-١٦٨
واقعة پدنا Pydna .	- ١٦٨
پوليبيوس في رومة .	- ١٦٧
الأدلى الترنس Teh Adelphi of Terance .	- ١٦٠
كريندس يحاضر في رومة .	- ١٥٥
الحرب على اللوزيتانين .	١٣٨-١٥٥
الحرب البونوية الثالثة .	١٤٦-١٥
انتصارات ثريانس على الرومان في أسبانيا .	١٤١-١٤٠
سپيو أفريكانس الأصغر يدمر قرطاجنة ؛ موميوس Mummius	- ١٤٦
كورنثة Corinth ؛ امتداد الحكم الروماني إلى شمال إفريقية بلاد اليونان .	

الباب الثاني

الكفاح في سبيل الديمقراطية

٥٠٨ - ٢٦٤ ق . م

الفصل الأول

الأشراف والعامّة

ترى أى الرومان كانوا هم الأشراف *Patricians* ؟ يرى ليني^(١) أن رمبولوس اختار مائة من رؤساء العشائر في قبيلته ليعينه على تشييد رومة وليكون منهم مجلس شيوخه . وقد سمي كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد *پاتر* أى « الأب » وسمى أبناءهم وأحفادهم *پاتريشى* - أى « المنحدرين من الآباء » . أما النظرية الحديثة التي تستمد حياتها من تجريح التقاليد الماثورة ، فيحلوها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لهم سينيون *Sabines* غزوا لاتيوم *Latium* وحكموا العامّة (*Plebs*) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعهم في منزلة دون منزلتهم هم ، ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضي بفضل تفوقهم الاقتصادي أو الحربى ، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة - المنلى *Manlii* ، والفابري *Valerii* ، والإميلي *Aemilii* ، والكرنيلي *Dornelii* ، والفابى *Fabii* ، والموراشى *Horatii* والكلودى *Claudii* والليولى *Lullii* الخ - خمسة قرون كاملة تمد رومة بالقواد العسكريين والقناصل ، والقوانين . ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى

بعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثمانئة من الأعضاء . ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد ، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث ، ويمشون على أبسط الطعام ، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم ، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم . ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه « من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classicus » (٢) .

وكان يدانهم في الثراء ، وينقص عنهم نقصاً كثيراً في السلطة السياسية رجال الأعمال equites ، ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء رتبة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ ، ويكولوا فيه القسم الثاني من الرجال « الأشراف والمسجلين معهم » . وكان يطلق على هاتين الطبقتين اسم « الرتبتين » ويلقبون « بالصالحين Boni » ، وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تفرق الفضيحة بالمرتبة والكفاية والسلطان ، وكان معنى الفضيحة Virtus عند الرومان هو الرجولة أى الصفات التى يتكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus « الناس » تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين ، وكان هذا هو المعنى الذى يفهم فى بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) اتى كانت تنقش فى زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار (٣) لما شقت الديمقراطية طريقها فى رومة تغير معنى كلمة Populus تدريجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً .

وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة ، وكان منها الصناع والتجار ، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون ، ولعلمهم كانوا فى بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم ، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clientes أو تابعاً بشريف Patronus

من طبقات عليا ، وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف في وقت السلم ويعملون تحت إمرته في وقت الحرب ، ويقترعون في الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك في نظير حمايته لإياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية .

وكان من الأرقاء أدنى الطبقات ، وكانوا في عهد الملوك قليلى العدد كثيرى الأكلاف ، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملتهم ويعدونهم أعضاء قوى نفع كبير في أسرهم . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد ، وبدأت رومة حياة الغزو والفتح ، بيع عدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم ، وانحطت منزلة لرفيقتى . وكانت القوانين تبيع معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه ، ذلك أنه من الوجهة النظرية ، وطبقاً لعادات للقدماء ، قد فقد حقه في الحياة حين وقع في الأسر ، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذى استحقه بهزيمته . وكان يعهد إليه في بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله ، وكثيراً ما كان يصبح معالماً أو كاتباً أو ممثلاً أو صانعاً أو عاملاً أو تاجراً أو فناناً ، ويؤدى إلى سيده بعض ما يحصل عليه من أجر عمله ، وكان في وسعه بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق أن يحصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته ، ومن ثم يصبح عضواً في جماعة العامة .

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بمحظها ، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بنى الإنسان بقدر ما هى طبيعية بين الحيوان ، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضى جميع رعاياها . وفي رومة كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال ، والفقراء يألمون لفقدهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون . وكانت قوانين الجمهورية في عهدها الأول تبيح للدائن أن

يسجن المدين الذي يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه في سجن انفرادى ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله . وقد جاء في القانون أن في وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم - وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط (٤) . وطلب العامة أن تلتقى هذه القوانين ، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون ، وأن توزع الأرض التي تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة ، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم ممثل من طبقتهم في أعلى الوظائف الحكومية . وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية ، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد . وفي عام ٤٩٤ ق . م « انشق » عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الحبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة ، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل رومة حتى تجاب مطالبهم . ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى رومة ، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم ؛ فلما خشى أن تقع البلاد في القريب بن نارى الغزو الخارجى والشقاق الداخلى وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها ، وعلى تعيين تربيونين (*) وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم . ورجع العامة إلى رومة ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأحرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدى على مثلهم في الحكومة (٥) .

وكانت هذه هى المعركة الأولى في حرب الطبقات التي لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها . وحدث في عام ٤٨٦ أن اقترح القنصل

(*) التربيون حمام عن العامة يختار من بينهم والإيديل موظف يشرف على الميافى العامة والألعاب والأسواق والشرطة .

أسيديوريوس كاسيوس *Spurius Cassius* أن توزع على الفقراء الأراضى التى استولت عليها رومة فى الحرب ، فاتهمه الأشراف بأنه يتحجب إلى الشعب ليكون ملكا على البلاد ، وقتلوه . والراجح أن هذا الاقتراح لم يكن أول الاقتراحات الزراعية الكثيرة التى لاقى أصحابها حتفهم على يد أعضاء مجلس الشيوخ ، والتى انتهت بمأساة ابنى جراكس *Gracchi* وقيصرون . وفى عام ٤٣٩ وزع أسيديوريوس ميلبوس *Spurius Maelius* قمحاً على الفقراء بأثمان منخفضة أو بغير ثمن فى أثناء قحط أصاب رومة ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن بعث برسول اغتاله فى منزله بتهمة أنه يعمل لينصب نفسه ملكاً^(٦) . وفى عام ٣٨٤ قتل ماركس مانليوس *Marcus Manlius* ، وكان قد صد الغزاة اليونان عن رومة ودافع عنها دفاع الأبطال ، بهذه الحججة نفسها ، وذلك بعد أن أنفق ماله فى أداء ديون المدينة العاجزين عن الوفاء .

وكانت الخطوة التالية التى خطاها العامة فى سبيل نيل حذوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة . ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها ، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين ، ويتخذون من هذا الاحتكار ، وبما تتطلبه القوانين من مراسم ، أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى . وعارض مجلس الشيوخ فى هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ، ولكنه وافق فى آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع صولون *Solon* وغيره من المشترعين . وكتابة تقرير عنها . فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية (فى عام ٤٥١) عشرة رجال - *Decemviri* - لوضع قانون جديد ، وحوّلهم أعلى سلطة حكومية فى رومة مدى سنتين . وكان رئيس هذه اللجنة رجلاً رجعيّاً قوى الشكيمة يدعى أبوس كلوديوس *Appius Claudius* ، وكانت نتيجة أعمالها

أن حوالت قوانين رومة القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنتى عشرة لوحة النائعة الصيت ، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل ، وعرضتها في السوق العامة لمن يريد أن يقرأها - وكان قادراً على قراءتها . وكانت هذه الحادثة التي تبدو في ظاهر أمرها تافهة غير جدية بالعباية من الحوادث الهامة البالغة الأثر في تاريخ رومة بوجه خاص وفي تاريخ للعالم كله بوجه عام ؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانونى العظيم الذى كان أهم ما قامت به رومة من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات .

ولما انتهى العام الثانى من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة للعباية أبت أن تعيد الحكم إلى قنصل الأشراف وترييونى العامة ، وظلت تمارس السلطة العليا - وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والترييون وأكثر منها تحراً من التبعات . وتروى قصة أخرى نرتاب في صحتها - ارتيابنا في قصة لكريشيا - إن أبيوس كلوديوس شغف حباً بفرجينيا الحسناء إحدى بنات العامة ، وعمل على أن تعد من الجوارى الرقيقات ليتمكن بذلك من الاستيلاء عليها لنفسه ، وغضب لذلك أبوها لوسيوس فرجينوس Lucius Virginius واحتج على هذا العمل ، ولما أبى كلوديوس أن يصغى إلى احتجاجه قتل الرجل ابنته ، وهول إلى فرقته واستعانها على خلع الطاغية الحديد . « وانسحب » العامة الغاضبون مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ونهجوا كما يقول ليفى « نهج آبائهم وحذوا حذوهم في اعتدالهم ، فامتنعوا عن كل عنف (٧) » . وعلم الأشراف أن الجيش يناصر العامة ، فاجتمعوا في دار مجلس الشيوخ ، وخلعوا العشرة الحكام ، ونفوا كلوديوس ، وأعادوا نظام القنصلين وزادوا سلطان الترييونين ، واعترفوا بتحريم الاعتداء عليهما ، وأيدوا حق العامة في الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما يصدره كبار الموظفين أيا كانت منزلتهم من أحكام (٨) . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت (٤٤٥) عرض المحامى كىوس كنيوليوس Caius Canuleius اقتراحاً يطلب فيه

أن يكون للعامه حق الزواج من الأشراف ، وأن يختار منهم قناصل . ورأى مجلس الشيوخ أن البلاد مهددة مرة أخرى بأن يغزوها جيرانها ليثأروا لأنفسهم منها ، فأجابوا أول المطلبين وتخلصوا من المطلب الثاني بأن رضوا أن يكون ستة من التريبونين الذين تختارهم جمعية المئة سلطة القناصل . ورد العامة على هذا الجميل مثله فاختروا الستة *tribuni militum consulari Potestate* من بين طبقة الأشراف .

وضمنت الحرب الطويلة التي قامت بين رومة وقياي (٤٠٥ - ٣٩٦) ، وهجمات الغالين عليها ، صفوف الأمة إلى حين ، فهدأت نائرة النزاع الداخلي ، ولكن النصر والهزيمة على السواء تركا العامة فقراء معدمين ، فقد أهملت أراضيهم أو انتزعت منهم وهم يدافعون عن بلادهم ، وتراكت عليهم فوائد الديون حتى لم يعد في وسعهم أن يوفوا بها . ولم يرجعهم الدائتون أو يصنعوا لشكاياتهم ، بل أصروا على طلب حقهم من رؤوس أموال وأرباح ، وإلا كان الإسترقاق والسجن جزاء المدينين . وفي عام ٣٧٦ اقترح التريبونان ليسنيوس Licinius وسكستوس Sextius أن تخفف أصول الديون بقدر ما وفي به من فوائدها ، وأن يؤدي الباقي بعدئذ في خلال ثلاث سنين ، وألا يحق لإنسان فيما بعد أن يمتلك أكثر من خمسمائة يجيرا *iugera* (نحو ثلثمائة فدان) من الأرض ، وألا يتجاوز العبيد الذين يعملون فيها نسبة معينة من العمال الأحرار ، وأن يختار أحد القنصلين من العامة على الدوام ؛ وظل الأشراف يعارضون في هذه المطالب عشرين سنين ؛ وكانوا في أثناء ذلك على حد قول ديوكاسيوس *Dio Cassius* « يشيرون حرباً في إثر حرب حتى يشغلوا بذلك الشعب فلا يثير مطالبه الخاصة بامتلاك الأرض^(٩) » . ولما تهددهم العامة آخر الأمر بانسحاب^(٥) جديد قبل

(٥) كان عمل الرقيب في رومة هو حفظ السجلات المكتوبة على أملاك المواطنين وفرض الضرائب عليهم ومراقبة أخلاقهم . وكان منصب البريتور يلى منصب القنصل في المرتبة .

مجلس الشيوخ « قوانين ليسنيوس » وخذ كميوس Camillus زعيم المحافظين هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم في السوق العامة . وكانت هذه الخطوة من أكبر الخطى في نماء الديمقراطية الرومانية المقيدة ، وأخذ العامة من ذلك الوقت يتقدمون تقدماً سريعاً في سبيل المساواة بالطبقتين الممتازين - طبقتي الأشراف ورجال الأعمال - في الشؤون السياسية والقانونية . ففي عام ٣٥٦ عين أحد العامة دكتاتوراً مدة عام ، وفي عام ٣٥١ كان منهم رقباء Censors ، وفي عام ٣٣٧ كان منهم البريتور Praetor ، وفي عام ٣٠٠ كان منهم كهنة . وكانت آخر هذه الخطوات أن وافق مجلس الشيوخ في عام ٢٨٧ على أن تكون لأحكام الجمعية القبلية The Tribal Assembly أيضاً قوة القانون ، وإن تعارضت هذه الأحكام مع قرارات مجلس الشيوخ وإذا كان من السهل على العامة في هذه الجمعية أن يتفوقوا على الأشراف عند الاقتراع فإن هذا القانون المعروف بقانون هورتنسيا Lex Hortensia كان خاتمة انتصار الديمقراطية الرومانية .

لكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن استعاد سلطانه بعد هذه الهزائم فأسكت المطالبون بتوزيع الأراضي بإرسال الرومان لاستعمار البلاد المفتوحة . وكان ما يلزم من المال للحصول على المناصب الحكومية والبقاء فيها - وكانت هذه المناصب لا يؤجر عليها أصحابها - في حد ذاته حائلاً بين الفقراء وبين توليها . يضاف إلى هذا أن الأثرياء من العامة ، بعد أن أصبح لهم ما للأشراف من سلطان سياسي وفرص متكافئة ، لم يلبثوا أن انضموا إلى الأشراف في معارضة التشريعات المتطرفة ، واستكان الفقراء من العامة الذين أصبحوا لا موارد لهم فظاؤوا قرنين كاملين وليس لهم حظ كبير في تصريف شؤون رومة . ووافق رجال الأعمال على سياسة الأشراف لأن اتفاقهم معهم يتيح لهم فرص التعاقد على القيام بالمشآت العامة ، ويفتح لهم أبواب استغلال الولايات ، والمستعمرات الرومانية ، وتكليفهم بحماية الضرائب للدولة . وظلت جمعية المثات ، التي كانت طريقة الاقتراع

فيها تمكن الأشراف من أن يكون لهم فيها السلطان الأكبر ، هي التي تختار الحكام وكبار الموظفين ، وتختار تبعاً لذلك أعضاء مجلس الشيوخ . واتخذ التريبونون ، الذين كانوا يعتمدون على الأثرياء من العامة ، سلطان وظيفتهم للحد من التطرف ، وأصبح كل قنصل ، ولو كان ممن يختارهم العامة ، من أشد الناس محافظة على القديم ، حين يصير عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهي سنة توليه منصبه . وصار مجلس الشيوخ هو الذي يبدأ باقتراح القوانين ، وقوى العرف والعادات المأثورة من سلطانه فجعله فوق منطوق القانون . ولما ازدادت أهمية شئون الدولة الخارجية ، وكان مجلس الشيوخ هو الذي يتولى تصريفها ، كان حزمه مما زاد في مكانته وسلطته . ولما أن اشتبكت رومة في عام ٢٦٤ في حرب مع قرطاجنة دامت مائة عام للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط ، كان مجلس الشيوخ هو الذي تولى قيادة الأمة إلى النصر في كل مأزق من المآزق ، ولذلك خضع الشعب البائس المعرض للأخطار لسلطان هذا المجلس وزعامته دون احتجاج أو اعتراض .

الفصل الثاني

دستور الجمهورية

١ - المُتْرَعُونَ

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور . وقبل أن نفصل القول في نظامها نقول إن العالم كله يجمع على أن حكومتها كانت من أقدم ما شهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحاً ؛ بل إن پوليبوس Pollibius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطوطاليس المثلث ؛ وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الروماني كما رسمت في بعض الأحيان ميادين القتال في هذا التاريخ .

ترى أى الأهليين في هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم « مواطنين » ؟ . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية في رومة ، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل . وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة ، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء ، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم رومة حق المواطنة فيها . ولم يشهد العالم قبل رومة أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنة أو قدرته مثل تقديرها . لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمتع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التي لم تلبث إلا قليلاً حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانوني ، والتعرض للقصر والإرغام ، ويمكنه

من أن يشكو أى موظف فى الإمبراطورية إلى الجمعية البرطانية فى رومة -
أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد .

وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات ؛ فقد كان من حق الدولة
على المواطن - إلا إذا كان فقيراً معدماً - أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية
من سن السادسة عشرة إلى سن الستين ، ولم يكن فى وسعه أن يشغل
منصباً سياسياً إلا إذا قضى فى الجيش عشر سنين . وكانت حقوقه السياسية
وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية ، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدى
حقه فى التصويت فى أهم الأمور بوصفه عضواً فى فرقة أو فى « مائه » ،
وكان فى عهد الملوك يعطى صوته أيضاً فى مجلس العشرة *Comitia Curiata*
أى أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا فى مجلس الأقسام الثلاثين
التي انقسمت إليها القبائل الثلاث . وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام
الجمهورية هو الذى يخلع سلطة الحكم على الحكام ، وبعد سقوط الملكية
بزم من قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق
إلى مجلس المثين - فكان الجندي يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها
فى بادئ الأمر من مائة جندي . وكانت هذه المجالس المثوية هى التي تختار
كبار الحكام ، وتنظر فى الإجراءات التي يعرضها عليها الموظفون أو مجلس
الشيوخ فتجيزها أو ترفضها ، وتنظر فيما يرفع إليها من استئناف الأحكام
التي يصدرها كبار الحكام ، وتنظر بنفسها فى جميع القضايا التي يحكم فيها
بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان ، وتعلن الحرب وتعتقد
الصلح ، ومن ثم كانت هذه الجمعية هى الأساس العام للجيش الروماني
والحكومة الرومانية . ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً فى أضيق
الحدود ، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل
أو تربيون ، ولم يكن من حقها أن تقترح إلا على الأمور التي يعرضها عليها
كبار الحكام أو مجلس الشيوخ ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات
أو تعدلها ، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها .

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً قوياً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف . فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازين) . ويلي هؤلاء رجال « الطبقة الأولى » — الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس (*) . وكان عدد ممثلي هذه الطبقات في الجمعية ثمانين مائة أى ثمانية آلاف رجل ، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذى تقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ آس ؛ والطبقة الثالثة تشمل من كان لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات عشرون مائة . وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة . أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة (١٠) ، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها ؛ وكان في وسع أغلبية قليلة في إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى في مائة أخرى وتجعل الفوز في جانب أقلية عديدة . وإذا كانت كل مائة تقترح بترتيب مركزها المالى ، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع ، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لها ٩٨ صوتاً ، وهى أغلبية أصوات الجمعية كلها . ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترح قط . وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أى أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه ، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى رومة ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها . ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية ، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع به لإحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية .

(*) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها في عام ١٩٤٢ تساوى نحو ٣٣ من الريال الأمريكى . انظر الفصل السادس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حتى الاقتراع للأهلين متناسبا مع ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداءه من الخدمة العسكرية ، وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا صوت مثنوى واحد ؛ ولكنهم في نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلاً لا يؤبه له من الضرائب ، وكانوا في الأوقات العادية معينين من الخدمة العسكرية (١١) . وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شيء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطيعه من الأبناء ، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرسقراطية محافظة لا تستدكف أن تجهر بمبادئها .

وما من شك في أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة بمجالس العامة *concilia plebis* . ولعل الجمعية المعروفة بمجلس قبائل الشعب *omitia populi tribvta* التي نراها تمارس حقوقاً تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق . م قد نشأت من هذه المجالس نفسها ، وكان المقترعون في هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التي ينتمون إليها والمسكن الذي يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذي حدث في عهد سرفيوس سادس ملوك رومة ، وكان لكل قبيلة صوت واحد ، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء . وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية في عام ٢٨٧ ق . م ، وما وافي عام ٢٠٠ ق . م حتى كانت هي مصدر الشرائع الخاصة في رومة . وكانت هي التي تختار تربيونى الشعب *Tribuni Plebis* (الذين يمثلون القبائل) وهم غير التربيونين العسكريين *Tribuni militares* الذين كانت تختارهم المثات . على أنه في هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون . فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه ، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء ؛ وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقرع عليه بالقبول

أو الرفض وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المثوية ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن التطرف ؛ وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية ، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضي ، فكانوا لذلك رجالاً حذرين ، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر ، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل ، وشيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر .

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى في رومة . وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه . وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلثمائة عضو على الدوام ، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالاً من طبقة الأعيان أو الفرسان . وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة ، ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أى عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجرمة خلقية خطيرة . وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام في الكوريا Curia أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة . وكان من العادات اللطيفة أن يأتي الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمحاكمة عن قرب . وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصوراً على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته في هذه المسائل استشارية محضة *senatus consulta* ليس لها قوة القانون ، ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته في جميع الحالات تقريباً ، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل ، على أنه كان من حق أى تربيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة في المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى (١٣) . ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا في أيام الثورات والانقلابات .

ولم يكن كبار الحكام يبقون في مناصبهم أكثر من عام واحد في حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة . ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل . ولهذا كانت الصلات الخارجية ، وعقد المحالفات والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وحكم المستعمرات والولايات ، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها بين الأهليين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها - كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده ، وقد أكسبه انفرادها بها سلطة لا تمكاد تعرف لها حدود . فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وكان هو الحكم الفصل في الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية ، والتآمر والاختيال ، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر في معظم القضايا المدنية الهامة ، وكان في وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو *sensatus-consultum ultimum* وهو « أن من واجب القنصلين أن يعملوا على ألا تصاب الدولة بأذى » وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك .

وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ في عهد الجمهورية يسعى استعمال سلطانه ، فكان يحمي الموظفين المرتشين(*) ، ويعلمن الحرب بلا تدبير وتفكير ، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالاً شرها ، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب في أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له في رخاء رومة . ولكن تاريخ العالم لم يشهد في غير رومة وفي غير عهد الجمهورية - إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من ترجان Trajan إلى أورليوس Aurilius - ما شهدته في هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة في

(*) لقد كان الرومان يطلقون اللفظ اللاتيني المقابل لانظ جمهورية *Respublica* ومعناه الملك العام على أشكال دولتهم الثلاثة - الملكية و « الديمقراطية » ، والإمارة ؛ ولكن المؤرخين في هذه الأيام قد اتفقوا على أن لا يطلقوا هذا اللفظ إلا على الفترة المحصورة بين عامي ٥٠٨ ، ٤٩٤ ق . م .

تصرف الشؤون السياسية ، كما لم يشهد في غير ذلك العهد ما شهدته فيه من
سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب
ولسنا فنكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلزال ، وأنهم
كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة ، وأنهم كانوا في بعض الأحيان متقلبين
لا يثبتون على سياسة واحدة ، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح
الدولة . ولكن الذي لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من
كبار الحكام ، والمديرين والقواد العسكريين ، وكان منهم الولاة اللذين
حكوا ولايات لا تقل سعة عن الممالك ، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات
الأعوام تنجب لرومة ساسة وقواداً . ولهذا كان من المستحيل ألا يجلو
مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة ،
وكان مجلس الشيوخ في أسوأ حالاته في أيام الانتصار وفي أحسنها أيام
الجزيمة . وكان في وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون
كثيرة ، كما كان في مقدوره أن يبدأ حرباً في عام ٢٦٤ ق . م لا تضع
أوزارها إلا في عام ١٤٦ ق . م . وحسبنا دليلاً على عظمته أنه لما جاء
الفيلسوف سينياس Cineas إلى رومة موفداً من قبل پيرس Pyrrhus
(عام ٢٨٠ ق . م) وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى
بلاده ، قال للإسكندر الجديد إن الذي رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة
مأجورين ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعها المصادفات المحضة ، بل كان
في مهابته وحسن سياسته « مجمعاً للملوك بحق (١٣) » .

٢ - النظام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المثوية ، أما صغارهم فكانت تختارهم
الجمعية القبلية . وكان يعين في كل منصب زميلان متساويان في السلطة ، ولا
يقيان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب . ولم يكن يجوز لشخص ما
أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشرينين ، وكان لا بد

أن يمضى عام بين خروجه من منصب وتوليه منصباً آخر ، وكان من حق الدولة أن تحاكمه في فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته . وكان الروماني الذي يريد أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة السياسية ، إذا كان قد قضى في الجيش عشر سنين ، يرشح نفسه لأن يختار محاسباً (كوسترا *quasstor*) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين في نفقات الدولة ، ويعاون المقدمين *praetors* في منع الجرائم ومحاكمة المجرمين ، فإذا نال رضا الناخبين أو ذوى النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المباني العامة وقنوات مياه الشرب ، وشوارع المدن ، والأسواق ، والمسارح ، والمواخير ، والأهباء العامة ، ومحاكم الشرطة ، والألعاب العامة . وإذا اطرده بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون في الحرب قيادة الجيوش ويشغلون في السلم مناصب القضاة وشرح القانون (*) .

فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة في سلم الوظائف *cursus honorum* واستمر بالأمانة وأصالة الرأي كان في وسعه أن يكون أحد الرقيبين *censors* اللذين تختارهما الجمعية المثوية كل خمس سنين ، ويتولى أحدهما الإحصاء الدوري للسكان ، وهو الإحصاء الذي كان يُعمل كل خمس سنين ، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية ، وما يجب أن يؤديه من الضرائب . وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب ، ويفحص عن سجل أعماله ، ويعمل على صيانة أعراض النساء ، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها ، وإقامة المباني العامة ، وتأجير أملاك

(*) والكلمة اللاتينية المقابلة للمحاسبين *Quaestor* مشتقة من *Quaerer* ومعناها يؤدي أما الكلمة المقابلة للمفتشين *Aediles* فهي مشتقة من *Aedes* ومعناها البناء . أما *praetor* (المقدم) فأخوذة من *prae-ire* ومعناها يتقدم أو يقود ومن أجل ذلك كانت الفرقة العسكرية التي تتولى حراسته تسمى « حرس المقدم » *praetorian Guard*

الحكومة والتعاقد عليها ، والتأكد من العناية بزراعة الأرض . وكان في مقدور الرقيبين أن ينقصا منزلة أى مواطن ، أو يخرجوا أى عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة . ولم يكن فى وسع أى الرقيبين أن يلغى حق الرقيب الآخر فى هذه الناحية . وكان فى وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات . وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات ، وكانا عند انتهاء الفترة التى يتوليان فيها منصبهما ، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان المواطنين فى احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومى *Lustrum* يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة . وكان أيبوس كلوديوس كيكس *Appius Claudius Caecus* (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل ، وهو الذى شاد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائى والطريقين المعروفين بمجرى أيبوس وطريقه ، ورقى الأثنياء من العامة أعضاء فى مجلس الشيوخ ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة ، وعمل على إضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق وضع القوانين وتصريف الشئون القضائية ، وترك له أثراً خالداً فى النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الرومانية ، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذى ألقاه وهو على فراش الموت .

ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة . أما من الوجهة للعملية فإنه لم يهتر من العامة إلا عدد قليل جداً من القنصل ، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالاً أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى حالتى الحرب والسلام . وكان الموظف الكبير الذى يشرف على اختيار القنصل - إذا ما حان موحد الاختيار - يرقب النجوم ليعرف من مين المرشحين الكثيرين يحسن أن يعرض اسمه

ليختار لهذا المنصب ، فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المثوية في اليوم التالي ، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرتهم في النجوم أنهم صالحون (١٤) . وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثي النعمة والزعماء المهرجين وبين تسم هذا المنصب الرفيع ، وكانت الجمعية في معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع في الزلل ، أو لأنها ، لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها . وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح ، وهو ثوب أبيض بسيط ، علامة على بساطة حياته وخلقه ، ولعله كان يختار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندى الجروح التي أصيب بها في ميادين القتال . فإذا نجح تولى منصبه في اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالي ليوم الانتخاب . وكان القنصل يتصلح بجمع القداسة على منصبه بتوليها رئاسة الطقوس الدينية الخطيرة . وكان في وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المثوية إلى الانعقاد ، ويرأس جلساتها ، ويقترح القوانين وينفذها ، ويوزع العدالة بين الناس . وكان في أوقات الحرب يجيش الجيوش ، ويجمع ما يلزمها من الأموال ، ويشترك مع زميله القنصل الثاني في قيادة الفيالق العسكرية ، فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا في الأمر أثناء السنة التي يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين *Interregnum* ، وعين من يتولى تصريف الأمور *Interrex* (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة في أثناءها لانتخاب جديد ، ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورننا في مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك .

وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثاني المساوية لسلطته ، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ ، وبما كان للثريون من حق الاعتراض على قراراته . وقد اختير في عام ٣٦٧ ق . م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل في الحرب وعشرة « تربيونين من العامة » يمثلونهم في أوقات السلم ، وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا في عهد الدكتاتورية القانونية حد ذلك خروجاً على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها

بالإعدام .. وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة ، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هي كلمة فيتو Veto ومعناها « أحترم » كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه . وكان من حق التريون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً ، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش ، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية : وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحاً ليلاً ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية . وهذا الحق - حق الحماية أو القداسة - شبيه بحق الحصانة habeas coapus الذى يمنحه القانون الإنجليزي لسكان إنجلترا في هذه الأيام . وكان في وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها ، ولا تستأنف إلا بالجمعية للقبائل وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة ، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك في استطاعته .

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلاطنتهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التي فرضت عليهم ؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة رومة نفسها وعلى أوقات السلم وحدها ، أما في زمن الحرب فقد كان التريونون خاضعين للقناصل . والسبب الثانى أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التريونين من بين أغنياء العامة ، وكان ما للثروة في رومة من منزلة ، وما يصحب الفقر من ضعة ، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمياتهم والدفاع عنهم . وثالث الأسباب أن زيادة عدد التريونين من أربعة إلى عشرة قد جعل في مقدور الواحد منهم ، إن أمكن لإغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل ، أن يُبلغى بما له من حق الاعتراض إقرار التريونين الباقين^(١٥) . وقد سلس قيادهم على مر الزمن حتى أصبح في الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك في

مناقشاته ، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهى مدة بقائهم فى مناصبهم .

وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها فى إضعاف سلطان التريون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعى أعظم منها أثراً . ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية ، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات ، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق فى إبان الاضطراب والخطر القومى ما يتطلبه إلقاء الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد . وكان من حق مجلس الشيوخ فى هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشِّح حاكماً مطلقاً يتولى جميع السلطات . وقد اختير أولئك الحكام المطلقون فى جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف ؛ ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسمى استخدام هذا المنصب ؛ وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأماكن ، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ . وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة . وقد تقيسد الحكام المطلقون جميعهم ، ما عدا اثنين منهم ، بهذه القيود متبعين فى ذلك السنة الحسنة التى منها لم سنسناتس Cincinnatus كما تقول الرواية المأثورة ، فقد دعى هذا الرجل من وراء المهرات لينتقد الدولة (عام ٤٥٦ ق . م) ، فلما أدى مهمته عاد من فورهِ إلى مزرعته ولمسا أن خرج صلا Sulla وقصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهورى إلى الملكية التى نشأ منها .

٣ - برائة القانون الروماني

وكان كبار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة في نطاق هذا الدستور الفد تطبيقاً للألواح الاثني عشر التي سجلتها فيها لجنة العشرة ؛ ولقد كان تسجيل القانون الروماني في هذه الألواح حادثاً هاماً في التاريخ الروماني ؛ وكان القانون الروماني قبل هذا التسجيل خائطاً من العادات القبلية ، والمراسم الملكية ، والأوامر الكهنوتية ؛ وبقيت أساليب القدماء - *Mos Maiorum* - إلى آخر أيام رومة الوثنية القدوة الخلقية الصالحة ، والمعين الذي تستمد منه القوانين ؛ ومع أن الخيال ، والرغبة في الإصلاح والتهديب ، قد أعليا من شأن سكان المدن التساة في عهد الجمهورية الأول ، وجعل منهم مثلاً أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملوا للوصول إليه ، فإن القصص التي كانت تروى عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المرين على غرس فضيلتي الصبر وقوة الاحتمال في أخلاق الشباب في رومة . أما فيما عدا هذا فإن القانون الروماني القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية ، فكان بذلك غرماً من الدين ، يغمره جو من الطقوس الرهيبية والحدود المقدسة ؛ وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق ؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب ، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين الآلهة والناس . وكانت الجريمة سبباً في اضطراب هذه العلاقة ، وفي تعكير صفو سلام الآلهة ؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها نهي والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما ؛ وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل *fas et nefas* ، ويقررون في أي الأيام تفتتح المحاكم وتعقد المجالس . وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق ، والعزوبة والزواج بالأقارب . والوصايا ونقل الملكية ، وما للأطفال من حقوق ، كانت كل هذه المسائل لا بد من عرضها على الكهنة كما لا بد من

عرض الكثير منها على المحامين في هذه الأيام ، وكان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنة التي لا يكاد يستطيع عمل شيء مشروع إلا باتباعها . وكانوا في رومة هم المستشارين القانونيين ، وكانوا هم أول من يبدى الرأى القانونى *responsa* في مهام الأمور . وكانت القوانين تسجل في كتبهم ، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة ، وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين . ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً ، ذلك أنها أذاعت القانون الرومانى ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية . وتمثل هذه الألواح - كما تمثل غيرها من كتب القانون التي دونت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين كارنداس *Charondas* ، وزليكس *Zalcucus* ، ليقورغ *Lycurgus* ، وصولون *Solon* - مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون ، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الديمقراطية فيهم ؛ يضاف إلى هذا أن « قانون المواطنين » *ius civile* ، كما هو مدون في الألواح الاثني عشر ، قد تحوّر من الصبغة الدينية أو « القانون الدينى » *ius divinum* كما يقول الرومان أنفسهم ، وكان رومة بعملها هذا قد استقر رأبها على ألا تكون دولة كهنوتية ؛ وضعف سلطان الكهنة فوق هذا للضعف وحرمو من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أيبوس كلوديوس *Appius Claudius* « الأعمى » في عام ٣٠٤ تقويمياً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف « بأيام الأفعال *dies fasti* » ، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية ، ولم يكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل . وخطا الرومان خطوة أخرى في صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس *Coruncanus* في عام ٢٨٠ ق . م يعلم الشعب القانون الرومانى وهو أول عمل

من نوحه معروف في التاريخ . ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل رومة وحياتها . وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم في رومة ، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام شيشرون يحفظون ما محتويه عن ظهر قلب ، وما من شك في أنها كانت من العوامل التي بثت في نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام ، والاستمسك بالقانون وعدم التفريط في الحقوق ؛ ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل ، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريتورية والتفصيلية والإمبراطورية ، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الروماني .

وكان قانون المرافعات في كتاب القوانين الروماني وافياً شديد التعقيد . وكان في وسع أى موظف كبير - إلا في القليل النادر - أن يكون قاضياً ، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين *praetors* وكان لإصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التي أكسبت القانون الروماني حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات . ذلك أن كبير حكام المدينة *praetor urbanus* كان يعد في كل عام ثبناً أو « لوحة بيضاء » يحوى أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصبح اختيارهم ليكونوا محلفين ؛ وكان رئيس الجلسة في كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء ، على أن يكون المدعى والمدعى عليه الحق في أن يرفضوا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا في عدد محدود من المرات . وكان يسمح للمحامين القضاة أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم في ساحة القضاء ، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية في بيوتهم أو في مجالس عامة . وكان قانون سنسيوس *Cincius* الصادر في عام ٢٠٤ ق . م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً ، ولكن المهارة القانونية كانت تجذب

كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية ، وكثيراً ما كان الأ، قاه يعذبون لحملهم على الاعتراف .

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهدها التاريخ ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية ، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال ، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله — وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات (١٦) . واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامه ؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد (١٧) ؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية ، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه ؛ وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي ، أو الاسترقاق أو الإعدام ، ومنها ما كان يجري بطريق القصاص (lex talionis) ، وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه : « فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس ، وكسر عظام العبد ١٥٠ آس (١٨) » . وكان القذف والرشوة والحنث في الأيمان ، وسرقة المحصولات الزراعية ، وإتلاف غلات الحار ليلاً ، وخديعة المحامي للمتقاضين ، وممارسة السحر ، وفساد السم في الطعام ، والاختيال ، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات ، كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام (١٩) . وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك ، أو كلب ، أو قرود ، أو أفعى ، ويلتقي في النهر (٢٠) . على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يسدأف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المثوية ، وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف

الحكم الصادر عليه إلى النفي وذلك بالخروج من رومة (٢١) . ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثني عشر قلما كانت تنفذ في عهد الجمهورية الرومانية .

٤ - جيش الجمهورية

وكان الأساس الذي يعتمد عليه الدستور الروماني في آخر الأمر هو النظام العسكري الذي كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً في تاريخ العالم كله . لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط ، وكان الجيش مجتمعاً في المئات هو الهيئة الرئيسية التي تسن قانون الدولة . وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى ، أما « الطبقة الأولى » فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة ، وكان كل جندي فيها يسليح بخرتين وخنجر وسيف ، ويلبس خوذة من البرنز ، ودرعاً من الزرد ، وجرموقاً ، ومجنأ . وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح ، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليع والحجارة . وكان الفيلق الروماني هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة ، ٣٠٠ من الفرسان ، وعدة كتائب أخرى إضافية (٢٢) ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين . وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب ، وكانت كل منها في بادئ الأمر تتألف من مائة جندي ، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين ، ويقودها قواد المئات . وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum . وكان مما يحل بالشرف أن يسقط لذا العلم في أيدي الأعضاء . وكان مهرة الضباط في بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية . وإذا نشبت المعركة فلبت صفوف المشاة الأمامية العدو ، الذي لم يكن يعبد عنهم أكثر من

عشر خطوات أو عشرين خطوة ، بوابل من الحراب ، وهي رماح من الخشب تنتهى بأطراف من الحديد ؛ وهاجمه فى الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهم وبالْحجارة ، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف ، وكانت الواقعة تنتهى بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار . أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها الحجانيق الخشبية التى تدار بالجلد أو اللبى وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرتال إلى أبعد من ثلثمائة ياردة . وكانت كباش حربية ضخمة معلقة فى جبال تشد إلى الورا ، ثم تمخلى فتنطح أسوار الأعداء . وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمى منها القذائف على الأعداء (٢٢) . وقد هدل فى عام ٣٦٦ ق . م تشكيل الفيالق التى كانت فى عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة فى كل واحد منها ٥٠٠ جندى ، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها ، فقسم كل فيلق إلى كوكبات (٥) فى كل كوكبة مائتا جندى . وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتى تجاورها ، وتقف الكوكبة التى فى كل صف خلف الفراغ المترك فى الصف الذى قبله . وبهذه الطريقة يمكن الإسراع فى إمداد كل صف من الصف المجاور له ، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أى هجوم جانبى ، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التى كان الجندى الرومانى يعد لها أحسن إعداد وكان أكبر العوامل فى قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه ذلك

(٥) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم *Manipulus* ومعنى هذا اللفظ فى الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليها . ويلوح أن حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تتخذ طمأ حربيًا بدائيًا . ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجند يظلمهم علم واحد .

أن الشاب الروماني كان يعد للحرب منذ طفولته ، فكان أهم ما يدرسه العلوم التي تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ، وكان يقضى عشر سنوات من عمره في ميادين القتال أو في المعسكرات ، وكان الجند في هذا الجيش هو الجريمة التي لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت (٢٤) . ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أى جندي أو ضباط للفرار من القتال فحسب ، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذ خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إيها إلى أحسن العواقب ، وكان الذى يفر من الجندية أمر يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى (٢٥) . وكان الجند في المعسكرات يطعمون طعاماً بسيطاً يتكون من الخبز وحساء الخضر وقليل من الخضر والنبيد ، وقلما كان يضاف إليه شئ من اللحم ، وبذلك تمتح الجيش الروماني العالم المعروف وقتئذ معتمداً على الغذاء النباتي ؛ ولما أن نقصت كمية التمح اللازمة لجيش يوليوس قيصر واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكوا الجند من هذه الحال (٢٦) . وكان العمل الذى يكلف به الجنود مجهداً طويلاً ، حتى كان الجند يفضلون عليه الذهاب إلى ميدان القتال ، وحتى كانت البسالة أسلم الخطط ؛ وظل الجند حتى عام ٤٠٥ ق . م لا يتناولون أجوراً أو مرتبات ، ولم يكن ما يتناولونه بعد ذلك العام بالشئ الكثير . ولكن كل جندي كان يسمح له بنصيب من الغنائم حسب مرتبته سواء كانت هذه الغنائم سبائك معدنية أو نقوداً أو أرضاً أو أسرى أو بضائع . ولم يكن هذا التدريب ليخلق من الرومان محاربين بوسائل تواقين إلى القتال فحسب ، بل خلق منهم فوق ذلك قواداً شجعاناً . ذلك أن الطاعة قد خلقت فيهم المقدرة على الأمر والنهي ، ولسنا نكرر أن جيش الجمهورية قد خسر بعض الوقائع الحربية ، ولكنه لم يخسر قط حرباً ، وهو لاء

الرجال الذين نشأوا في هذا النظام الضارم ، وتطبعت به نفوسهم ، واعتادوا رؤية الموت بأعينهم ، وألفوه حتى أصبح من الأمور التي لا قيمة لها في نظرهم ، هؤلاء الرجال هم الذين كسبوا الوقائع التي مكنتهم من الاستيلاء على إيطاليا ، ثم فتح قرطاجنة واليونان ، والسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط .

هذه هي الخطوط الرئيسية في ذلك « الدستور المختلط » الذي أعجب به پولبيوس ووصفه بأنه « خير الحكومات القائمة » في العالم ، فهو من حيث سيادة الجمعيات في الناحية التشريعية ديمقراطية مقيدة ، ومن حيث زعامة مجلس الشيوخ المؤلف من أشراف البلاد حكم أرستقراطي ، وهو « حكم ملكي مزدوج » . شبيه بالحكم الأسرطي إذا نظرت إليه من ناحية سلطان القنصلين القصير الأجل ؛ وهو حكم ملكي مطلق يصبح في بعض الأحيان حكماً دكتاتورياً ، وهو في جوهره حكم أرستقراطي تولت فيه السلطة أسر قديمة غنية بفضل ما كان لها من كفاية وامتياز مئات السنين ، وصبغت السياسة الرومانية بصبغة الدوام والثبات ، وبفضلها استطاعت أن تقوم بما قامت به من جلائل الأعمال ،

ولكنه لم يخجل من عيوب . فقد كان هذا الدستور خليطاً سمجاً غير متناسق من العوائق والموازن ، يستطاع فيه أيام السلم إبطال كل أمر تقريباً بأمر معارض له ومساو له في القوة ، ولقد كان ما فيه من تقسيم السلطة بين عدد من الهيئات عوناً على الحرية ، كما كان - إلى أجل محدود - مانعاً من إساءة استعمالها ؛ ولكن هذا الحكم نفسه هو الذي أدى إلى الكوارث العسكرية أمثال كارثة كانى Canae ، وإلى انحلال الديمقراطية حتى أضعفت حكم الغوغاء وجاء آخر الأمر بالدكتاتورية الدائمة في أيام الأباطرة . والذي يدهشنا في هذه الحكومة هو بقائها ذلك العهد الطويل (من ٥٠٨ إلى ٥٤٩ ق . م) ، وكثرة ما قامت به من الأعمال ، ولعل سبب بقائها هو قابليتها المهوشة للتغير ،

والروح الوطنية الفخورة التي كانت تُنبث في نفوس الرومان في البيت
والمدرسة ، والهيكل والجيش ، والجمعية ومجلس الشيوخ . وكان الولاء
للدولة أهم الصفات في ألام مجد الجمهورية ، كما كان الفساد السياسي
المنقطع النظير مؤذناً بسقوطها . لقد ظلت رومة عظيمة طوال العهد الذي
كان لها فيه أعداء يرغمونها على الأتحاد والشجاعة والتبصر في العواقب ؛
فلما أن ظفرت بأعدائها جميعاً انتعشت برهبة من الزمان ثم بدأت
في الاحتضار .

الفصل الثالث

فتح إيطاليا

لم يكن الأعداء في يوم من الأيام يحيطون برومة أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلاً مربعاً - أى مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلاً في تسعة عشر . ولما أن تقدم لارس پورسنا Lars Porsena ليهاجها استعادت كثير من العشائر التي كان ملوك رومة قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف في وجه رومة . وكانت إيطاليا في ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهبتها الخاصة بها . فكان في شمالها الليجوريون ، والغاليون ، والأمبريون ، والتسكانيون ، والسبينيون ؛ وكان في جنوبها اللاتين ، والفلاشيون ، والسمنيون ، واللوكانيون والبريتانيون ؛ كان على شاطئها الجنوبي والغربي مستعمرون من اليونان في كرمية ، ولابلي ، وبمبي وپستوم ، ولكرى ، ورجيوم ، وكروتونا ، ومثاينتم ، وتارنتم (*) . وكانت رومة في وسط هذه العشائر والمدن جميعها ، ذات موقع حربي يمكنها من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها في آن واحد . وكان سبب نجاحها أن أعداءها لم يتحدوا عليها . وقد حدث في عام ٥٠٥ بينا كانت رومة مشتبكة في حرب مع السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبينية - عشيرة الكلورين - فنحتها رومة حق مواطنيها فظير شروط مرضية . وفي عام ٤٤٩ هزمت رومة السبنيين ، ولم يحل عام ٢٩٠

Ligures, Gauls, Umbrians, Etruscans & Sabines, Latins Volscians (*)
Samnites, Lucanians, Brutians, Cumae, Naples, Pompeii, paestum, Locri,
Rhegium, Crotona, Metapontum, & Tarentum.

حتى ضمت كل أراضيهم إليها ، وما وافى عام ٢٥٠ حتى كان لهم كل ما لأهل رومة من الحقوق .

وفي عام ٤٩٦ أغرى آل تاركوين بعض مدائن لانيوم وهي تسكولوم ، وأرديا ، ولنوفيوم ، وأريشيا ، وتيبور(*) وغيرها بالانضمام في حرب تشنها على رومة ، ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادى القوة ، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم . وهو أولس يستوميوس *Aulus Postumius* ، وانتصروا على هذا الحلف اللاتيني عند بحيرة رجيلس *Regillus* نصرأً مؤزراً كان سبباً في نجاتهم . ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون في هذه الواقعة من الإلهين كستر وپلوكس *Castor & Pollux* إذ غادرا جبال أولمپس ليحاربا في صفوفهم . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت رومة مع الحلف اللاتيني معاهدة تعهد فيها الطرفان أن « يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض » وأن يشتركا على قدم المساواة في جميع غنائم الحرب (٢٧) . وكانت رومة في بادئ الأمر عضواً في هذا الحلف ثم أمست زعيمته ، ثم سيطرته المسيطرة عليه . وفي عام ٤٩٣ حاربت الفلشيين *Volscians* ؛ وفي هذه الحرب ظفر كيبوس مارسيوس *Cains Marcius* بلقب كريلانس *Coriolanus* بعد أن استولى على كريلاي *Corioli* عاصمة الفلشيين(**) . ويضيف المؤرخون إلى هنا - ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون - أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعيأً شديد الرجعية ، فنتق من رومة بناء على طلب العامة وإصرارهم (٤٩١) ، فلهجأ إلى الفلشيين ، وأعاد تنظيم جيوشهم ، وسار على رأسهم لحصار رومة . ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولا في إثر رسول ليثنوه عن عزمه ، ولكنه لم يثن ، فلما جاءت

(*) *Tibur Aricia Lanuvium, Ardea, Tusculum.*

(**) لقد خلد شيكسبير هذه القصة في روايته الشهيرة كريلانس . (المترجم)

(٧ - ج ١ ، مجلد ٣)

أمه وزوجته تتوسلان إليه ووردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما ، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن رومة . وكان جزاؤه أن قتله الفلشيون ، وفي رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشة ضنكا ، حتى بلغ من العمر أرذله (٢٨) . وفي عام ٤٠٥ قام النزاع على أشده بين رومة وقياي Veii للسيطرة على نهر التيبر . وحاصرت رومة . مدينة قياي ودام الحصار تسع سنين ، وشجع هذا مدن إتروريا فانضمت إلى قياي ضد رومة ، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء ، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى كاملس Camillus ، فجند جيشاً جديداً استولى به على قياي ووزع أرضها على مواطني رومة . وفي عام ٣٥١ ضم جنوب إتروريا إلى رومة بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفرق عن اسم المقاطعة في الوقت الحاضر .

وفي هذه الأثناء واجهت رومة في عام ٣٩٠ خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة ، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة ، وهو الصراع الطويل الذي لم ينته إلا في عهد يوليوس قيصر . وذلك أنه بينا كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين رومة وإتروريا تسلت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدره من جبال الألب ، واستقرت في إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر الهو Po . ويطلق المورخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتائي - أو سلتائي ، أو جلتائي أو غالي (*) دون تمييز بينها ، ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل ، وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التي سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسبانيا الوسطى ، وبلجيكا ، وويلز ، واسكتلندا ، وإيرلندا ، وأدخلت فيها اللغات التي وجدها الرومان في تلك البلاد . ويصفهم بوليبيوس Polybius بأنهم « طوال القامة ، حسنو الوجوه » ، يحبون القتال ، ويحاربون

وهم عراة الأجسام إلا من تمامهم وسلاسل ذهبية^(٢٩) . ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النيبد الإيطالي سرهم مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التي تخرج تلك الفاكهة اللذيذة . ولعل أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرضى وللأرض الحديدية ، فلما دخلوها وأقاموا فيها وقتاً ما مسلمين على غير عادتهم المألوفة ، يحرثون الأرض ويرعون الماشية ، ويتشققون بما كان في المدن من ثقافة تسكانية . ثم غزوا إتروريا في عام ٤٠٠ ق . م ونهبوها ، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة ، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى ثياى ليصدوا عنها الرومان . وفي عام ٣٩١ وصل ثلاثون ألفاً من الغالين إل كلوزيوم Clusium ؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا Allia وهزمهم هزيمة منكرة بددت شملهم ، ودخلوا رومة فاتحين دون أن يلقوا في ذلك مقاومة ، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها، وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلول الجيش الروماني المعسكر على الكبتول Capitol - وهو قلة تل الكبتولين Capitoline - حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر ، وأدوا للغالين ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم^(*) . وغادر الغاليون رومة ولكنهم عادوا إليها في أعوام ٣٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ . وصددهم الرومان في كل مرة فقتلوا أخيراً بشمال إيطاليا الذي أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية .

وألغى من بقى من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا قاي عاصمة لهم . ولكن كميلوس أثناهم عن عزمهم ، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد . وكانت السرعة التي تم بها هذا البناء، وهم يواجهون الأعداء

(*) (و المؤرخون الآن مجمعون على رفض القصة التي يرويها ليفي^(٣٠) ، والتي تقول إن كميلوس رفض في اللحظة الأخيرة أن يعطى الغالين الذهب ، ولأنه طردهم من رومة قوة وإقتداراً . ويرون أن هذه القصة قد اخترعت اختراعاً لإجابة لنهرة الرومان الوطنية وكبرياتهم القومى . وما من أمة من الأمم تهزم في كتب تاريخها .

من حولهم ، سبباً من الأسباب التي جعلت رومة مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية . وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها ، إذ رأتها موشكة على الدمار والحراب ، ثارت عليها ثورة في إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفائها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة ولقد هاجمها اللاتين ، والإكويون ، والمهرنيشون ، والفليشيون مجتمعين أو متفرقين . ولو انتصر الفليشيون لفصلوا رومة عن جنوب إيطاليا وعن البحر ، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها ؛ ولكن رومة انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتيني في عام ٣٤٠ . وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها(*) .

وفي هذه الأثناء كان ما نالته رومة من النصر على الفليشين سبباً في وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمنية القوية . وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً في إيطاليا يمتد من نابلي حتى البحر الأدرياتي ، ويشمل مدناً غنية مثل نولا **Nola** وبنفتيم **Beneventum** ، وكرومية **Cumae** ، وكپوا **Capua** . وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التسمكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربي ، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفي لخلق فن كپاني **Campanian** ، متميز عن غيره من الفنون ، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم . واشتبكت رومة مع هذه القبائل في ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها في الانفراد بالسيادة على إيطاليا . ومنى الرومان في مشاعب كودين **Coudine Forks** (٣٢١) . بهزيمة من أكبر هزائمهم ، ومر جيشهم المنهزم « تحت النير » - أي تحت قوس من خراب الأعداء - رمزاً لخضوعهم . ووقع القنصلان في ميدان القتال شروطاً

(*) ومن الحوادث التي تروى عن هذه الحرب حادثان أكبر الظن أنهما من نسج الخيال أولهما أن قنصلاً يدعى بيليوس ديسيون **Publius Decius** اتى حتفه بعد أن انطلق على جواده بين صفوف الأعداء مضحياً بنفسه ليظفر بمعونة الآلهة لرومة . أما القنصل الثاني تيتس مانليوس تركواتس **Titus Manlius Torquatus** فقد قطع رأس ولده لأنه انتصر في واقعة ، وكان سبب انتصاره أن خالف الأوامر الصادرة إليه .

لصلح مثل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه ، ونجح السميون في أن يضموا إليهم التسكانيين والغالين ، وأنفت رومة نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح . ولكن القبائل الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً في سنتينوم *Sentinum* (٢٩٥) ضمت روما على أثره كميانيا *Campania* وأمبريا *Umbria* إلى أملاكها . وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغالين إلى ما وراء نهر الپو وأخضعت إتروريا مرة أخرى لسلطانها .

وبذلك أصبحت رومة سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغالين في الشمال إلى المقاطعات اليونانية في الجنوب . لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ، ورغبتها في مواصلة الفتح من جهة أخرى ، قد حملها على أن تخير مدن « اليونان الكبرى » *Magna Graecia* بين الحرب وبين مخالفتها حلفاً تقر فيه لرومة بالزعامة . وفضلت مدن تورييا *Thurii* . ولكرى *Locri* وكروتونا *Crotone* أن تحالف رومة على أن تتعرض للاندماج في القبائل « المتبربرة » (أى الإيطالية) ، التي كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها ؛ ولعلها هي أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات ، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع الغامة الذين كان سلطانهم آخذاً في الازدياد (٣٢) . لكن تارنتم *Tarentum* وقفت وقفة المعاند ، واستعانت بپيرس *Pyrrhus* ملك إپيروس *Epirus* . واثارت في نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل *Achilles* والإسكندر فعبر البحر الأدرياي بقرية إپروسية ، وهزم الرومان في هرقلية *Heraclea* (٢٨٠ ق . م) ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالى الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثي لحاله (٣٣) وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية في إيطاليا ، وحالفه اللوكانيون ، والبوتيون ، والسميون . وبعث سنياس *Cineas* إلى رومة يعرض عليها الصلح ، وأطلق سراح الأفي أسير روماني الذين كانوا في قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضات رومة الحرب

على السلم . وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أيبوس كلوديوس
Appius Claudius ، الشيخ الأعمى المسن الذى كان قد اعتزل الحياة للعامة
من زمن طويل ، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس ، فلما
دخل على الأعضاء طلب إليهم ألا تعقد رومة قط صلحاً مع جيش أجنبي
في أرض إيطاليا . ورد مجلس الشيوخ إلى بيرس من أطلقهم من الأسرى
وبدأت الحرب من جديد . وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى ،
ثم عافت نفسه حين أحلافه وضعفهم وترددهم ، فأبحر مع من بقى معه
من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين ، وطردهم
من أملاكهم في الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا قليل . ولكنه أغضب
بحكمه القوى اليونان سكان صقلية ، وكانوا يظنون أن في وسعهم أن يستمتعوا
بالحرية دون أن يودوا لها ثمناً من النظام والشجاعة ، فقبضوا عنه معونتهم ،
فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية : « ما أعظمها من غنيمة
تتنازعها قرطاجنة ورومة ! » والتقى جيشه بالجيش الرومانى في بنفتم ومنى
بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥) . واتضح في هذه الواقعة أن الأولوية الخفيفة
السلح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المترامة البطيئة ، وبدأت بذلك
صفحة جديدة في تاريخ الحروب . وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن
يمدوه ببوش جديدة ، فلم يلبوا نداءه لارتياحهم في إخلاصه ومثابرتة ،
فعاد إلى إيبروس ومات في بلاد اليونان مية المغامرين . وفي السنة التي
مات فيها (٢٧٢ ق . م) غدرت ميلو Milo بتارنتم وانضمت إلى رومة .
وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لرومة واستسلم لها السمنيون وهم
كارهون محزونون ، وأمست إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيده
إيطاليا لا ينازعها فيها منازع .

وسرعان ما ثبتت رومة أقدامها في البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من
الجاليات ، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتينى . وقد أفادت هذه
الجاليات فوائد كثيرة : فقد خففت عنها خطر التعطل ، وقللت من نزاحم الأهليين

على موارد الرزق ، وما ينشأ عن هذا النزاح من نزاع بين الطبقات في رومة . وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لرومة بين الأهلين الغضاب ، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية ، تنتج الطعام للبطون الجياع في العاصمة ، ذلك أن المحراث قد تم ما بدأه السيف من الفتوح . وبهذه الوسائل كلها وضعت رومة الأسس التي أدت إلى صبغ مئات من المدن التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالصبغة الرومانية ، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية في جميع أنحاء شبه الجزيرة التي كان معظمها لا يزال في طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى . وسارت إيطاليا بخطى وثيدة في طريق الوحدة الدولية ، وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوحدة السياسية وحشية في طريقها عظيمة في أثرها وغايتها .

لكن كان في قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقية قوة أشد من رومة بطشاً وأقدم منها عهداً ، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وتترك إيطاليا بحينة في بحارها . تلك هي قرطاجنة .

الباب الثالث

هنيبال يحارب رومة

٢٦٤ - ٢٠٢ ق . م

الفصل الأول

قرطاجنة

كشفت التجار الفينيقيون - وهم قوم ديدنهم البحث والتنقيب - عن ثروة أسبانيا المعدنية قبل ألف ومائة عام من تلك الأيام . ولم يمض على هذا الكشف إلا قليل من الوقت حتى كان أسطول من السفن التجارية يمخر عباب البحر الأبيض المتوسط بين صيدا وصور وييلوس من ناحية وطارطسوس Tartessus عند مصب نهر الوادى الكبير من ناحية أخرى ، وإذ كانت هذه الأسفار مما يتعذر القيام بها من غير أن تكون فيها محاط كثيرة . في الطريق ، وإذ كانت سواحل البحر الأبيض الجنوبية أقصر الطرق وأمنها . فقد أنشأ الفينيقيون مراكز وسطى ومحاط تجارية على ساحل إفريقية الشمالى عند لبتس مجنا Leptes Magna (ليدة الحالية) وهدرومتهم Hadrumentum (سوسة) وبوتيك (بوتيك) وههو دير هيتس Hppo Diarrhytus وههو رجيوس Hppo Regius (بونة) ، بل إنهم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم فى لكسوس Lixus (جنوب طنجة) . وتزوج التجار الساميون الذين أقاموا فى هذه المراكز من الأهالى وأسكتوا غيرهم بالمال ، وفى عام ٨١٣ ق . م أقامت جماعة جديدة من المستعمرين -

قد يكونون من فينيقية وقد يكونون من يتيكا Utica التي أخذت وقتئذ في الاتساع - أقامت هذه الجماعة بيوتها على نتوء في البحر على بعد عشرة أميال من مدينة تونس الحالية . وكان الدفاع عن شبه الجزيرة الفينيقية أمراً سهلاً ، وكانت مياه نهر مجرداس (مجردة) تروى أرضها وتفيض عليها الخصب والنعاء ، ولذلك كانت تعود إلى الانتعاش بسرعة بعد ما كان يحل بها من التخريب المتكرر . وتعزو الروايات القديمة لإنشاء هذه المدينة إلى إليسا Elissa أو ديدو Dido ابنة ملك صور ، فتقول إن أخيها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين إلى إفريقية . وسمى المكان الذي استقرت فيه كارت هدشت - أي المدينة الجديدة - تمييزاً لها عن يتيكا ، وحول اليونان هذا الاسم إلى كارشدون وبدله الرومان إلى كرتاجو . وأطلق اللاتين اسم إفريقية على الإقليم المحيط بقرطاجنة ويتيكا وسموا أهلها الساميين ، كما كان يسميهم اليونان ، الهوني أو الثوني ، أي الفينيقيين . وهاجر كثيرون من سراة أهل صور إلى إفريقية عقب حصار سليمانصر ، ونبوخذ نصر والإسكندر ، واستقر معظمهم في قرطاجنة ، فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزاً جديداً للتجارة الفينيقية ، وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما أخذت صور وصيدا في الاضمحلال .

ولما ازدادت المدينة . قوة دفعت أهل إفريقية الأولين إلى الداخل شيئاً فشيئاً ، وامتنعت عن أداء الجزية لهم ، بل أرغمتهم على أن يؤدوها هم واستخدمتهم أرقاء وأقناناً في بيوتها ومزارعها . وكانت نتيجة هذا أن نشأت لأهل قرطاجنة ضياع واسعة كان يعمل في بعضها عشرون ألف رجل (١) ، وأضحت الزراعة عند الفينيقيين العمليين علماء وصناعة ، ونخلص قواعد ما جو الكاتب القرطاجني في كتاب ذائع الصيت . وشق الأهلون القنوات فأخصبت الأرض ونشأت فيها حدائق ذات بهجة ، وحقول من القمح والكروم ، وبساتين تنتج الزيتون والرمان . الكثيرى والكرزوالتين (٢) . وربوا الخيل والأنعام والضأن والمعز .

واستخدموا الحمير والبغال في حمل الأثقال ، وأنسوا كثيراً من الحيوانات ومنها الفيل . أما الصناعات في المدن فلم تزدهر ازدهار الزراعة اللهم إلا صناعة المعادن ؛ ذلك أن القرطاجنيين ، كأباثهم الأسيويين ، كانوا يفضلون أن يتجروا فيما يصنعه غيرهم ، فكانوا يجوبون الأقطار ، يقودون بغالم شرقاً وغرباً ، ويضربون في قفار الصحراء طلباً للفيلة والعاج والذهب والعبيد . وكانت سفنهم الضخمة تحمل المتاجر من مئآت الموانئ بين آسية وبريطانيا وإليهما ، لأنهم لم يكونوا يرضون أن يعودوا كما عاد معظم الملاحين عند أعمدة هرقل *Pillars of Hercules* (مضيق جبل طارق) ؛ وأكبر الظن أنهم هم الذين أنفقوا على رحلة هنو *Hanno* البحرية التي ارتادت ألين وستائة ميل من ساحل إفريقيا الغربية ، ورحلة هملكو *Himilco* التي ارتادت سواحل أوربا الشمالية . ويلوح أنهم كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية - في صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها في جميع أنحاء الدولة القرطاجنية ، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عملتهم المعدنية عن عملة غيرهم من الأمم .

والراجح أن التجار الأثرياء لا الأشراف أصحاب الضياع هم الذين قدموا الأموال اللازمة لتجيش الجيوش وإنشاء الأساطيل التي حولت قرطاجنة من مركز التجارة إلى إمبراطورية استولت على ساحل البحر الأبيض الجنوبي من سيرنيكا *Cyrenaica* إلى جبل طارق وإلى ما بعد جبل طارق عدا يتكا . استولى القرطاجنيون كذلك على طارطوس وجادير (فادز) وغيرهما من المدن الأسبانية ، وأثرت قرطاجنة بما أخذته من ذهب أسبانيا وفضتها وحديدها ونحاسها . وتملكت جزائر البليار ، بل لأنها وصلت إلى جزائر ماديرة ومالطة وسردانية وقورسقة ونصف صقلية الغربي . وكانت تعامل البلاد الخاضعة لحكمها معاملة مختلفة الدرجات في قسوتها ، فكانت تفرض عليها جزية سنوية ، وتجنّد الأهليين في جيوشها ، وتقيد تجارتها وعلاقتها الخارجية بأشد من القيود . ولكنها في

نظير هذا كانت تجميعها من أعدائها عسكرياً ، وتمنحها استقلالاً ذاتياً محلياً ، واستقراراً اقتصادياً . وفي وسعنا أن نقدر ما كان لهذه البلاد الخاضعة لقرطاجنة من ثراء إذا عرفنا أن واحدة منها هي لبتس *Leptis Minor* كانت تؤدي إلى خزانة قرطاجنة ٣٦٥ وزنة (أى ما يعادل ١٢١٤ر٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام) .

واستغلت قرطاجنة هذه الإمبراطورية استغلالاً جعلها في القرن الثالث قبل الميلاد أكثر مدائن البحر الأبيض المتوسط ثراء ، فقد كان يدخلها كل عام من الضرائب الجمركية ومن الخراج نحو ١٢ر٠٠٠ تالنت أى قدر ما كان يدخل في خزائن أثينة أيام مجدها عشرين مرة ، وكان سراتها يسكنون القصور ويلبسون الملابس الغالية الثمن ويطعمون الأظعمة الشهية . يأتون بها من خارج بلادهم . وازدهمت المدينة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة واشتهرت بما أقيم فيها من الهياكل الفخمة والحمامات العامة ، ولكن أكثر ما كانت تشتهر به موانئها الأمانة وأحواضها الواسعة . وكان في مقابل كل حوض من أحواضها البالغة ٢٢٠ حوضاً عمودان أيونيان Ionic ؛ ومن ثم أضحى الميناء الداخلى ذا شكل مستدير فخم يحيط به ٤٤٠ عموداً ، وكان يوصل هذا الميناء بالسوق العامة طريق واسع به ميدان ذو عمد ، تزينه تماثيل يونانية ، وتقوم على جانبيه الأبنية المحتوية على المصالح الحكومية ، والمكاتب التجارية ، ودور القضاء والعبادة . أما الشوارع التي تجاور هذا الطريق فكانت ضيقة كعظم شوارع البلاد الشرقية ، وكانت ملأى بالحوانيت التي تقوم فيها الصناعات المختلفة وتعقد فيها آلاف الصفقات التجارية . وكانت بيوتها ترتفع في الجوى إلى ستة أطياق ؛ وكثيراً ما كانت الحجر الواحدة تضم أسرة بأكملها . وكان في وسط المدينة ربوة عالية أو قلعة - كانت هي وغيرها من المعالم مما أوحى إلى الرومان بالصورة التي أقاموا عليها مدينتهم - تسمى « البورصة » *Byrsa* ، وتضم بيت المال ، ومضرب

النقود ، وكثيراً من المزارات والعمد ، وأفخم معبد في قرطاجنة كلها وهو معبد الإله العظيم إشمون Eshmun ، وكان يحيط بالمدينة من ناحيتها الأرضية غير البحرية سور من ثلاثة جدران يرتفع خمساً وأربعين قدماً في الهواء ، ومن فوقه أبراج وشرفات ، ومن داخل الأسوار فضاء يتسع لأربعة آلاف حصان وثلاثمائة فيل ، وعشرين ألف رجل (٢) . وفي خارج الأسوار كانت مزارع الأغنياء ومن بعدها حقول الفقراء .

وكان القرطاجنيون من الجنس الساسي وثبتي الصلة باليهود الأقدمين . في دمهم وفي ملامحهم ، وكانت تظهر في لغتهم أحياناً ألفاظ عبرية ، مثال ذلك أنهم كانوا يسمون القضاة شفيتي وتلك هي الكلمة العبرية شفيتيم . وكان الرجال يرسلون لحاهم ولكنهم كان من عادتهم أن يحلقوا شفيتيم . العاليا يشفرات من البرنز . وكان معظمهم يضعون على رؤوسهم قلانس أو عمام ، ويخندون أحذية أو أخفافاً ، ويلبسون جلابيب طويلة فضفاضة ؛ ولكن الطبقات العليا من الأهلين قلدت اليونان في ملابسهم ، وصبغت أثوابها باللون الأرجواني ووشت أطرافها بالخرز الزجاجي . أما النساء فكان في الغالب متحجبات يمين حياة العزلة ؛ وكان في وسعهن أن يبلغن مناصب كهنوتية عالية ، أما فيما عدا ذلك فكان عابهن أن يأسرن الرجال بجاهن . وكان الأهلون جميعاً - رجالا كانوا أو نساء - يتحلون ويتعطرون ويضعون أحياناً حلقات معدنية في أنوفهم . ولسنا نعرف إلا القليل عن أخلاقهم من غير أعدائهم ، فالكتاب اليونان والرومان يصفونهم بالإسراف في الطعام والشراب ، وبأنهم يحبون أن يجتمعوا في نوادي الطعام ، وأنهم إباحيون في علاقاتهم الجنسية فاسدون في شؤونهم السياسية ؛ وكان الرومان المعروفون بالغدر يستعملون لفظ الوفاء القرطاجني Fides Punica مرادفاً للفظ الخيانة . ويقول بوليبيوس أن « لا شيء ينتج عنه كسب يعد عاراً في قرطاجنة (٤) » وبتمهم فلوطرخس ، أهل قرطاجنه بأنهم « خشنو الطباع مكثبون ،

سلسو القيادة في أيدي حكامهم ، قساة على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، إذا خافوا بلغوا منتهى الجبن ، وإذا غضبوا بلغوا منتهى الوحشية ، عنيدون لا يرجعون عن شيء أقروه ، صارمون ، لا يستجيبون إلى دواعي اللهو أو مباحج الحياة^(٥) . ولكن فلوطرخس رغم ما عرف به من العدل في أحكامه كان يونانياً على الدوام ، وأما پولبيوس فكان صديقاً حميماً لسبيو الذى حرق قرطاجنة ومحا آثارها من الوجود

ويبدو القرطاجنيون في أسوأ صورهم في دينهم ، وإن كان كل ما نعرفه عنهم من هذه الناحية قد وصل إلينا عن طريق أعدائهم . لقد كان أسلافهم في فينيقية يعبدون بعل مُملك وعشروت بوصفهما ممثلين لعنصرى الذكر والأنثى في الطبيعة وللشمس والقمر في السماء ؛ وعبد القرطاجنيون إلهين نمائين لها وهما بعل هامان وثانيث . وكانت ثانيث بصفة خاصة تثير حمم وتقواهم ؛ فكانوا يملأون هياكلها بالهدايا ويقسمون باسمها . وبلى هذين الإلهين في التعظيم ملكارت « مفتاح المدينة » ثم إشمون رب الثروة والصحة ، ويأتى من بعد هذه كلها حشد كبير من الآلهة الصغرى تسمى « البعل » أو الأرباب . بل إن ديدو نفسه كان من هذه المعبودات^(٦) . وكانوا في الأزمات العصبية يضعون لبعل - هامان بالأطفال الأحياء ، وكان عدد من يضعون بهم لهذا الإله في اليوم الواحد يبلغ أحياناً ثلاثمائة طفل . وكانت طريقتهم في هذه التضحية أن يضعوا الأطفال فوق زراعى هذا الوثن المبسوطين ، ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ، وكان يطغى على صياحهم أصوات الأبواق والدفوف ، ويطلب إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر دون توجع أو بكاء لئلا يتهمن بالكفر ويخسرن ما هو خليق بهن من رضاء الآلهة . وتطورت الأمور بعد ذلك فكان الأغنياء يأبون أن يضحوا بأطفالهم وابتاعوا بدلاً منهم أطفال الفقراء ، فلما أن حاصر أجذكليز Agathocles صاحب سرقوسة Syracuse مدينة قرطاجنة خشيت الطبقات العليا من أهل المدينة أن يكون احتياها وتهربها من واجها المقدس قد أغضب الآلهة فألقت في النار مائتين

من أبناء الأشراف (٧) . على أن من واجبتنا أن نضيف إلى ههنا أن تلك القصص إنما يقصها علينا ديودور وهو يوناني من أهل صقلية لا يستكشف أن يشهد ما اعتاده اليونان من قتل أطفالهم وهو هادئ مطمئن . وليس بعيد أن يكون منشأ هذه العادة القرطاجنية عادة التضحية بالأطفال أن أولئك القوم أرادوا أن يصبغوا ما يبذلون من الجهد لضبط النسل بصبغة التقى والصلاح .

ولما أن دمر الرومان قرطاجنة أهدوا ما وجدوه فيها من المكتبات إلى أحلافهم من أهل إفريقية . ولكن هذه الكتب لم يبق منها إلا كتاب هنو الذى سجل فيه رحلته وشذرات من كتاب ماجو فى الزراعة ، ويؤكد لنا القديس أوغسطين تأكيداً يكتنفه شيء من الغموض أنه « كان فى قرطاجنة كثير من الأشياء التى نخلدت ذكرها فى عقول من خلفهم من الناس (٨) » ، وقد استعان سلاست Sallust وجوبا Juba بما كتبه المؤرخون القرطاجنيون ، ولكننا لا نجد لدينا تاريخاً لقرطاجنة كتبه مؤرخ من أبنائها . أما عمارتها فحسبنا أن نقول عنها إن الرومان لم يتركوا فيها حجراً على حجر ، ويقص علينا بعضهم أن طراز مبانيها كان مزيجاً من الطرازين الفينيقى واليونانى ، وأن هياكلها كانت ضخمة مزخرفة ، وأن هيكل بعل - هامان وتمثاله كانا مصفحين بألواح من الذهب تقدر قيمتها بألف وزنة (تالت) ، وأن اليونان أنفسهم مع ما عرف عنهم من زهو وكبرياء كانوا يعدون قرطاجنة من أجمل العواصم فى العالم كله . ويحتوى متحف تونس على قطع من نوابيت الموقى وجدت فى مقابر بالقرب من موقع قرطاجنة ، أجملها كلها صورة جميلة واضحة المعارف ، لعلها صورة تانيث ، يونانية الطابع فى جوهرها وثمة تماثيل صغرى استخرجت من القبور القرطاجنية فى جزائر البليار ، ولكنها فجأة خالية من الدقة ، وكثيراً ما تكون بشعة لا تطيق العين رؤيتها كأنها صنعت لإرهاب الأطفال أو طرد الشياطين . أما ما بقى من الخرف فيدل على أن هذا الفن كان يقصد إلى النفع لا إلى الجمال الفنى ، ولكننا نعرف أن الصناع

القرطاجين قد أخرجوا نماذج طيبة من المنسوجات ، والحلى ، والنقش .
على العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج .

وليس في استطاعتنا في الوقت الحاضر أن نرسم أية صورة واضحة
للحكومة القرطاجية . وقد أثنى أرسطوطاليس على دستور قرطاجنة ووصفه
بأنه « أرق من سائر دساتير العالم في كثير من نواحيه » ، وذلك « لأن الدولة
تعد حسنة النظام إذا كان العامة أوفياء لدستورها على الدوام ، وإذا لم
يثر فيها نزاع أثيم يستحق الذكر ، وإذا لم يستطع أحد أن ينصب نفسه
دكتاتوراً فيها (١٠) » ؛ وكان أهلها يجتمعون من آن إلى آن في جمعية وطنية
من حقها أن تقبل أو ترفض ما يعرضه عليها من الاقتراحات مجلس الشيوخ
المكون من ثلثمائة من أهل المدينة الكبار ، ولا حق لها في مناقشتها أو تعديلها .
على أن مجلس الشيوخ نفسه لم يكن يحتم عليه أن يعرض على الجمعية أى
مشروع في وسع أعضائه أن يتفقوا عليه (١١) . وكان السكان هم الذين
يختارون الشيوخ ، غير أن الرشا العلنية قد أنقصت من مزايا هذه الإجراءات
الديمقراطية ومن أخطارها ، وأحلت أليارية المال محل أرستقراطية المولد .
وكانت الجمعية الوطنية تختارها في كل عام شفيتين Shofetes لرأسا الناحيتين .
القضائية والإدارية في الدولة . وكان من فوق الهيئات القضائية والإدارية
جميعاً محكمة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة يقعون في مناصبهم مدى الحياة ،
وإن كان القانون لا يميز هذا البقاء . وإذا كان من حق هذه المحكمة أن
تشرف على جميع فروع الإدارة ، أن تستدعى كل موظف عمومي بعد انتهاء
مدة خدمته لتحاسبه على أعماله ، فقد أصبحت قبيل الحروب البونية هي
السيطرة على جميع الإدارات الحكومية والمشرقة على جميع المواطنين .

وكان مجلس الشيوخ هو الذى يرشح القائد الأعلى للجيش ، على أن تختاره
الجمعية من بين المرشحين . وكان مركزه خيراً من مركز القنصل في رومة لأنه
كان في وسعه أن يبقى في منصبه طوال المدة التي يرغب مجلس الشيوخ أن يبقى

فيه ه لكن الرومان قد سيروا على قرطاجنة جحافل من ملاك الأراضى الوطنيين ، على حين أن الجيش القرطاجنى كان مؤلفاً من مرتزقة الجند الأجانب معظمهم من اللوبيين الذين لا يشعرون نحو قرطاجنة بأقل عاطفة وطنية ، ولا يدينون بالولاء إلا لمن يودى إليهم أجورهم ، ولقائدهم فى بعض الأحيان . وما من شك فى أن الأسطول القرطاجنى كان فى أيامه أقوى أساطيل للعالم على الإطلاق ، فقد كانت خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، زاهية الألوان ، رفيعة ، سريعة ، ترد المعتدين على مستعمرات قرطاجنة وأسواقها ومسالكها التجارية . وكان فتح هذا الجيش القرطاجنى لصقلية ، وإفقال هذا الأسطول حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة الرومانية ، منشأ الصراع المرير الذى دام نحو مائة عام والمعروف باسم الحروب البونية الثلاث .

الفصل الثاني

رجيولوس Regulus

لقد ظلت الأمتان صديقتين طالما كان لإحدهما من القوة ما تستطيع به أن تسيطر على الأخرى . وقد عقدتا في عام ٥٠٨ معاهدة اغترفتا فيها بسيادة رومة على شاطئ لانيوم وتمهد فيها الرومان ألا يسيروا سفنهم في البحر الأبيض المتوسط غربي قرطاجنة ، وألا ينزلوا في سردانية أو لويبة إلا فترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يمونونها (١٢) . ويقول أحد الجغرافيين اليونان إن القرطاجنيين اعتادوا أن يفرقوا كل بحار أجنبي يجدونه بين سردانية وجبل طارق (١٣) . وكان اليونان في مساليا *Massalia* (مرساليا) قد نشأت لهم تجارة شاطئية سلمية بين جنوبي غالة وشمالي أسبانيا الغربي ؛ وتروى الأخبار أن قرطاجنة كانت تحارب هذه التجاره حروب قرصنة ، وأن مساليا كانت حليفة وفيه لرومة (ولسنا ندرى ما في هذه الأخبار من دعاوة حربية يسمونها تاريخياً تكريراً لها وتعظيماً) . أما وقد سيطرت رومة على جميع إيطاليا فلإنها لم تكن تشعر بالأمن والطمأنينة إلى سلامتها ما دامت هناك قوتان معاديتان لها - اليونان والقرطاجنيون - تتملكان صقلية ، وهي لا تكاد تبعد عن ساحل إيطاليا بميل واحد . يضاف إلى هذا أن صقلية خصبة التربة ، في وسعها أن تمون نصف إيطاليا بالحبوب ؛ وإذا ما استولت رومة على صقلية سقطت سردانية وقورسقة في يدها من تلقاء نفسها . فهاهو ذا طريق لا بد من سلوكه وهو الطريق الطبيعي لتوضع رومة وبسطة ملكها .

وقد بقي أن توجد الحججة التي تتلوع بها رومة لإشعال نار الحرب . وقد جاءت هذه الحججة في عام ٢٦٤ ق . م حين استولى جماعة من مرتزقة السمنين يسمون أنفسهم المررتين *Mamertines* أي « رجال المريخ » على بلدة مسانا

Messana الواقعة على أقرب سواحل صقلية لإيطاليا ، وذبحوا السكان اليونان أو أخرجوهم من البلدة ، واقتسموا فيما بينهم نساء هؤلاء الضحايا وأبناءهم وأملاكهم ؛ وجعلوا دينهم الإغارة على المدن اليونانية القريبة من تلك البلدة ؛ فما كان من هيروداثان Hiero II دكتاتور سرقوسة إلا أن حاصرهم ، ولكن قوة قرطاجية نزلت في مسانا وردت هيروداثان على أعقابها واستولت على المدينة . واستغاث المرتبون برومة وطلبوا إليها أن تعينهم على من أنقذوهم من عدوهم ؛ وتردد مجلس الشيوخ في تقديم هذه المعونة لأنه يعرف ما لقرطاجنة من قوة وثروة ، ولكن الأثرياء من العامة الذين كانوا يسيطرون على الجمعية المثوية أخذوا يدعون للحرب وللإستيلاء على صقلية ؛ وقرقرار رومة أن تبعد القرطاجيين عن هذا الثغر ذى الموقع الحربى الهام القريب كل القرب منها مهما كلفها هذا من ثمن ؛ وجهزت رومة أسطولا وعقدت لواءه لكيوس كلوديوس Caius Claudius وسيرته لإنقاذ المرتبين ، ولكن القرطاجيين استطاعوا في هذه الأثناء أن يقنعوا المرتبين بالعدول عن طلب مساعدة رومة ، وأرسلوا رسالة بهذا المعنى إلى كلوديوس في ريجيوم Rhegium . غير أن كلوديوس لم يأتى بالآلى هذه الرسالة ، وعبر المضيق الذى يفصل إيطاليا عن صقلية ، ودعا أمير البحر القرطاجنى إلى المفاوضات ؛ فلما جاءه قبض عليه وسجنه ، وبعث إلى الجيش القرطاجنى يقول إنه سيقتل أمير البحر إذا أبدى الجيش أية مقاومة ؛ ورحب الجنود المرتزقة بهذه الحججة التى تتيح لهم فرصة تجنب القتال مع الفيالق الرومانية ، وتظهرهم فى الوقت نفسه بمظهر الثمامة ، وسقطت مسانا فى يد رومة .

وبرز فى هذه الحرب الهونية (الفينيقية) الأولى بطلان عظيمان هما رجيولوس الرومانى وهملكار القرطاجنى . ولعل فى وسعنا أن نضيف إليهما بطالاناً ثالثاً ورابعاً هما مجلس شيوخ رومة والشعب الرومانى . فأما مجلس الشيوخ فلأنه ضم هيروداثان صاحب سرقوسة إلى جانب رومة وضمن بذلك وصول العتاد والزراد إلى الجنود

الرومان في صقلية ، هذا إلى أنه قد نظم الأمة أحسن تنظيم قائم على الحكمة والسداد ، وقوى عزيمتها ، وقادها إلى النصر وسط الخطوب والأهوال الجسام هذا فضل مجلس الشيوخ ، أما الرومان أنفسهم فقد أمدوا الحكومة بالمال والعتاد والأيدى العاملة ، وبالرجال الذين بنوا لرومة أسطولها الأول - وكان مؤلفاً من ٣٣٠ سفينة كلها تقريباً ذات خمسة صفوف من المجدفين ، ويبلغ طول الواحدة منها ١٥٠ قدماً ، في كل منها ٣٠٠ مجدف و ١٢٠ جندياً ، ومعظمها مجهز بخطاطيف من الحديد لم تكن معروفة من قبل ، ويجسور متحركة تمكنهم من الإمساك بسفن الأعداء والنزول إليها . وبهذه الطريقة بدل الرومان الحرب البحرية التي لم يألّفوها من قبل حرباً برية يقاتلون فيها أعداءهم يدأ بيد ، وتستطيع فيها فيالقهم أن تستفيد بكل ما تمتاز به من مهارة وحسن نظام . ويقول پولبيوس في هذا : « وبدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعزموا القيام بعمل خطير . . . ذلك أنهم لم يفكروا قط قبل هذا الحرب في إنشاء أسطول ؛ فلما أن استقر رأيهم على إنشائه بذلوا في ذلك جهد الجبايرة ، وهاجوا به من فورهم القرطاجنيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع - مع أن الرومان لم تكن لهم في حرب البحار خبرة ما (١٤) » . وألّقت الأسطولان بالقرب من إكنوموس Ecnomus أحد الثغور الواقعة على ساحل صقلية الجنوبي ؛ وكانا يحملان من الجند ثلثمائة ألف . ودارت بينهما أكبر معركة بحرية في التاريخ القديم (٢٥٦) . وانتصر الرومان فيها انتصاراً مؤزراً حاسماً ساروا بعده إلى إفريقية لا يلبون على شيء ، ونزلوا إلى البر دون أن يعنوا باستطلاع الأرض ، فالتقوا بقوة تفوق قوتهم كادت تفنيهم عن آخرهم ، وأسرت قنصلهم الطائش المتهور . وبعده قليل من ذلك الوقت دفعت العواصف الأسطول الروماني إلى شاطئ صخري فتحطمت منه ٢٨٤ سفينة وغرق ٨٠,٠٠٠ من رجاله . وكانت هذه أعظم كارثة بحرية عرفها الناس في التاريخ . وأظهر

الرومان بعدها ما في طبائعهم من عزيمة فبنوا في ثلاثة أشهر مائتي سفينة جديدة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار .

واحتفظ القرطاجنيون برجيولوس في الأسر خمس سنين ثم سمحوا له بأن يرافقه بعثة قرطاجنية إلى رومة تعرض عاينها الصلح بعد أن وعدهم بأن يعود إلى الأسر إذا رفض مجلس الشيوخ الشروط التي عرضوها عليه . فلما سمع رجيولوس هذه الشروط أشار على المجلس بأن يرفضها ، ثم عاد مع البعثة إلى قرطاجنة غير عابئ بتوسل أسرته وأصدقائه . وعذبه القرطاجنيون عذابا شديداً بأن حرّموا عليه النوم حتى فارق الحياة^(١٥) . وأمسك أبناؤه في رومة بأسيرين من ذوى المكانة في بلادهما ووضعوهما في داخل صندوق ثبتت فيه حراب من الحديد ، وحرّموا عليهما النوم حتى قضيا نحبهما^(١٦) ، وليس في مقدورنا أن نصدق كلتا القصتين إلا حين نذكر ما حدث من التعذيب الهمجى في هذه الأيام^(*) .

(*) يريد في الحروب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

هملكار

لقد كان في قرطاجنة عدد كبير من أهلها يحملون أسماء هملكاه وهزدروبال وهنيبال ، ذلك بأن هذه الأسماء لا يخلو منها جيل من الأجيال ، وكانت من الأسماء الشائعة في أقدم أسرها . وكانت أسماء تدل على التقى والصلاح ، ومشتقة من أسماء الآلهة : فأما هملكار فعناه : « من يتمتع بحماية ملكارت » وأما هزدروبال فعناه : « من في معونته بعل » ومعنى هنيبال « الفضل لبعل » . ولقب هملكار الذي نتحدث عنه في هذا الفصل بهملكار برقة(*) - « الصاعقة » وذلك لأنه كان من طبيعته أن يعجل بضرب عدوه ويفاجئه حينما وجده . وكان لا يزال شاباً في مقتبل العمر حين ولته قرطاجنة في عام ٢٤٧ القيادة العليا لجيوشها ، فسار ومعه أسطول صغير نحو إيطاليا وأخذ يغير على سواحلها ويفاجئها بالنزول في أراضيها ، ويدمر المراكز الرومانية الأمامية ، ويأسر كثيراً من جنودها . ثم أنزل جنوده إلى البر في مواجهة جيش روماني كبير كان يحمي مدينة پنورمس Panormus (پلرمو Palermo الحالية) ، واستولى على ربوة تشرف على المدينة . وكانت القوة التي يقودها أصغر من أن تجازف بالاشتباك مع الرومان في واقعة كبرى ، ولكنها كانت تعود بالأسلاب كلما قادها لمهاجمتهم . وأخذ يرجو مجلس الشيوخ القرطاجني أن يبعث إليه بالأمداد والزراد ؛ ولكن المجلس لم يستجب لرجائه وقبض يده فلم يسعفه بالمال الذي كان يكتنزه ، وأمره أن بطعم جنوده ويكسوهم من مال البلاد التي حوله .

(*) وأكبر الظن أن كلمة « البرق » العربية ترجع هي وهذا اللفظ إلى

أصل واحد . (المترجم)

وكان الأسطول الروماني في هذه الأثناء قد انتصر في واقعة بحرية أخرى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند درپانا Drepana (٢٤٩) ، وأضعفت هذه الحروب قوة الفريقين على السواء فاستراحا تسعة أعوام . ولم تفعل قرطاجنة شيئاً في هذه التسع السنين لأنها كانت تعتمد على عبقرية هملكار ، وأما رومة فإن جماعة من أبنائها قدموا للدولة طائعين عمارة مؤلفة من مائتي سفينة حربية وعليها ستون ألف جندي . وأبحرت هذه العمارة القوية ، دون أن يعلم أحد بإبحارها ، وباغتت الأسطول القرطاجني عند جزائر إيجاديا Aegadian Isles بالقرب من ساحل صقلية وأخذت به فاضطرت قرطاجنة إلى طلب الصلح (٢٤١) ، ونزلت عن أملاكها في صقلية إلى رومة ، وتعهدت أن تؤدي لها غرامة حربية مقدارها ٤٤٠ تالنتاً في كل عام مدى عشر أعوام ، وألغت كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود . وكانت الحرب قد دامت عشرين عاماً أو نحوها وأشرفت رومة في خلالها على هاوية الإفلاس حتى اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها بنحو ٨٣ ٪ ، ولكنها برهنت على ما في أخلاق الرومان من صلابة لا تلبس ، وعلى تفوق الجيش المكون من رجال أحرار على مرتزقة الجنود الذين يسعون للحصول على أعظم المغنم بأقل ما يمكن لإراقته من الدماء .

وأوشكت قرطاجنة أن تقضى عليها شراحتها وأطاعها ؛ ذلك أنها كانت قد قبضت يدها بعض الوقت عن جنودها المرتزقين ، فلم تؤد إليهم أجورهم ، ولم تستثن من هؤلاء من أخلصوا في خدمة هملكار . فأقبلت جموعهم على المدينة يطالبون بتلك الأجور . ولما تلكأت الحكومة في إجابة مطلبهم وحاولت أن تفرقهم توردوا عليها جبهة . وانضمت الشعوب الخاضعة لقرطاجنة إلى هؤلاء العصاة ، وكانت قد أبهظها عبء الضرائب الفادحة الذي رزحت تحته طوال الحرب وباعت . نساء لوبيا حلين لتمد الثوار بالمال ، وحاصر قرطاجنة عشرون ألفاً من الجنود المرتزقين والثوار يقودهم ماثو Matho وهو لوبي محرو واسبنديوس

Spendius وهو عبد كيماني Campanian وكان ذلك الحصار في وقت لا يكاد يوجد فيها جندي يحميها . وارتعدت فرائص التجار الأغنياء فرقاً وخشوا أن يقضى عليهم الثوار ، فأرسلوا في طلب هملكار ليؤمّنهم على حياتهم . وألقى هملكار نفسه يتنازعه عطفه على جنوده المرتزقة وحبه لمدينته ، ولكنه آثر مدينته على جنده وجند جيشاً من عشرة آلاف قرطاجني ودرهم ، وقادهم بنفسه ، ورفع الحصار عن المدينة . وارتد الجنود المرتزقون المهزومون إلى الجبال ، وقطعوا يدي هيسكو Gesco أحد القواد القرطاجنيين وقدميه ، وكسروا ساقيه ، وفعلوا ذلك الفعل نفسه بسبعائة أسير غيره ، ثم ألقوا بمن بقي منهم أحياء في قبر واحد بلا تمييز بينهم (١٧) . واحتال هملكار على أربعين ألفاً من العصاة حتى اضطروهم إلى اللجوء إلى مضيق ، وسد عليهم مسالكه حتى أوشكوا على الهلاك من الجوع ، فأكلوا من بقي لديهم من الأسرى ، ثم أكلوا عبيدهم ، واضطروا في آخر الأمر أن يرسلوا أسينديوس Spendius بطلب الصلح ، فما كان من هملكار إلا أن صلب أسينديوس وألقى بمئات من الأسرى تحت أرجل القبيلة ، وظلت تطوّم حتى قضوا نحبهم . وحاول العصاة أن يشقوا لهم بالقوة مخرجاً من مأزقهم الذي وقعوا فيه ، ولكن جيش هملكار قطع أصلابهم ، وقبض على مائو وأرغمه على أن يعدو في شوارع قرطاجنة وأهلها من ورائه يضربونه بالسياط ويعذبونه حتى مات (١٨) . ودامت « حرب المرتزقة » هذه أربعين شهراً (٢٤١ - ٢٣٧) ، ويقول پوليبوس لأنها كانت أفظع الحروب وأشدها وحشية ، وإن ما سفك فيها من الدماء لم يسفك مثله في التاريخ كله (١٩) . ولما أن نحدت نار الفتنة وجدت قرطاجنة أن الرومان قد احتلوا سردانية . فلما احتجت على هذا الاعتداء أعلن الرومان الحرب عليها . واضطر القرطاجنيون في يأسهم إلى طلب الصلح ولم ينالوه إلا بأن يؤدوا لرومة فوق ما كانوا يؤدون لها من الغرامة ١٢٠٠ تالنت ، وأن يتخلوا عن سردانية وقورسقة .

وفى وسعنا أن نتصور غضب هملكار من هذه المعاملة القاسية التي عوملت بها بلاده . فعرض على حكومته أن تمده بالجنود والمال ليعيد قوة قرطاجنة في أسبانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا . وعارض الملاك الأشراف في هذه الخطة لأنهم كانوا يخافون مغبة الحرب ، ولكن طبقة التجار التي حز في نفوسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أبدته . وتراضت الفئتان بعدئذ على أن يعطى هملكار قوة صغيرة عبر بها البحر إلى أسبانيا (٢٣٨) ، واستولى على المدن التي كان ولاؤها لقرطاجنة قد تزرع في أثناء الحرب ؛ وقوى صفوف جيشه بأهلها ، وجهزه وأمد بالمال من غلات المناجم الأسبانية ، ومات وهو يقود هجوماً على إحدى قبائل تلك البلاد (٢٢٩) .

وترك وراءه في معسكره هزدروبال زوج ابنته وأولاده هنيبال وهزدروبال وماجو - الملقب « بابن أسده » . واختير زوج ابنته قائداً في مكانه ، وظل ثمانين سنة يحكم البلاد بحكمة وسداد كسب في أثناءها معونة الأسبان ، وأقام بجوار مناجم الفضة مدينة عظيمة يعرفها الرومان باسم قرطاجنة الجديدة (Nova Carthage) وهي مدينة قرطاجنة الباقية إلى اليوم . ولما اغتيل في عام ٢٢١ اختار الجيش لقيادته هنيبال أكبر أبناء هملكار ، وكان وقتئذ في السادسة والعشرين من عمره . وكان أبوه قد جاء به قبل أن يغادر قرطاجنة ، وهو لا يزال غلاماً في التاسعة من عمره ، إلى مذبح بعل - هامان واستحلفه أن يثأر لبلاده من رومة في يوم من الأيام .
أقسم هنيبال ولم ينس قط قسمه .

الفصل الرابع

هنيبال

ترى لم سكنت رومة حتى عادت قرطاجنة إلى فتح أسبانيا ؟ لقد أرغمها على هذا السكوت أن النزاع بين الطبقات كان يمزق أحشاءها ، وأنها كانت تمد سلطانها على شواطئ البحر الأدريايوى ، وكانت مشتبكة في حرب مع الغالين . ذلك أن أحد التربيونين وهو كيووس فلامينيوس *Gaius Flaminius* قد سبق ابنى جراكس *Gracchii* فأقنع الجمعية في عام ٢٣٢ بالموافقة على اقتراح يقضى بتوزيع أراضي غنمتها رومة من الغالين على فقراء المواطنين ، وذلك بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ الشديدة لهذا الاقتراح . وفي عام ٢٣٠ خبطت رومة الخطوة الأولى لفتح بلاد اليونان ، وذلك بتطهير البحر الأدريايوى من القراصنة وباستيلائها على جزء من سواحل ألبانيا *Illyria* لتحمى بذلك التجارة الإيطالية من العدوان . ولما أن اطمأنت على سلامتها من ناحيتى الجنوب والشرق اعتزمت أن تطرد الغالين إلى ما وراء جبال الألب ، وتجعل من إيطاليا بأكملها دولة متحدة كل الاتحاد . وأرادت أن تضمن سلامتها من ناحية الغرب فعقدت معاهدة مع هزدروبال تعهد فيها القرطاجنيون بأن يبقوا جنوب نهر الإبرة *Ebro* ، وعقدت في الوقت نفسه حلفاً مع مدينتى ساجنتم *Saguntum* وامپورياس *Ampurias* الأسبانييتين الإغريقيتين الصبغة . ولكن جيشا غالباً مؤلفاً من خمسين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان انقض على شبه الجزيرة من الشمال . وارتاع سكان العاصمة أشد الارتياح ، ولجأ مجلس الشيوخ إلى العادة البدائية عادة التضحية البشرية ، ودفن اثنين من الغالة حين في السوق العامة مرضاة للآلهة (٢٠) . والتقت الفيالق الرومانية بالغزاة قرب تلامون *Telamon* وقتلت منهم أربعين ألفاً وأسرت عشرة

آلاف ، وزحفت نحو الشمال لتخضع جميع بلاد الغالين الواقعة في جنوب جبال الألب ، وأتمت هذا العمل في ثلاث سنين وأنشأت مستعمرات رومانية عند بلاسنتيا Placentia وكرمونا Cremona لحماية البلاد من الغالين وبذلك أصبحت إيطاليا دولة واحدة تمتد من جبال الألب في الشمال إلى صقلية في الجنوب .

ولكن هذا النصر قد جاء في غير أوانه ؛ فلو أن الغالين قد تركوا في أماكنهم بضع سنين أخرى لكان في وسعهم أن يقفوا في وجه هنيبال ؛ أما والحال كما هي فإن بلاد الغالة كلها كانت تضطرم بنار الثورة على رومة . ورأى هنيبال أن هذه هي الفرصة التي طالما تآقت نفسه إليها - فرصة اجتياز بلاد الغالين دون أن يلقى مقاومة تستحق الذكر ، وغزو إيطاليا ومعه القبائل العالية تحالفه وتشد أزره .

وكان القائد البوني يومئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، وفي عنفوان شبابه ، وثيق الأركان ثبت الجنان . وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجيين ، وتمكنهم من لغتي فينيقية واليونان وأداهما وتاريخهما (٢١) ، جمع إلى هذه الثقافة تدريباً عسكرياً دام تسعة عشر عاماً في المعسكر الحربي ، أدب في خلالها نفسه أحسن تأديب ، فعود جسمه شظف العيش ومغالبة الصعاب ، وأخضع شهواته لعقله ، وعود لسانه السكوت ، كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض . ولم يكن يضارعه أحد في الجري أو في سباق الخيل ، وكان في مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ؛ ويصفه ابني وهو من أعدائه بأنه : « كان أول من يدخل المعركة ، وآخر من يخرج من الميدان (٢٢) » . وكان محبباً إلى القواد والجنود الذين ضرستهم الحروب ، لأنهم إذا كانوا في حضرته تماكثهم هيبتة وثاقب نظراته فخالوا أن همليكار قائدهم الأكبر قد عاد إليهم في عنفوان الشباب . وأحبه المجندون الجدد لأنه لم يكن يرتدى ثياباً يميز

بها نفسه منهم ولا يستريح حتى يكفل للجيش كل حاجاته ، وكان يقاسمهم كل ما يصيبهم من شر وخير . أما الرومان فكانوا يتهمونهم بالبخل والقسوة والغدر ، لأنه لم يكن يتقيد بمبدأ من المبادئ يحول بينه وبين الاستيلاء على المؤن لجنده ، وكان يجازى على الخيانة وعدم الولاء أشد الجزاء ، وكان ينصب لأعدائه كثيراً من الشرك . ولكننا كثيراً ما نجد مشفقاً رحماً ، ونراه على الدوام شهماً ذا مروءة . ويقول عنه ممسن **Mommsen** ذلك القول الحكيم وهو « أنه ليس فيها يروى عنه شيء لا يمكن أن تبرره ظروف وقته والقوانين الدولية التي كانت سائدة في أيامه (٢٣) » . ولم يكن في وسع الرومان أن يرضوا عنه لأنه كان يكسب الوقائع الحربية بعقله بدماء رجاله ، ذلك أن الحيل التي كان يحنال بها عليهم ، ومهارته في التجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، وعلمه بفنون الحرب والحركات العسكرية ، وقدرته على مباغته أعدائه ، كل هذا ظل فوق إدراكهم وتقديرهم حتى دمرت قرطاجنة .

وحدث في عام ٢١٩ ق . م أن دبر عمال رومة في سجنتم انقلاباً سياسياً أقام في المدينة حكومة وطنية معادية لقرطاجنة . ولما أساء أهل المدينة معاملة بعض القبائل الموالية لهنيبال ، أمرهم بالكف عن هذه المعاملة السيئة ، فلما رفضوا طلبه حاصر المدينة ، فاحتجت رومة على قرطاجنة وأندرتها بالحرب ؛ فكان رد قرطاجنة أن سجنتم تبعد عن نهر لبره **Ebro** مائة ميل نحو الجنوب ، وأن ليس من حق رومة أن تتدخل في هذا النزاع ، وأنها إذ وقعت معاهدة مع تلك المدينة أحلت بشروط معاهدتها مع هزدروبال . وواصل هنيبال الحصار ، وامتشقت رومة الحسام مرة أخرى ، وهي لا تدري أن هذه الحرب الهونية الثانية ستكون أشد هولاً من جميع الحروب التي خاضت غمارها في تاريخها كله .

وقضى هنيبال في إخضاع أهل سجنتم ثمانية أشهر كاملة ، وذلك لأنه لم يكن يجرؤ على التقدم لغزو إيطاليا ويترك لرومة من ورائه ثغراً هاماً

تستطيع أن تنزل جنودها فيه . فلما تم له الاستيلاء عليها عبر نهر الإبرة في عام ٢١٨ وتحدى الأقدار كما تحداها قيصر من بعده حين تخطى الريبكون(*) Rubicon وكان تحت قيادته جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان ، ليس فيهم أحد من الجنود المرتزقين ، ومعظمهم من الأسبان واللويين . ولكن ثلاثة آلاف من جنوده الإسبان نكصوا على أعقابهم حين علموا أنه ينتوى عبور جبال الألب ؛ وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجوا على هذه المغامرة ، وقالوا إنها مستحيلة التحقيق(٢٤) . وكان اختراق جبال البرانس نفسها من أشق الأعمال ؛ ولم يكن يتوقع قط أن يلقى ما لقيه من المقاومة الشديدة من بعض قبائل الغالين أحلاف مرسيقية ؛ واقتضاه الوصول إلى نهر الرون حروباً دامت ثمانية أشهر ، فلما وصله كان لا بد له من معركة عنيفة ليتمكن من اجتيازه . وما كاد يعتمد عن شاطئيه حتى وصل جيش روماني عند مصبه .

واتجه هنيبال بجيشه شمالاً نحو فين Vienne ثم اتجه به شرقاً نحو جبال الألب . وكانت جموع من الكلت قد عبرت هذه السلاسل الجبلية من قبله . وكان في مقدوره هو أن يعبرها دون أن يلقى في سبيل ذلك صعاباً غير عادية لولا عداء القبائل الألبية وما عاناه من الصعاب في تسيير فيلته في الممرات الضيقة أو الشديدة الانحدار . وقضى هنيبال في تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها في أوائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدتها مغطاة بالثلوج ؛ وبعد أن استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع في النزول في ممرات أشد وعورة من التي سلكها في الصعود ، وطرق مغطاة في بعض الأحيان بجلاميد من الصخر ومرصوفة في أحيان أخرى بالجليد . وكثيراً ما كانت تزال أقدام الجنود والدواب فتتردى في هاويات سحيقة تلتقي فيها حثفها . وكان هنيبال يستحث جنوده اليائسين بأن يشير إلى الحقول الناضرة والمجاري المتلألئة التي تنتشر من بعيد في جنوب الجبال ، ويقول

(*) انظر هذا في تاريخ قيصر فيما بعد . (المترجم)

إن هذه الجئنة التي وعدهم بها سوف تكون لهم بعد قليل . وبعد أن قضوا سبعة عشر يوماً في الصعود والهبوط وصلوا إلى السهول ، وألقوا عصا التسيار ليستريحوا ، وقد خسر الجيش في هذه المجازفة الخطيرة كثيراً من الرجال والجياد حتى لم يبق من الجنود إلا ستة وعشرون ألفاً أى أقل من نصف القوة التي غادرها قرطاجنة الجديدة منذ أربعة شهور . ولو أن هنيبال لقي بن الغالين في جنوب الأرض مثل ما لقيه من مقاومة الغالين في غربها لكان الأرجح أن تنتهي حملته قبل أن يتقدم جنوباً في إيطاليا ولكن البوئي Boii وغيرهم من القبائل رحبوا به ورأوا فيه منقذاً لهم ، فتحالفوا معه وانضووا تحت لوائه ، وأما المستعمرون الرومان المحدثون الذين أسكنتهم رومة في تلك البلاد فقد فروا أمامه نحو الجنوب ، ولم يقفوا حتى عبروا نهر البو Po .

وهكذا واجه مجلس الشيوخ هذا الخطر الثاني يهدد رومة بالدمار والفناء ولما يئس على الخطر الأول إلا نحو سبع سنين ، فاستعان بموارد البلاد كلها ، وأهاب بالولايات الإيطالية أن توحد جهودها للدفاع عن بلادها . وبفضل ما لقيته من معونتها جندت رومة جيوشا بلغت عدتها ثلثمائة ألف من المشاة ، وأربعة عشر ألفاً من الفرسان ، وستة وخمسين ألفاً وأربعمائة ألف من الجنود الاحتياطيين . والتقى أحد الجيوش الرومانية بقيادة سيبو Scipio - وهو واحد من كثير من مشهورى القواد المسلمين بهذا الاسم - على شاطئ نهر تسيانو Ticino ، وهو رافد صغير من روافد نهر البو يلتقى به عند بافيا Pavia . وهاجم فرسان هنيبال النوميديون Numidian جنود سيبو ولولهم الأدبار ، وجرح سيبو جرحاً خطيراً ، وكاد أعداؤه يجهزون عليه لولا شجاعة ولده الذي شاءت الأقدار أن يلقي هنيبال مرة أخرى عند زاما Zama بعد ستة أشهر من ذلك الوقت . والتقى هنيبال بجيش روماني آخر عند بحيرة ترزميني Trasimene تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل يقوده ليريون كيبوس . ذكش Caius Flaminius ، ويتبعه عدد من النخاسين

يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين يأملون أن يبيعهم في الأسواق. يبيع العبيد . واستطاع هنيبال.ومعه جزء من جيشه أن يخدع جيش فلامينيوس فيستدرجه إلى سهل تكتنفه التلال والغابات اختبأ فيها معظم جنوده ؛ فلما ضمه هذا السهل أشار إلى طوابيره المختبئة فانقضت على الرومان من كل الجهات وأفتتهم عن آخرهم تقريباً ؛ وقتل فلامينيوس نفسه (٢١٧) .

وبذلك سيطر هنيبال على شمال إيطاليا كله ، ولكنه كان يعرف أن أمامه عدواً عنيداً يبلغ عدده عشرة أضعاف عدد رجاله ، وكان أملة الوحيد في التغلب على هذا العدو هو أن يقنع بعض الولايات الإيطالية بالخروج على رومة . وكانت وسيلته إلى هذا أن أطلق سراح كل من وقع في أسره من أحلاف رومة ، وقال إنه لم يأت ليحارب إيطاليا بل جاء ليحررها من الاستعمار . ثم خاض إتروريا التي كانت تمرها المياه ، وظل أربعة أيام كاملة لا يجد أرضاً جافة يقيم فيها معسكره ، فعبر جبال الأبين إلى شاطئ البحر الأدرياي ، حيث سمح لجنوده أن يقضوا فترة طويلة يستعيدون فيها نشاطهم ، ويداونون فيها جراحهم ، وكان هو نفسه مصاباً برمد خطير في عينيه ، ولكنه لم يعالجه فانتهى بفقد إحداها . وبعد أن استراح جيشه اتجه به نحو الجنوب بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقي ، وأخذ يعرض على القبائل الإيطالية أن تنضوى تحت لوائه ، ولكن واحدة منها لم تستجب لدعوته ، بل فعلت عكس هذا فكانت كل مدينة تغلق أبوابها دونه وتناهب للقتال . وحينما اتجه إلى الجنوب أخذ حلفاؤه الغاليون يتخلون عنه لأنهم لم يكن يعينهم إلا مصير موطنهم في الشمال . وبلغ من كثرة المؤامرات التي دبرت لاغتياله أن صار يتخفى في كل يوم بشكل جديد . وأخذ يتوسل إلى حكومته أن ترسل إليه المدد والعتاد والزاد عن طريق أحد الثغور الواقعة على البحر الأدرياي ، ولكن حكومته خيبت رجاءه ، فطلب إلى هز دروبال أخيه الأصغر - وكان قد تركه في أسبانيا - أن يعد فيها جيشاً يعبر به بلاد غالة وجبال الألب وينضم

إليه ؛ ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ، فلم يجرؤ هزدروبال على مغادرتها ؛ ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته .

واستعانت رومة على عدوها الأكبر بخطته هو نفسه ، خطة المراوغة والحيلة والإفناء البطيء . واختير كونتس فابيوس مكسموس **Quintus Fabius Makimus** دكتاتوراً لعلاج الموقف في عام ٢١٧ ، فاتبع خطة تقضى بأن يؤخر ما استطاع الانتحام في واقعة فاصلة مع هنيبال . ونجح في هذا نجاحاً اشترك معه من اسمه وصف لهذا النوع من القتال . وكان فابيوس يرى أن الغزاة سيتناقص عددهم على مر الأيام بفعل الجوع والمرض والشقاق ، ولكن الشعب الروماني لم يطق صبراً على خطة « السكون السديدة » أكثر من عام ؛ وتغلّبت الجمعية المثوية على مجلس الشيوخ وعلى منطلق الحوادث والسوابق جميعها ، واختارت منوسيوس روفوس **Minucius Rufus** دكتاتوراً مع فابيوس . وسار منوسيوس للملاقاة العدو على الرغم من نصيحة فابيوس ، فوقع في كمين وهزم هزيمة منكزة أدرك بعدها لم قال هنيبال إنه يخشى فابيوس الذي لم يحاربه أشد مما يخشى مرسلس **Marcellus** الذي يبغي حربه (٢٥) . وبعد عام واحد أسقط الرومان فابيوس وعهدوا إلى لوسيوس إيميليوس پولوس **Lucius Aemilius Paulus** ، وكيرس ترنديوس فارو **Caius Terentius Varro** قيادة الجيوش الرومانية . وأشار پولوس الأرستقراطي بالحيلة والتريث ، أما فارو مختار العامة فكان شديد الرغبة في العمل العاجل ، وحدث ما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال فتغلّبت الرأي الأخير ، وأخذ فارو يبحث عن القرطاجنيين حتى وجدهم عند كاني **Cannae** من أعمال أبوليا **Apulia** على بعد عشرة أميال أو نحوه من شاطئ البحر الأدرياتي . وكان قوام الجيش الروماني ثمانين ألف راجل وستة آلاف فارس ؛ أما هنيبال فكان لديه تسعة عشر ألف جندي ممن ضرستهم الحروب ، وستة عشر ألفاً من الغالين الذين لا يوثق بهم ، وعشرة آلاف من الفرسان ؛ وكان قد خدع فارو حتى جعله يحاربه في سهل

متسع هو أحسن المواضع لحرب الفرسان ، وكان قد وضع الغالين في القلب لظنه أنهم سيتخلون عن مواقعهم ؛ وقد صدق ظنه فتراجعوا واقتنى الرومان أثرهم في الثغرة التي حدثت بانسحابهم ، فأمر القائد القرطاجنى الماكر مضرسة جنده بالإطباق على جناحى الجيش الرومانى ، ونخاض بنفسه غمار المعركة فى أشد أماكنها هولاً ، كما أمر فرسانه باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية من خلفها ، وبذلك أحاط القرطاجنيون بالجيش الرومانى ، ولم يجد له فرصة للتحرك ، وكاد يفنى عن آخره ؛ فقد قتل من رجاله أربعة وأربعون ألفاً ، من بينهم پولوس Paulus وثمانون من الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش ، وفر عشرة آلاف إلى كنوزيوم Canusium ومن بينهم فارو وسببىو الذى لقب فيما بعد بالإفريقى الأكبر Africanus Major (٢١٦) . أما هنيبال فقد خسر من رجاله ستة آلاف ثلاثهم من الغالين . وكان نصره هذا شاهداً فذاً على براعته فى القيادة التى لم يتفوق عليه أحد فيها فى التاريخ كله . ولم يعد الرومان بعد هذا النصر يعتمدون قط على الجنود المشاة ، كما أن هذا النصر وجه الحركات العسكرية الفنية وجهة لم تتحول عنها مدى ألقى عام .

الفصل الخامس

سبيو

وزعزت هذه الكارثة هنية رومة في جنوبي إيطاليا وضعصت سلطاتها ، فانضم السمنيون والبروتيون واللوكانيون وأهل متابنتم ، وثوراي ، وكروتونا ، ولوكري ، وكپوالا إلى الغالين الجنوبيين في حلفهم مع هنيبال ، ولم يثبت على الولاء لرومة إلا أمبريا ، ولانيوم ، وإتورريا . وظل هرو صاحب سرقوسة وذا حتى مماته ، ولكن خلفه جهه بانضمامه إلى قرطاجنة . وتحالف فيلب الخامس ملك مقدونية مع هنيبال لأنه كان يحشى أن يسطر رومة سلطاتها على البلاد الواقعة في شرق أوربا عن طريق إيليريا Illyria ، وأعلن الحرب على رومة . وأظهرت قرطاجنة نفسها شيئاً من الاهتمام بالأمر فبعثت إلى هنيبال بقليل من الزاد والعتاد ؛ وظن بعض الشبان من النبلاء الذين نجوا من كارثة كنوزيوم أن لا أمل لرومة في النجاة ، وفكروا في الهرب إلى بلاد اليونان ، ولكن سبيو ظل يندد بموقفهم حتى استحووا ودبت فيهم روح الشجاعة . وقضت رومة شهراً كاملاً وهي في أشد حالات الروع ؛ ولم يكن فيها إلا حامية قليلة تدفع عنها هنيبال إذا ما هاجمها . وهرعت كرائم العقائل إلى الهياكل يبكين وينظفون بشعورهن تماثيل الآلهة ، وعاشرت بعض النساء اللاتي قتل أزواجهن وأبناؤهن في الحروب الأجانب والرقيق خشية أن ينقطع نسلهن ، وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبي فأحل مرة أخرى التضحية بالأدميين مرضاة لها ، وأمر بدفن اثنين من الغالين واثنين من اليونان أحياء (٢٦) .

ولكن الرومان على حد قول بوليبيوس إنما « يُخشون أشد الخشية في ساعة

(*) Samnites, Bruttians, Lucanians, Metapontum, Thurii, Cotoza, Locri, Capua

المحنة وشاهد ذلك أنهم وإن منوا بأشد المزامم ، وخسروا سمعهم الحربية ، استطاعوا ، بفضل ما كان لدستورهم من المزايا التي لا يشاركه فيها دستور غيره ، وبالاستماع إلى حسن المشورة ، أن يستردوا سيادتهم على إيطاليا وأن يصبحوا بعد قليل من السنين سادة العالم (٢٧) » وفي هذه الساعة الرهيبة سكنت حرب الطبقات ، وتدافعت كل الطوائف للعمل على إنقاذ الدولة . وكانت الضرائب قبل ذلك الوقت قد ارتفعت حتى ظن أنهم لن يطبقوها ، ولكن السكان ، ومنهم الأرمال والأطفال ، تقدموا راضين لخزينة الدولة بما كانوا قد ادخروه لأيام الشدة ، وجند كل رجل قادر على حمل السلاح ، وحتى الأرقاء قد قبلوا في الفياق ووعدهم أسيادهم بأن يهبهم حريتهم إذا كتب النصر لرومة ، ولم يرض جندي واحد أن يتناول عن عمله أجراً ، واستعدت رومة لتنازع أسد قرطاجنة الحديد كل شبر من أرضها ،

وانتظرت رومة مجيء هنيبال ، ولكن هنيبال ، لم يأت إليها فقد ظن أن قوته المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أقل من أن تحاصر مدينة تتجمع للدفاع عنها جيوش من جميع الولايات التي لا تزال موالية لها ، ولا يستطيع الاحتفاظ بها لو أنه استولى عليها . هذا إلى أن أحلافه من الإيطاليين لم يكونوا مصدر قوة له بل كانوا مصدر ضعف ، فقد كانت رومة وأصدقائها يعدان العدة لمهاجمة أولئك الأحلاف ، وإذا لم يخف هو لتجدتهم فسيقضى عليهم . وقد لامه رجاله على حذره وبطئه ، وقال له واحد منهم والأسف يحز في نفسه : « إن الآلهة لم تمنح كل مواهبها لرجل واحد ، إنك يا هنيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لا تعرف كيف تنتفع به (٢٨) » . لكن هنيبال استقر رأيه على أن ينتظر حتى تنضم إليه قرطاجنة ومقدونية ، وسرقوسة فيؤلف منها حلفاً ثلاثياً يستعيد به صقلية وسردانية ، وقورسقة ، وإليريا فلا يكون لرومة قوة إلا في إيطاليا . وبدأ بإطلاق الأسرى جميعهم عدا الرومان ، وحتى هؤلاء عرضهم على رومة نظير فدية قليلة

فلما رفض مجلس الشيوخ أن يفتديهم أرسل معظمهم عبداً إلى قرطاجنة ، وأرغم الباقين على أن يسلموا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً في حلبة الجلاد حتى المات كما يفعل الرومان . ثم أحاط بعدة مدن واستولى عليها وسار بجيوشه ليقضى الشتاء في كبوا Capua .

وكانت كبوا أجمل المدن التي كان في مقدوره أن يختارها لهذه الغاية وأشدّها خطر عليه ، ذلك أن هذه المدينة ، وهي ثانية المدن الإيطالية ، والتي تبعد عن نابلي نحو اثني عشر ميلاً إلى الشمال ، قد أخذت عن التسكانيين واليونان ردائل الحضارة كما أخذت عنهم فضائلها ؛ وأحس جنود هنيبال أن من حقهم أن يستمعوا في ذلك الفصل بالملاذج الجسمية بعدما قاسوا من الصعاب وما أثنخوا من الجراح ؛ ولم يعودوا كما كانوا من قبل أولئك الجند الشداد الذين لا يقهرون ، والذين احتفظوا طوال ما خاضوه من الحروب بالصورة الاسبارطية التي كانت في اعتقاد قائدهم هي وحدها صورة الجندي الحق . وقادهم هنيبال في خلال الخمس السنين التالية وانتصر بهم في بعض الوقائع الصغيرة ، وفي هذه الأثناء ضرب الرومان الحصار على كبوا . وأراد هنيبال أن يرفع عنها الحصار فتقدم إلى رومة حتى لم يبق بينه وبينها إلا بضعة أميال ؛ وجند الرومان خمسا وعشرين فرقة جديدة - أي مائتي ألف رجل ، ولم تكن قوة هنيبال قد زادت على أربعين ألفاً ، فاضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب . وسقطت كبوا في أيدي الرومان عام ٢١١ ، وقطعت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان في المدينة ؛ ومن لم يقتل منهم انتحر ؛ وشنت أهلها الذين ناصروا هنيبال في جميع أنحاء إيطاليا ، وكان مرسلس Marcellus قبل عام واحد من ذلك الوقت قد استولى على سرقوسة وبعد عام منه استسلمت أرجنتم لرومة ؛

وأرسل إلى أسبانيا في هذه الأثناء جيش روماني بقيادة سيبو وأخيه الكبيرين ليناوشا هزدروبال ويشغلاه ، فهزماه عند نهر أبره (٢١٥) ، ولكن القائدين قتلا في الميدان بعد قليل ، وكادت تضيع ثمار ماكسباه

من النصر لولا أن أرسل إلى اسبانيا سيديو الإفريقي **Scipio Afrcanus** ، ابن أحد القائدين وابن أخ الثاني ، ليتولى قيادة الجيوش الرومانية فيها ، ولم يكن سيديو هذا قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت ، ولم تكن هذه السن تميزه من الوجهة القانونية أن يشغل هذا المنصب الخطير ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان في ذلك الوقت لا يرى ضيراً في أن يتجاوز عن حرفية الدستور إذا كان في ذلك التجاوز نجاة للدولة ، وكانت الجمعية قد رضيت مختارة أن تخضع لإرادة مجلس الشيوخ ، ولم يكن الشعب يعجب به لبهاء طلعه وفصاحة لسانه وذكائه وشجاعته فحسب ، بل كان يعجب به كذلك لتقواه ، وعدالته ، وبشاشته . وكان من عادته قبل أن يقدم على أمر خطير أن يناجي الآلهة في الهياكل المقامة على الكيتول ، كما كان من عادته بعد أن ينال النصر أن يكافئها بذيخ سئات من الثيران قرباناً لها . وكان يعتقد ، أولغله كان يتظاهر بالاعتماد ، أنه محبوب الآلهة ؛ وكانت انتصاراته سبباً في انتشار هذه العقيدة بين أتباعه فلأثرت قلوبهم ثقة به . ومالبت أن أعاد النظام إلى الجيش ، واستولى على نوفا كرتاجو (قرطاجنة الجديدة) بعد حصار طويل ، وحرص على أن يبعث إلى خزانة الدولة بما وقع في يديه بعد سقوطها من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة ، واستسلمت له بعدئذ معظم المدن الأسبانية ، ولم يحل عام ٢٠٥ حتى كانت أسبانيا ولاية رومانية .

ولكن قوة هزدروبال الرئيسية كانت قد أفلتت من يد سيديو واجتازت بلاد غالة وعبرت جبال الألب إلى إيطاليا . ووقعت الرسالة التي بعث بها القائد الشاب لهنيبال في يد الرومان وعرفت رومة بخططه الحربية ، والتقى جيش روماني بشهته الصغيرة عند نهر متورس **Metaurus** (٢٠٧) وهزمته وشم مهارته في القيادة . ولما رأى هزدروبال أن قد حاقت به الهزيمة وأن لا أمل له في الوصول إلى أخيه ، قفز في وسط الفيالق الرومانية حيث لقي حتفه . ويقول المؤرخون الرومان - ولعل ما يقرؤونه من نسج الخيال - إن القائد المنتصر قطع رأس القائد الشاب ،

وبعث بها بطريق أبوليا ليقذف بها من فوق الأسوار في معسكر هنيبال ولما علم ذلك القائد بما حل بأخيه ، وكان يحبه أشد الحب ، فت في عضده ، وطفقت جمرته ، فمسح قواته ، وكانت قد قل عديدها ، إلى بروتيوم **Bruttium** : ويقول ليني إن « الرومان لم يشتهكوا معه في حرب في ذلك العام ، ولأنهم لم يجرؤوا على مناوشته ، وذلك لما عرف عن قواته من البسالة وإن كان ركنه قد تضعضع وأخذت الأقدار تعاكسه ، وبدأ نجمه في الأفول (٢٩) » . وأرسلت إليه قرطاجنة مائة سفينة محملة بالزاد والرجال ؛ ولكن عاصفة هوجاء ساقتها إلى سردانية فالتقت فيها بعمارة بحرية رومانية أغرقت وأسرت منها ثمانين ، وانطلقت السفن الباقية عائدة إلى بلادها .

واختير سيبو الأصغر قنصلا في عام ٢٠٥ ولما يمض على انتصاره في أسبانيا إلا وقت قصير ، فوجد جيشاً جديداً وأجر به إلى إفريقية . وطلبت الحكومة القرطاجنية إلى هنيبال أن يعود إلى بلاده ليدافع عن المدينة التي ظلت زمناً طويلاً ترفض معاونته . ترى ماذا كان شعور هذا الجندي الأوروقد تألب عليه أعداء لا حصر لهم فساوقه إلى ركن قصي في إيطاليا ، وشاهد بعينه ما بذله من الجهد وما عاناه من المشاق خلال خمسة عشر عاماً كاملة ينتهي إلى لا شيء ، وكل ما ظفر به من نصر حربي يقضى عليه فلا تكون له نتيجة إلا الفرار من الميدان ؟ لقد أبي نصف جنوده أن يعودوا معه إلى قرطاجنة ، ويقول بعض من يعادونه من المؤرخين إنه أمر بقتل عشرين ألفاً منهم عقاباً لهم لأنهم خالفوا أمره ، ولأنه كان يخشى أن تضمهم رومة إلى فيالقها (٣٠) : فلما أن وطئت قدماه أرض بلاده ، بعد أن غاب عنها ستة وثلاثين عاماً بادر إلى حشد جيش جديد وسار على رأسه لملاقاة سيبو عند زاما Zama على بعد خمسين ميلاً جنوبي قرطاجنة (٢٠٢) : وتقابل القائدان في بداية المعركة مقابلة ودية ، فلما وجد أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما أصدر أمرها ببدء القتال

وهزم هنيبال للمرة الأولى في حياته ، فقد تضعض القرطاجنيون ، وكان معظمهم من الجند المرتزقة ، أمام مشاة الرومان وفرنسا ومسينسا Massinissa ملك نوميديا المجازفين الأبطال . وقاتل هنيبال وهو في سن الخامسة والأربعين كما كان يقاتل وهو في نضرة الشباب ، فهجم على سپيو بنفسه وجرحه ، ثم ثنى بمسينسا ، وأعاد تنظيم قواه بعد أن اختل نظامها أكثر من مرة ، وقادها في هجمات مضادة شديدة على الأعداء . فلما لم يبق له أمل في النصر أفلت من الأسر وسار على ظهر جواده إلى قرطاجنة ، وأعلن أنه لم يخسر الموقعة فحسب بل خسر الحرب كلها معها ، وأشار على مجلس الشيوخ بأن يطلب الصلح . وعامل سپيو القرطاجنيين معاملة الكرام فرضى أن تحتفظ قرطاجنة بأملاكها في إفريقية ، ولكنه طلب إليها أن تسلم لرومة جميع سفنها الحربية عددا عشر من ذات الثلاثة الصفوف من المجذفين ، وألا تشتبك في حرب خارج إفريقية أو داخلها إلا بعد موافقة رومة ، وأن تؤدى إليها غرامة حربية سنوية مقدارها مائتا تالنت أى ما يقرب من ٧٢٠,٠٠٠ ريال أمريكي مدى خمسين عاماً . وأعلن هنيبال أن هذه الشروط عادلة وأشار على مجلس الشيوخ بقبولها .

وغيرت الحرب البونية الثانية وجه البحر الأبيض المتوسط من ناحيته الغربية ، فقد سيطرت رومة بعدها على أسبانيا كلها وما فيها من ثروة فأمدتها بما يلزمها من المال لفتح بلاد اليونان ، وأعدت إلى إيطاليا وحدها تحت سيادة رومة لا ينازعها فيها منازع ، وفتحت جميع الطرق والأسواق للسفن والبضائع الرومانية ؛ ولكنها كانت أكثر الحروب القديمة جميعها نفقة ، فقد خربت مزارع إيطاليا الجنوبية أو ألحقت بها أشد الأضرار ، رهدمت أربعائة من مدنها ، وأهلكت ثلثمائة ألف من رجالها (٣١) ؛ ولم تنفق لإيطاليا الجنوبية حتى اليوم من جميع ما أصابها من هذا الدمار . يضاف إلى هذا أن هذه الحرب قد أضعفت الديمقراطية إذ ظهرت أن الجمعيات الشعبية عاجزة عن أن تحسن اختيار القواد أو إدارة دفة الحروب ؛ وكانت سببا فيا طرأ على حياة الرومان وأخلاقهم من انقلاب ، ففسد

أضرت بالزراعة وشجعت التجارة ، وانزعجت الرجال من الريف ، وعلمتهم عنف الحروب ومفاسد حياة المعسكرات ، وجاءت بمعادن أسبانيا النفيسة لتنتفخ على ملاذ الحياة وعلى التوسع الاستعماري وأمكنت إيطاليا من أن تعيش على ما اغتصبته من قح أسبانيا وصقلية وإفريقية ، وقصارى القول أن هذه الحرب كانت المحور الذى يدور حوله تاريخ رومة من جميع نواحيه .

هذه آثار الحرب فى رومة ، أما فى قرطاجنة فقد كانت بداية نهايتها . لقد كان فى وسعها ، وقد احتفظت بجزء كبير من تجارتها وإمبراطوريتها ، أن تحمل ما يواجهها من مشاكل الإنعاش ؛ ولكن حكومتها الأليجركية قد بلغت من الفساد مبلغاً جعلها تاتى على كاهل الطبقات الدنيا عبء الغرامة الحربية ، وأن تختمس جرءاً من هذه الغرامة . وطلبت طوائف الشعب إلى هنيبال أن يخرج من عزلته وينقذ الأمة من محتتها ، واختير فى عام ١٩٦ حاكماً عاماً لها . فلما تولى منصبه روع سراة المدينة إذ اقترح ألا يبقى قضاء المحكمة البالغ عددهم ١٠٤ فى مناصبهم أكثر من سنة واحدة ، وألا يعاد انتخابهم إلى هذه المناصب إلا بعد عام من خروجهم منها . فلما رفض مجلس الشيوخ هذا الاقتراح عرضه على الجمعية الشعبية فأجازته ، وكانت نتيجة هذا القانون وما اتبع فيه من إجراء أن أنشأ من أقصر طريق نوعاً من الديمقراطية لا يقل عن مثيله فى رومة . ثم حارب الرشوة واجتثها من أصولها ، وأنزل بالمرتشين أشد العقاب ، ورفع عن الأهلين ما فرض عليهم من الضرائب الإضافية ، ودبر موارد الدولة تدبيراً استطاعت به قرطاجنة قبل أن يحل عام ١٨٨ أن تؤدى جميع ما فرضته عليها رومة من غرامة حربية .

لكن أرباب الأموال أرادوا أن يتخلصوا منه فبعثوا فى السر إلى رومة يقولون إن هنيبال يعد العدة لاستئناف القتال . وبذل سبيرو كل ما له من نفوذ ليحمى عدوه القديم ، ولكنه غلب على أمره واستجاب لمجلس الشيوخ إلى رغبة أغنياء القرطاجنيين ، بأن طلب تسلم هنيبال إلى

رومة ، ولكن الجندى القديم مر من بلاده ليلا ، واجتاز على ظهر جواده مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى ثبسوس Thapsus وركب منها سفينة إلى أنطاكية (١٩٥) حيث وجد أنتيوخوس الثالث Antiochus متردداً بين حرب رومة ومسالتها ، فأشار عليه بحربها وأصبح فيها من قواد الملك . فلما هزم الرومان أنتيوخوس في مجنيزيا (١٨٩) اشترطوا انعقد الصلح معه أن يسلم هنيبال ، فا كان من هذا القائد إلا أن فر أولاً إلى كريت ، ثم إلى بيثونيا Bithynia . فأخذ الرومان يطاردونه في كل مكان يلجأ إليه حتى أحاطوه في مكمنه بالهند . وآثر هنيبال الموت على الأسر ، وقال في هذا : « دعوى أخفف عن الرومان ما يشغل بالهم من زمن طويل ؛ فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقى شيخ مثلى منيته » (٢٢) ، وتجرع السم الذى كان يحمله معه ومات في عام ١٨٤ ق . م في السابعة والستين من عمره ، وما هى إلا بضعة أشهر حتى تبعه إلى الراحة الأبدية . سيبوقاهره الذى كان شديد الإعجاب به .

الباب الرابع

رومة الرواقية

٥٠٨ - ٢٠٢ ق . م

ترى أى صنف من الخلق كان أولئك الرومان البواسل الذين لا يقهرون ؟ وأى نظم صاغتهم حتى كانت لهم هذه القوة فى الأخلاق والسياسة المنقطعة النظير ؟ كيف كانت بيوتهم ومدارسهم ؟ وكيف كان دينهم ومبادئهم الخلقية ؟ وكيف استخرجوا من الأرض تلك الثروة التى كانوا فى حاجة إليها ليعمروا بها مدنهم النامية ويعدوا بها جيوشهم المتجددة على الدوام والتى لم تعرف الراحة فى يوم من الأيام ؟ وبأى نظام اقتصادى وأية مهارة انتفعوا بهذه الثروة خير انتفاع ؟ وكيف كان هؤلاء الناس فى طرقاتهم وحواليتهم ، وفى هياكلهم ومسارحهم ، وفى علمهم وفلسفتهم ، وفى شيخوختهم وموتهم ؟ إنا إذا لم نلم كل الإلمام بما كانت عليه رومة فى عهد الجمهورية الأول ، عجزنا عن فهم ذلك التطور الشامل فى العادات والأخلاق والأفكار ، الذى أنتج فى جيل من الأجيال كاتو Cato الرواقى وفى جيل بعده نيرون الأبيقورى ، ثم بدل آخر الأمر الكنيسة الرومانية بالإمبراطورية .

الفضل الأول

الأسرة

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في رومة ؛ فقد كانت العادات المألوفة تبيح للأب إذا ولد له طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت (١) . أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده ؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد ، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما ، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء . ذلك أن الحياة الريفية قد جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة ، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعقم ، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في عقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعني بقبوره ، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر . وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالاً رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة . وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد ، وتسمى باسمه ، وتشارك بعضها مع بعض في العبادة ، وتتبادل العون في السلم والحرب . وكان الولد الذكور يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل بيليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيبوس Caius ، وباسم عشيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tutlius ، أو يوليوس Julius ؛ وباسم أسرته مثل سيبو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar . أما النساء فكان في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذا لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً ،

وكانت هذه الأسماء تتكرر في الأسرة الواحدة جيلاً بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور ، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً - وخامساً في بعض الأحيان - ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض . ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون سيبو قاهر هنيبال من سمييه الذي دمر قرطاجنة بتسمية الأول بـ « كرنليوس سيبو الإفريقي الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major ، والثاني بـ « كرنليوس سيبو إميليانس الإفريقي الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج في أحص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية . وتكاد سلطة الأب في هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود ، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة ، وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأولى ، فهو وحده الذي كان من حقه أن يشتري الملك ويحتفظ به أو يبيعه ، وأن يتعاقد باسمه ؛ وحتى بائنة زوجه كانت في ذلك العهد ملكاً له . وإذا ما اتهمت زوجته بجرمة أحييت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ؛ وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره . وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه ، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده . وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها ، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجا *Cum manu* أي أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه . وكان له على عبيده سلطة لا حد لها ؛ فكان هو وزوجته وأبناؤه « ملك يده » *mancipia* ؛ ومهما يبالغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو

أو « يطلقهم من يده » emancipate them « على أن العادات ، والرأى ، العام ، ومجلس العشيرة ، وقانون الريفيتورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق « رب الأسرة » إلى حد ما . أما فيما عدا هذه للقيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت ، وكانت تبقى له ولو ذهب عقله أو أراد هو أن يتخلى عنها . وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هي الأساس الذى قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدب الرومان تأديباً بعث في أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية وكانت قوانينهم في حرفيتها أشد منها صرامة في تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين ؛ وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة ؛ فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوي الطبيعي على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لأبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور في رومة تبلغ من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن (*) في هذه الأيام .

وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة - وهى أشد من حاجتها إليه - نكسها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف في وجهه ، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة في رومة من القيود التى يفرضها عليها القانون . فقد كان يحرم عليها أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة . وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها في ماله ؛ وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال . وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل - أبها أو أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها أو وصى عليها - لا تستطيع أن تزوج أو تتصرف في مالها بغير رضاه ؛ لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أى نحو (١٥,٠٠٠ ريال أمريكى) . أما التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى وكثيراً ما أصبحت النساء في تاريخ الجمهورية

(*) يقصد الأمريكين . (المترجم)

المتأخر من ذوات الثروات الطائلة لأن أرواجهن كانوا يهربون لهن
أملاكهم ليتخلصوا بذلك مما عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة ،
أو حكم عليهم بتعويض ، أو ليتخلصوا من ضرائب الشركات ، وغير ذلك
من الأخطار التي لا نهاية لها . وكان لها في شؤون الدين شأن غير قليل ؛
فكان لها أن تكون كاهنة ؛ وكان من الواجبات المفروضة على كل
كاهن تقريباً أن تكون له زوجة ، فإذا ماتت حرم من منصبه . أما في
المنزل فكانت هي سيده الم عظيمة *mea domina* ؛ ولم تكن كالزوجة في
الحياة اليونانية تحجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها
وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر
من الخدمة المنزلية ، وذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على
خدمته . وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها ، ولكن أهم
واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها . على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن
تربي بنفسها أطفالها . وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها
بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم ،
وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تطغى على حبه لها .

وكان الأب والأم ، ودارهما وأرضهما وأملاكهما ، وأطفالهما الصغار
وأبنائهما المتزوجون ، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء وزوجاتهم وعبيدهم
ومواليهم - كان هؤلاء كلهم يؤولفون الأسرة الرومانية *Familia* ؛ ولم
تكن هذه الكلمة عندهم تعنى أسرة بقدر ما تعنى بيتاً بكل من فيه ، وما فيه .
فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوى القربى ، بل كان يعنى
مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة ، يخضعون كلهم ،
وتخضع كلها ، لأكبر الذكور سنّاً . وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذى
يضم فى داخله وظائف الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة ، والنظم الصناعية
والحكومية ، شب الطفل الرومانى وترعرع على حب الطاعة والتقوى ،
فكان منه مواطن قوى صلب العود فى دولة لا تغلب .

الفصل الثاني

دين رومة

١ - الآلهة

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى . وكانت هي المركز الذي يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادي ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنبع الذي تُستمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جديداً بالعالم الروحي ؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تتمد ليست إلا رمز الإلهة فستا Vesta وهادتها ، وأنها ، هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار ، وأن يُعنى بها العناية « المقدسة » وأن تغذى بنصيب من كل وجبة . وكان الطفل يري فوق الموقد النضبات (*) تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة : إلالار ، Lar (***) الذي يحرس حقوقها ومبانيها وسعادتها ومصيرها ؛ والپينات Penates أو الآلهة الداخلية التي تحمي ما تجمع للأسرة في مخازنها وأصونتها وبيادرها ؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول

(*) النضفة الصورة تعبد . (المترجم)

(**) اللار : أحد الآلهة المحليين وهو تسكاني الأصل وأسكن الرومان جعلوا فيما بعد أحد الآلهة الراقية للأسرة .

عتبة الدار وإن كانت الآعين لا تراه ، وكان ذا وجهين ، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب . وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تفتى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قبر الأب . وكانت الأم هي الأخرى تجمل ربياً من الأرباب ، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة . وكان فيها يونيو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق . وكان للطفل أيضاً يونيو Juno وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في خلافه الفاني . وكان يقال له فولاً يبعث في قلبه الرهبة ، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أفتنة وجوهم الرهبة معلقة على جذران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف ، وتذكره بان الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الخالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدها الأبدية .

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلها كبر : فكبوا Cuba تحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه ، وفيلينا Fabulina تعلمه الكلام . وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أيها جل . وكانت الأرض نفسها آلهة فهي قارتا تلس Tellus وثارة تراماتر Terra Mater أي الأرض الأم ، وكانت أحياناً هي المريخ Mars أي الأرض التي يطوها بقدميه وخصبها المقدس ، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة . وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، يومونا Pomona للبيساتين ، وفونس Faunus للماشية ، وبالس Pales للمراعي ، واستركيولس Sterculus لأكوام السماد ، وزحل Saturn للزرع ، وسيريز Ceres للحاصلات ، وفرنالكس Fornax لتحميمص البزة في الثنور ، وفلكان Vulcan لإيقاد النار .

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمتمس *Terminus* وهو يتمثل ويعبد في الحجارة والأشجار التي تحدد المزارع ، وإذا كانت الأديان غير الرومانية تتطلع إلى السماء ، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا يتكبرون أن فيها هي الأخرى آلهة ، ولكن المحور الذي كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفاراته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها ، ومنزل أمواته ، والمربية الساحرة للهدور النامية ، وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات *Lares* الأرض في عيد ملتقى الطرق *Compitalia* أو *Crossroads* البهيج ؛ وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية مرضاة لتلس *Tellus* واستدراراً لعطفه على كل المزروعات ؛ وفي شهر مايو من كل عام يسير كهنة « إخوان أرفال *Arval* » إلى إخوان الحرث في موكب غنائى حول حدود المزارع المجاورة لهم يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويدعون المريح (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة . ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكة ، ويزيل أسباب الشحنةاء ، ويكرم العمل في الحقول ، فينشئ فيه الشعر ، ويؤلف فيه المسرحيات ، ويقوى الجسم والروح بالإيمان والعمل .

ولم يكن الرومانى ، كما كان الإغريقى ، يفكر في آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسمها إلا ميمنا *Mumina* أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة ، أو الحظ ، أو الشرف ، أو الأمل ، أو الخوف أو الفضيلة ، أو العفاف ، أو الوفاق ، أو النصر ، أو رومة . وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضائها كالأطياف وأرواح الموتى ؛ ومنها أرواح فصول السنة ، مثل *Maia* روح شهر مايو ؛ ومنها آلهة الماء مثل نبتون *Neptune* ، وأرواح للغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلفانوس *Silvanus* . وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح ، أو الإوز المقدس الذي كان المتقون يحتفظون بها فوق الكبتول

لا يناله أحد بأذى ، ومنها أرواح التناسل والإنتاج : تتومس يشرف على الحمل ، ولوسينا تحمى الحيض والولادة ، وكان *Priapus* إلها للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومة ، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاصب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل (٢) . وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق . وكان السذج من الأهليين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتبهيم القدرة على التناسل أو ترد عنهم « العين الحاسدة » . وجملة القول أننا لا نعرف قط دينا يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها فارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو *پترونيوس* من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر من فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم *پترونيوس* *deus* لم يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة *deus* كانت تعنى عند الرومان قديساً أو إلها .

وكان يكمن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة الطبيعة ، والدكاكيرية (feteshism) ، والطوطمية والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقى ، والخرافات ، والمحرمات ، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوربيين جاءوا بها من موطنهم القديم في قارة آسيا . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (sacer) محرماً مسه أو تدنيسه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال الحديثو الولادة ، والنساء في وقت الحيض ، والمجربون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة ، فكانت التمايم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم ؛ وكان كل طفل تقريباً يلبس « بئلة » Bulla أو ظلمساً ذهبياً معلقاً في عنقه ، وكانت تماثيل صغيرة تعلق على الأبواب أو الأشجار لترد الأرواح الخبيثة ، وكانت الرقى والتعاويد السحرية تستخدم لمنع الأخطار ،

وللشفاء من الأمراض ، وإنزال المطر من السماء ، وإهلاك جيوش الأعداء ، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه . ومن أقوال بلني Pliny في هذا : « كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلاسم بالسوء (٤) » . كذلك يرد ذكر الساحرات في أقوال هوراس Horace ، وفرجيل Virgil ، وتبيلوس Tibulus ، ولوشيان Lucian . وكان الاعتقاد السائد أنهم يأكلن الأفاعى ويطنن في الهواء ليلاً ، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن ؛ ويقتلن الأطفال ، ويحيين الموتى . ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلاً من المتشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالفأل والطيرة ، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق (٥) ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمبس Olympus . لتحارب في صف الرومان ، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمسئلة بل . ويحتوى تاريخ ليثي على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفاسق . وفي مجلدات بلني الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل العلاج السحرى ما يصح لنا أن نسمى تاريخه « تاريخ خوارق الطبيعة » . وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تُلغى إلغاء تاماً إذا تشام الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف في أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصف رعد في السماء .

وكانت الدولة تبذل كل ما فى وسعها لتحد من الإسراف فى هذه العادات ، وكان يطلق عليها ذلك اللفظ الذى يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitit أى العقائد الدينية المفرطة . ولكنها كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعى فكيف آلهة الريف لتوائم حياة الحضر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة فستا ، وعيذت طائفة من العذارى الفستيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة . وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولة di indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين ،

وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله جوبيتر أو جوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان ، بل كان في القرون الأولى من حياة رومة لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتألثة وضياء الشمس والقمر وقصف الرعد ، وكان في صورة جوبيتر فلوثيروس Jupiter Fluvius يمثل شوبوبا من المطر المخصب . وقد كان فرجيل وهوراس نفسهما يستعملان في بعض الأحيان لفظ « Joue » مرادفاً للفظ المطر أو السماء (٦) . وكانت أكثر نساء رومة ثراء إذا أجذبت السماء يسرن حافيات في موكب كبير إلى تل الكيوتولين حيث هيكل جوبيتر تونانز Jupiter Tonans - جوف المرعد - ليستسقين . ولعل لفظ جوبيتر محرف عن ديسپاتر Diuspater أو ديسپتر Diespeter أى إله السماء . ولعل يانوس Janus الذى كان في الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وجوبيتر في بداية الأمر إلهاً واحداً ، وكان يرمز به أولاً إلى روح باب الكوخ ذى الوجهين ثم إلى باب المدينة ، ثم إلى أية فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة . وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا في أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش رومة لزيمة آلهة الأعداء . وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب منذ بدأ يعظم جوبيتر . وكان أولاً إله الحرث ، ثم أصبح إله الحرب ، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز رومة وشعارها ؛ وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور ، ولم يكن زحل الإله القومى للبندرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من جوبيتر والمريخ ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التاريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة في العهد الذهبى من عهد زحل Saturnie Regina

وكانت إلهات رومة أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة الذكور . وكان من هذه الإلهات يونو رجبنا Juno Regina

ملكة السماء وحامية الأثوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج في شهرها - شهر يونيو^(٧) - ويقولون إن الزواج فيه أسعد الزيجات ؛ وكانت منيرفا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة ، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع ، والممثلين والموسيقين والكتابة . وكانت الهلاديوم Palladium التي تقف عليها في اعتقادهم سلامة رومة صورة صغيرة للإلهة پلاس منيرفا Pallas Minerva مدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas في زعمهم من طروادة إلى رومة بأساليب الحب والحرب ، وكانت فينوس Venus (الزهرة) إلهة الشهوة ، والزواج ، والإخصاب . وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار Aperire . وكان الشعراء أمثال لكريشوس Lucretius وأوفا Ovid يرون فيها الملتشأ للغرائم لجميع الكائنات الحية ؛ وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش ؛ وكانت في زعمهم روح شجرة جيء بها من أريشية (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لانيوم لحكم رومة . وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمي Nemi وأيكتها ، وكان في هذه الأيكة مزار ديانا ملجأً للحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت في هذا المكان فريبوس Virbius ملك الغابات الأول ، ولكي يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فريبوس - وهم كهنة الصالدة وأزواجها - يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أي عبد قوى يعوذ نفسه يغمض (يسمى عندهم بالغصن الذهبي) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة لإحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك^(*) وينبجه . وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح^(٨) .

هذه إذن هي الآلهة الكبرى لدين رومة الرسمي ؛ وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان ؛ ومن هذه

(٥) يقصد ملك الأيكة أي صورة له . (المترجم)

الأرباب الصغرى هرقل Hercules إله الفرح والخمر الذى لم يتورع عن أن يقامر وهو مبتهج مع قندلقت هيكله لينال منه محظية^(٩) . وكان عطارذ (Mercury) راعى التجار والممثلين واللصوص . وكانت أپس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellona إلهة الحرب ، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخطئهم الحصر . ولما أن بسطت رومة سلطاتها جاءت إليها آلهة جديدة . وكانت فى بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بآلهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الرومانى دليلاً على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة فياى حين قادتها أسيرة إلى رومة ؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بآلهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تجتث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتنائاً مفاجئاً لسبب من الأسباب ، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بآلهتهم . ولم يكن الرومان يأبهون بمجئ هؤلاء الآلهة الأجانب ؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أزاحوا التمثال من مكانه أزاحوا الإله معه ، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون بأن التمثال نفسه هو الإله^(١٠) .

على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب ، بل كانت هى الغالبة . فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلوات الحربية والثقافية التى نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية . وقد حدثت هذه الصلوات أول الأمر فى كمانيا ثم جنوبى إيطاليا ثم صقلية ، وانتهت آخر الأمر فى بلاد اليونان نفسها . وكان فى آلهة دين الدولة شىء من التجرد المعنوى وبرود الطبع ؛ وكان من المستطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات ، ولكنهم قلما كانوا يمدون عبادهم بالراحة أو الإلهام القردى ؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة اليونان ذوى الصفات البشرية الممتلئين مغامرة وفكاهة وشعراً . ومن أجل هذا رحب الشعب الرومانى بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل ، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس ، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبث

النظام والطمأنينة في النفوس ، فضموهم إلى أسرة رومة المقدسة ومزجوهم
كلما استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية المماثلة لهم . فجاء من عهد بعيد أى من عام
٤٩٦ ق . م ديمتر Demeter وديونيسيوس Dionysius ومزجا بسيريس
Ceres وليبر Liber (إله العنب) واستقبل كاستر Castor وپللكس
Pollax بعد اثني عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حامي رومة : وشيد
في عام ٤٣١ هيكلاً لأپلون Apollo الشافي لعله يخفف من وباء طاعون
فشأ في رومة وقتئذ ؛ وفي عام ٢٩٤ جىء إلى رومة من إپدورس Epidaurus
بإسكلاپيوس Aesculapius إله الطب عند اليونان في صورة أفعوان
ضخم (١١) ، وشيد على جزيرة في نهر التيبر معبد في صورة مستشفي تكريماً
له وجىء بكرونس Cronus اليوناني وقيل إنه لا يختلف في شيء عن زحل ،
ومزج پوسيدن Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا
Diana وهفستس Hephaestus بثلكان Vulcan ، وهرقل Heracles
بهرقول Hercules ، وهيدس Hades بپلوتون Pluto وهرمس Hermes
بعطارد Mercury ، وارتفع چوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس خيم زيوس
اليونان ، فصار شاهد الأيمان الصارم وحارسها ، وقاضى الأخلاق الملتحي ،
والقيم على القوانين ، وإله الآلهة ؛ وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل
لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية .

٣ - الكهنة

واستخدمت لإيطاليا نظاماً من الكهنة محكم الوضع لتضمن به
معونة هؤلاء الأرباب . وكان الأب في منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة
كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو في
صفوفها من الأماكن ويرأسها كلها حبر أعظم Pontifex maximus تختاره
الجمعية المثوية ، ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب

خاص ؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ؛ ولم تكن
تؤلف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن
لها أى سلطان سياسى علما أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها .
وكانت تستولى على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش ، وكان
لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوال الأجيال عظيمة الثراء
بما كان يحبسها عليها أتقياء الناس من الأموال .

وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة
من الأعضاء ، وكان هؤلاء الأعضاء يحتفظون بالحوليات التاريخية ،
ويسجلون القوانين ، ويقرعون الغيب ، ويقربون القرابين ، ويظهرون
رومة مرة في كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأحبار في القيام
بالمراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلميني flamine - أى موقدى
فيران الأضاحى . وكان ثمة طوائف من الأحبار أقل من هؤلاء شأناً
يؤدون واجبات خاصة : فالساليون Salii أو القافزون كانوا يستقبلون العام
الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالى fetiales يصدقون
على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللورسسى Luperci أو إخوان
الذئب يقومون بطقوس لوبركالبا Lupercalia العجيبة . وكانت طائفة
العدارى الشستية Vestal Virgins تعنى بموقد الدولة وترشه في كل يوم
بالماء المقدس تأخذه من عين الحورية المقدسة لإجيريا Egeria ؛ وكان هؤلاء
الراهبات ذوات الثياب البيض والخمير البيض يُخترن من بين الفتيات اللاتي
تراوح سنهن بين السادسة والعاشر ، وكن يقسمن بأن يظللن عدارى في
خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة ، وينان في نظير هذا ضرورياً من الامتيازات
والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى
ودفنت وهى على قيد الحياة ، وقد سجل المؤرخون الرومان اثنتي عشرة
جريمة من هذا النوع ، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة
الإلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها
إذا أتيجت لها (١٢) .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور في الأيام الأولى (*) ، وبالفتح عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد ، فكان كبار الحكام « يستطلعون الطلع » قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد *hauruspices* الذين تلقوا فنههم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قباهم عن طريق لإتروريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا في بعض الأحيان يوقفون بين أقوالها وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطيله إذا قيل إن اليوم الذى ينظر فيه القانون يوم مشئوم لا يصلح العمل فيه ، وكان فى الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب إذا قيل لها إن اليوم الذى يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد (١٣) . وكانت الحكومة فى الأزمان الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية *Sibylline* ، وهى الكتب التى سجلت فيها نبوءات سيبيل *Sibyl* أو كاهنة أبولون *Apollo* فى كومية *Cumae* . وكان فى وسع الأعيان أن يوثروا فى الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفى *The oracle at Delphi* فى بعض الأحيان وبذلك يوجهونهم فى أى اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يرغبونها (١٤) .

ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو اتقاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التى تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعى فيها منتهى الدقة فى الأقوال والحركات ، وهى

(*) ومن ثم اشتقت من هذا اللفظ *Augurs* ومعناها حامل الطيور *aves-gero* ، و *Auspices* فحص الطيور *aves-specio* . ولعل الإنسان البدائى قد عرف كيف يتنبأ بأحوال الجو من حركات الطير .

دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها . وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أيّاً كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة . وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الديني بالعناية التي يحتمها الدين^(١٥) . وكان أهم ما في الاحتفال هو التضحية Sacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله . وكانت التضحية في البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى في نار البيت ، وتكون في القرية أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً ، وتكون في المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً ، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح جميعها في أكبر المناسبات أهمية في عيد السو أوفي طوريليه Su - ove - taur - illa (أي عيد الخنزير والشاة والثور) . وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحالت إلى الإله الذي يراد منه أن يتقبلها ؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذي يضحي به^(١٦) ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هي التي تحرق على المذبح ؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقي منه ، فقد كان هؤلاء يأملون أن تثقل قوته ومجده إلى عبده المختلفين بعينه . وكان يضحي بالآدميين في بعض الأحيان ، ومما يجدر ذكره أنه كان لا بد من صدور قانون في عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة . ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحي بحياته للدولة كما فعل القنصل بيليوس ديسيوس Publius Decius وولده ، وكما فعل ماركس كورتيوس Marcus Curtius إذ ألقى بنفسه في أخدود شقه زلزال في السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية ، وتقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التئم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها^(١٧) .

وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة ؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو للجيش أو المدينة . وكانت

الطريقة المتبعة في هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشئ المراد تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح ، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر . ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقى السحرية ؛ وكان اللفظ الذى يطلق عليها وهو كارمن *Carmen* يعنى الأنشودة والرقية جميعاً ؛ ويعترف بانى صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية (١٨) . وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذى يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة *indigitamenta* الذى جمعه الكهنة واحتفظوا به ، فإن الرجاء لا بد أن يجاب ؛ فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت فى الطقوس المرعية ، وقريب من السحر وذو صلة به الفتا *vota* أو النذور التى كان الناس يطلبون بها معونة الآلهة ، وكانت هياكل عظيمة تشاد فى بعض الأحيان وفاء بهذه النذور ، وتوحى النذور الكثيرة التى كشفت بين مخلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم ، وعلى أنه كان يمتزج به ويلطفه تقى وشكر على النعم ، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية ، ورغبة أكيدة فى أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها . هذا ما كان للدين من أثر فى قلوب الشعب ، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا ، كان شكلياً جامداً ، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة القانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة . ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب ، كان أول ما تضعضع فى الدولة الرومانية هو الدين الرسمى ، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة ، والطقوس المنتشرة فى الريف ، فقد ظلت تقاوم الأغلال فى صبر وعناد طويلين . ولما تغلب الدين المسيحى فى آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الريفى القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه ، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأى ، ولا تزال هذه الطقوس باقية فى العالم المسيحى إلى هذه الأيام ، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة .

٣ - الأعياد

إذا كانت العبادات الرسمية مكتتبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصور الناس والآلهة في صورة أبهى وأجمل منظرًا . فقد كانت السنة تزددان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر ، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر . وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلى ؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقضاء غضبهم ، فكانت الأسر الرومانية تحتفل في الأيام ما بين ١١ ، ١٣ من شهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد الأرواح الميتة Lemures ، فكان الأب في هذا العيد يبصق من فمه فولاً أسود وهو ينادى : « بهذا القول أنجى نفسى وأبنائى . . . إذهبى يا أطيايف أسلافى ! » (١٩) ولم تكن أعياد البارنتاليا parentalia والفراياليا Feralia التي تقام في شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات الخيفين ؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون ؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً للإباحية الجنسية ، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لبلوتس : « فى وسعك أن تأكل ما تشاء ، وتذهب حيث تشاء ، وتحب من تشاء ، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعدارى ، والغلمان الأحرار (٢٠) » ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالاً واسعاً للاختيار .

وكانوا يحتفلون في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوپركاليا المخصص للإله فونس Faunus الحامى من الذئب Iupercus ، وكان يضحى في هذا العيد بالمعز والضأن ، وكان اللوبرسى Iuperci - وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز - يهرولون حول الهلاتين

Palatine يدعون الإله قونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة ، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحي بها ليظهروهن ويزيدوا في قدرتهن على إنجاب الأبناء ، ثم يلقون بعد هذا دى من القش في نهر التير لاسترضاء إله النهر أو ختله ، ولعل هذا الإله في الأيام التي كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية . وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم ، ويفعلون ما كان يفعله اليهود في عيد المظلات ، فيقيمون لهم خياماً في حقل المريخ ، ويحتفلون بالسنة الجارية ، ويدعون الإلهة أنا پرنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهبهم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر (٢١) . وكان في شهر أبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia . وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والنباتات يدوم ستة أيام كلها مرح وسكر وعريضة . وفي اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الآلهة الصالحة Bone Dea ، وفي التاسع والحادى عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل بالبراليا Liberalia عيد لبير Liber وليبرا Libera إله العنب وإلهته ؛ وكان جماعات من الرجال والنساء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير في الرجال وهو رمز الإخصاب (٢٢) . وفي آخر شهر مايو كان الإخوان الأرقال Arval يقودون الناس في مواكب عيد الأمبرفاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح . ثم تهمل الأرباب فلا تقام لها أعياد في أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت في المخازن ، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى . فكان عيد السترناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر ، وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل Saturn الذى لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات ، والذى يتبادلون فيه الهدايا ، ويتحررون من كثير من القبود ، ويأغى فيه أو يعكس إلى حين ما بين

الأحرار والعبيد من فروق ، فكان في مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار ساداتهم ، ويصدروا إليهم الأوامر ، ويتكلموا عليهم ، وكان السادة يقفون على المواثد لخدمة العبيد ، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام (٢٤) .

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن ، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الروماني لإحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب . وكان من عادة الإيطاليين في عهدهم الأول أن يدعوا الكاهن الأكبر المواطنين في أول يوم من كل شهر ويذكر لهم ما فيه من الأعياد التي يجب عليهم أن يحتفلوا بها في الثلاثين يوماً ؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم Calendae الذي سمي به اليوم الأول من كل شهر . وكان معنى التقويم عند الرومان - وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين - ثبناً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل ، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية ، والتاريخية والفلكية . وتقول الروايات المأثورة إن نوما Numa ثانياً ملوك رومة هو واضع التقويم الذي ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر . وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثني عشر شهراً قرياً ، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً . ثم خول للأخبار في عام ١٩١ م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر في هذه الإضافات ، ولكنهم استخدموا السلطة التي منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام ، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم ، ومن أجل هذا فإنه لم يكفد ينتهي عهد الجمهورية حتى كان التقويم ، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر ، مثالا للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع . أما ساعات النهار فكانت في الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس في

السماء ، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جىء فى عام ٢٦٣ ق . م بمزولة شمسية من قطانا Catana فى صقلية ووضعت فى السوق العامة . ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبى رومة ؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقى فى عاصمة البلاد . وفى عام ١٥٨ أقام سڤيو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة ، وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات . يفصلها بعضها عن بعض لليوم الأول ، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر . ويسمى اليوم الأول الكالند Kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide . وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحددة لأقسام الشهر . مثال ذلك أن اليوم الثانى عشر من شهر مارس كان يسمى « اليوم الثالث قبل أيد مارس » . وكان « الأسبوع » عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهى بيوم النندى nundinae أو اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن . وكانت السنة تبدأ بابتداء فصل الربيع ، ويسمى الشهر الأول منها مارتىوس Martius باسم إله البذر ، ثم يليه أبريلس Aprilis أى شهر النبت ، ثم مايوس Maius أى شهر مايا Maia أو لعله شهر الوفرة ، ويونىوس Junius شهر يونيو Juno ، أو لعله شهر النجاح ، ثم كونكتاس Quinctilis ، فسكستلس Sextilis . فسبتمبر فأكتوبر فنوفبر فديسمبر . وقد سميت بترتيبها العددي فى السنة ، ثم يليها يناير January ليانوس Janus وفبرابر لفبروا Februa أو الأشياء السحرية التى يطهر بها الإنسان . وكانت السنة نفسها تسمى أنس Annus أى الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن فى واقع الأمر بداية ولا نهاية ،

٤ - الدين وأثره في الأخلاق

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقى . فادتممه بالطقوس والمراسم يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادى أو النصر الحربى . وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض في صورة المسرحية ، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عديدها كأن هذه الأعياد ، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له ، هى أساس الدين وجوهره . وكانت الآلهة ، عدا قلة صغيرة منها ، أرواحاً رهيبة مجردة من النبل والأخلاق الفاضلة .

ولكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولة . وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل ، قبل أن يتسرب إليه الشك ، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة . كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمائم ومعونة مقدسة : فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسيًا خاصاً ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطاً أساسياً لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام . يضاف إلى هذا أن الدين ، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قهول كل حملة ومعركة حربية ، يرفع قوى الجندى المعنوية ويحملة على الاحتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه ، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزوليه من أصل سماوى وصوره دينية ، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات وبسلمها

وبوضع سلطان خوف وراء كل قَسَم . وكان الدين يخضع على كل ناحية
من نواحي الحياة العامة جلالة دينياً ، ويمتدح أن يسبق كل عمل من أعمال
الحكومة طقوس وصلوات ، ويربط الدولة والآلة برباط متين ، وحد
بين التقوى والوطنية ، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان في أي
مجتمع آخر يعرفه التاريخ . وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة في
شرف تكوين ذلك الخلق الحديدي الذي كان هو السر في سيادة رومة على
العالم ، وفي تحمل تبعه هذا التكوين :

الفصل الثالث

الأخلاق

ترى أى مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التى كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة ؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنىوس Ennius إلى عهد چوفنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلاً أعلى وتندم على الأيام الخالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين . وستوحى إلينا صحف هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين رومة فييوس الرواقية ورمة نيرون الأبيقورية ، ولكن علينا ألا نغالى فى هذه الفوارق بتجزئنا فى اختيار الشواهد التى ندلل بها على وجودها ، ذلك لأنه كان فى عهد فييوس أبيقوريون كما كان فى عهد نيرون رواقيون .

ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته : ظلت خشنة طليقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة ، وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكرتهن ، وما أكثر القصص للقوية التى كانت تروى لرفع شأنها ؛ ذلك أن الرومانى كان قوى الإحساس بحق الملكية ، شديد التمسك به ، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه . ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا يلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرباء بنى الإنسان ونفاقهم ، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان . وإنا لنجد فى أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد كاتو الأكبر إلى شيشرون عبارات صريحة يبررون

بها هذا النوع من الدنس (٢٥) ، وليس الذى يزيد بتقدم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذى يزيد هو الفرص التى تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه ، ولم تكن العاهرات كثيرات فى رومة فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكن محصورات فى الأركان المظلمة من رومة ومن المجتمع الرومانى . ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبهات بطائفة المطربات فى أئمة ، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيات اللاتى تغنى بهن أوفد Ovid فى شعره .

وكان الرجال يتزوجون فى سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم فى العادة ، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الروائى ، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة فى أزواج يعاونهم فى عملهم ، وأبناء ذوى فائدة لهم ، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة . وكان يقال فى حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال . وكان للأطفال فى المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حية . وكان الآباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء فى طفولتهم ، وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج . وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجين . وكان أقرباء الزوجين . يجتمعون فى وليمة ليشهدوا عقد الزواج ، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما ، وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد فى الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتمادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب (٢٦) ، وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هى الثانية عشرة للفتاة والرابعة عشرة للفتى ، وكان القانون الرومانى القديم يجعل الزواج إجبارياً (٢٧) ، ولكن اعتقادنا أن هذا

القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق ؛ م حين فرض الرقيب،
كلمس Camillus ضريبة على العزاب .

وكان الزواج نوعين زواجا كم مانو *Cum manu* وزواجا سن مانو
sin manu أى زواجا يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها
أو والده وزواجا لا يتبعه هذا الوضع . وكان زواج السن مانو (من غير
تسليم) فى غير حاجة إلى حفلة دينية ، ولا يتطلب أكثر من رضاء العروس
والعريس . أما زواج وضع اليد فكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام (*usus*)
وإما بالشراء (*Coemptio*) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق
الكنفرياشيو (*Confarreatio*) والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو (أكل كهكة
معا) : وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلا دينياً ، ولا يتم إلا بين
الأشراف . وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلى فى عهد مبكر ، أو أنه انعكس
فكانت الزوجة فى واقع الأمر كثيراً ما تشتري الزوج ببائنتها . وكانت هذه
البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج ، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا
طلقت أو مات زوجها . وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغاني
الشعبية ؛ وكانت أسرتا العروسين تطعمان فى بيت العروس ، ثم يسير أفرادهما
فى موكب مرخ بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد
والمزاح المماجن . فإذا وصلوا إلى باب المتزوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس
وسألها : « من أنت ؟ » فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها
وانضمامها له وهى قولها « حيث تكون كيوس *Caius* أكون أنا كايا
Caia » ثم يرفعها فوق عتبة بيته ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه
تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها ؛ ومن ثم سمي الزواج
كنيوجيوم *Coniugium* أى الاشتراك فى النير . ثم تشتري العروس فى
الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وكان الطلاق عسيراً ونادراً فى الزيجات التى تعقد بالكنفرياشيو ؛ وفى زواج

الكم مانو كان الزواج وحده هو الذى يستطيع فصم عرى الزوجية ، أما فى زوج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة . وقد سجل أول طلاق فى تاريخ الرومان فى عام ٢٦٨ ق . م ؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها « لأنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط منذ أسست مدينة رومة (٢٨) » ؛ وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم « . وفى هذا يقول كاتو الكبير « إذا وجدت زوجتك تزنى ، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة ؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها ، لأن القانون يحرم عليها هذا (٢٩) » . ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفریق ؛ فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التى كتبت عليها بعد وفاة الأزواج . وها هى ذى عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التى أخلصت فى خدمة زوجها :

« لقد كنت ياستاتليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد ودية لأزواجك ! ، ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر ؛ أما أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتلك ، ألا ما أشد أسفى عليك » (٣٠) .

والراجع أن فتيات رومة فى عهدهما الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن فى عهدهما المتأخرة واللأى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن *laneum latusculum manusque mollicellas* أى أن لهن « جانبين نحيلين أملسين كالصوف ، ويدين صغيرتين ناعمتين » . أو لعل الفتيات فى العهدين لم يكن بينهما هذا الفرق ولكن الكدح والهم فى الأيام الأولى أيام العمل فى الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة . وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن ، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة ، وكن فى العادة

ذوات شعر أسود وعيون داكنة . وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة ، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات . أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة ، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة ، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة . وما من شك في أن كليوباترة قد أحببت أنطونيوس لذهب آخر غير خديه المتفتحين من احتساء الخمر ، وأحبت قيصر بسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبهين برأس النسر وأنفه . لقد كان الأنف الروماني كالمخلوق الروماني حاداً منحرفاً ، وظل الرومان يلتحون ويظيلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق . م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في رومة . أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان ، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا پراتكستا *Toga Praetexta* أى الجبة ذات الأهداب الأرجوانية . فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا فريلس *toga virilis* « جبة الرجولة » البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقترع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش . وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا *stola*) يربطنه بمنطقة تحت الثديين ، ويصل إلى القدمين ؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه *Palla* أو عباءة . وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً *tunica* ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان . وكانت الجبة (*tegere* أى يغطي) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعف عرض لابسها ، وطولها ثلاثة أضعاف طولها . وكانت تلف حول الجسم ويأتي ما زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت أبط اليد اليمنى ، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى . وتستخدم ثباياها التي فوق الصدر كما تستخدم نحن الجيوب ، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها .

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراهها نخلة ثقيلة لا يستغنى عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً ، ثم شبه جزيرة ، ثم إمبراطورية . وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية ؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتتمثاله ، وأن يخفي وراء قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراهما واضحين ساخرين في مسرحيات پلوتوس الفكاهة فحسب بل نراهما كذلك في خطب شيشرون . لقد كان يطلب إلى الروماني حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة اسپارطية ؛ فكان الرقيب يستهجن الترف في الملابس والمأكل ؛ بل إن الزارع إذا أهمل زرعته كان معرضاً لأن يفاجئته الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال . وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من رومة بعد الحرب البونوية الأولى أخذوا يسلون أثرياء التجار في بلدتهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة يعينها من الصحف الفضية في كل بيت دعوا إليه ، أى أن مجموعة واحدة تنقل سراً من بيت إلى بيت كانت تكفي طبقة الأشراف جميعها ، وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في *Curia* لا يدفأ قط حتى في فصل الشتاء .

بيد أن الثروة والترف قد بدءا وسار سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية ؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كانى عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية (٣٢) ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة ، والملابس المبهرجة ، والواجبات الغالية الثمن ، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى . لقد ظلت وجبات الروماني العادي حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة ؛ فكان فطوره (*ientaculum*) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن ؛ وكان غذاؤه (*prandium*)

وعشاؤه Cena يتكونان من البقول والخضر والفاكهة . أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء (٣٣) . وقبلما كانت مائدة ما تخلو من النبيذ الخفيف ، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً . وكانت الأعياد وللولايم من المتع الضرورية في هذا العهد الرواقى ، وكان العاجزون عن التمتع بها يفتهم هذا المعجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبي في تماثيلهم التي خلّفوها لمن جاءوا بعدهم .

ولم يكن للصدقات مجال في هذه الحياة المقتصدة المتقشفة . وقد بقيت الضيافة من العادات التي يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزول فقيرة ومتباعدة ، ولكن پوليبوس يقول : « إن أحداً في رومة لا يقدم شيئاً ما لأى إنسان إذا كان ذلك الامتناع في مقدوره » (٣٤) - وما من شك أن في هذا كثيراً من المغالاة : وكان الصغار يشفقون عن الكبار ، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى رومة إلا في آخر أيام الجمهورية ، وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم في الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد . لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل ، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه . وكان أسرى الحرب يباعون في الأسواق آلافاً مؤلفة ، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون يموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع . أما في دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق . نعم إن الرومان كانوا يحبون المال ، ولكن پوليبوس (حوالى ١٦٧ ق . م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء ، ويقول هذا المؤرخ اليونانى إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليونانى من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته ، أما الرومان فكانوا يتصرفون في مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا في حالات يجد نادرة (٣٥) . على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر في عام

٤٣٢ ق . م لمنع الغش في الانتخابات . ويقول المؤرخون الرومان إن الزاهة السياسية قد بلغت أوجها في الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ، ولكنهم يشيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفاليريوس كورفوس **Valerius Corvus** بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام ، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها ؛ ولكيور يوس دنتاتوس **Curius Dentatus** الذي لم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي استولى عليها من الأعداء ؛ ولفابيوس يكتور **Fabius Pictor** ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم في مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها في بعثة رسمية . وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة ، وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى العنبر في معاملتها للدول الأجنبية ، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية في علاقاتها الخارجية . ولكن مجلس الشيوخ أبن أن يتغاضى عن تسميم پيرس **Pyrrhus** ، وحنره من المؤامرة التي كانت تدبر له (٣٦) . ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كاني عشرة أسرى إلى رومة ليفاوضوها ، في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال ، وأعادته إلى هنيبال ، ويقول بوليبيوس إن سرور هنيبال لنصره « لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة (٣٧) » . وقصارى القول أن الرومان العادى في ذلك العهد كان محباً للنظام ، محافظاً ، وفياً ، لا يفرط في الشراب ، وقوراً بخيلاً ، قاسياً ، عملياً . وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية ؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهى . وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تثبت من أخلاقه كما تثبت من إرادته ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات ، وكان لا يؤمن بالفرديّة ولا يثق بالعبقريّة . ولم يكن يتحلى بشيء من الجاذبية ؛

وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو أتیکا Attica . وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء . وكان النظام مصدر تفوقه على غيره . وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به . وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخلق هذا الجمال خلقا . وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة ، وكان يرتاب في الفلسفة ، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأصاليب القديمة . ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح ، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم :

الفصل الرابع

الآداب

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقي وحدها هي التي تكون أخلاق للروماني ، بل إن المدرسة واللغة والآداب كان لها هي الأخرى شأن في تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى . ويقول أفلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت في عام ٢٥٠ ق . م (٢٨) ، ولكن ليثي يقول في وصف فرجينيا Virginia محبوبة أحد الحكام العشرة ، ولعل لخياله الخصب شأن في هذا الوصف ، إنها « كانت تذهب إلى مدرسة في السوق العامة » في تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق . م . وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين ، ونشر الألواح الاثني عشر ، ليوحى بأن كثرة المواطنين في رومة كانت في تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة .

وكان المدرس في العادة من العبيد أو من العبيد المحررين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها ، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه . ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة . وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام ، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية . وكان في حفظ الألواح الاثني عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً . ومن أقوال هين Helne في وصف الصمود التي يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه « لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم (٥٠) » . ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة ، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية ،

وكان الطالب اليوناني يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها ، وكان يتلقى دروساً في للوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط : ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقروا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهددة النافعة : الحقول والمعسكرات ، لا بالمباريات في المجتلدات والملاعب الرياضية .

وكانت اللغة - كما كان الشعب - اقتصادية عملية محددة المعاني ، مختصرة ، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيماً يوصل إلى هدف محدد . وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السنسكريتية واليونانية واللغات الكلتيية التي كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندة ؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية ؛ وكانت اللغة اللاتينية أصبىق من اللغة اليونانية خيالاً ، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة ؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها ، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة في المعنى الواحد . لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلها من أصلح اللغات للخطابة ؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز ، وعبارتها المنطقية ، قد جعلها صالحة لتدوين القانون الروماني . وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى رومة من جزيرة خلقيس العويية *Euobeana Chalcis* (*) عن طريق كومية ولاتورديا (١) . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل في أقدم نقش لاتيني معروف يعزى إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان حرف C في اللاتينية القديمة ينطق كافا مثل حرف K في الإنجليزية كما كان حرف V ، U ينطقان مثل U ، W ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها في اللغة الإيطالية الحديثة . وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه يوليوس قيصر *Yooleous Keyssar* كما كان اسم شيشرون *Cicero* ينطق به كيكرو *Keekero* .

(*) من مجموعة جزائر عويية في شرق بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشقوقة (calamus, stilus) على أوراق الأشجار في بادئ الأمر (folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf , folio ، ومعناها صفحتان) ؛ ثم كتبوا فيما بعد على ياطن لحاء الشجر (liber) ؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلي بالشمع (Album) ، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ ، وعلى الورق . وإذا كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام ، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب ، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا . ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة : الإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والفرنسية ، ولغة رومانيا ، نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار ، والأفاقون المغامرون ، ولم تنشأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون . ولهذا اشتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية - Caballo ، Cavallo ، Cheval - من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصيح equis . وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامية مكوناً من مقطع واحد كلفظ il في اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان حرف S وحرف M يُحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين . وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من مسخ أسوأها : Corruptio pesimi optima .

ترى ما هو الأدب الذي كان يقرؤه الشاب الروماني في هذه الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ؟ لقد كان في وسعه أن يقرأ تراجم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren ، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي رومة التاريخي أو الأسطوري . وكان في ذلك العهد مسجلات رسمية - معظمها مما كتبه الكهنة - للانتخابات ، والمناصب الكبرى ،

والحوادث الشهيرة ، وعلامات التشاؤم والتفاؤل ، وأيام الأعياد(*) .

وقد اعتمدك . فايبوس بكتور Q. Fabius Pictor على هذه السجلات في كتابة تاريخ لرومة خليق بالاعتبار ، وإن كان قد كتبه باللغة اليونانية ؛ ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي ، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو .

لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتورى Saturae ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل المزلّى - صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horaec وجوفنال Juvenal وكان لديهم مجون هزلي فاحش أو تقليد صامت يقوم به في العادة ممثلون من إتروريا .

وقد أطلق لفظ استريوني istiriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ histrio (ممثل) اللاتيني ومشتقاته في اللغات الحديثة . كذلك كانت تمثل في أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجة شبه مرتجلة ، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها : كالأب الغني الأبله ، والشاب المتلاف صريع الحب ، والعذراء المقترى عليها ، والخادم الدساس الماهر ، والنهم الدائب السعى إلى وجبة ، والمهرج المرح الصخاب .

وفي ذلك العهد البعثد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان ، وبسراويله الطويلة المنتفخة ، وبصديرتة الواسعة الأكمام ، وبرأسه الخليق ، وهى الصورة التى لا تزال نذكرها من أيام شبابنا . ولقد وجدت على مظلمات خرائب بمبي صورة لا تفرق فى شيء عن صورة « القركوز » المعروفة .

وكان أول دخول الأدب فى رومة على يد عبد يونانى فى عام ٢٧٢ ق . م .

(*) annal, esmaximi, libri magistratum, fasti consulares fasti calendares

ففي ذلك العام سقطت تارنتم في يد الرومان وذبح كثير من أهلها اليونان ،
ولكن ليفيوس أندربليكوس *Levius Andrenicus* أسعده الحظ بأن نجا
من القتل وصار في عداد العبيد ، ثم جرى به إلى رومة فأخذ يعلم أبناء سيده
وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوديسة بالشعر
اللاتيني السانوزي *Saturnian* وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة
غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول . ثم تحرر من الأسر جزاء
له على جهوده وعهد إليه إيديل^١ بكتابة مأساة ومسلاة تمثلان في ألعاب
(ludi) سنة ٢٤٠ ق . م . فكتب المسرحيتين على النمط اليوناني ، وأرشد
ممثلهما ، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما ، وغنى ما فيهما من الأناشيد على
نغمة مزمار حتى يبحّ صوته .

ثم جاء بشخص آخر يغني الأبيات وهو يمثل - وهي طريقة اتبعت في
مسرحيات كثيرة بعدهما مثلت في رومة ، وكان لها أثر كبير في نشأة
المسرحية الصامتة المضحكة ، وسرت الحكومة أيما سرور من دخول
المسرحية الأدبية في رومة فكرمت أندرمكس ، بأن أباحت للشعراء أن
يؤلفوا اتحاداً لهم ، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل منيرفا على الأفتنين
ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد
العامة (٤٣) .

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندي قديم من عامة
الشعب ومن أهل كمانيا يدعى كنيس نيفيوس *Cnaeus Naevius* فأثار
غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسلاة سخر فيها من
المفاسد السياسية التي كانت متفشية في العاصمة في أيامه ، سخرية لا تقل
في صراحتها عن سخرية أرسطوفان *Aristophanes* .

وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية فزج نيفيوس في السجن ثم
اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه ، ولكنه عاد فألف مسرحية أخرى لا تقل
في سخريتها لللاذعة عن مسرحيته الأولى ، أخرج على أثرها من رومة ، وكتب

في منفاه وهو شيخ طاعن في السن ملحمة شعرية في الحرب اليونانية الثانية التي خاض هو نفسه غمارها ، تفيض وطنية وحماسة . وتبدأ هذه الملحمة بذكر تأسيس رومة على أيدي اللاجئين الطرواديين ، وقد استمد منها فرجيل موضوع ملحمة وكثيراً من مناظرها .

وخليق بنا أن نقول إن الحكم الذي صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة ؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتت في عضدها عنت الرقابة التي كانت تعد السب جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاماً جريداً كان في وسعه أن يطهرها من مفاسدها .

وكتب نيفيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تاريخ رومة : ووقفت هذه التجربة هي الأخرى عنده ، وظلت المأساة الرومانية بعد أيامه محصورة كلها في دائرة الأساطير اليونانية التي نضب معينها ولم تجد لها منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات . ولم يبق مما كتبه نيفيوس إلا قطع قليلة منفردة تشهد براعته ، ومنها قطعة تصف فتاة لعوباً يقول فيها :

« إنها تنتقل من شخص إلى شخص تنقل من يلعب كرة في حلقة ، وهي كل شيء لكل رجل ، تلقاهم بألفاظها ، وعمرات عينها ، ودلالها ، وعناقها . هذا تضغط عليه بيدها ، وذلك بقدمها ، وثالث تريه خاتمها ، ورابع ترسل له قبلة حارة مغرية من شفيتها ، وهنا أغنية ، وهناك لغة الإشارات » (٤٤) .

وخليق بنا أن نقول إن النساء لم يكنن في ذلك الوقت أقل جمالا وسحرًا مما هن الآن ، وإن الرومان لم يكونوا كلهم متزمتين كما كان « كاتو » ، وإن الفضيلة كانت تنحى عن مكانها في ظلال أبواب المياكل نفسها .

ولم يكن للعلوم شأن في تربية المواطن الروماني أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية ، وما يكفي من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد . وكان

الأولاد يعدون على أصابعهم (digita) ، ولم تكن الأرقام التي يستخدمونها في العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عند الرسغ X ، وكانوا يكتفون في تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (II ، III) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدها للدلالة على ما هو أقل منها في الحالة الأولى أو أكثر منهما في الحالة الثانية .

ومن هذا الحساب « اليدوي » وضع النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها ، أي الأصابع العشر . وأجاد الرومان استخدام الهندسة في أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية ، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التي ابتكرها العقل اليوناني . ولسنا نسع شيئاً عن الفلك الروماني في هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء ، وبالتنجيم شقيق الفلك أو موجدته .

أما الطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات في البيوت ، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى ، وكانوا يبتهلون في كل داء إلى إله خاص ، كما نلجأ نحن إلى الطيب الإخصائي ، لكنهم لم يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض (٤٥) ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ في اتقاء أذاه إلى الإلهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephtitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من « سيدة الحميات » La Madonna della Febbre (٤٦) . وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها في هذه الأيام .

وكان هيكل اسكيولايبوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الديني يعتمد فيه على التغذية المناسبة ، والمياه المعدنية ، والوسط الهادئ والنظام الربي الخالي من الضجيج ، والدعوات الصالحات ، والمراسم الدينية والمهدئة للأعصاب ،

ومعونة الأطباء المحبرين العمليين ، ولطف مهرة المرضيين ، يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات (٤٧) .

على أنه كان في رومة إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام ؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثني عشر كانت تحرم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً في تغطية الأسنان (٤٨) . ونسمع في عام ٢١٩ ق . م عن أول طبيب من الأحرار في رومة ، وهو أرشجاتوس البلوونيزي Archagathus Le Peloponnes . وقد أعجب الأشراف بجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة . وكان « شغفه الشديد الذي يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق » سبباً في تلقيه فيما بعد بالجزار Carnifex (٤٩) ؛ وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى رومة حتى أصبحت صناعة الطب في تلك البلاد وقتاً على اليونان .

الفصل الخامس

الزراعة

قلما كان الروماني في تلك العصور يحتاج إلى الطب ، لأن حياته اللشيطة في الزراعة والجنديّة تكسبه صحّة وقوة ، وكان يجد في فلاح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر ، وكانت الزراعة أساس حياته ، يقيم المدن لتكون مجتمعا للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم ، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداده للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها ، ويفكر في آفته على أنها أرواح الأرض الحية والسما المغلّية .

ونجد الملكية الفردية قائمة في رومة من أقدم العصور المعروفة (٥٠) ؛ على أن بعض الأراضي كانت تعد من الأملاك العامة *ager publicus* التي تستولى عليها الدولة عن طريق الفتح وتحفظ لنفسها بملكيتها . وكانت أسرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة ، يشتغل فيها جميع أفرادها وعيبتها إن كان لها عبد ، وتعيش عيشة منقشفة على ما تنتجه من الغلات . وكانوا يقرشون القش (٥١) ، ويصحون من نومهم مبكرين ، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العاوى عار من الملابس ، ليحرقوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها ، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاما في الأعياد والولائم . وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سمادا ، ولكن الخصبات الكيميائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية ؛ وقد استورد الرومان في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية في بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزرع حياثم خضراً ، ثم ترك من حين إلى حين لتكون مراعى حتى لا يستنفد خصبها وكانت الفاكهة والخضر موفورة ، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين ، وكان

الثوم من أحب المشهيات ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض
أسر الأشراف قد اشتقت أسماءها من الخضراوات التي تبنى بزراعتها . ومن
أمثلة ذلك أسر *Caepiones* و *Fabii* و *Lentuli* ، وهى مشتقة من ألفاظ
معناها العدس ، والبصل ، والفول أو الحمص ، ثم طغت زراعة التين
والزيتون والكرام شيناً فشيناً على زراعة الحبوب والخضر ، واستبدل
زيت الزيتون بالزبد فى الطعام ، وبالصابون فى الاستحمام ، واستخدم
للإضاءة فى المشاعل والمصابيح ، كما كان العنصر الأساسى فى أدهان الشعر
والجلد التى كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة فى
فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها . وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين
كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات . وكانت الخنازير
والدجاج تبنى فى ساحة المزرعة ، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار (٥٥) هـ
ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح ، ذلك أن
كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمخراث قد غلبوا على أمرهم
فى ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قاط إلى حقولهم ؛
وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفها الإهمال ، أو الجيوش ، فلم
يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد ؛
ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة ؛ فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن
يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع ؛ وضم
هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة
كبيرة *Latifundia* ، واستبدلوا بزراعة الحبوب فى هذه الضياع مراعى
للضأن والماشية ، وبساتين وكرام ، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب
يعملون فيها على أعين مشرفين ، كانوا هم أيضاً عبيداً فى أغلب الأحيان
وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الفينة والفينة ليلقوا نظرة على

أملاكهم ؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال ، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف ، أو في قصور في رومة . وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع ، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف طائفة من المستأجرين الذين أثقلتهم الديون ، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم ، وانتشرت بينهم روح التذمر والغضب من وضعهم ؛ وما لبث هذان التذمر والغضب أن قضيا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين .

الفصل السادس

الصناعة

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها - وكان لفقرها في هذه المعادن أكبر الأثر في تاريخ إيطاليا الاقتصادية والسياسي ؛ فلم يكن في البلاد ذهب قط ، وكانت الفضة جد نادرة ، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد ، كما كان بها بعض النحاس والرصاص ، والقصدير ، والخارصين ، بكميات قليلة لا تكفي لقيام الصناعات . وكانت جميع المناجم في الإمبراطورية كلها ملكاً للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالاً مجزياً على أيدي آلاف من العبيد . ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية في البلاد إلا قليلاً ؛ ولكن البرنز في ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالاً من الحديد ؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التي أقامها أركميدس Archimedes وغيره من العلماء في صقلية ومصر تستخدم إلا في خير المناجم الإيطالية وأحدثها . وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها في بناء البيوت وصنع السفن والأثاث ؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تنقص مساحتها وتندم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال ، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذي لا تنمو فوقه الأشجار . وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد في كمانيا . ولم يوضع قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار ، ولم يكن الفخرايون يصنعون الصحف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر ، والقرميد ، والأنابيب ، والقنوات التي تجري الماء إلى البيوت . وكان في أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية . ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة النسيج قد تحطت المرحلة المنزلية في نقش

التيل والصوف وإعدادهما وصبغهما ، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها البنات والأزواج والعبيد . أما النساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا في مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة التصدير .

أما الإنتاج الصناعي للاستهلاك غير المحلي فقد كانت تعطله صعاب النقل . ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة ، والعربات التي تجرها الثيران بطيئة ، والنزل في الطرق نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار ؛ أما المدن الساحلية فكانت تستورد حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر . وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق . م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق « القنصلية العظيمة » وقد سميت طرقاً قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبداونها . وما لبثت هذه الطرق العامة أن فاقت في صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجنية التي اتخذها الرومان نماذج لهم في بادئ الأمر . وكان أقدم هذه الطرق طريق فيا لاتينا *via Latina* الذي خرج به الرومان حوالي عام ٣٧٠ ق . م إلى تلال ألبان . وبدأ أيبوس كلوديوس *Appius Claudius* الضريز في عام ٣١٢ طريق فيا أيبيا *via Appia* أو الطريق الأيباوي الذي يصل رومة بـ *Capua* واستخدم في إنشائه آلاف من المجرمين (٥٥) ، ثم مد هذا الطريق فيما بعد إلى بنفنتم ، وفنوزيا *Venusia* ، وبرنديزيوم *Brundisium* ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلاً إنجليزيا يربط ساحلي شبه الجزيرة الشرق والغربي ، ويبسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق كما كان هو وغيره من الطرق عاملاً كبيراً في توحيد إيطاليا . وفي عام ٢٤١ ق . م شرع الرقيب أورليوس كوتا *Aurilius Cotta* في إنشاء الطريق الأوريلي الممتد من رومة إلى أنتيبيس *Antibes* مختزقاً مدينتي *Pisa* ،

وجنوى **Genoa** . وافتتح كيوس فلامينوس **Calus Flaminus** في عام ٢٢٠ الطريق الفلاميني المؤدى إلى أرمينوم **Ariminum** ، ثم أنشئ حوالى ذلك الوقت نفسه الطريق القليري **Valerian** بين تيدور **Tipur** وكرفينيوم **Corifinium** . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً : فصعد الطريق الإمبلي **Aemilian** نحو الشمال من أرمينوم مخترقاً بونوليا **Bononia** وموتينا **Mutina** إلى بلاسنتيا **Placentia** (عام ١٨٧) ، وربط الطريق الپستوني **Postumian** جنوى بقرونا **Verona** (١٤٨) وسار طريق پوبيليا **Via Popilia** من أرمينوم مخترقاً رافنا **Ravenns** إلى پدوا **Padua** (١٣٢) ثم أنشئت الطرق في القرن التالى من إيطاليا إلى خارجها - إلى يورك **York** ، وفيينا **Vienna** ، وثلونيكيا ، و **Thessalonica** ، ودمشق ، كما امتدت على طول ساحل إفريقيا الشمالى . وأفادت هذه الطرق فى الدفاع عن الإمبراطورية وتوحيدها ، وبعث الحياة فيها ، وذلك بمساعدتها للجيوش على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار فى ربوعها ، كما أضحت مسالك عظيمة للتجارة ، وكان لها شأن أیما شأن فى تعمير إيطاليا وأوربا وزيادة ثرائهما .

لكن التجارة لم ترج فى إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى رواجها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن رجال الطبقات العليا كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ، ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحمرين من أبناء الشرق ؛ هذا فى المدن ، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التى تقام من حين إلى حين ، وبأسواق اليوم التاسع فى المدن .

كذلك لم تبلغ التجارة الخارجیة شأواً عظيماً لأن النقل البحرى كان معرضاً للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال فى الساعة سواء أكانت تسير بالشرع أم بالهجازيف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ

ولا يجروء معظمها على الخروج من الموانى من شهر نوفمبر إلى شهر مارس كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربى البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقه ، وكان لصوص البحار ينقضون من مكائهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما ٥

وفوق هذا كله كان نهر التبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء رومة عند أستيا Ostia ؛ وقد حدث أن غرقت مئتا سفينة فى هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء . يضاف إلى هذا وذلك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى رومة عملاً لا يوازى ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال ، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالى عام ٢٠٠ ق . م ترسو عند بتيولى على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبى رومة ، ومنها تنقل حمولتها براً إلى العاصمة ٥

وكان لا بد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود ، والمقاييس ، والمكاييل ، والموازن ، مضمون من الدولة (*) .

لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل ، ذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان . فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس ، خشنة الصنع غير مهذبة تسمى الإيس Aes واسطة للتعامل (حوالى ٣٣٠ ق . م) ٥ وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتى Aes timare أى تقويم النحاس . وكانت الوحدة المستعملة فى تقويم الأشياء هى الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلاً من النحاس ، ولما أن سكّنت

(*) وإلى التارىء بعض المقاييس والمكاييل الرومانية : الموديوس Modius ومقداره ربع بوشل (والبوشل يساوى ٣٥ر٢٤ لترا) ، والقدم ومقدارها $11\frac{3}{8}$ بوصة إنجليزية ؛ وكانت خمس أقدام رومانية تساوى خطوة (Passus) ، وألف خطوة تساوى ميلاً (Mil a passum) ومقداره ١٦٦٩ ياردة إنجليزية ، وكان الأيوجيرم (iugerum) يساوى $\frac{2}{3}$ فدان إنجلىزى Acre تقريباً ؛ وكانت (اثنتا عشرة أوقية (Unciae) تساوى رطلاً .

الدولة عملة نحاسية حوالى عام ٣٣٥ ق . م كانت تطبع عليها في الغالب صورة ثور ، أو شاة ، أو خنزير ، ومن ثم سميت بيكونيا pecunia (من بيكس pecus أى ماشية) .

ويقول بلني إنه لما شبت الحرب الپونوية الأولى « ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يبنى بحاجاتها ، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وبهذه الوسيلة اقتصدت ٥ قيمته ، وأفلحت في تصفية الدين العمومي » (٥٦) . وما أن وافي عام ٢٠٢ حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة ، ثم خفض في عام ٨٧ إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية . وفي عام ٢٦٩ سكّت قطعتان من النقود الفضية أولاهما الديناريوس Denarius وكان يساوى عشرة آسات ، أى قيمة الدرخمة الأثينية في صورتها الهلينية المخفضة ، والأخرى السترتيوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس . وفي عام ٢١٧ ظهرت أول عملة ذهبية رومانية - الأورى aurei - وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين سسترتيوس .

أما من حيث قيمة المعادن التي تحتويها كل قطعة من هذه النقود فقد كان في الآس ما قيمته $\frac{1}{4}$ والسستر $\frac{1}{16}$ والديناريوس $\frac{1}{64}$ من الريال الأمريكي .

وإذ كانت المعادن الثمينة أقل كثيراً منها في هذه الأيام ، وكانت قيمتها الشرائية لهذا السبب أضعاف قيمتها في الوقت الحاضر (٥٧) ، فإن في وسعنا إذا غضضنا النظر عن تقلبات الأثمان في عهد نيرون أن نقوم الآس والسسترتيوس والثالثت (٦٠٠٠ ديناريوس) في عهد الجمهورية الرومانية بـ $\frac{1}{16}$ ، $\frac{1}{32}$ ، $\frac{1}{64}$ ، $\frac{1}{128}$ ، $\frac{1}{256}$ ريال أمريكي على التوالي حسبما كانت قيمة الريال في عام ١٩٤٢ (٥٨) .

(٥٨) وكان البوشل من القمح في شمال إيطاليا يباع حوالى عام ٢٥٠ ق . م بنصف ديناريوس (أى $\frac{1}{32}$ من الريال) وكان المبيت والطعام في النزول مدة يوم يتكلفان نصف آس ($\frac{1}{32}$ من الريال) (٥٨) ، وكانت أجرة المنزل المتوسط القيمة في ديلوس Delos في القرن الثاني قبل الميلاد أربعة دنانير (٢٤ ريال) في الشهر ، وكان ثمن الطبق والفنجال في رومة عام ٥٠ ب . م نصف آس ($\frac{1}{32}$ من الريال) (٥٩) .

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملاً مهماً في تدعيم الأعمال المالية في البلاد ، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل في أعمال المصارف ، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله . وقد ظلت الدولة نتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة ، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقي الرعب في قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة ؛ وكان إقراض المال من أقدم الأعمال في رومة ، وشاهد ذلك أن الألواح الاثني عشر تحرم الربا إذا زاد على $\frac{8}{3}$ % في السنة (٦٠) ، ثم خفض سعر الفائدة القانوني في عام ٣٤٧ إلى خمسة في المائة ، ثم حرم الربا على الإطلاق في عام ٣٤٢ ق . م

ولكن المرابين كان في وسعهم أن يروغوا من هذا التحريم الأرسطاطيلي ، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلاً لا يقل عن ٢ % . وفضلاً عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذي يزيد على ١٢ %) واسع الانتشار ، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع ، وحدث في عام ٣٥٢ ق : م أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين : ذلك أنها تكلفت هي بالرهون التي كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها ، وأقنعت الزاهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التي تعاقدوا عليها (٦١) ، وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum حتى رجال المصارف ، وازدهت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلي النقود (trapezitae) ، وكان في وسع الأهلين أن يقترضوا المال بضمأن الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية ، والعقود الحكومية ، كما كان في وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية ، وكان يحل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاوني ؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن يتفرد واحد منها بتمويله . وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيذ

العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات . وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور في صورة « أجزاء صغيرة » أي أسهم *particulae* أو (*partes*) . وقد اضطلعت هذه الشركات المولفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول في الحرب البرنية الثانية بما يحتاجه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما ، ولم يفتها في هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات ، وهو أن تتخذ الحكومة (٦٢) ، وكان رجال الأعمال *equites* هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى ، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون ، وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال *negotiatunes* وكان هؤلاء يديرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال .

وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كل منهم في حانوته الخاص ، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام . وكانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف ، وكان أكثر ما ينجون للسوق لا للعميل الخاص . وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأولين ، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا نقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون في أقاليم الأحياء في هذه الأيام . ولم يكن إضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث (٦٣) ، غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة ؛ ولم تكن « حرب الأرقاء الأولى » (١٣٩ ق : م) أولى هذه الفتن . ذلك أن التدمير إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم ، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيئ أعمالاً للمتعتلين ، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة ، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجي يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا ،

أو تستبيلهم هذه الأرض . وتى أو أسرى إذا هزموا (٦٤) . وكان للأحمران من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) . ولكنها قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه . وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Nums فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها . وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان في القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين ، والصائغين ، والنحاسين ، وطارقي الحديد ، والحذائين ، والفخارنيين ، والصباغين ، والنجارين (٦٥) . وكانت جماعات « الفنانين الديونيزيين » Dionysian Artists - الممثلين والموسيقين - من أكثر الجماعات انتشاراً في العالم القديم . وقد كان في رومة قبل بداية القرن الثاني قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين ، ودابغى الجلود ، والبنائين ، وصناع البرنز ، والحدادين ، وصانعى الحبال ، والنساجين ، ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر . وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذى تبعثه الصلات الاجتماعية في قلوب أعضائها . وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى .

ولم تكن الدولة تنظم شئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب ، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحي في حياة رومة الاقتصادية ، فكانت تشرف على استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التى كانت تبرمها الحكومة ، وكانت تهدئ الاضطرابات التى يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه . وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات ؛ وقد أمت صناع تعدين الملح لتقضى بذلك على احتكار هذه الصناعة ، بعد أن ارتفع من الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله في غير متناول طبقة العمال . وكانت رومة تتبع سياسة حرية التجارة ، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها ؛ وقررت حماية يتكا Utica ثم دياوس مشترطة عليها في نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين

حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدي لهما رسوماً ،
على أنها كانت في بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح ، والحديد ، والخمر ،
والزيت ، والحبوب ، وكانت تفرض على معظم الغلات التي تدخل رومة
عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف في المائة من قيمتها ، ثم امتدت
هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن ، وظلت حتى عام ١٤٧ ق . م
تفرض ضريبة على الأملاك (tributum) في جميع أنحاء إيطاليا . ويمكن
القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت
تستخدم فيه هو نفقات الحرب ، شأنها في هذا شأن غيرها من الدول
المتحضرة (٦٦) .

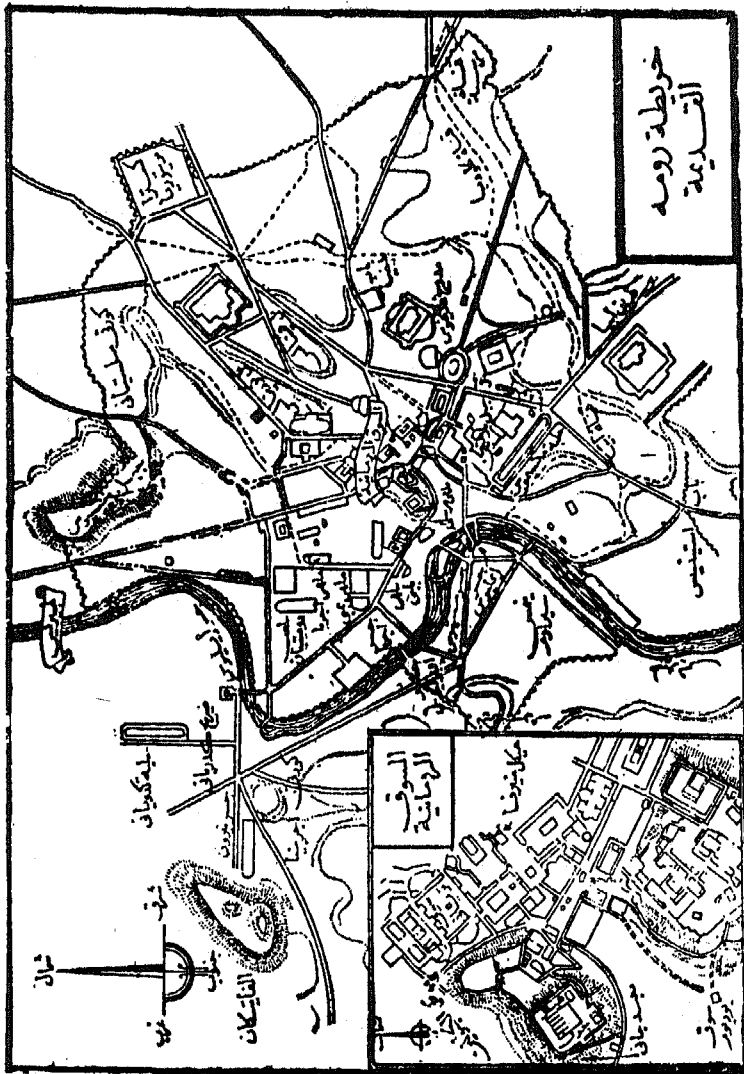
الفصل السابع

المدينة

أصبحت رومة في عام ٢٠٢ ق. م من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بفضل ما كان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها ، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها .

وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٧١٣ر٢٧٠ من المواطنين - أي من الذكور الراشدين الأحرار . ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خلال الحرب الكبرى ، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ إلى ٢٥٨ر٣١٨ وإلى ٣٢٢ر٠٠٠ في عام ١٤٧ ، وفي وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق. م بما يقرب من ١٠١٠٠ر٠٠٠ ولربما كان ٢٧٥ر٠٠٠ من هؤلاء يسكنون في داخل أسوار رومة . وكان في إيطاليا جنوب الروبيكون Rubicon نحو ٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ من السكان (٦٧) . وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة ، وتدفق السكان ، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية - كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في رومة تلك التغيرات العبقورية التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم ، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس .

وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة ، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون . وقد شيدت إلى آلهة ملتي الطرق **Lares Compitales** معابد عند ملتي الطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتي الطرق الأقل من هذه أهمية - وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في



(شكل ٥)

إيطاليا . وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية ، وكان بعضها مرصوفاً بحجارة
ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط
في هذه الأيام ، وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالي عام ١٧٤
يغطي أرض الشوارع الكبرى بكتل من اللحم البركانية . وقد بنى أبيوس
كلوديوس الأعمى في عام ٣١٢ أولى القنوات المعروضة لبحر المياه العذبة إلى
المدينة التي ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه التبر العكرة .

وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات ، ومدت منها
الأنابيب في بيوتهم ، وركبت عليها الصنابير ، فاستطاع الأشراف أن
يستحموا بمائها أكثر من مرة في الأسبوع ، ثم افتتحت رومة حماماتها
الأولى التابعة للمدينة بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل . وشاد المهندسون
الرومان أو التسكان في وقت غير معروف المجرى الأكبر Cloaca Maxima
لنقل مياهها القذرة ، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة
من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها (٦٨) . ثم أنشئت
مجارى صغرى لصرف مياه المناقع التي كانت تحيط برومة وتغير عليها في
بعض الأوقات ، وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات في
الشوارع إلى هذه المصارف ، ثم تنتقل منها إلى نهر التبر . وقد ظلت مياهه
الملوثة مشكلة المشاكل في الحياة الرومانية .

وربما كانت المعابد هي مظاهر الزينة الوحيدة التي كانت في المدينة .
ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكاني البسيط الذي وصفناه
من قبل ، لا يفترق عنه إلا في شيء واحد وهو أن جدرانها الخارجية
كانت تبني في الغالب من الآجر أو تطلّى بمسحوق الجبس الناعم ،
وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر في
ذكر حادث من الحوادث التافهة التي لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها .
ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون

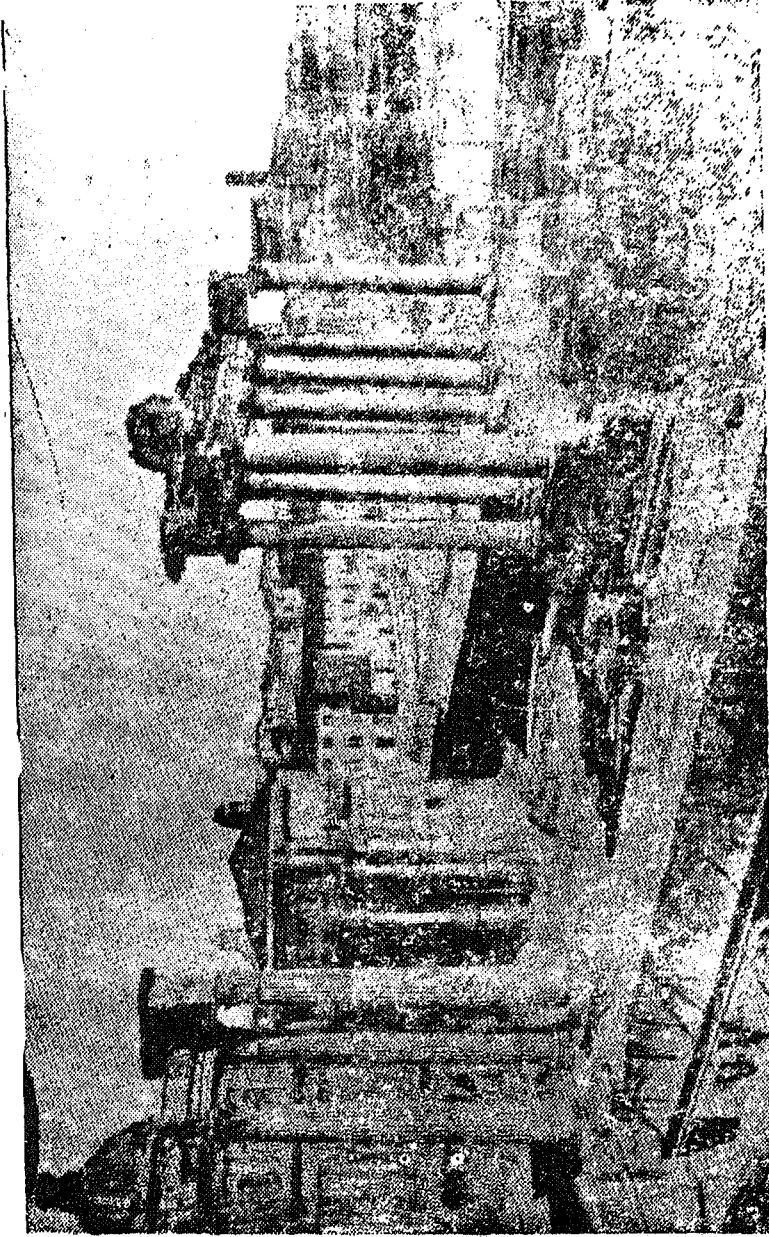
منهم القراءة والكتابة ، وكانت الهياكل تبنى في الغالب من الخشب ، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق ، وكان طرازها هو الطراز التسكاني . وقد أقيمت على تل الكپتولين هياكل لچوبتر ، ويونو ، ومنيرفا ، وأقيم ميكل آخر لديانا على الأفنتين Aventine ، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق . م) ليونو ، والمريخ ، ويانوس Janus ، والزهرة ، ولنصر . والحظ السعيد ، والأمل وما إليها . وفي عام ٣٠٣ ق . م أضاف كپوس فايوس إلى اسم عشيرته النبأى لقب پكتور Pictor أى المصور . وذلك لأنه عمل مظلمات في هيكل الصحة القائم على الكپتولين . وأقام المثالون اليونان في رومة تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر ، والرخا . والبرنز ؛ وقد أقاموا في عام ٢٩٣ على الكپتول تماثلاً لچوبتر بلغ من ضخامتها أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التي تبعد عنه عشرين ميلاً . وفي عام ٢٩٦ أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المباني العامة والألعاب وغيرها) تماثلاً من البرنز لذئبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لرميوليوس وريموس . ولسنا نعرف أهذه هي المجموعة التي جا . وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى ، وإن لم تكن فهل هذا أو تلك هي بعينها « ذئبة الكپتول » التي لا تزال باقية إلى هذا اليوم . ومهم يكن من شيء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية في الإتقان ؛ فهى تمثال من الجهاد ينبض بالحياة في كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه .

وبينا كان الأشراف يخذون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العام يتأسون بسماع الموسيقى ، وبالرقص ، والمسرحيات المضحكة ، والألعاب . وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغاني الفردية والجماعية ، فكان الرجال يغنون في المآدب والأولاد البنات يرددون الترانيم في المواكب الدينية ، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغاني تصحب جنازات الأموات . وكان المزمارة أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كاد

لها من بهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائى .
وكان الرومان فى أيام الأعياد الكبرى يجتمعون فى المدرجات وساحات اللعب
يكتنون بنار الشمس ، بينما كان المستأجرون والأسرى والمجرمون والأرقاء
يعدون ، أو يقفزون ، أو يقتتلون ، ويموتون . وكان الاقتتال والموت أحب
إلى الجاهير من العدو والقفز . وكان فى المدينة مدرجان كبيران هما الساحة
الكبرى (ويقال إن الذى أنشأها هو تاركوبين الأول) وساحة فلامينوس
(٢٢١ ق م) - وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال
والنساء فى الوقت الذى يمكنهم من أن يجدوا فيها مكاناً . وكانت الدولة فى
بادئ الأمر هى التى تتكفل بالإنفاق على الملعبين ، ثم تكفل بهما بعدئذ
الإيدىلون ، أما فى العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما
المرشحون لمنصبه القناصل ، وأخذت هذه النفقات تزداد جيلاً بعد جيل حتى
أضحت فى واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمناصب القناصل

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب « حفلات النصر » التى
كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال . ولم تكن هذه الحفلات
تقام إلا لمن انتصروا منهم فى حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف
أو يزيدون . أما للقائد المنحوس الذى انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا
العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب ، ولم يكن يضحى له
بثور بل بشاة *ovis* . وكان الناس ينتظمون فى الموكب خارج المدينة ،
وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم ،
ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر ، أتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات
من الآثار . وكان النافخون فى الأبواق يتقدمون الموكب ثم تأتى من
بعدهم أبراج أو أرماث تمثل المدن التى استولى عليها ، وصور تدل على
ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة . ثم تكرر من بعدها عربات
مثقلة بالذهب والفضة : ومنتجات الفن وغيرها من الأسلاب . وقد اشتهر

موكب النصر الذى أقيم لمسلسل بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرفوسة (٢١٢) ؛ وعرض سبزو الإفريقي فى عام ٢٠٧ أربعة عشر ألف رطل من الفضة ، وفى عام ٢٠٢ مائة وثلاثة وعشرين رطلا استولى عليها فى أسبانيا وقرطاجنة ، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصر عنها سير الفلاسفة ، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون ، والضاربون على القيثارة ، والزمارون ، وخاملو آنية البخور ، ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه فى عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من الذهب ، وفى يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار ، وهما رمز النصر ، وشعار جوف jove . وكان يركب معه فى العربة أحياناً أبناؤه ، ويركب فى عربة تسير بجوارها أقاربه ؛ ثم يأتى من خلفهم أمراء سره من المدنيين والعسكريين ، ويأتى فى آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما نالوه من الأعطية ، وعلى رأس كل منهم تاج ، يمدحون قوادهم ، وبعضهم يسخرون منهم . ذلك أن التقاليد المرعية التى لا يمكن خرقها كانت ترك للجنود فى هذه الفترات القصيرة كامل الحرية فى أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه ، وذلك لكى يذكرروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء ، وكان القائد يصعد الكبتول إلى جوبيتر ، ويونو ، ومنيرفا ، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة ، ويضحى بحيوان ما ؛ وكان يأمر عادة بأن يذبح زعماء من الأسرى مبالغة فى شكر الآلهة ، وكان هذا الموكب منظماً نظماً يثير فى النفس المطامع العسكرية ، ويجزى القواد والجنود أحسن الجزاء على جهودهم الحربية ؛ ذلك أن زهو الإنسان وغروره لا يخضعان إلا للجوع والحب .



(شكل ٧) السوق الرومانية الكبرى

الفصل الثامن

بعد الموت

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية في حياة الرجل الروماني ، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذي تحدثنا عنه صحف اللوثرجين الرومان . ولعل حياة الروماني كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولها حياة الرجل منا في هذه الأيام . وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة ، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع في العالم من اضطراب يستثير عواطفه في كل يوم ، ولم تكن الحوادث العظمى التي تمر به في حياته هي السياسة والحرب ، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت الحزنة .

ولم يكن كبر السن تلازمه تلك الوحشية والهجران اللذان ينغصان على الكبار حياتهم في العصور التي تشيع فيها الفردية . ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار ، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً ، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكريم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة . ولم تكن الجنائز تقل فخامة وتعظيماً عن مواكب الأفراح ، فكان يسير في طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلما تغالبن في عويلهن وهوسهن قيد هذا التغالى بنص في الألواح الاثني عشر (٧١) يحرم عليهم اقتلاع شعرهن . ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثني عشر ، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم . ويأتى من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع في صورة آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن في الدولة . ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر ، وعابها كامل

اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها في حياته ، وموضوعة في نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجواني والذهبي ، ومن حولها الأسلحة والدروع التي غنمها ممن قتلهم من الأعداء ، ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه ومواليه وعبيده . فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربه ، لقد كانت الحياة في تلك الأيام خليقة بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة .

وكان الموتى من أهل رومة في القرون الأولى من حياتها يجرقون ، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بعض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم ، وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن في قبر أضحى فيما بعد مزاراً ومكاناً للعبادة ، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلاً من الطعام . وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا في مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر في استقرار الأخلاق والختم الروماني ، كما كان لهما نفس الأثر في بلاد اليونان والشرق الأقصى . وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التي اصطبغت بالصبغة الهلينية ينتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقيمين ؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا في مملكة الأشباح التي يسيطر عليها أوركوس Orcus وپلوتون Pluto . وكان ثانيهما - وهو الصورة اليونانية للإله هيديز Hades اليوناني - يحمل في يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس (وهو الاسم الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ogre أى الغول) فكان هو الهولة التي تلتهم جثة الميت بعدئذ . وإذا كان پلوتو أعظم الأرباب في باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وإذا كانت الأرض هي المورد الأخير للثروة ؛ وهي في كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع ، فقد كان پلوتو يعبد

أيضاً على أنه إله الثروة والأثرياء ، وأضحى زوجته - برسبرينا Prosperpina الضالة - ابنة سيريز Ceres إلهة الحبوب النامي . وكان الرومان يتمثلون بالحجم في بعض الأحيان على أنها موضع العقاب (٧٢) ، وكانوا يصورونها في الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التي كانت في حياتها رجالاً يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء عذاب الظلام الأبدى والنسيان النهائي . « وهناك » كما يقول لوسيان Lucian « يجد الإنسان في آخر الأمر الديمقراطية المنشودة (٧٣) » .

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

٢٠١ - ١٤٦ ق م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومة (٢١٤) ، كان يأمل أن تسير في ركابه بلاد اليونان كلها لإهازق روح ذلك الجبار الناشئ في الغرب ؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين ؛ ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومة في حروبها ضد فليب ؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخلدان فيقنع فليب بعقد صلح منفرد مع رومة (٢٠٥) . وما كاد الرومان ينتصرون في معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ - وهو الذي لم ينس قط إساءة وجهت إلى بلاده - يكيد لمقدونية ويستعد للنار منها . ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومة لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التي لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق . ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التربيونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما في البلاد من فساد^(١) ؛ ولكن المعارضين

في الحرب سرعان ما أخذت أصواتهم واتهموا بخور العزيمة وضعف الوطنية ؛ وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى أبحرت . كونكتوس فلامينوس T. quintus Flaminus إلى مقدونية .

وكان فلامينوس فني في الثلاثين من عمره ، وكان من أفراد تلك الدائرة الحرة المعينة بصنغ البلاد بالصيغة الهلينية ، والتي كانت تتجمع في رومة حول آل سيبو . والتي بفليب عند سينوسفلى Cynoscephalae بعد عدة حركات عسكرية ماهرة ، وهزمه هزيمة منكرة (١٩٧) . ثم أدهش جميع أمم البحر الأبيض المتوسط ، ولعله أدهش رومة نفسها أيضاً ، بأن أعاد فليب ، بعد أن عاقبه على فعلته ، إلى عرشه المفاس المزبل ، وعرض على بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها . واحتجت العصابة الاستعمارية من أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما ؛ وأعلن رسول من قبل فلامينوس في عام ١٩٦ إلى حشد كبير اجتمع في الألعاب التي كانت قائمة في البرزخ اليوناني أن بلاد اليونان ستحرر من سيطرة رومة ومقدونية ، وستعني من أداء الجزية ، وأن الحامية الرومانية نفسها ستسحب منها . ويقول أفلوطرخس إن الجمهور المحتشد هتف له هتافاً عالياً بلغ من شدته أن ماتت الغربان التي كانت تطير فوق الملعب وهوت إلى الأرض (٢) . ولما أظهر العالم المتشكك رييته في نيات القائد الروماني ، بدد شكوكه بسحب جيشه إلى إيطاليا ، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض في تاريخ الحروب .

ولكن الحرب تستتبع الحرب على الدوام ، فقد استاء الحلف الإيتولي من تحرير المدن اليونانية التي كانت من قبل خاضعة له ، وطلب إلى أنتيوخوس الثالث Antiochus III أن يحرر بلاد اليونان من حريتها . واغتر أنتيوخوس

بما حازه من نصر رخيص في بعض المعارك التي خاض نهارها في الشرق ، فسولت له نفسه أن يبسط سلطانه على غرب آسية بأجمعه . ونخشيت برجموم عاقبة بغيه فلجأت إلى رومة تستعينها عليه ، وأرسل مجلس الشيوخ سديو الإفریقی وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش روماني تظاً أقدامه أرض آسية ، والتحم الجيشان عند مجنيزيا Magnesia (١٨٩) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التي شملت بلاد الشرق ذى الصبغة اليونانية . وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغالين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهددون برجموم وحمد لهم اليونان سكان الجزائر الأيونية حسن صنيعهم هذا .

لكن اليونان في أوروبا لم يعجبهم هذا العمل لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب ، وإن كانت لم تظاً بعد أرضها ، ولقد حررت رومة اليونان من عدوهم ولكنها اشترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات والحروب الخارجية . غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التي تتكون منها هلاس ، وكانت الطبقات العليا تتوق إلى فرض سلطاتها السياسي على المدن المجاورة لبلادها ، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت تتهم رومة بأنها أينما حلت تعين الأغنياء على الفقراء . وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقدت روموس Perseus بن فليب الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفاً مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس ، وأهاب باليونان في عام ١٧١ أن يثوروا معه على رومة ، ولكن لوسيوس إيميلوس بولس ابن القنصل الروماني الذي قتل في معركة كانى هزم روموس في بلدنا Pydne بعد ثلاث سنين من ذلك العام ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، وأسر روموس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره في شوارع رومة - وهوقبت رودس بتحرير كل المدن الآسيوية التي كانت تؤدي إليها الخراج ، وبإنشاء ميناء منافس لها في ديلوس . وقبض على ألف

من اليونان ومنهم المؤرخ پوليبوس Polybius واتخذوا رهائن في إيطاليا ، وظلوا في النفي ستة عشر عاماً مات منهم في خلالها سبعمائة(*) .

وسارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيرا حثيثا نحو العداوة السافرة ، ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة في بلاد اليونان بلحأت إلى مجلس الشيوخ في رومة تطلب إليه العون ، وهيأت لرومة بطلبها هذا سبيلا للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى رومة وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة .

ولم يستطع أشياخ سيبو وأسرته في مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستتبان في بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعاً كاملاً لحكم الرومان وبيننا كان النزاع قائماً بين رومة من جهة وقرطاجنة وأسبانيا من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على رومة وثارَت مطالبة بحريتها ، وتزعم الحركة زعماء الطبقات الفقيرة ، فحرروا العبيد وسلحوهم ، وأجلوا الوفاء بالديون ، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة في البلاد . ولما دخل الرومان يقودهم موميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم ،

(*) وقد وجه بواوس Paulus ، وهو سائر إلى هذه الحرب ، تحيته المشهورة إلى الهواة الحيريين في الفنون الحربية والتي قال فيها : « إن في المناصب العامة جميعها ، وفي الأحزاب الخاصة : رجالا يعرفون أين يجب أن تحشد الجيوش في مقدونية ، وأى النقط الحربية ذات المنمة يجب أن تحتلها جيوشنا ... وهم لا يكتفون بأن يقرروا ما يجب علينا أن نفعله ، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى السخرية من القنصل إذا ما استقر الرأي على شيء لا يتفق مع آرائهم ، سخرية لا تقل عن اتهامه بالخيانة ... وهذا عمل يعطل سير الحرب إلى غايتها المرجوة تعطيلاً خطيراً ... فإذا كان (أحد منكم) يحس بأن في وسمه أن يسدى إلى النصح السيد فليسر معي إلى مقدونية ... أما إذا ظن أنه لا يطيق هذا السير فمليه ألا يعمل عمل المرشدين في البحار وهو على ظهر الأرض(٢) » .

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش اليونانية غير المدربة وحرق موميوس كورنثة Corinth وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها بيع الرقيق ، ولم يكن يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومة ، وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومة يحكمها حاكم روماني ، وكانت أثينا واسبارطة هما المدينتين الوحيدتين اللتين سمحت لهما رومة بأن تحتفظا بشرائعهما . واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسي مدى ألفي عام .

الفصل الثاني

تبدل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً ، ولم يكن معظم هذا النماء نتيجة خطة موصوعة عن قصد وتدبير ، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وتراجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد . فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية في معركة كرمونا Cremona (٢٠٠) وموتينا (١٩٣) ، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصلتها إلى جبال الألب ؛ كذلك كان لا بد لرومة أن تحتفظ بسيطرتها على أسبانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها ، هذا إلى ما في تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب . وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود ، وكان حكامها الرومان يعرضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التي يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم . وحسبنا أن نذكر دليلاً على هذا أن كونتس منوسوس Quintus Minucius ، لما عاد إلى رومة بعد فترة قصيرة فضاها قنصلاً في أسبانيا ، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة ؛ وكان الأسبان يجندون في الجيش الروماني فكان منهم أربعون ألفاً في القوة التي استولى بها سيديو إيميليانوس Scipio Aemilianus على نومانتيا Numantia الأسبانية . ولما ثارت على الحكم الروماني ثورة عنيفة في عام ١٩٥ ق م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى في إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم آخذاً في الانقراض ، فكان عادلاً رحماً . ووفق تيبيريوس سمبرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus (١٧٩) توفيقاً مشوباً بالعطف والرافة بين

حكيمه وبين أخلاق الأهلين وحضارتهم ، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل ، ووزع الأراضي على الفقراء . ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسيوس لوكاس Lucius Lucullus (١٥١) أحل بشروط المعاهدات التي عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها مالا يفتصبه منها ، وقتل أو استعبد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء . واتبع هذه السنة نفسها ساپسيوس جلبا Sulpicius Galba (١٥٠) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهلين بعد أن عقد معهم معاهدة يعلمهم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضي ؛ فلما جاءوا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم . وفي عام ١٥٤ شلت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومة حرباً دامت سبع سنين ؛ وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى فرياثوس Viriathus قوى البلية ، فارع الطول ، شجاعاً ، صبوراً ، شهماً ، نبيلاً ، وظل ثمان سنين يكيل الضربات إلى كل جيش روماني يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمير من يقتله غيلة . وصبر الكلتيريان Celtibrians اللاترون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار في ثمانتيا خمسة عشر شهراً ، لا يتناولون من الطعام إلا جث موتاهم ، حتى أرغمهم سيبو إيميليانوس في عام ١٣٣ على التسليم . ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التي سارت عليها الجمهورية الرومانية في أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومة أكثر من فائدتها لها . وفي هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألماني « إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسبانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع (٤) » .

وكانت الرومة المنتهبة من الولايات هي التي أمدت رومة بالمال للذي تتطلبه حياة التهلكة والفساد والأنانية التي أشعلت نار الثورة في البلاد ، وقضت آخر الأمر على الجمهورية ؛ ذلك أن الغرامات الحربية التي فرضتها رومة على قرطاجنة

وسوريا ، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع ميادين النصر ، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وإسبانيا ، والأربعمئة ألف ألف نسسترس (وهي تساوي ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعها من أنتيوخوس ، وپرسیوس ، وال ٤٥٠٣ رطل من الذهب ، وال ٢٢٠٠٠٠ رطل من الفضة التي اغتصبها مانليوس فليسو Manlius Vulso في حروبه الآسيوية ، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائي الذي ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملاك في رومة في مدى نصف قرن من الزمان (٢٠٢ - ١٤٦ ق . م) من رجال ذوى موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون براء ونعيم لم يعرفها قبلهم إلا الملوك . وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب ، ولما أخذت النقود يتضاعفت مقدارها في رومة أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم ثلاثة أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً . واضمحلت الصناعة وراجت التجارة ، ولم تكن رومة في حاجة إلى إنتاج السلع ، فقد كانت تأخذ أموال العالم لتؤدي منها أثمان بضائعه . وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها ، وأثرى منها المكاسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة ، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا . وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع ، ويقبضون التحاويل المالية (praescriptions) ، ويخصمون السفاتج لعملائهم ، ويقرضون المال ويقترضونه ، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية ، وأثروا من الربا الفاحش الذي كانوا ينتزعونه بلا رحمة حتى أصبح القاتل (sector) والمرابي يعبر عنها بلفظ واحد (٧) . وهكذا أخذت رومة تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالى والسياسى - لا المركز الصناعى والتجارى - للعالم الذى يسكنه الجنس الأبيض .

وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلونهم من رجال الطبقة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التنعم والترف الطليق ، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد في أيام كاتو (٢٣٤ - ١٤٩) ، فانتسعت البيوت ، وتناقصت الأسر ، وتسابق الناس في تأسيس دورهم بأفخم الأثاث وأغلاء ثمتاً ، فأخذوا يشترون الطنافس البابلية بأعلى الأثمان ، ويتعاون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب ؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتبلاّ على النضد والكراسى وأجسام النساء ، وسروج الخيل . ولما قل المجهود الجسمي وزاد الثراء استبدل الناس بغنائمهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطير وغيرهما من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات ، وأصبحت الأطعمة النادرة المسعوردة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوى المكانة في المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة . وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية في وجبة واحدة بألف سترس ، واستورد آخر « أنشوجة » بألف وستمائة سترس للرميل ، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتى سترس ، وكان الطاهى الماهر يباع بأعلى الأثمان في سوق النخاسة . كذلك كان شأن الشراب ، فقد انتشر وزادت مقاديره . وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع ، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء ، بل إنه كان يشرب أحياناً بلاماء على الإطلاق . وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المتآدب والملابس ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلين . وفي ذلك يقول كاتو في ألم وحسرة : « إن المواطنين لم يعودوا يستمعون للنصح لأن البيطون لا آذان لها » . وأخذ للناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم ، وثاروا عليها وعلى تدخلها في شئونهم ، كما ثار الابن على أبيه ، وكما ثارت المرأة على الرجل .

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة

المجتمع ؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للمحب ، ولذلك فشت الدعارة في رومة وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسية ، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم ثلثنا (٣٦٠٠ ريال أمريكي) ثمناً للغلام الوسيم ، وشكا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة (١٠) . على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوزيين ، فأخذن يتجمان بكل وسائل التجميل التي هيأتها لهن الثروة الجديدة ، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها ، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفى لون شعرهن الأشيب وتحميه أحمر (١١) . وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجته وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن في المدينة يعلن عن ثروته ، وزاد شأن النساء في دور الحكم نفسها ، وفي ذلك يقول كاتو : « إن الرجال في جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمننا (١٢) » . وحدث في عام ١٩٥ ق . م أن خرجت نساء رومة الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أپيوس Appius الصادر في عام ٢١٥ والذي يحرم على النساء التحلى بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب العربات . وأندر كاتو الرومان بأن رومة سيحل بها الخراب إذا ألغى هذا القانون ، وينطقه ليفي بهذه الخطبة التي قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام :

« لو أننا كلنا قد استمسكنا في بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم ، لما تورطنا الآن في هذه المشاكل مع نساتنا . أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذي قضى عليه استبداد النساء في البيت قد وطئته الأقدام وقضى عليه هنا في السوق ... ألا فلتذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء ، والتي حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجورهن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن ، ومع ذلك فإنكم رغم هذه القيود لاتستطيعون أن تكبحوا جماههن .

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن ؟ هل تظنون أنكم في هذه الحال ستطبقونهن ؟ إن الساعة التي يصبحن فيها مساويات لكم ستكون هي الساعة التي يصرن فيها ذوات الأمر والنهي عليكم « (١٣) . ونخر منه النساء وألزمته الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغى القانون . وانتمم كاتولنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التي يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه . ولكن التيار كان جارفاً ، ولم يكن في وسع أحد أن يصدده ، فألغيت القوانين الأخرى التي كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت ؛ فأصبح للنساء الحق المطلق في الإشراف على استثمار هائنتهن ، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرعنهم السم في بعض الأحيان ، وبدا هن أن ليس من سداد الرأي أن يلدن الأبناء في عصر ازدحمت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار .

وكان كاتول وپوليبيوس قد أدركا في عام ١٦٥ ق . م أن السكان يتناقصون ، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال ، وورث الجيل سيادة العالم ، ولكنه لم يجد لديه من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه ؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية فداء الحرب كلما دعا لها الداعي ، وهو الاستعداد الذي كان من خصائص الملك الروماني ، لم يعد له وجود ، بعد أن تركزت الملكية في أيدي أسر قلائل ، وغضت أقدر أحياء رومة بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم في البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير . فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات ليشاهدوا الألعاب التي تجري فيها الدماء ، وكانوا يستأجرون المجالدين ليضطربوا أمامهم في ولائهم . وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها كلا الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشي الرشيقي (١٤) . وورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها ؛ أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية ، وكانت وسائل لهما في الغالب عنيفة ولغتها بدئية . وإنا لنشم رائحة هذه البذاءة في پلوتس Plautus

وندرك السبب في أن الجماهير كانت لا تطيق مشاهدة مسرحيات ترنس Terence ه ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف في أحد مواكب النصر في عام ١٦٧ أرغم النظارة أولئك الموسيقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة في الملاكمة (١٥).

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة ، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل ، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجاري أو إدارة الأعمال التجارية . ولم يكن في وسع القانون الأخلاقي القديم أو في وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رؤوس الأموال المتحركة أن يصبغ الحياة الرومانية كلها بصبغته . فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال ، وكان كل إنسان يقدر ويقدر غيره بما عنده من المال ، وكان المتعاقدون على الأعمال يفشون ويخدعون ، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها - كمناجم مقدونية - لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبتزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها (١٦) . وتخلق الأشراف بالخلق الجديد ، وشاركوا غيرهم في الثروة الجديدة - إذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين ، ومن واجبتنا ألا نصدقهم - بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة . وأصبحوا لا يفكرون في الأمة ، بل يفكرون في امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية ، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكي يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول ، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التي فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة . وكان الأشراف يعترضون العامة في الطرقات ويستجدونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم ؛ وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

منها . ومنها الذى يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد ائتمروا على خرق المعاهدات ، وسرقة الأحلاف ، وانتهاج اللولايات ؟ وفى ذلك يقول كاتو : « من يسرق مال مواطن يقضى بقية أيامه مكبلاً بالسلاسل والأغلال ؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضى بقية أيامه رافلاً فى أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج » (١٧) .

ومع هذا فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل ، ذلك بأن رومة بقيادته قد خرجت ظافرة من الحارين البونيتين ومن الحرب المقدونية الثالث ، وتحملت كل منافسيها ، وتغلبت عليهم ، وكسبت صداقة مصر ، وبسطت عليها نفوذها ، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها فى عام ١٤٦ عبء الضرائب المباشرة . وقد اغتصب مجلس الشيوخ فى خلال أزمات الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام ، ولكن النصر الذى نالته رومة قد يور هذا الاغتصاب ؛ وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم ؛ ذلك أن الشعوب الثائرة التى خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المخنكين والقواد الظافرين ، لم يكتفوا بقبول أن يتصرف فى شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية فى رومة . إن الحرية أساس الديمقراطية ، والنظام أساس الحرب ، وكلاهما لا وجود له مع الآخر . بذلك أن الحرب تتطلب قدرأ عظيماً من الذكاء والشجاعة ، والحزم والسرعة فى اتخاذ القرارات ، والعمل الجماعى المتحد ، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء ؛ ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الديمقراطية . وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المثوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بما له من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجتد الجمعية مناصاً من الخضوع لرأيه (١٨) . وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة ، كما كان هو المسيطر على

الشئون القضائية ، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمن وهى أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلوها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته ، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف .

وكان فى داخل هذه الأرستقراطية الجركية محصورة فى الأسر ذات السلطان ، ذلك أن التاريخ الرومانى قد ظل إلى عهد صلا Sulla سجلا لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد ؛ فلسنا نرى فيه أسماء ساسة عظام بارزين . ولكننا نرى جيلا فى إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة ؛ ترى من بين مائتى قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامى ٢٣٣ ، ١٣٣ ق . م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة ، ومائة ينتمون إلى عشرة أسر . وكانت أقوى أسرة فى ذلك العهد هى آل كورنيلوس *Cornelius* . وليس تاريخ رومة الحربى والسياسى من أيام بيلوس كورنيلوس *Publius Cornelius Scipio* الذى خسر معركة تريبيا *Trebia* فى عام ٢١٨ أيام ولده سيبو الإفريقى قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتبناه سيبو إيميليانوس الذى دمر قرطاجنة فى عام ١٤٦ ، نقول ليس تاريخ رومة الحربى والسياسى طوال ذلك العهد فى جملته إلا تاريخ هذه الأسرة ، ولقد بدأت الثورة التى قضت على طبقة الأشراف على يد ابنى جراكس وهما حفيدا إيميليانوس . ولقد أصبح سيبو الإفريقى بعد انتصاره فى واقعة زاما التى أنجحت رومة من الدمار محبباً لجميع الطبقات ، وظلت رومة فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أى منصب يرغب فيه ،

فلما أن عاد هو وأخوه لوسيوس *Lucius* من ميدان القتال فى أسية (١٨٧) طلب أشياخ كاتو أن يعرض على المجلس حساب الهزيمة الحربية التى أداها إليه أنتيوخوس ليعث بها إلى رومة ، وأبى سيبو الإفريقى أن يجيب أخوه هذا الطلب ، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ ، وحوكم

لوسيسوس أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة ، ولم ينتج منه العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمبرونيوس جراكس. **Tiberius Sempronius Gracchus** زوج ابنة سيبو الإفريقي أن يجيز هذا العقاب بما له من حق الرفض . واستدعى سيبو الإفريقي إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أمام أعضائها إلى هيكل جوبيتر للاحتفال بذكرى معركة زاما . ولما دعى مرة ثانية أبي أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيعته في ليطرنوم **Liternum** وبقي فيها بقية أيامه لا يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء : وكان يقابل هذه النزعة الفردية في السياسة نمو الفردية في التجارة وفي الأخلاق . وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عطاء رجالها وجهودهم الطليقة من جميع القيود

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله ، ما سرى في نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال . ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية في إيطاليا وصقلية وآسية قد جعلهم على علم بكل مستلزمات الحياة المترفة ، وبكل ثمار الفنون الجميلة في العالم القديم . ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر في أنحاء العالم من روائع الصور الملونة ، والتماثيل ، والكؤوس ، والمرايا ، والمعادن المنقوشة ، والمنسوجات الغالية ، والأثاث الثمين . وقد ارتاع الجيل القديم حين رأى مرسلس **Marcellus** يزين الميادين الرومانية بالتماثيل التي اغتصبها من سرقوسة . ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التماثيل ، بل كانوا يشكون « البطانة ولغو الحديث » اللذين أصبحا عادة لازمة للمواطنين المحبين الذين يقفون الآن « ليفحصوا عن السفساف وينتقدوها (١٩) » . واغتصب فلقيوس **Fulvius** ١٠١٥ تماثلا من مجموعة تماثيل پرس **pyrrhus** في أمبراشيا **Ambracia** . وشحن إيميلوس پولس خمسين غربة في موكب نصره بالكنوز الفنية التي استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها . وفعل هذا الفعل نفسه صلا **Sulla** ، وفريس **Verres** ، ونيرون **Nero** ومثات

غيرهم من الرومان خلال مائتي عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسى بها العقل الروماني .

وظفى هذا الغزو على الفن الإيطالي فنبد صفاته الأصلية ، و طرازه الوطنى واستسلم بأجمعه - إلا فى شىء واحد - إلى الفنانين اليونان وإلى الموضوعات والأشكال اليونانية . وأقبل المثالون ، والمصورون ، والمهندسون اليونان إلى رومة حيث كان الذهب يتدفق فى جيوبهم ، وما لبسوا أن صبغوا عاصمة فاتحى بلادهم بالصبغة اليونانية . وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الروماني حول فناء غير مستوف ، ويزينونها بالعمد ، والتماثيل ، والصور اليونانية ، وبالآثاث اليوناني . أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من هذا التحول وبقي جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتماثيل - وهما من مميزات الفن التस्कاني - القاعدة المتبعة فى بناء الهياكل ونحت التماثيل . فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية ، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبنى بيوتها على الطراز الهليني الرفيع . غير أن الفن الروماني قد ظل فى ناحية واحدة جوهريّة يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية ، وإن ظل يسترشد بالفن اليوناني . أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة فى الأبنية التى نخلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم ، وفى القنوات التى تجر الماء لدورهم وفى أبنية محاكمهم . وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة فى عام ١٨٤ الدار المعروفة باسم باسلكا بورشيا *Basilica portia* ، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إيميلوس بولس باسلكا إيميليا *Basilica Aemilia* فى صورتها الأولى التى أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلا بعد جيل ، وجعلوها أحسن تجميل (*) . وكانت الباساكا الرومانية النموذجية

(*) وكانت الباسلكا تطبيقاً من جانب اليونان للعقود على هندسة القصور الفارسية والأبهاء المصرية ذات السقف المرتكزة على العمد . وكانت ديولوس وسرقوسة قد أنامتا مثل هذه المباني فى القرن الثالث قبل الميلاد .

داراً تقام لتصرف الأعمال التجارية والقضائية ، وتتألف من بناء في شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صفان من الأعمدة الداخلية ، يعلوها في العادة سقف في صورة قبة مصندقة ، وهو طراز أخذ في الأصل من الإسكندرية (٢٠) . وإذا كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات في الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء ، ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسي للجزء الداخلي من الكنائس الكبرى في العصور الوسطى ، وبهذه الصروح الضخمة شرعت رومة تتخذ لنفسها مظهر القوة والفخامة الذي امتازت به في مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله .

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة في ذلك العهد ، عهد التحول السريع الذى لا يبتى ولا يندر ؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب ، وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التى يسخر فيها بلوتس *plautus* - مهما كانت حجته في أنه إنما يحاكي النماذج اليونانية - من أعمال *Alcmena* ، ويجعل من عطارده مهرجاناً ضحكياً ، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يجيئ هذه المشاهد بالصخب والضجيج . إن كاتو نفسه وهو الحريص على العادات القديمة ، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر (٢١) . لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية ، وكثيراً ما كان الفأل والطيرة ينطق بهما لتكليف الرأى العام كما يهوى الزعماء ، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب في الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية . واطالما رضى الدين بأن يُحوَّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة .

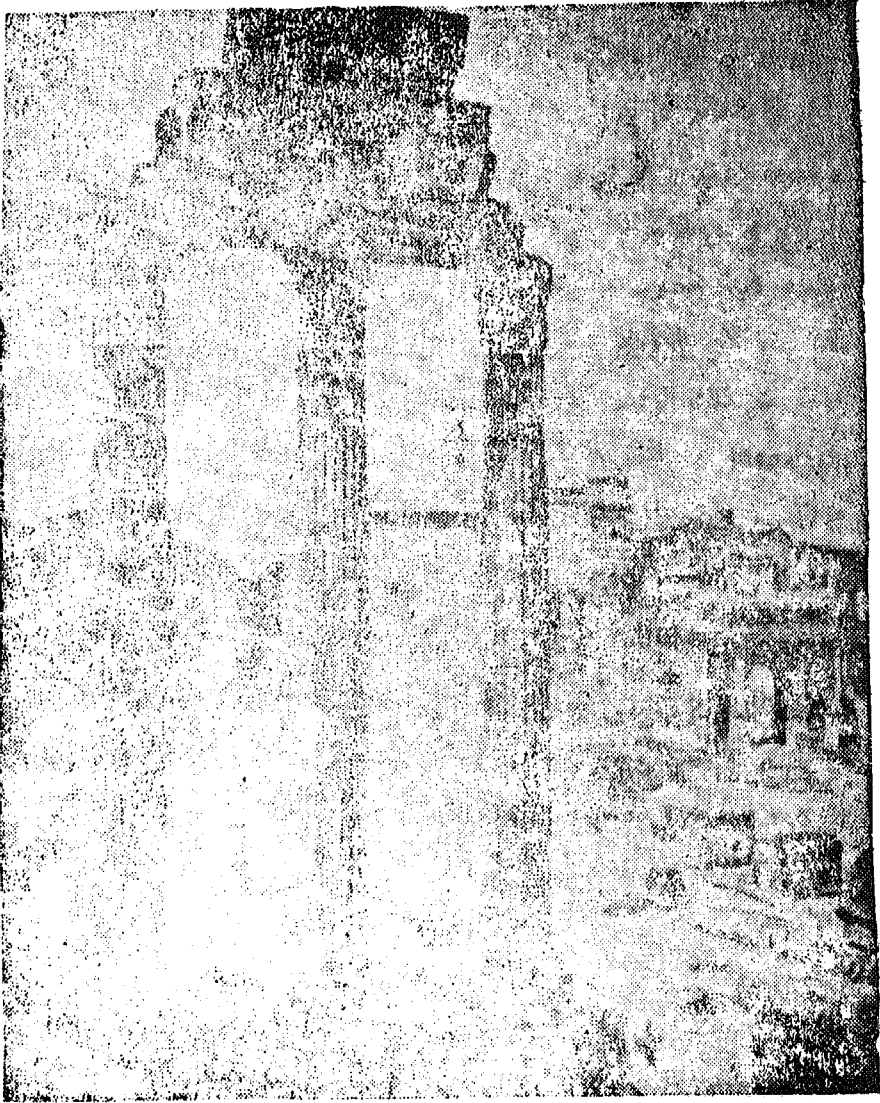
ولقد كان من الدلالات السيئة أن يكتب بولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م ، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً في أرقى المجتمعات في رومة ، ما يستدل منه على أن الدين الرومانى لم يكن إلا أداة طيعة من أدوات الحكم :

« إنى أرى أرى أن الميزة التى تمتاز بها الجمهورية الرومانية ، والتى ترفع من درها فوق سائر بلاد العالم ، إنما هى طبيعة دينها ، ذلك أن ما يعد عند الأمم الاخرى عيباً من العيوب وسبباً في الأعقاب - وهو الخرافات - لهو نفسه

العامل الأكبر في تماسك الدولة الرومانية . فهذه الشئون تكتسى بثوب من الأبهة والفخامة ، وتسرى في الحياة الخاصة والعامه صرياناً لا يضارعها فيه غيره من الأديان ويقينى أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب . ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكماء ، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً . ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال ، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التي لا تنقيد بقانون ، والشهوات التي لا تخضع لحكم العقل ، والانفعالات العنيفة ؛ ومن أجل هذا كان لا بد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين ، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض . » .

ولعله كان في وسع پوليبوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث في أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هي المسيطرة على عقول الرومان ، على الرغم من بلوتس وعلى الرغم من الفلسفة . من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كاني Cannae ، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هنيبال ، استولى الرعب على الشعب الروماني المهتاج ونادى : « أى إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذى هى فيه ؟ »

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ، ثم بالصلاة إلى الآلهة اليونانية ، ثم باستخدام الطقوس اليونانية في عبادة الآلهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء . ثم قرر المجلس في آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها وسيطر عليها . من ذلك أنه أعلن في عام ٢٠٥ أن الكتب السبيلية Sibylline تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جرى بالأمر الكبرى Magna Mater - وهى صورة من الإلهة سيبييل Cybele - من پسينس pessinus في فريجييا Phyi إلى رومة . ووافق على ذلك أنالس Attalus ملك برجموم ونقل الحجر الأسود الذى كان في اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سيبو الإفريقي وطائفة من فضليات



(شكل ٨) هيكل كاستر و پولكس في السوق الرومانية

السيدات بمظاهر التكريم . ولما أن ارتطمت السفينة التي كانت تحمله بطين
نهر التير رفعتها العذراء كلوديا القستية ، وجرتها في النهر صعداً إلى رومة
بما للغة من قوة سحرية ، ثم أمسكت السيدات جميعهن كل واحدة بعد
الأخرى بالحجر في يدها وحملته في موكب رهيب إلى هيكل النصر ، وأخذ
الأهلون الأتقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى .
وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الحديد لا بد أن يقوم على
خدمته كهنة يخلصون أنفسهم . وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون
هذا ، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم . وشرعت
رومة من ذلك الوقت تحتفل في شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى
Magalesia ، واتخذ الاحتفال في بادئ الأمر صورة الحزن العنيف ،
ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف . ذلك أن سيبل كانت إلهة نباتية ،
وتروي الأساطير أن ابنها أتيس *Attis* رمز الخريف والربيع مات وانتقل
إلى الجحيم *Hades* ، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات ٥

وغادر هنيبال إيطاليا في عام ٢٠٥ ، وهنا مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة
التي اتبعها في علاج الأزمة الدينية ، ولكن الحروب التي دارت مع مقدونية
قد فتحت لرومة أبواب اليونان والشرق . وقد جاء أثر الجنود اللذين
عادوا بأسلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان
والآسيويين ، ومن الرقيق واللاجئين ، والتجار والسياح ، والرياضيين
والفنانين والممثلين والموسيقين ، والمدرسين والمحاضرين ، والناس إذا
هاجروا جاءوا معهم بأهتهم . واغتنبت الطبقات الدنيا في رومة بما عرفته
عن ديونيسس باخوس *Dionysus Bacchus* ؛ وأرفيوس *Orpheus*
ويريديس *Eurydice* ، والطقوس الغامضة الخفية وهي في اعتقادهم مصدر
الإيجاء الإلهي ، والخمر القدسي ، والاتصال الروحي ، الذي يكشف
عن الآلهة التي تبعث حياة وتعيد عبادها الخلود . وارتناع مجلس الشيوخ في
عام ١٨٦ حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية ،

وأن الإله الجديد تقام له حفلات قدار فيها كؤوس الخمر على المحتفلين .
وإذ كانت هذه الحفلات تقام سرّاً وفي الليل فقد راجت الإشاعات القائلة
بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق ، وقد وصفها ليفي
بقوله : « إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء » ؛ ثم يقول
بعد هذا - ولعله في ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق : « ومن لم
يكن يرضى بالدنس . . . كان يضحى به قرباناً للإله » (٣) . وحرّم مجلس
الشيوخ هذه الطقوس الدينية ؛ وقبض على سبعة آلاف من القائمين بها ،
وقضى بإعدام مئات منهم . وكان هذا نصراً مؤقتاً في الحرب العوان التي
خاضت رومة غمارها لصد تيار الأديان الشرقية (*) .

الفصل الرابع

بداية عصر الفلسفة

كانت الطريقة التي غزت بها بلاد اليونان رومة أن بعثت إلى عامتها بالدين اليوناني والمسرحيات الهزلية اليونانية ، وإلى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية . واثتمرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومع الإمبراطورية الرومانية على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها ، وكان هذا لإحدى السبل التي اتبعتها هلاس في انتقامها الطويل المدى من غزاتها . وبلغ هذا الغزو غايته في الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشيوس الرواقية إلى رواقية سنسكا الأبيقورية . وفي الدين المسيحي غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية ، ولما نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية ، فنافست في بادئ الأمر الثقافة الرومانية ، ثم حلت في آخر الأمر محلها ؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأورها كلها في عصر النهضة . ذلك هو المجرى الرئيس في تاريخ الحضارة الأوربية ، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية . وفي ذلك يقول شيشرون : لم يكن منشأ الفيض الذي أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضياً من الثقافة والعلم « (٢٤) » ، أصبحت حياة رومة الذهبية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطنع بالصبغة الهلينية (*) .

ووجد الغزاة اليونان في مدارس رومة وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومة ، وموقعاً صالحاً يثبتون فيه أقدامهم . فجاء في أعقاب

(*) من أقوال هوراس ذلك القول الذي ملت الأذن سماحه « أسرت بلاد اليونان المغلوبة غالبها المسيحي ١٢٤ »

الجيش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تياردافق من « اليونان الصغار » Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم . وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين في الأسر الرومانية ، ومنهم النحاة الذين أنشأوا الدراسات الثانوية في رومة بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم ؛ ومنهم البلاغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة في فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة ، أو يعطون فيها دروساً خاصة . وشرع الخطباء الرومان - حتى من كان منهم يبغض الثقافة اليونانية أمثال كاتو - يتخذون خطب ليسياس Lysias ، وإيسكين Aeschines ودمستين Demosthenes نماذج لهم فيسبجون على منوالها .

ولم يكن هؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم ، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يبشون في قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية . وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور ، وتسبق لكريشيس في وصفه الدين بأنه أكبر الشرور في حياة البشر . وأدرك الأشراف مهيب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق ، ففني مجلس الشيوخ من البلاد في عام ١٧٣ اثنين من الأبيقوريين ، وأصدر في عام ١٦١ قراراً يقضي بأن لا يبتى في رومة أحد من الفلاسفة أو البلاغاء . ولكن العاصفة لم تسكن ، فقد جاء إلى رومة في عام ١٥٩ كراتس الملوسي Crates of Mallus مدير المكتبة الملكية الرواقية في بروجوم في عمل رسمي ، وكسرت فيها ساقه ، فأقام بها ، وأخذ وهو في دور النقاهة يلقي محاضرات في الأدب والفلسفة . وفي عام ١٥٥ بعثت أثينة إلى رومة سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة : كارنيدس Carneades الأكاديمي أو الأفلاطوني ، وكرتولوس Critolaus المشائي أو الأرسطاطيلي ، وديوجين Diogenes الرواق السلوسي (of Seucia) . وكان قدوم هؤلاء إلى رومة مبعث تهمة علمية وفلسفية لا تكاد تقل في قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس Chrysoloras إلى إيطاليا في عام ١٤٥٣ . وتحدث كارنيدس عن البلاغة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله في كل يوم ليستمعوا له (٢٥) .
وكان الرجل شكاكاً إلى أقصى حد ، فكان يشك في وجود الآلهة ، ويقول
إن في الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل في وجاهتها عن الأسباب التي يعرر
بها العدل . وفي هذا تسليم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس

Thrasymachus

ولما سمع كاتو - وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن - بهذا القول طاب
على مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم ، فعادوا ولكن
بعد أن ذاق الجليل الحديد لذة الفلسفة ؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من
شباب رومة يذهبون إلى أثينة وروودس ليستبدلوا فيها بإيمانهم القديم أحدث
ما فيها من تشكك .

وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية
والفلسفة اليونانية في رومة ، وكان فلامينوس Flaminus يجب الآداب
اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويحضر اليونان ، فلما أن غزاها تأثر كثيراً
بما رأى في بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات . وخطيق بنا أن نذكر
لرومة أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم پوليكليتس
polycleitus وفيدياس Pheidias وإن كانوا قد تغالوا في تقدير هذين
الفنانين إلى حد السرقة . ولما أن انتصر إيميلوس پولس على پرسوس لم يستبق
لنفسه من كل ما جاء به من الغنائم إلا مكتبة الملك ليرثها أبناؤه من بعده ،
وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه
على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية ، وكان يشترك معهم في هذه
الدراسات بالقدر الذي تسمح له به واجباته الرسمية .

ولما مات پولس تبنت أصغر أبنائه صديقة ب . كرنليوس سيبو ابن
الإفريقي واتخذ الابن المتبنى اسم الرجل الذي تبناه جرياً على عادة الرومان
وقتئذ ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ ، كرنايوس

سهيو إيمليانوس وهو الذى سنطلق عليه اسم سبيو فى صحائف هذا الكتاب ه وكان شاهبا وسيم الطلعة قوى البلية ، بسيطاً فى عاداته ، متزناً فى حديثه ، رقيق القلب ، كريماً ، شريفاً طاهر اليد ، ولم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلاً من الفضة ورطلين من الذهب ، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه ، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتكشف لا عيشة الرجل الثرى ، وقد التقى فى شبابه بهوليبوس اليونانى الذى نفى من بلاده وأسدها هوليبوس النصيح والكتب القيمة ، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته . وذاعت شهرته وهو لا يزال شاباً يحارب تحت إمرة أبيه فى بلدنا pydna ، ولما استخف به عدوه فى أسبانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدى وانتصر فى المباراة (٢٧) .

وقد جمع حوله فى حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية . ومن أعظم هؤلاء شهرة جايوس ليليبوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم فى رأيه ، وفى فى صداقته ، عادل فى أحكامه ، تقى السيرة ، طاهر السريرة ، لا يفوقه فى فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلا إيمليانوس نفسه . وقد أحب شيشرون ليليبوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته ، وسمى باسمه مقاله عن الصداقة ، وكان يتمنى أن لم يعيش فى عصره المضطرب بل فى تلك الدائرة الرفيعة التى كانت تضم شباب رومة المفكر .

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر فى الأدب الرومانى ، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ، ولعل جايوس لوميليبوس (١٨٠ - ١٠٣) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجائه اللاذع الذى كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتماعياً .

وكان اللذان يشرفان على هذه الفئة من اليونان رجلين هما هوليبوس Polybius وپانيتيوس Panaetius . وقد عاش أولهما سنين كثيرة فى بيت سبيو . وكان رجلاً واقعياً عقلياً ، قليل الاغترار بالناس وبالبدول . أما پانيتيوس فقد جاء من

رودس ، وكان كزميله پوليبوس من الأشراف اليونان . وهاش كثيراً مه
السنين مع سيبو ينعم بصداقته ويشاركه في نفوذه وسلطانه . وهو الذى
غرس في نفس سيبو فضائل الرواقية ونبلها ، وأكبر الظن أن سيبو هو
الذى حمل على أن يلطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة ، ويجعل
منها عقيدة عملية . ولقد شرح بانيتيوس في كتاب له « في الواجبات »
المبدئين الأسامين للفلسفة الرواقية وهما أن الإنسان جزء من كل يجب أن
يتعاون معه - مع أسرته ، وبلده ، ومع روح العالم القدسي ؛ وأنه لم
يوجد في العالم ليستمع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدى واجبه من غير أن
يشكو أو يتململ . ولم يكن بانيتيوس كالرواقين الأولين يدعو إلى الفضيلة
الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطيبات الحياة ومتعها . واستمسك الرومان
المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولاً من دينهم القديم الذى
لم يعودوا يؤمنون به ، ووجدوا في مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق
مع تقاليدهم ومثلهم العليا .

وهكذا أصبحت الرواقية هى الملهمه لسيبو والمطمح الذى يصبو إليه
شيشرون ؛ كما كانت هى خير ما فى سنكا ، والمرشد الهادى لتراجان
Trajan ، والمواسية لأوريليوس Aurelius . وجملة القول أنها أصبحت هى
ضمير رومة .

الفصل الخامس

النهضة الأدبية

لقد كان الغرض الذي يهدف إليه سيبو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة ، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسلة أدبية ، وأن يحتدبوا رباعيات الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليوناني المتدفقة ، وأن يهيشوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقراء . من ذلك أنه لما أن جاء كاتو - وهو العدو الألد لكل شيء يمثله سيبو وأكرم مثواه . وكان هذا الشاعر هو كونتس إينبوس Quintus Ennius . وكان قد ولد في عام ٢٣٩ بالقرب من برنديزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يوناني والآخر إيطالي . وتلقى علومه في تارنم ، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمرحيات اليونانية التي كانت تعرض على مسرح تلك المدينة . واسترعت شجاعته العسكرية في سردينيا الثقات كاتو . ولما جاء إلى رومة أخذ يشتغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشد أشعاره لأخصائه . وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سيبو وأصدقائه ؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله ، وكتب عدداً قليلاً من المسالي وما لا يقل عن عشرين مأساة ، وكان يعجب بيوربديز ويعبث مثله بالأراء المتطرفة ، ويغيب الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهمكية الأبيقورية كقوله : « أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالون بما يفعله الآدميون ، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر - وهذا قلما يحدث (٢٨) » . ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا له وصفقوا له استحساناً (٢٩) . وقد ترجم أو شرح كتاب « التاريخ المقدس » تأليف يوهروس Euhemerus وهو الكتاب الذي يثبت فيه كاتو أن الآلهة ليسوا إلا أبطالاً أمواتاً ألهتهم

عواطف الشعب وتعلقه بهم . على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية ، وآية ذلك أنه أعلن في وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت في عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت في جسم إينيوس Ennius . وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومة في صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجيء إيلياس Aeneas إلى پيرس Pyrrhus ، وقد ظلت هذه الحوليات إلى أيام فرجيل الملاحم القومية لإيطاليا ؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يمل المحافظون الرومان ترديده وهو :

قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظام .

وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة . فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذي كان يستخدمه نيفيوس Naevius الشعر المرن السداسي الأوتاد الذي كان يستخدم في الملاحم اليونانية . وصاغ إينيوس الشعر اليوناني في صور جديدة ، وبث فيه قوة جديدة ، وعمر أبياته بالأفكار ، وأعدده من حيث طريقتة وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وفرجيل . وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم ، ومات بذات الرثة في سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التي يفخر فيها بنفسه :

لا تبكوا على ولا تحزنوا لوفاتي ؛ فإن أبقى على شفاه الرجال وأحيا (٣٠) .

ونجح إينيوس في كل شيء عدا المسلاه ، ولعل سبب إخفاقه أنه عنى بالفلسفة عناية جدية فوق ما يجب ، ونسى نصيحته التي قال فيها « يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته (٣١) » . وكان الناس يفضلون الضحك على الفلسفة وكانوا في ذلك على حق ؛ وقد أعنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس . ولهذا السبب عينه لم تلق المأسى المسرحية شيئاً من التشجيع في رومة . نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمأسى پكوفيوس Pacuvius وأكيوس Accius ، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكرها .

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير ، رومة ، كما ن
أمثالهم يعرضونها عليه في أثينة ، على أنها جزء من الحفلات التي تقام في
الأعياد الدينية أو في جنازات المواطنين الممتازين . وكان الملهى الذى تمثل
فيه مسرحيات بلوتس وترنس يتكون من محالة(*) خشبية تعلوها خلفية
مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلقى هو المسرح
Proscaenium . وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل
نحن بالمقاهد والحواجز التي نقيمها للاستعراض في هذه الأيام . وكان
النظارة يشاهدون الألعاب وهم وقوف أو جالس على مقاعد يأتون بها
معهم ، أو يتربعون على الأرض في العراء . ولم تبني رومة دار كاملة
للمثيل قبل عام ١٤٥ ق . م ، وحتى في ذلك الوقت كانت الدار لا تزال
بناء خشبياً لا سقف له ، ولكن به مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات
اليونانية نصف الدائرية . ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً ، وكان
في مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس ، أما النساء
فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس في المقاعد الخلفية ، ولعل النظارة في ذلك
العهد كانوا أحسن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشدهم غباوة - فكانوا
جماعة من الصخابين المتراحين الوضيعين . وكثيراً ما كان يطلب إليهم في
بداية التمثيل أن يراعوا قواعد الأدب والأخلاق ، كما أن الفكاهات
والنكات السمجة والأفكار البسيطة العادية كان يطلب تكرارها لكي يستطيع
النظارة إدراكها . وكان يطلب إلى الأمهات في بعض الأحيان أن يتركن
أطفالهن في منازلهن ، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب
إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج ، أو تحذر النساء من الثرثرة في أثناء
التمثيل . وترى هذه المطالب كلها مدونة حتى في وسط المسرحيات التي نشرت
فيها بعد (٣٢) . وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة ،
أو ألعاب بهلوانية على الحبال ، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهى الصراع

(*) محالة الخشبة التي يستقر عليها الطيانون وهي المعروفة بالسقالة . (المترجم)

أو تنتهى الألعاب ، وهما أشد إثارة لحاسة النظارة من التمثيل ، وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية : « والآن فليصفق الجميع » أو ما فى معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح ،

وكان التمثيل خير ما فى المسرح الرومانى ، وكان مدير المسرح من الأحرار ، وكان هو الذى يمثل الدور الرئيسى عادة ، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان . وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك حقوقه المدنية — وهى عادة ظلت قائمة إلى أيام قلتير : وكان الرجال يمثلون أدوار النساء ، وكان النظارة قليلى العدد ، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتفون بالأصباغ والشعر المستعار ؛ فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة تمييز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض ، وكان يطلق على القناع لقبير پرسونا *persona* وهو فى أغلب اللظن مشتق من الكلمة التسكانية فرسو *ph rsu* بمعنى قناع : وكانت الأدوار تسمى دراماتيس پرسونى *dramatis personae* أى أقنعة المسرحية . وكان ممثلو الأدوار المحزنة يلبسون أحذية عالية *cothurnus* أما ممثلو الأدوار المضحكة فكانوا يحتدون نعالا وطيئة *soccus* : وكانت بعض أدوار المسرحية تغنى على أنغام المزمار ، وكان المغنون فى بعض الأحيان يغنون الأدوار ، والممثلون يمثلونها تمثيلا صامتا بالإشارات .

وقد كتبت ملامهى بلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليونانى وموضوعاته ، ومعظم الملامهى اللاتينية التى وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة ، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض ، وهى مأخوذة فى الغالب من مسرحيات فيلمون *Philemon* ومناندر *Menander* أو غيرهما من كتاب «المسلاة الجديدة» فى أثينة ، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى . وقد حظرت الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و«المسلاة القديمة» بمقتضى

قانون الألواح الاثني عشر الذى كان يعاقب على الهجاء السياسى بالإعدام (٣٣) .
ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب
هو الذى حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء ،
وحتى النقود ، كما كانت فى الأصل اليونانى . ولولا بلوتس لكان القانون
الرومانى قد أبعد الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الرومانى . ولكن
هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبديته أن ينطق به على المسرح ،
فقد كان الهدف الذى يبتغيه المشرفون على التمثيل هو تسليية النظارة لا رفع
مستواهم ، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية ، وكان النظارة
يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة ، ويعجبهم الهزل والتهريج
أكثر مما يعجبهم الخلق والدهاء ، ويظربهم فحش القول أكثر مما يظربهم
الشعر ، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس .

وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس **Titus Maccius Plautus** أى
تيتس المهرج-ذى القدم الكرشاء(*) فى أمبريا **Umbria** عام ٢٥٤ ق . م ؛
ولما قدم إلى رومة عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المال
وحرص على استثماره ولكنه أضاعه . واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات ،
وسر الجاهل بما كان يبثه من الإشارات الرومانية فى مسرحياته المقتبسة
من المسرحيات اليونانية . واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن
يمنح مواطنة رومة . وكان بلوتس رجلاً شعبياً شديداً المرح ضحاكاً
صخباً ، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان ، ولكنه كان طيب القلب
عطوفاً على الناس جميعاً . وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات
مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون . ومن هذه المسرحيات الباقية
مسرحية **Miles Gloriosus** وهى صورة مرحة بلندى صخب يغذيه خادمه
وينفحه بالأكاذيب .

(*) القدم الكرشاء هى التى استوى أخمصها واتبطحت على الأرض فى عرض وغلظ فيها .

(المترجم)

الخدام : أرأيت الفتاتين اللتين استوقفتاى بالأمس ؟

الضابط : ماذا قالتا لك ؟

الخدام : لما مررت بنا سألتانى :

« يا عجبا ! هل هنا أخيل العظيم ؟ » فأجبتهما :

« كلا ! وإنما هو أخوه » . ثم قالت الأخرى :

« فى الحق إنه بلحميل ! ياله من رجل نبيل !

« ما أبهى شعره ! » وتوسلت لى كلاتهما :

. . . أن أطلب إليك أن تخرج اليوم مرة أخرى .

حتى تستطيعا رؤيتك عن قرب .

الضابط : ألا ما أكثر ما يجره الجمال على الإنسان من متاعب (٣٤) !

وفى مسرحية أمفثريون Ampitryon تنصب السخرية على جوف Jove فهو يتنكر فى صورة زوج السكينا Alcmena ويدعو نفسه ليستمع إلى قسمه ، ويقرب القربان إلى جوبتر (٣٥) . وفى اليوم التالى يغفر بهذه السيادة فتتم . ويطلب بلوتس إلى الإله فى آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجماهير أكبر قسط من الثناء . وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير فى رومة أيام بلوتس بقدر ما نالت فى أثينة أيام مناندر Menander وفى باريس أيام مليير Molière ، وما تناله فى نيويورك فى الوقت الحاضر ، أما مسرحية أولولاريا Aulularia فهى قصة رجل بخيل يكتنز المال ، وفيها من العطف عليه أكثر مما فى رواية البخيل Avare للمليير . وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتحسر على ما خسره من الماء فيما أذرفه من الدموع . ومسرحية منكمى Menaechmi هى القصة القديمة : قصة التوأمين اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما ، ويرى لسنج Lessing أن مسرحية الأسير Captive خير مسرحية مثلت فى ملهى (٣٥) . وقد أعجب بها بلوتس أيضاً ويقول فى مستهلها :

ليست مبتدلة ولا هي كغيرها من المسرحيات :
وليس فيها سطور قدرة يستنكف الإنسان أن ينطق بها .
ونيس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة .

وهو قول حق ، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد ، وتعتمد كل الاعتماد المصادفات غير المتوقعة ، وعلى الرؤى العجيبة التي لا يلام صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعيرها أية عناية . ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات هو حيكاتها القديمة بل كثرة ما فيها من الحوادث الفكهة المضحكة والنكات اللطيفة المرحة التي لا تقل فحشاً عما في مسرحيات شيكسبير ، والصخب القدر البديء ، والنساء الطائشات وما يظهره في بغض الأحيان من عواطف طيبة : وقد كان في وسع النظارة في كل مسرحية أن يثقوا من وجود حادثة من حوادث الحب ، وتغريز هفتاة ، وبطل وسيم فاضل ، وعبد أرجح عقلا من كل من فيها من الشخصيات مجتمعة . وفي هذه المسرحيات نرى الأدب الروماني منذ بدايته تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادي ، وبصل بما اقتبسه من المسرحيات اليونانية إلى حقائق الحياة ، ويبلغ في هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد .

وفي السنة التي توفي فيها بلوتس على الأرجح (١٨٤ ق . م) ولد في قرطاجنة بيليوس ترنتيوس آفر Publius Terentius من أصل فينيتي ، ولربما كان من أصل إفريقي . ولسنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون عبداً من عبيد ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus في رومة . فقد أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحبي فعلمه ووهبه حريته ، وتسمى الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضله عليه . وفي وسعنا أن نعرف شيئاً من أخلاق الرومان الطيبة حين نسمع أن ترنس « الفقير الخلق الثياب » جاء إلى بيت كاسيليوس استاتيوس Caecilius Staius - وكانت مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هي المسيطرة في ذلك الوقت على المسرح

الرومانى - وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا ، وأعجب كاسيليوس بهذا المشهد إعجاباً حمله على أن يستبق الشاعر إلى العشاء معه وأن يستمع إلى بقية المسرحية فى طرب وإعجاب (٢٧) . وما لبث ترنس أن استرعى أسماع إيميلوس Aemilius وليليوس ، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعله هو الأسلوب اللاتينى الحبيب إلى قلبه . ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليلوس هو الذى كان يكتب لترنس مسرحياته ، وهى إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها (٢٨) . واستمسك ترنس فى أمانة وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التى نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية ، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية ، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات - وهو تواضع منه وبخس لأعماله (٢٩) . ولعل الذى دفعه إلى هذا هو تأثيره بالهلينىة المتغلبة على سيبو وجماعته .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التى كان كاسيليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب ، ولكننا نعرف أن هسيرا Hecyra مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى فى أثناء التمثيل ليشهدوا صراعاً للدبية . ثم بسم له الحظ فى عام ١٦٢ حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهى مسرحية « المعذب نفسه » Heauton Timoroumenos وهى تروى قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التى اختارها لنفسه ، ولكن الابن تزوجها رغم هذا ، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد ، ثم أنه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقر ، ثم عرض عليه جار له ن يتدخل فى الأمر ليحل مشكلته ، فيسأله الأب عما يدعوه إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم ، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة فى جميع أنحاء العالم التى صفت لها النظارة طرباً وإعجاباً وهى : Hums sum humani njhil a me atienum puo « لى إنسان ؛ ولا أرى أن شيئاً بم

يتصل بالإنسان غريب على . ومثلت في السنة التالية مسرحية « الخصى »
وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين في يوم واحد (ولم يكن ذلك
مألوفاً في تلك الأيام) ، وبيع منها ترنس ثمانية آلاف سسترس (نحو
١٢٠٠ ريال أمريكي) في يوم ولياة (٤٠) . وظهرت بعد بضعة أشهر من
ذلك الوقت رواية « الفورميو » وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكه
الذي أنقذ سيده من غضب أبيه ، والذي أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية
فيجارو Figaro القوية في رواية بومارشيه Beaumarchais . وفي عام ١٦٠
ق . م مثلت آخر مسرحية لترنس وهي مسرحية أدلني أو « الإخوة »
في الألعاب التي أقيمت بمناسبة وفاة إيمليوس بولس . وبعد قليل من ذلك
الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، ثم مرض وهو عائد
منها ، ومات في أركاديا في الخامسة والعشرين من عمره .

وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة ، لأن
الصيغة الهلينية التي اصطفت بها قد أعلنت من قدره فوق ما يجب . فقد كان
يعوزه مرح بلوتس وخفة روحه وفكاهته ؛ هذا إلى أنه لم يكن في
مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية ، فلم يدخل في المضحك منها أنذالا
فاسدين أو مومسات طائشات ، بل صور كل النساء في تلك المسرحيات
في صور رقيقة ، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة .
وقد احتوت تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم ، وعبارات
جرت مجرى الأمثال ، منها hinc illae lacrimae (« ومن ثم كانت تلك
الدموع ») ومنها fortes Portuna. adiuvat (« الحظ يواتي الشجعان ») ،
quot homines tot sententiae (« عدد الآراء كعدد الرجال ») ،
وعشرات العشرات من أمثالها . ولكن هذا الحكم لا يقدرها إلا أصحاب
الذهنية الفلسفية أو الحساسة الأدبية ، وهما ما لم يجدها العبد الإفريقي في
جمهرة الشعب الروماني . ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بمسالية التي
توشك أن تكون مآسى ، وبجبهاته المتقنة البناء ولكنها تسير في بناها على مهل ،

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغربية ، وبحواره الهادئ ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء ، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني ؛ وكان النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين الأدب الروماني صدع لن يلائم قط . وقد كان شيشرون - وهو القريب من كتلس قريباً لا يمكنه من أن يراه عن حقيقته ، والحصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشيوس - تقول كان شيشرون يظن أن ترنس أرق شعراء الجمهورية . وكان قيصر أعدل في حكمه عليه حين أثني عليه بقوله إنه « المحب للكلام الطاهر » ، ولكنه آسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك *vis csmica* ووصفه بأنه « نصف مناندر » *Dimitiatus* Menander . على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل ؛ ذلك أن هذا الرجل السامى الأجنبي ، الذي تشبع بروح ليلبوس وبلاد اليونان ؛ قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرجيل أن ينشئ شعره .

الفصل السادس

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلات قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلات نفوسهم اشمزازاً من هذا الغزو اليوناني لآداب الرومان ، وفلسفتهم ، ودينهم ، وعلومهم ، وآدابهم ؛ ومن هذا الانقلاب العنيف في أخلاقهم ، وعاداتهم ، ودمائهم . وكان من هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يقيم في مزرعة سبئية ؛ وأخذ هذا الشيخ بأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال ، وما أصاب السياسة من فساد ، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل « أساليب أجدادنا » . وكان الرجل شيخاً طاعناً في السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هذا التيار الجارف ، ولكن اتفق أن كان في مسكن بالقرب منه وفي جوار بلدته ريت Reate ، وفي خارج حدودها ، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة ، فكان يحب فلاحة الأرض ولا يعمل العمل المجهد الشاق ، وكان مقتصداً يعيش عيشة البساطة القديمة ، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتطرفين النابهن . وكان اسم هذا للرجل ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato وكان سبب تسميته پورسيوس أن أسرته ظلت أجيالاً عدة تربي الخنازير ، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جانب عظيم من الدهاء . وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون ، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا في المحاكم المحلية ؛ ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومة ، ففعل ، وما زال يرقى في المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشئون المالية Quaestor ولما يبلغ الثلاثين من عمره (٢٠٤) . وفي عام ١٩٩ عين إيدبلا مشرفاً على

الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة . وما وافق سنة ١٩٨ حتى كان پرپتورا Praetor إلى القنصل في المرتبة ، ثم صار قنصلا في عام ١٩٥ ، ثم تزيبوناً في عام ١٩١ ، ثم رقيباً Censro في عام ١٨٤ : وكان في هذه المدة قد خدم في الجيش ستة وعشرين عاماً ، وكان فيها كلها جندياً شجاعاً ، وقائداً محمكاً ، قاسى القلب شديد البأس . وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية ، وكان يحترم الجندي « الذى يستخدم يديه فى المشى وقدميه فى الحرب ، والذى يعلو غطيظه فى النوم على صراخه فى الحرب » . ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه ، وبإعطاء كل منهم رطلا من الفضة من غنائم الحرب ، وعدم احتفاظه بشيء من هذه الغنائم لنفسه (٤١)

وكان فى فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء ، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه : وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه ، لأن أحداً من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما يتحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة . وكان فى مقدوره أن يسلط سوط لسانه على أى إنسان يستمع خطبه ، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسلط على جاره ، وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة فى رومة غير عابئ بما يصيبه فى هذا الكفاح ، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد خلق له فيه عدواً جديداً . وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يلقى بال الناس بوجهه الكثير التذب ، وشعره الأحمر الأشعث ، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة ، ويخجلهم بتشفه ، ويسبقهم بجده وكلمه ، وتنفذ نظراته التى يلقىها عليهم من عينيه الخضراوين خلال ألفاظهم إلى مكنون صدورهم ، فيطلع فيها على أناليتهم . وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلنية ، ولكنه فى كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعتراض الزراع الذين كانوا لا يقلون عنه بغضاً للفساد والترف (٤٢) . ولما أن رفعت أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

الرومان أجمعين . وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التي أُنذر بها ، والتي كسب بها المعركة الانتخابية ، وفرض الضرائب الباهظة على الكماليات ، وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه ، وأخرج من هذا المجلس ستة من أعضائه وجد في سجلاتهم أحكاماً قضائية . وطرده منه مافايوس لأنه قبل زوجته علناً ، وقال عن نفسه أنه لم يعانق قط زوجته إلا وقت قصف الرعد - وإن كان يسره أن يقصف الرعد . وأتم كاتو نظام الحجارى فى المدينة ، وقطع الأنايب التى تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات المبنية العامة ، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم فى عرض الطريق أو فوقه ، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة ، وأرغم جباة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيباً أوفى مما كانوا يجنونونه من الأهلين (٤٨) . وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال فى أعمال تتعارض مع طبيعة الإنسان ، اعترال منصبه واستشعر ما كان له من المال استثماراً ناجحاً ، وملاً ضيعته التى اتسعت رقعتها فى ذلك الوقت بالعبيد ، وأخذ يقرض المال بربا فاحش ويبتاع الرقيق بأبخس الأثمان ، ثم يدرهم على بعض الأعمال التى تتطلب شيئاً من المهارة ، ويبيعهم بأغلاها ، وبذلك أثري إثراء مكنه من أن ينقطع لتأليف الكتب - وهى مهنة كان يزدريها

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتينى ، وقد بدأ كتاباته بنشر مجموعة خطبه ، ثم أصدر كتاباً فى فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الحسن الرومانى بدل أسلوب الخطباء الإيزوقراطى Isocratean (*) الرقيق ، وعرف الخطيب بأنه «رجل صالح برع فى الكلام vir bonus dicendi peritus» وهما صنفان قل أن اجتمعتا فى إنسان » ، وبهذا التعريف أوجد مجالاً للجدل كونتيليان quintilian

(*) نسبة إلى إيزوقراطيس الخطيب والكاتب الأثينى البلينغ (٤٣٦ - ٣٣٥ ق . م)

(المترجم)

ونقاشه ، وكتب رسالة جمع فيها تجاربه في الزراعة وسماها *De agricultura* ،
وهي الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من كتب كاتو ، وأقدم كتاب
في اللغة اللاتينية الأدبية أتى عليه الدهر ، وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب
سهل رصين مركز تركيزا يجعله من جوامع الكلم : فهو لا يسرف في
الألفاظ ، وقلما ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف ، وفي
هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشتري أو يبيع الرقيق (فيقول
مثلا : إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن بصبروا مصغر خسارة
لسادتهم) ، ولمن يؤجر الأرض بجزء من غلتها ، ولزراع الكروم والأشجار ،
وتدبير شؤون المنازل والصناعات ، وصنع الأسمت وطهو أصناف الطعام
النادرة الشمية ، وعلاج الإمساك والإسهال ، ومداواة لسع الأفاعي
بروث الخنازير ، وتقريب القربان للآلهة . ويسأل كاتو نفسه في هذا
الكتاب عن أحكم الطرق للإفادة من الأرض الزراعية ، ثم يجيب عن
هذا السؤال بقوله إنها « تربية الماشية المربحة » ، وتليها « تربية الماشية
المتوسطة الربح » ، وتليها « تربية الماشية العديمة الربح » وتليها كلها
« حرث الأرض وزرعها » . وهذه هي الحجج التي أوجدت الضياع
للواحدة في إيطاليا .

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب « الأصول » *Origines* الذي لم يثر
عليه حتى الآن ، وهو محاولة جريئة للبحث في آثار إيطاليا ، وشعبها ،
ونظمها ، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التي مات فيها كاتو ، ولا نكاد
نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف
بالسخريه من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب ، ثم ذكر
فيلا باسمه ، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس *Pyrrhus* قتال الأبطال (٥) .
وكان الغرض الذي يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته
عن الخطابة ، والزراعة والصحة العامة ، والعلوم العسكرية ،

والقانون ، أن هؤلاء دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده . وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحل الكتب المكتوبة بهذه اللغة محل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها ويلوح أنه ، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ، كان مخلصا في اعتقاده أن دراسة الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان ، فلا يكون في حياتهم الخلقية ما يحميها من الشراهة والحصام والغرائز الجنسية ، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه ننتشه ، ويصفه بأنه أشبه بالقابله العجوز الثرثار ، ويقول إن قتله مسموماً كان جزاء حقا على إفساده أخلاق أئينة وشرائعها (٤٦) . وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه ، وكان يفضل على طبهم العلاج المنزلي القديم ، ولا يثق بالجراحين الذي يجعلون باستعمال الموضع في أكثر الحالات . وقد كتب إلى ولده يقول :

« اليونان جنس مجرم عنيد وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما غمر أديبه رومة سيقضى على كل شيء فيها وسيكون هذا القضاء عاجلا إذا ما بعث إليه بأطبائه ؛ لتدأجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل « البرابرة » . . . حذار أن تكون لك صلة بالأطباء » (٤٧)

وكان وهو الذي يعمتق هذه الآراء العدو الطبيعي الأكبر للندوة المسيونية ، وهي التي كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية في رومة عاملا لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها ، وكان كاتو ممن أشاروا بمحاكمة سيبو الإفريقي وأخيه ، وقال إن القوانين التي تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص . أما الدول الأجنبية فكان بنادى بأن تعامل جميعها ، إلا واحدة منها بالعدل ، ألا تتدخل رومة في شئونها ، وكان يحترم اليونان وإن كان يعظم با دم ويحلها . ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجلس الشيوخ يدعون إلى محاربة رودس الغنية التي عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

السلام وإلى مصالحة أهل تلك الجزيرة . أما الدولة التي كان ي
استثنائها من المعاملة العادلة ، ومن عدم التدخل في شئونها فهي - كما
يعلم العالم كله - قرطاجنة . ولما أرسل إليها في بعثة رسمية عام ١٧٥ هـ
ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذي أصابها في حروب
هنيبال ، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكهة والكروم ، وما
يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارتها ، وما كانت تهرجه دور
الصناعة فيها من أسلحة : فلما عاد أمسك أمام المجلس بكية من التين الطارج
قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاث أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة
وقربها من رومة ، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيرى شوئم لرومة ؛
وتنبأ بأنه إذا تركت قرطاجنة وشأنها فلإنها لا تلبث أن يكون لها من الثراء
ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط . وظل من ذلك اليوم يختم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أبا كان
موضوعه بتلك العبارة التي تتم عن عقيدته وعناده ، ويصر عليها
إصراراً عجيباً : « هذا إلى أنى أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر »
Ceterum censes delendum esse Carthaginem . وكان دعاة الاستعمار
في مجلس الشيوخ متفقين معه في رأيه ، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون
تجارة قرطاجنة ، بل لأنهم كانوا يرون في حقول شمال إفريقيا ،
وهي الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء ، مجالاً جديداً يستثمرون فيه
أموالهم ويفلحونه على أيدي الرقيق . وكانوا والحالة هذه ينتظرون على
أحر من الجمر حجة يتذرعون بها لخوض غمار الحرب البونية الثالثة .

الفصل السابع

يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هذه الحججة من أعجب حكام ذلك الوقت - مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia - وهو ملك عمر تسعين عاماً (٢٣٨ - ١٤٨) ورزق ولداً وهو في السادسة والثمانين من عمره (٤٨) ، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك ، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً . وقد أفلح هذا الملك في تنظيم رعاياه البدو ، وبدلهم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية ، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل حكمها حكماً صالحاً مدى ستين عاماً ، وجعل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأه فيها من المباني الفخمة . ودفن بعد وفاته في قبره وهو الهرم العظيم الذي لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينية في بلاد تونس . واستطاع هذا الملك أن يكسب صداقة رومة ، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسي ، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها ، وينتصها من أطرافها ، فاستولى على لبتيس Leptis العظيمة وغيرها من المدن ، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهوكة القوى . وإذا كانت المعاهدة المعقودة بين رومة وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك في حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ في رومة ليحتجوا على عدوان مسينسا . فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن الفينيقيين على بكرة أبيهم دخلاء في إفريقية ، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها . فلما أدت قرطاجنة إلى رومة آخر الإقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بتمتضي معاهدة زاما وهي ٢٠٠ تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تحررت من التزاماتها ، وأعلنت الحرب على

موميديا في عام ١٥١ ، وفي السنة للثانية أعلنت رومة الحرب على قرطاجنة
ووصل هذا النبأ الأخير إلى مسامع القرطاجنيين ، ووصل معه أن
الأسطول الروماني قد أفلح إلى إفريقية . ولم تكن المدينة القديمة مسعدة
لخوض نمار حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضخامة تجارتها .
ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها ، ولم يكن
لها جنود مرتزقة ولا حلفاء يضاف إلى هذا أن رومة كانت تسيطر على
البحار ، ومن أجل هذا أعلنت أتكا انضمامها إلى رومة ، وحال مسيسا
بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التي خلفها في القارة الإفريقية ،
وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومة وأمرتها أن تهيئها إلى جميع مطالبها
فوعدها مجلس الشيوخ الروماني بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين
الرومانيين في صتملية ثلثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما ،
وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أيا كانت هذه المطالب ، احتفظت
في نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها ، وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى
القنصلين لينفذا ما صدر إليهما قبل من الأوامر : وأسلم القرطاجنيون أطفالهم
بقلوب واجفة وعيون باكية ، واحتشد آباؤهم عند شاطئ البحر يودعونهم .
وهم في أشد الألم والحسرة ، وحاولت أمهاتهم في آخر لحظة أن يمنعن السفن
من المسير ، وألقت بعضهن أنفسهن في الماء ، وأخذن يسبحن فيه ليلقين
آخر نظرة على أطفالهن . وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومة ، وعبر البحر
إلى يتكا Utca على رأس الجيش والأسطول ، واستدعيا سفراء قرطاجنة ،
وطلبوا أن تسلم بلدهما كل ما بقي لها من السفن ، وكمية كبيرة من الجيوب
وجميع الأسلحة والمعدات الحربية . فلما أجيبت هذه المطالب كلها ، طلب
القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها ، وأن يقيموا على بعد
عشرة أميال من المدينة ، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها .
وحاول السفراء عبثاً أن يقنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى
أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها من غير قتال غدر وبخيانة

لا نظير لهما في التاريخ كله . وعرضوا ان يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم
وتكفيرا عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب ، وخرروا على الأرض
سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم . فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هي
شروط مجلس الشيوخ ولأنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً .

ولما سمع أهل فرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وطاشت
أحلامهم ، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام
القواد الذين أشاروا بتسليمهم ، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم
السلاح ، وأخذ غيرهم يمحرون السفراء العائدين في شوارع المدينة ويرجمونهم
بالحجارة ، ومنهم من قتلوا كل من وجدوهم في المدينة من الإيطاليين ، ومنهم
من وقفوا في دور الصناعة الخالية من السلاح ليكون وينتجون . وأعلن مجلس
شيوخ فرطاجنة الحرب على رومة ، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالاً
ونساء ، أرقاء وأحراراً ، أن يجيشوا جيشاً جديداً ، وأن يصنعوا أساحة
جديدة يدافعون بها عن المدينة . وثبت الغضب قلوبهم ، وقوى عزائمهم ،
وأخذوا يهدمون المباني العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد ، وصهرت
تماثيل الآلهة الأجزاء لتصنع منها السيوف ، وجزت شعور النساء لتصنع منها
الخيال ، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت ٨٠٠٠
درع ، ١٨٠٠٠ سيف ، ٧٠٠٠ روبة ، وستين ألف قذيفة منجنيقية ،
وبنت في مينائها الداخلي عمارة بحرية مؤلفة من ١٢٠ سفينة (٤٩) .

وقاومت المدينة الحصار برأ وبجراً ثلاث سنين ، كان القنصلان
في خلاهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما ، وكانا في كل مرة يرتدان
عنها خائبين . ولما كان سيبو إيميليانس وحده - وهو أحد التربيونين
العسكريين - هو الذي أظهر في هذا الحصار براعة ودهاء ، فقد عينه
مجلس الشيوخ الروماني والجمعية قنصلاً وقائداً في عام ١٤٧ ، ولم يعارض
هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه . ولم يمض على ذلك إلا قليلاً
حتى نجح ليليسوس في تساق أسوار المدينة . ودافع القرطاجنيون

هنما شارعاً شارحاً ، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم ، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة ، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة . ولما رأى سيبو أن فناصة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران ، أمر أن تشعل النيران في كل الشوارع التي يستولون عليها ، وأن تدك مبانيها دكاً ، فاحترق في اللهب كثير من الجنود المختبئين في الدور . ووجد القرطاجيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً . وطلب قائدهم هزدروبال أن يؤمن على حياته فأجابه سيبو إلى ما طلب ، ولكن زوجته عبرته بيجنه وألقت بنفسها وبأولادها في اللهب . وبيع من بقي من الأهالي حياً في سوق الرقيق ، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية يهبونها ويعيشون فيها فساداً . وأحجم سيبو عن تدميرها ، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير ، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنة نفسها وكل ما انضم إليها في الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها ، وأن تحرث أرضها وتغطي بالملح ، وأن تصب اللعنات على كل من يحاول بناء شيء في موضعها ، وظلت النار مشتعلة في المدينة سبعة عشر يوماً كاملة .

ولم يعتقد صلح أو توقع معاهدة ، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود ، وتركت يتكا *Utica* وغيرها من مدن إفريقية التي ساعدت رومة حرة تحت حمايتها ؛ وأما ما بقي من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومة وسمى ولاية « إفريقية *Africa* » . وجاء الممولون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً ، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية ، وأضحى الاستعمار المعامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية ، والغرض السافر الصريح الذي تعمل له عن قصد وتدبير ، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية ، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هي الطريق البري لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومة ، ولم تجرد رومة

صعوبة في إقناع مملكتي مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهلينية بالخضوع لى رغبات رومة - كما اضطر بوبليوس Popilius أنتيوخوس Antiochus الرابع - إلى الخضوع لها بلا قتال . وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجنة وكورنثة فى عام ١٤٦ من الناحية الأخلاقية - وهى نظرة لها شأنها على الدوام فى السياسة الدولية - حكمنا دون تردد بأن هذا العمل من أفضع الفتح وأشدها وحشية فى التاريخ كله . أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات - أى من ناحية السلامة والثراء - فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية فى سيادة رومة التجارية والبحرية ، فقد أصبحت منذ تلك اللحظة هى المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، والمتصرفة فى مصائره ، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط .

ومات فى أثناء هذه الحرب من أشعلوا نارها تحيطهم هالة من النصر والفخار : فمات كاتو فى عام ١٤٩ ، ومسينسا فى عام ١٤٨ ، وترك الرقيب الطاعن فى السن (*) أثراً عميقاً فى التاريخ الرومانى وظل الناس قروناً كثيرة يرون فيه الرومانى النموذجى فى عصر الجمهورية ، واتخذه شيشرون فى كتابه De Senectute المثل الأعلى للرجال ، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه بفلسفته خالية من فكاهته كما حاول ماركس أورليوسى أن يتخذه نموذجاً له ينسج على منواله ، وكان فرننتو Fronto يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا إلى أسلوبه البسيط الخالى من الالتواء والتعقيد . ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا فى أمر واحد وهو تدمير قرطاجنة ، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فىهما كل الإخفاق ، واستسلمت كل نواحي الحياة الرومانية من أدب ، وفلسفة ، وخطابة ، وعلم ، وفن ، ودين ، وأخلاق وعادات ، وملابس ، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان . لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان ؛ ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه بهم ، وظلت العقيدة الدينية التى فقدها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

(*) يريد كاتو .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذي قاومه في شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية • وكان كل فتح حربي جديد يزيد في ثراء رومة كما يزيد في فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت نمارها عناء حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم في سبيل الانقسام والفتن في المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان .

الكتاب الثاني

الثورة

١٤٥ - ٣٠ ق م

جدول للحوادث التاريخية

مرتبة حسب أزمانها

	ق . م
حرب الرقيق الأولى في صقلية .	١٣٩ -
تعيين تيبيريوس جراكس تربيوناً واغتياله	١٣٣ -
١٣٢ وما بعدها - لوسليوس بانينديوس في رومة .	
١٢٤ - ١٢٣ كيويس جراكس تربيون .	
١٢٢ - كيويس جراكس يبدأ نظام توزيع الحبوب عن قبل الدولة .	
١٢١ - انتحار كيويس جراكس تربيون .	
١١٩ - ماريوس تربيون .	
١١٦ - ثم بريطور .	
١١٣ - ١٠١ حروب رومة ضد السبريين والتبوتون .	
١١٢ - ١٠٥ الحرب البجرثية .	
١٠٧ و ١٠٤ - ٧٨ ، ٤ ، ١٠٠ ماريوس قنصل .	
١٠٦ - مولد شيشرون وپمبي .	
١٠٥ - السبيريون يهزمون الرومان قرب أروسيو .	
١٠٣ - ٩٩ حرب الرقيق الثانية في صقلية .	
١٠٣ - ١٠٠ سترفيوس تربيون .	
١٠٢ - ماريوس يهزم السبيريين عند أكواسكتيا .	
١٠٠ - ماريوس يقهر سترنيوس ؛ مولد يوليوس قيصر .	
٩١ - إصلاحات م . ليقيودروسن واغتياله .	
٩١ - ٨٩ الحرب الاجتماعية في إيطاليا .	
٨٨ - صلا قنصل ؛ فرار ماريوس .	
٨٨ - ٨٤ الحرب المثرذاتية الأولى .	
٨٧ - تمرد سنا وماريوس ؟ حكم الإرهاب المتطرف .	
٨٦ - صلا يستولى على أثينة ويهزم أركياوس في قيرونية .	
٨٦ - ماريوس وسنا يتخلعان صلا ؛ موت ماريوس .	
٨٥ - ٨٤ القنصليتان الثالثة والرابعة وموت سنا .	
٨٣ - ٨١ الحرب المثرذاتية الثانية .	

	ق . م .	
صلا ينزل في برنيزيوم .	٨٣ -	
صلا يستولى على رومة . حكم الإرهاب الرجى .	٨٢ -	
التوانين الكرنيلية لصلا .	٨١ -	
ثورة مرتوزيوس في أسبانيا .	٧٢ - ٨٠	
استقالة صلا وموته في عام ٧٨	٧٩ -	
وما بعدها - قرو .	٧٦ -	
الحرب المتردائية الثالثة - انتصارات لوكمس وپمپى .	٧٥ - ٦٣	
شيشرون يعين كوسترا في صقلية .	٧٥ -	
حرب الرقيق الثالثة : لسيارتكوس وپمپى .	٧٣ - ٧١	
كراسس وپمپى قنصلان للمرة الأولى . محاكمة قُرس . مولد فرجيل .	٧٠ -	
تيتس پمپى نپوس أنكس .	٦٩ -	
قيصر كوستر في أسبانيا .	٦٨ -	
پمپى يخضع القرصنة .	٦٧ -	
كتاب شيشرون Pro lege manilia .	٦٦ -	
شيشرون يفضح كتلين . مولد أكتافيوس .	٦٣ -	
م . ف . أريبا .	٦٣ - ١٢	
قيصر پريتور مهندس . مسلك كلوديوس السيسى .	٦٢ -	
قيصر حاكم في أذاصى أسبانيا . عودة پمپى . وانتصاره .	٦١ -	
الحكومة الثلاثية الأولى : قيصر وكراسس وپمپى .	٦٠ -	
قصائد كانلس ؛ كوفليوس نپوس .	٦٠ - ٥٤	
قيصر قنصل .	٥٩ -	
كلوديوس تريبون يخرج شيشرون من البلاد ؛ قيصر يهزم هانقى وأريرفذستس في غالة .	٥٨ -	
عودة شيشرون ؛ قيصر يهزم بلجا .	٥٧ -	
التقاء أعضاء الحكومة في لوکا .	٥٦ -	
پمپى وكراسس قنصلان ، ملهى وپمپى ؛ قيصر في ألمانيا وبريطانيا .	٥٥ -	
غزو قيصر لبريطانيا للمرة الثانية .	٥٤ -	
أعمال المنف التي قام بها كلوديوس وميلو في رومة ، هزيمة كراسس في كارهى .	٥٣ -	
مقتل كلوديوس ؛ محاكمة ميلو ؛ پمپى ينفرد بالقنصلية ؛ ثورة قُرسختركس .	٥٢ -	
شيشرون حاكم قليقية ؛ كتاب شيشرون de re publica ، كتاب	٥١ -	
كتاب قيصر de bello Gallico		

	رقم
قيصر يهزم الريبكون ويدقولى على رومة .	- ٥٩
ميركتنا دراكتيوم وفرسالس .	- ٤٨
قيصر فى مصر وسوريا ؛ فنوقيوس المهندس المهارى ؛ كولوملا النباقي .	٤٧ - ٤٨
انتصار قيصر فى زيلاوئيسوس ؛ انتحار كاتو الأصفر .	- ٤٧
قيصر يمين دكتاتوراً لمدة عشر سنوات ، تعديل التقويم ، سالست	- ٤٦
المؤرخ كتاب شيشرون Pro marcello .	
قيصر يهزم أنصار بيمى فى أسبانيا ؛ كتابا شيشرون Academica De	- ٤٥
Finibus	
اغتيال قيصر ؛ كتب شيشرون Disputationes Tusculanae	- ٤٤
De nature pecorum, De officii	
الحكومة الثلاثية الثانية ؛ أنطونيوس ، رأكثافيان وليبدوس ، مقتل	- ٤٣
شيشرون .	
موت بروتس وكاسيوس فى فلپاى .	- ٤٢
أنطونيوس وكايو بطره فى طرطوس .	- ٤١
صالح أنطونيوس وأكثافيان فى برنديزيوم ، نشيد الرعاة الرابع لفرجيل .	- ٤٠
أنطونيوس يفوزو بارثيا .	- ٣٦
أنطونيوس يتزوج كليوبطرة .	- ٣٢
أكثافيان يهزم أنطونيوس فى أكتيوم .	- ٣١
انتحار أنطونيوس وكايو بطرة ؛ ضم مصر إلى الإمبراطورية ؛	- ٣
أكثافيان يحكم رومة بمنزده .	

الباب السادس

الثروة الزراعية

١٤٥ - ٧٨ ق. م

الفصل الأول

العوامل التي هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة ، وكان لها نتائج يخطئها الحصر ، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابني جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات في التاريخ ، ولم تنشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها من الخطر مثل ما كان لتلك الحرب ، ولم تمثل على المسرح العالمي في يوم من الأيام مأساة ما تمثيلاً أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام ، وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وإسبانيا وإفريقية ، وما أحدثه تدفقها من خراب محل بالزراع الإيطاليين ، إذ خفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها . وكان سببها الثاني تدفق الرقيق الذين حلوا محل الزراع في الريف والعمال الأحرار في المدن ، وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عدد الضياع الواسعة ، وكانت الدولة قد أصدرت في عام ٢٢٠ قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم في التجارة ، فلما أن زاد ثراؤهم من غنائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، وكانت الأرض في البلاد المفتوحة تقسم في بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

المستعمرين ، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائمين في المدن ؛ وأعطى جزء كبير من هذه الأراضي للممولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال في أثناء الحروب ، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الأعمال أو استأجروه بشروط حددها مجلس الشيوخ نفسه ، وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطر المالك الصغير إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها ، فلم يلبث أن وقع في هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن في أحيائها القذرة الحظيرة الوبيثة . وآخر ما نذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغير كبير لقد جند هذا الفلاح في الجيش وهيأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم ، وأصبح يكره العمل الانفرادى الرتيب الخالي من المغامرات في الحقول ولا يستطيع الصبر عليه ، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعايلك المدينة المشاغبين ، ويرقب الألعاب المثيرة في المحتلدات بلا أجر ، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان ، ويبيع صوته في الانتخابات لمن يبتاعه بأعلى الأثمان أو لمن يمينه بأعظم الأمانى ، ويهتفي في عمار الجماهير المعدمة الحاملة للوضيعة .

وأصبح المجتمع الرومانى يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج واسترقاق فى الداخل ، بعد أن كان فى أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار . فأما فى المدن فكانت كل الخدمات المنزلية ، وكان كثير من الصنائع اليدوية . ومعظم الأعمال التجارية ، وكثير من الأعمال المصرفية ، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة ، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة فى الكسب سواء . وكان الأرقاء فى الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية ، لأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلاً بعد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التى كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التى كان ينهمك فيها

سادتهم*) ؛ وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجىء بالأداة الحية اللازمة للمزارع التي تصنعت . وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومة بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القرصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسية أو بالقرب منها ، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعيدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته (١) . ولم يكن يمضى أسبوع لا يأتي فيه النخاسون بفرائسهم البشرية من إفريقية ، واسبانية ، وغالة ، وألمانية ، والبلاد الواقعة على ضفتي نهر الطونة ، والروسيا ، وآسية ، واليونان - من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ولم يكن من هذه الحوادث غير المألوفة أن يباع في ديالوس مائة ألف من الأرقاء في يوم واحد . وقد قبضت الجيوش الرومانية في عام ١٧٧ على أربعين ألفاً من أهل سردانية ، وفي عام ١٦٧ على مائة وخمسين ألفاً من أهل أپيروس ، بيعوا في أسواق النخاسة . وكان ثمن الواحد منهم في الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالاً أمريكياً (٢) . وكان مما خفف من شقاء الأرقاء في المدينة ما كان يرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم ؛ وما كانوا يطعمون فيه من نيلهم حرمتهم ؛ أما في الضياع فلم يكن يسمح للصلوات الإنسانية بأن تتدخل في أعمال الاستغلال ؛ فلم يعد العبد في تلك الضياع عضواً في الأسرة كما كان في بلاد اليونان أو في رومة نفسها في عهدنا الأول ؛ وقلما كان العبد يرى مالكة ، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصاره منها ، ويقدر هذا الاعتصار يكون أجر هؤلاء الحراس . أما أجر العبد نفسه في الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذي يمكنه من أن

(١) يقصد بهذه العبارة تناسل هؤلاء الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسيادهن .

(المترجم)

يكدح. كدحاً متواصلاً في كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها - هذه بعض أيام الأعياد - حتى تدركه الشيخوخة . فإذا شكاً أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال ، وأن يقضى الليل في جيب تحت الأرض *ergastulum* لا تكاد تهلو منه كل ضيعة واسعة . لقد كان في هذا النظام من التلف والحسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية ، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التي كانت تعيش من قبل على هذه الأرض نفسها معيشة الأحرار من الناس .

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء ، إن لم يكن أكثر من نصفهم ، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون في الحروب) ، كان مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المحطمون من مرارة ، ولا يسعنا إلا أن نعجب من ندرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات . وقد حدث في عام ١٩٦ ، أن ثار أرقاء الريف في إتروريا وعمالها الأحرار ، ولكن الجيوش الرومانية أدهبهم « وقتلت الكثيرين منهم أو أسرتهم ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم » كما يقول لبي (٣) . وحدثت مثل هذه الثورة عام ١٨٥ في أبوليا ، فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا في المناجم (٤) . وكان أربعة آلاف من الأرقام الأسبان يعملون في مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها ، وفي عام ١٣٩ شبت نار « حرب الأرقاء الأولى » في صقلية (٥) ، فقد لبى دعوة إينوس Eunos أربعمائة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إنا Enna ، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة في صقلية ، فضاغفروا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً ، وما لبثوا أن احتلوا أجرينم Agrigentum ، وهزموا الجيوش الرومانية التي كانت في الولاية ، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً ،

واحتفظوا بها حتى عام ١٣١ : وفي تلك السنة حاصرهم جيش القنصل في
لنا ومنع الزاد حتى اضطرهم الجوع إلى الاستسلام : وسبق لابينوس إلى
رومة ، وأتى في جب تحت الأرض ، وبقي فيه حتى قضى عليه الجوع
والقمل (٥) . وقامت للثورات أقل من هذه شأناً التهمت بإعدام مائة وخمسين
من الأرقاء في رومة ، وأربعمائة وخمسين في منتورنا *Menturnae* وأربعة
آلاف في سينوما *Sinuessa* . وفي تلك السنة استصدر تيبيريوس جراكس
Tiberius Dracchus القانون الزراعى الذى فتح باب الثورة الرومانية
على مصراعيه .

الفصل الثاني

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبيريوس سميرونوس جراكس *Tiberius Sempronius Gracchus* الذي تدين له أسبانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلاً كريماً ، والذي عين مقتصلاً مرتين ورفيقاً مرة ، والذي أنقذ من الهلاك أخا سيبو الإفريقي وتزوج ابنته ، وأنجبت كرنليا اثني عشر طفلاً توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ ، وتحملت هي بعد وفاته عبء تربية تيبيريوس وكبوس وأخت لها - تدعى أيضاً كرنليا - صارت فيها بعد زوجه سيبو إيمليانس ؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهلينية ، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السبونية ؛ وكان لكرنيا ندوة أدبية ، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها مع خبير ما كتب في الآداب اللاتينية ، ويقول أفطونخس إن ملكا من ملوك مصر عرض عليها بعد أن ترملت أن تزوجه ، وأن ينزل لها عن عرشه ؛ فأبت وآثرت أن تبقى ابنة لسبوس ، وحماة لسبوس وآخر وأماً لجراكس .

ونشأ تيبيريوس وكبوس جراكس في جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفا فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية . وقد تأثرا بآراء بلسيوس *Blossius* وهو فيلسوف يوناني من كومي *Cumae* بعث فيهما نزعة حرة قوية استخفت بقوة المحافظين في رومة . ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين في طموحهما ، وكبريائهما ، وإخلاصهما وفصاحتها التي لا يكاد يصلحها العقل ، وشجاعتهما التي لا تشوبها قط شائبة . ويحدثنا كبوس أن تيبيريوس شاهد مأساة الزراع ، وتأثر بها أشد التأثر حين كان مسافراً في إتروريا « فرأى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرثون

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب (٦) ، وإذ كان تيبيريوس يعرف وقتئذ أن الملاك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة في الجيش فقد سأل نفسه كيف تستطيع رومة أن تحتفظ بزعامتها أوامتها إذا حل محل زراعتها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة في الفيالق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صاة ما ؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة ، الديمقراطية الرومانية ديمقراطية صالحة ، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم ؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذى لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاثة القائمة وقتئذ في البلاد : الاسترقاق في الريف ، والازدحام والفساد الخلقى في المدن وضعف الروح الحربية بين المواطنين ٥

وما كاد تيبيريوس جراكس يختار تريبونا في مستهل عام ١٣٣ حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (١) ألا يسمح لأى مواطن أن يمتلك أكثر من ٣٢٣ فداناً - أو ٦٦٧ فداناً إذا كان له اثنان من الأبناء - من الأراضى المشتراة أو المستأجرة من الدولة (٢) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التى باعها أو أجرها للأفراد ، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه فى إصلاحها (٣) وأن تقسم هذه الأراضى التى ترد إلى الدولة لإقطاعيات مساحة كل منها عشرون فداناً توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يعهدوا بالأى يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأرض ؛ وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة ولم يكن هذا الإصلاح الزراعى خيالا متعذر التنفيذ ، بل كان مجرد محاولة لتنفيذ قوانين ليسنيوس كالفس Licinius Calvus الصادرة فى عام ٣٦٧ ق . م التى ألغيت ولم تنفذ قط . وقد قال تيبيريوس للعامة الفقراء فى إحدى خطبه الشهيرة التى تعد من أعظم الخطب فى التاريخ الرومانى كله :

« إن الحيوانات الأرضية جحورها ولطير الهواء أوكارها ومخابئها ، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء . إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم ، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل ، إذ ليس في وسعك أن تدلم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لألهمهم ، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم . إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف ، ويقال لكم : إنكم سادة العالم ، ولكنكم لا تجدون في هذا العالم موضعاً لتقديم ، في وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم » (٧) .

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست في واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس ، وأهم تمييزيوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً بأمره ، وأقنع إكتافيوس وهو ترييون آخر أن يستخدم ماله من حق الاعتراض في منع عرض المشروع على الجمعية ، فما كان من جراكس إلا أن تقدم باقتراح يقضى بأن كل ترييون يعمل ضد مصالح من يمثلهم يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح وأخرج حراس تمييزيوس أكتافيوس قوة واقتداراً من قاعة الجمعية على الفور ، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله خوفاً أن يقتاله مغتال في الطريق (٨) .

غير أن تحكمه غير المشروع في حق الترييون في الاعتراض ، وهو الحق الذي جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما ، قد وضع في معارضيته سلاحاً يشهرونه في وجهه ويقضون به على قانونه . فجهروا بعزمهم على أن يتهموا في نهاية العام الذي يتولى فيه منصبه بالخروج على دستور البلاد واستخدام العنف ضد أحد الترييونيين . وأراد تمييزيوس أن يحمي نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى ، وذلك بترشيح نفسه

لأن يعاد اختباره تريبوناً في عام ١٣٢ . وإذا كان إيميليانس وليليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن ، فقد لجأ بكليته إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال المحلفين ، وأن يجعل حلفاء رومة من الإيطاليين مواطنين رومانيين . ورفض مجلس الشيوخ في هذه الأثناء اعتماد الأموال التي طلبتها اللجنة الزراعية التي نيط بها تنفيذ قوانين تيبيريوس فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجوم Pergamum بمملكته لرومة في عام ١٣٣ عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمتقولة ، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا لإقطاعات من أراضي الدولة ليباعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات ؛ وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير مثلة للبلاد ، معظم أعضائها من أصل وضيع ومن غير أبناء البلاد الأصليين ، فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس في السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته في الانتخاب ستؤدي إلى اتهامه وإعدامه . وحدث في أثناء الاقتراع أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف . ونادى سيبو نسكا Seipio Nasica بأن تيبيريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات . وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتحلوا عنه ، وأصيب تيبيريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضع مئتين من أتباعه . ولما طلب كايوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه ، وألقيت جثث العصاة الموتى في نهر التيبر وكرنليا في أثناء ذلك حزينة باكية .

وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس . ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسمائهم

في السجلات بمقدار ٧٦٠٠٠ من عام ١٣١ إلى ١٢٥ على أن مساحات واسعة من الأراضي قد وزعت حقاً على الزراع ، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة . ذلك أن كثيراً من الأراضي التي براد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال ، وأصبح لمن يملكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلاً ، وأن منها أراضي كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان غالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة . ولجأ أحلاف رومة الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التي اكتسبوها بوضع اليد إلى سيبو إيميليانس ليحميهم من اللجنة الزراعية ، واستطاع بما له من النفوذ أن يوئجل عمالها فاستشاط الرأي العام غضباً عليه لهذا العمل ، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التي أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة . وفي صباح يوم من أيام عام ١٢٩ وجد الرجل ميتاً في فراشه ، وأكبر الظن أن يبدأ أئيمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المختال

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النمامون الذين نخلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد ائتمرت مع ابنتها زوجة سيبو المشوهة المكروهة على قتل تيبيريوس ؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفاحشة تواسى نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذى لم يبق لها فى هذا العالم عزيز سواه . ولم يكن ما أثاره مقتل تيبيريوس فى قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة فى الانتقام ، بل أثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه . وكان قبلئذ قد أظهر كثيراً من الذكاء والشجاعة فى أثناء خدمته بقيادة إيمليانس فى نوماتيا ، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشته ، وكان رجلاً حاد المزاج جياش العواطف ، إذا ثار زادت حدتها أطول كبتها ، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون ، وفتحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً فى مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثانى بعد الشجاعة فى رقى الرجال وبلوغهم أسنى المراتب . لهذا كله اختير تربيونا فى خريف عام ١٢٤ .

وكان كيوس رجلاً واقعياً أكثر من أخيه ، ومن ثم أدرك أن لابقاء لأى إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية فى الدولة ، ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة : طبقة الزراع ، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال . فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التى سنها أخوه ، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فى الولايات التابعة لها ، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضى ، وأشرف بنفسه على أعمالها ، وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة فى كبوا ، وتارنتم وناربو Narbo ، وقرطاجنة ، وبنيمة هذه

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة . وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدي أثمان ملابسهم من الخزانة العامة ، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب *lex frumentaria* وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطى القمح لكل من يطلبه بسعر ستة آسات وثلث آس لكل موديوس *Modius* (أى بما يعادل ٣.٦٣ من الريال الأمريكى لكل جالونين) وهو نصف ثمنه فى السوق . وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة - مبادئ الاعتماد على النفس - كما كان له آثار خطيرة فى التاريخ الرومانى كله . وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفى نفقات إنتاجها ، وأن الإجراء الذى اتخذته لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابنى جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقبصر بدل أن كانوا موالى للأشراف وأتباعهم ، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم ، كما كان عماد الحركة الديمقراطية التى بلغت ذروتها فى كلوديوس *Clodius* وقضى عليها فى أكتيوم .

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذى ينتمى إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم واثنى تجعل الأغنياء يقترعون فى الجمعية المثوية قبل غيرهم من الطبقات ، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المئات فى الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة . ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل بحلفين عند النظر فى جرائم الولايات ، فأصبحوا بذلك حكماً فى قضاياهم إلى حد بعيد . ولم يكتف بهلما بل أراد أن يستثير مطامعهم فاقترح أن تفرض على جميع غلات آسية الصغرى ضريبة توازى عشر هذه الغلات يجبونها هم أنفسهم . ثم زاد ثراء المقاولين ، وأنقص عدد المتعطلين ، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق فى كافة أنحاء إيطاليا . ولقد

كانت هذه القوانين في جملتها - رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسي - أعظم مجموعة من التشريع الإنشائي سنت لرومة قبل أيام قيصر .

واستطاع كيوس باعتماده على هذا العون المتعدد النواحي أن يطرح ما جرت به العادة من قديم ، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية : وأكبر الظن أنه قد فكر في ذلك الوقت في السيطرة على مجالس الشيوخ بإضافة ثلاثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلاثمائة ، تختارهم الجمعية من بين رجال الأعمال . واقترح كذلك أن يعطى حق الانتخاب كاملاً لجميع الأحرار من سكان لاتيوم ، وأن يعطى هذا الحق مقصوداً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا . وكانت هذه أجراً حركة قام بها في طريق الديمقراطية السياسية ، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط في خطه . ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم في هذه الميزة التي اختصوا بها حتى ذلك الوقت ، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات في رومة إلا أقلية صغيرة منهم ، ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة في البلاد ، ولم يرق في هذا التربيون النابه لا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال : ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومة الغيورون على حقهم القديم ، وانتهز فرصة غياب كيوس ، وكان قد غادر رومة ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة في قرطاجنة ، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليفيوس دروسس **Marcus Livius Drosus** أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغى به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس ، وأن يسترض صعاليك المدن ويضعفهم في الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتي عشرة مستعمرة جديدة في إيطاليا تتسع كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومة . ووافقت الجمعية من فورها :

على هذين المشروعين ، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب ، ينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها . ورشح كيوس نفسه لأن يختار تريبونا مرة ثالثة ولكنه هزم ، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناخبين قد تناوها الغش والتزوير ، غير أنه نصح أتباعه بالألا يلجئوا إلى وسائل العنف واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة .

وأشار مجلس الشيوخ في العام الثاني أن تجلورومة عن المستعمرة المنشأة في قرطاجنة ، وفسرت الأجزاء جميعها هذا الاقتراح - سرأ أو جهراً - بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها . وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين ، وقتل أحدهم رجلا من المحافظين هم بالقبض على كيوس . فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن خرجوا في اليوم الثاني على استعداد تام للقتال ، ومع كل منهم صندان مسلحان ، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق تل الأفنتين . وبذل كيوس كل ما في وسعه لتسكين الفتنة ، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى ؛ فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر نهر التبير ، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله ، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه . وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه ، وحشاها بالرصاص المصهور ، وحامها إلى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوى وزنه ذهباً^(٩) . وقتل من أنصار كيوس في المعركة مائتان وخمسون ، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ ؛ ولما أقيمت جسثه وجثث أتباعه في نهر التبير لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لحيرهم ، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ في شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته^(١٠) : وحرّم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها .

الفصل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التي أرادها كسب محبة الشعب الروماني . فلم يجرعوا مثلاً على إخراج رجال الأعمال من منصب المحلفين في القضايا ، أو أن يحرموا المكاسين والمقاولين مرايع صيدهم الوفيرة في آسية ، ورضوا بأن يظل توزيع الحبوب على الأهلين كما كان حتى لا يثور الشعب . ثم أفسدوا ذلك القرار الصالح قرار توزيع الأراضي على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجيز لملاك هذه الأراضي الجديدة أن يبيعوها ، فلم يمس إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق ، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها . ثم ألغيت لجنة الأراضي في عام ١١٨ ، ولم تحتج الجماهير في العاصمة على الإلغاء ، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة في المدينة خير من فلاح الأرض أو الكدح في المستعمرات الناشئة . وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأن أرض قرطاجنة كانت في زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قبصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد . وزاد ثراء الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل ، وقد قرر أحد الديمقراطيين المعتدلين في عام ١٠٤ أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفي مالك (١١) . وفي ذلك يقول أبيان Oppian : « إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل وقد كانت من قبل سيئة » . . . فقد خسر العامة كل شيء . . . وظل عدد المواطنين والجنود يتناقص يتناقصاً مطرداً (١٢) . وكان لا بد من سد النقص في صفوف الجنود بمجندين من الولايات

الإيطالية ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال ، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومة ؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام ، واختل النظام في الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حل :

ولم تلبث أن هاجمها الأعداء ، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب وفي وقت واحد . ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبريين والتوتون انحدرت جموعهما كالسبر الجارية فاختبرقت لثانيا عام ١١٣ في عربات مغطاة ، وكانت عدتهم ثلثمائة ألف في المخابر ، ومعهم أزواجهم وأبنائهم ودوابهم ، وكانهم أرادوا أن يشعروا رومة بما يهددها من أخطار في المستقبل القريب ، ولعل هؤلاء الأقوام قد تراءى لهم من فوق جبال الألب أن رومة قد اقتننت بالثروة وكرمت الحرب ، وكان القادمون الجدد طوال القامة ، أقوياء البنية ، شجعاناً لا يجد الخوف سبيلاً إلى قلوبهم ، وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض ك شعر الشيوخ . والتقوا بجيش روماني في نوريا Noreia وهي نورماكت Neurmarkt الحالية في كارنثيا) وأفنوه عن آخره ؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر ، ثم تدفقا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش روماني ثالث ورابع وخامس ، وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية ، وأربعين ألفاً من المدليين الذين يتعقبون معسكرات الجنود (١٣) . وفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة ، واستوى الرعب على رومة وكان رعباً لم تعرف له مثيلاً منذ أيام هنيبال .

وفي الوقت عينه تقريباً شنت نار الحرب في نوميديا . وذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد هانسنا عذب أخاه تعذيباً انتهى بموته وحاول أن يحرم أبناء عمه حقهم في الملك ، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه في عام ١١١ لعله يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولرووس

الأموال الرومانية ، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله ، فعدوا معه صلحا موافيا أو اكتفوا بمناوشات لا تاحق به أذى . ولما استدعى إلى رومة كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها ، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام في سبيله العقوبات (١٤) .

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس *Gaius Marius* . وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون في *Arpinum* وكان والده هاملا يقاضى أجراً يومياً قليلاً ، وقطوع في الجيش وهو صغير السن ، وأصيب بعدة جراح في نومنتيا *Numantia* ، وتزوج من عمة لقبصر ، واختير تريونا رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه . ولما عاد من الخدمة العسكرية في خريف عام ١٠٨ ، وكان وقتئذ ياوراً لكونتس متلس *Quintus Metellus* القائد الضعيف العاجز في إفريقية ، اعتلى منصة للخطابة وطلب أن يختار قنصلاً بديل متلس ، وقطع على نفسه عهداً إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر في الحرب اليوجورثية . فأجابه الشعب إلى طلبه ، وتولى قيادة الجيش ، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له في عام ١٠٦ ، ولم يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر في هذه الحرب شاب جرىء من الأشراف هو لوسيوس صلا *Lucius Sulla* وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعد . أما في ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس ببأعظم ما يستمتع به القائد المنتصر ، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المحتضر ، وصارت تنتخبه قنصلاً عاماً بعد عام (من ١٠٤ - ١٠٠) . وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقاً جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة ، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذى كان في استطاعته أن يرد جحافل الكلث من جهة أخرى . وتبينت رومة من ذلك الوقت

في عم قيصر منافع القيصرية - ذلك أن الدكتاتورية الممثلة في قائد محبوب من الشعب ، ومن ورائه جيش مخلص له ، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكى القوى البديل الوحيد من المساوى الأجركية التي تلازم الحرية .

وكانت الجاهل السمبرية بعد انتصارها في أروسيو قد أجلت زحفها على رومة ، وعبرت جبال البرانس ، وعانت في أسبانيا فساداً ، غير أنها عادت إلى غالة في عام ١٠١ ، وهي أكثر عدداً مما كانت قبل ، وانفتحت مع الثيوتون على أن يهاجم السهول الغنية في شمال إيطاليا من طريقين مختلفين . وبلجا ماريوس في ضد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً مدهشاً في الجيش أولاً وفي الدولة نفسها فيما بعد . ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من شاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن . وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين ، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعهم أرضاً في نهاية الحرب . وكان معظم الجيش الذي جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن ، وكانت عواطفه معادية لجمهورية الأشراف ، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب في سبيل قائده ومن أجل الغنائم ؛ وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكرى للثورة القيصرية ، ولعله فعل ذلك على غير علم منه . وكان ماريوس جندياً لا رجلاً سياسياً ، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة ؛ فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب ، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها ، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم في حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو . ومرالنيوتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما ، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللاتي يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن ؛ وفي وسع القارىء أن يتصور عدد هؤلاء النيوتون إذا علم أنهم قضوا في مرورهم بمعسكر

الرومان ستة أيام كاملة . فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاض على مؤخرتهم ؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أكوا سكستيا Sextia Aquae (١٠٢) (وهي مدينة إكس Aix في مقاطعة روفانس Provence) وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش النيوتون مائة ألف . وفي ذلك يقول أفلوطينس : « ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة ، حتى بلغ محصولها في الموسم الذي تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل (١٥) » .

وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى بالسامبريين في فرسلا Vercellae بالقرب من سهرالو (١٠١) في المكان الذي انتصر فيه هنيبال على الرومان في أول معركة خاض عمارها معهم . وأراد البرابرة أن يظهروا قوتهم وبأسهم ، فساروا عراة الأجسام وسط الثلوج ، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد ، وخاضوا مناسفة العميقة إلى قلال الجبال ، ثم انزلوا منها وهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات الوعرة ، واستخدموا دروعهم مزالت في أقدامهم (١٦) ، فلما دارت المعركة بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكذب يبق منهم أحد على قيد الحياة .

واستقبل ماريوس في العاصمة المبهجة كأنه « كليلوس ثان » صد عنها غارة كلتية ، « ورميولوس » آخر أنشأ رومة من جديد « ووهبته جزءاً من الغنيمة التي جاء بها مكافأة له على عمله ؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع ما « يكفي لأن يكون وحده مملكة » . وفي عام ١٠٠ ق . م اختير قنصلاً للمرة السادسة . وكان زميله في القنصلية لوسيوس ستورنينس Lucius Saturninus وكان رجلاً متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذي كان يسعى له إبتناجراً كس بالثمن إن استطاع وبالقوة إن لم يستطع . وكسب ودماريوس بأن مرض على الجمعية قانوناً يقضى بتوزيع بعض أراضي المستعمرات على الجنود

المضرمين الذين اشتركوا في المعارك الحديثة ؛ ولما أنهى ثمن القمع الذي
توزعه الدولة على العامة من ستة آسات وثلث آس (أى ما يعادل ٣٩ ر من
الريال الأمريكى) إلى خمسة أسداس آس (أى نحو ٥٠ ر من الريال الأمريكى)
لكل مودىوس لم يعارض ماريوس في هذا الإجراء . وأراد مجلس الشيوخ
أن يحمى خزانة الدولة ، ويحمى نفسه بتحريض أحد التربيونين على أن يمنع
الاقتراع على هذين المشروعين . ولكن ستورنيس لم يعبأ بهما الاعتراض
وتقدم بهما إلى الجمعية : واحتدم النزاع بين الطرفين ، وبلغ كلاهما إلى
العنف . ولما أن قتل أنصار ستورنيس كيوس ميموس **Caius Memmius** ،
وكان من أكبر الأشراف مقاماً ، بلغ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم في
كفائته واستخدم حقه في حماية الشعب **senatus consultum de re publica defendenda** وأمر ماريوس بوصف كونه قنصلاً أن يخذ الفتنة
وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حظ مختار ، وكان
هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته ، فقد كان شديداً على نفسه أن
ينجم جهاده الطويل لخدمة العامة من أهل رومة هذه الخاتمة التبعة فيهاجم
زعماءهم وأصدقائه السابقين ، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام
العنف ويعتقد أن الثورة تنتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه . وأخيراً
سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنيس رجماً بالحجارة ،
ثم طلق السياسة وهاش في عزلة عيشة نكدية يائسة ، يحتقره العامة الذين
دافع عنهم وأخذ بناصرتهم ، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء .

الفصل الخامس ثورة إيطاليا

كانت الثورة في ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية ، ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف رومة من ملوك الشرق لصد غارات السمبريين رد عليه تقوميدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في مملكته قد بيعوا في سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة . ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش في ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضى بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء الضرائب ؛ فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم في صقلية ، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية ، وتركوا ساداتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم ، فعارض أسيادهم في ذلك الطلب واحتجوا عليه ، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير ، ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعى ديني يسمى سلفيوس Salvius وهاجوا مدينة مورجنتيا Morgantia . واستطاع مواطنو المدينة أن يضمّنوا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين ؛ فلما صدوها أخلف ساداتهم وعدهم ولم يحرروهم ، فانضم معظمهم إلى الثائرين . وثار حوالى ذلك الوقت نفسه (١٠٣) نحو ستة آلاف من الأرقاء في طرف الجزيرة الغربى بقيادة أثنيون Athenion ، وهو رجل متعلم ذو عزيمة ماضية ؛ وهزمت هذه القوة تبعاً عدداً من الجيوش التى سيرها البريتور لإخماد ثورتها ، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس . وتغلّبت جموعهم على جيش بعثت به رومة من إيطاليا نفسها ، ولكن سلفيوس مات في ساعة النصر ، ثم عبرت جيوش رومانية أخرى مضيق صقلية

بقيادة القنصل مانيوس أكويليوس (١٠١) ؛ فبارز أثليون هذا القنصل وقتله في المباراة وأصبح الأرقاء بلا قائد ، فهزموا وقتل آلاف منهم في الميدان ، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم ، ونقل مئات منهم على ظهور السفن إلى رومة ليقاتلوا الوحوش في الألعاب التي أقيمت احتفالاً بانتصار أكويليوس ، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أعمد كل منهم خنجره في قلب زميله وماتوا عن آخرهم .

وبعد بضع سنين من هذه الحرب - حرب الأرقاء الثانية - امتنقت إيطاليا كلها الحسام . وسبب ذلك أن رومة - وهي أمة صغيرة بين كومي وكيري Caere ، وبين جبال الأبين والبحر - قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما تحكم الشعوب المغلوبة ؛ وبلغ من أمرها أن مدناً حرية منها مثل تيبور Tibur وبرانستي Praeneste لم يكن لها من يمثلها في الحكومة التي تصرف أمورها ، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرون المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها ؛ وكانت موارد هؤلاء « الأحلاف » من مال ورجال تستنزف في الحروب التي لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسرى رومة ، ولم تنل الولايات التي ظلت موالية لها في صراعها المريمع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر ، أما التي قدمت إلى هنيبال في هذا الصراع شيئاً من المعونة أيا كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومة خضوعاً أذلها إذلالاً جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء في ثورتهم عليها . وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطني رومة ، وكانت رومة نفسها تستخدم سلطانها في كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ؛ وفي عام ١٢٦ حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومة ، وفي عام ٩٥ أخرجت هذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب

وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على منه

المحاولة الإعدام . كان م . لفيوس دروسس *M. Livius Drusus* ابن
التريبون الذي كان ينافس تيبويوس جراكس ، ولما كان مهتاه قد
أصبح والد زوجة أغسطس ، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة ،
وجرياً وراء هدفها هذا عرض لفيوس دروسس ، بعد أن اختير تريبوناً
في عام ٩١ ، ثلاثة إجراءات وهي (١) أن يوزع مقدار آخر من أراضي
الدولة على الفقراء (٢) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التي
كانت مقصورة عليه ، مشروطاً أن يضم إليه في الوقت نفسه ثلثمائة من
رجال الأعمال (٣) أن يمنح جميع الأحرار في إيطاليا حقوق المواطنين
للرومانيين وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهي مغتبهة ، وأجازت
الثاني دون أن تبدى اغتباطاً أو استياء ، ولكن مجلس الشيوخ رفض
الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشيء منهما ، أما الاقتراح الثالث
فلم يعرض للاقتراح لأن مغتالاً مجهولاً طعن دروسس طعنة قاتلة في منزله .

وبعثت هذه الاقتراحات الأمل في نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت
مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلتا بطريقة سلمية أن يشرك
غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات . فأخذت
هذه الولايات تستعد للثورة . وتألقت منها جمهورية اتحادية ، عاصمتها
كنفرنيرم *Confirniurn* ، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من
خمسماية عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأمبريان
الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد . فلم يسع رومة إلا أن تعان الحرب
من فورها على المنشقين . واشتركت أحزاب العاصمة كلها في الحرب
التي كانت في رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا ، وملأ الخوف قلوب الرومانيين
على بكرة أبيهم من انتقام الدول المتمردة إذا انتصرت في هذه الحرب
الاجتماعية (*) القائمة بين الإخوة بعضهم وبعض . وخرج ماريوس من عزلته ،

(*) هذه هي الترجمة الخاطئة للعبارة اللاتينية *Bellum Sociale* - أي حرب الأحلاف
(*social*) ضد رومة . وهي ترجمة أكسبتها الأيام حرمة لا تستحقها .

وتولى القيادة ، وانتصر في معركة بعد معركة مع أن جميع القواد الرومانيين -
ما عدا صلا - قد منوا بالهزيمة ، وقتل في ثلاث سنين حوالى ثلثمائة
ألف نفس ، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب . ولما أوشكت لاروريا
وأمبريا أن تنضما إلى الثوار استرضتهما رومة بأن منحت أهلها جميع حقوق
المواطنين الرومانيين ، وفي عام ٩٠ منحت حقوق الرومان السياسية لجميع
الأحرار والمحربين الإيطاليين الذين يقسمون بين الولاء لرومة . وكان من
أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأخلاف المناوئين لرومة ،
فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها ، ولم يحل عام ٨٩ حتى كانت
هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها ، واختتمت بسلام
نكد لا خير فيه للطرفين ، ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات
الإيطالية من حقوق سياسية ، بأن جمعوا المواطنين الجدد في عشر قبائل
جديدة لا تقترع إلا بعد أن تفرع الخمس والثلاثون قبيلة التي كانت موجودة
قبل من الاقتراع ، وبذلك لم يكن لاقتراعها هذا قيمة في معظم الأحيان ،
يضاف إلى هذا أنه لم يكن في وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات
في رومة إلا قلة ضئيلة منهم . لذلك صبرت الجماعات التي غرر بها والتي
أضلتها الحرب وخربت بلادها على مضض ، فلما أن مضت على ذلك
الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين في
جمهورية لا وجود لها .

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضع سنين قلائل ساد فيها للسلام ، وكل ما في الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع « اجتماعي » إلى نزاع « أهلي » وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومة نفسها . وتفصيل ذلك أن لوسيوس كرنليوس صلا اختير ليتولى في عام ٨٨ ق . م منصب القنصلية . وتولى قيادة الجيش الذي كان يعبأ لقتال مثرذاتس Mithridates حاكم پنتس Pontus ، ولكن الترييون سلبيسيوس روفس Sulpicius Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة ، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس ، وكان وقتئذ رجلاً بديناً في التاسعة والستين من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التي طال انتظارها ، وأن تفلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاذعة لتأثير زعيم شعبي مهرج ، وللرشا التي لم يكن يشك في أنها قد تلقتها من التجار الذين يحبون ماريوس . فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومة .

وكان صلا رجلاً فذاً في منشئه ، وأخلاقه ، ومصيره . فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف ، كما أصبح ابناً جراكس ودروسس Drusus وقيصرو وعم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة ووثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً ؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في قضاء شهواته ، فأطلق لها العنان ، ولم يتقيد فيها بعرف ، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير . وكان دميم الخلق - له عينان زرقاوان برقتان في وجه أبيض

تلطخه بقع شديدة الحمرة - كأنه ثوب مشهور عليه دقيق (١٧) ، لكن هذه الملامح كانت تخفى وراءها تعليماً راقياً ، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية ، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها (مستعيناً على ذلك في العادة بالوسائل العسكرية) . وأمر أن تحمل له من أثينة مؤلفات أرسطوطاليس ، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أئمن غنائه ، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضل بها الناس من بعده . وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً ، وصديقاً كريماً ، يدمن الخمر ، ويشتهي النساء ، ويولع بالحرب ، ويطرب للغناء ؛ ويقول عنه سلسط Sallust إنه « كان يعيش عيشة البذخ ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته ، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان (١٨) » . وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً ، وخاصة في الجيش وسيلته الموفقة إلى أغراضه . وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله ، يشترك معهم في أعمالهم وفي سيرهم ، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار ؛ « وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أنه يفوقه في حكمته وشجاعته (١٩) » . ولم يكن يؤمن بألهة الرومان ، ولكنه يؤمن بالخرافات . وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة ، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله . وما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب ، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد (٢٠) . قضى نصف أيامه في ميادين القتال ، وقضى العشر السنين الأخيرة منها في الحروب الأهلية ، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته ، يوشى قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية ، ويملاً رومة ضحكاً ، خلق لنفسه مائة ألف عدد ومات في فراشه .

وكان يلوح أن هذا الرجل الذي يتألف من مزيج كيميائي من الفضائل والذائل هو الذي تحتاجه البلاد لقمع الثورة في الداخل والقضاء على مثرذاتس في الخارج ؛ وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم ٣٥٠٠٠ أن

يبدووا شمل الأشقات خير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالاً في رومة . فلما أيقن ماريوس بخرج موقفه فر إلى أفريقية ، وقتل سلبيوس إذ غدر به بخادمه . وأمر صلاً أن يدق رأس الثرييون في منبر الخطابة الذي كان منذ قليل تتجاوب فيه أصدااء خطبه البليغة ؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته ، ثم أمر بقتله جزاء له على غدره . وبينما كان جنوده يسيطرون على السوق العامة أصدر قراراً بالآلا يعرض أى أمر على الجمعية إلا بإذن مجلس الشيوخ ، وأن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر في « دستور سرفيوس » ، وهو الذى يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا ؛ ثم عمل على أن يكون هو القنصل الأول وسمح بأن يختار نيوس أوكتافىوس **Cnaeus Octavius** وكرنليوس سننا **Cornelius Cinna** قنصلين (٨٧) ، ثم سار للقاء متردانس العظيم .

ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة وطبقتى الأشراف والفرسان الممتازين ، ونشب القتال في السوق العامة بين أنصار أوكتافىوس المحافظين وأتباع سننا المتطرفين ، وقتل من الفريقين في يوم واحد عشر آلاف رجل ، وانتصر أوكتافىوس في آخر الأمر وفر سننا لينظم الثورة في المدن المجاورة ، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء مخفياً ، وأعلن تحرير الرقيق ، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف رجل لقتال أوكتافىوس في رومة . وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة من أعدائهم ، وزينوا منابر الخطابة بروؤس الشيوخ المقتولين ، وساروا في الشوارع صفوفاً صفوفاً وروؤس الأشراف فوق رماحهم ، وأضحت هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد . واستقبل أوكتافىوس الموت في هدوء واطمئنان وهو جالس على كرسي الثرييون مرتدياً ملابسه الرسمية . ودامت المذبحة خمسة أيام بلياليها ، كما دام الإرهاب عاماً كاملاً ، واستدعت محكمة الثورة الأشراف للمثول أمامها ، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس وصادرت أملاكهم . وكانت إجماعة ماريوس تكفى لأن تطيح برأس أى إنسان

مهما كانت منزلته ، وكان يقتل في أغلب الأحيان لساعته قبل أن يبرح مكانه . وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم ؛ وصدورت أملاكه ، وعزل من قيادة الجيش ، وأعلن أنه عبدو الشعب . ولم يسمح بدفن الماتوي بل تركت جثثهم في الشوارع لتلتهمها الكلاب والطيور بالخرابة . وانطلق الأرقاء المحررون في البلدة ينهبون ، ويفسقون ، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم ، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم ، وأحاطهم بجنود من الغالين وأمر بقتلهم عن آخرهم (٢١) .

ثم اختير سنا قنصلاً مرة ثانية ، كما اختير ماريوس للمرة السادسة ، ولكن ماريوس توفي في الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو في الواحدة والسبعين من عمره . منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف . وانتخب فلوريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلاً بدلاً منه ، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها ، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثني عشر ألفاً لخلع صلا من القيادة ، وبقى سنا في رومة يتولى فيها الحكم بمفرده ، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية ، وعين جميع موظفي المناصب الكبرى ، وعمل على أن ينتخب قنصلاً أربع سنين متتالية .

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينة لأن هذه المدينة انضمت إلى مهادتس في ثورته على رومة . ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى الهياكل والكنوز في أولمبيا وإيدورس وداني فنهبا ليمون بها جنده وينفق منها على حروبه . وفي شهر مارس من عام ٨٦ اقتحم الجند أحد الأبواب في أسوار أثينة ، وتدققوا منه إلى داخل المدينة ، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا في المدينة فساداً ، يقتلون وينهبون . ويقول أفلوطرخس « إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر . . . وقد جرت الدماء أنهاراً في شوارع المدينة ، وخرجت منها إلى الضواحي النائية (٢٢) » . وأخيراً أمر صلا

بوقف المذبحة ، وقال إنه « يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى ». ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال ، وهزم قوة كبيرة عند قبرونية Chaeronea ، وأركومينس Orchomenus ، وطارد فلوها إلى آسية مجتازاً مضيق الهلسينبت (الدرديبل) ، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك پلت(*) ، ولكن فلاكوس كان قد وصل في هذه الأثناء إلى آسية على رأس جيشه ، وأبلغ صلا مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته ، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فبريا Fimbria ، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيش الرومانية كلها ، وتقدم شمالاً للملاقاة صلا . فما كان من صلا أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مثرداتس صلحاً (٨٥) ينزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح في تلك الحرب ، ويسلم إلى رومة ستين سفينة حربية ، ويؤدى لها غرامة مقدارها ألفي تالنت . ثم اتجه صلا بعدئذ نحو الجنوب والتقى بفمبريا في ليديا ، فانضمت جنود فبريا إلى صلا ، وانتحر قائدها وأصبح صلا سيد بلاد الشرق اليونانية ، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت ، وشرع يجبي الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة . ثم سارع مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، وزحف على پتري Patrae ووصل إلى برانديزيوم في عام ٨٣ . وحاول سنا أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه .

وحمل صلا إلى خزائن رومة خمسة عشر ألف رطل من الذهب ، ومائة وخمسة عشر رطلا من الفضة ، مضافة إلى ما حمله من النقود ومن روائع الفن التي خص بها نفسه . ولكن الزعماء للدمقراطيين ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأمر والنهي في رومة ، ظلوا يتهمون به بأنه عدو الشعب ، ووصفوا المعاهدة التي عقدها مع مثرداتس بأنها مذلة قومية ، واضطر صلا على الرغم منه أن يزحف بجنوده

(*) يقصد ملك البلاد الواقعة على شاطئ البحر الأسود . (المترجم)

الأربعين ألفاً على رومة ، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها ، وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه ، وجاء إليه أحدهم وهو نيويس مبي بفيان يتألف كله من موالى أبيه وأصدقائه ، وسار ابن ماريوس على رأس جيش للملاقة صلا ، فهزم وفر إلى رانست ، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبي يأمره بأن يقتل كل من لا يزال في العاصمة من زعماء الأشراف ، وصعد الرجل بالأمر فجمع لسن الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس في مقاعدهم أو في أثناء فرارهم . ثم جلست القوات الديمقراطية هن رومة ودخلها صلا دون أن يلقى مقاومة ، ولكن جيشاً مع السمينين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الديمقراطية ليثار للولايات الإيطالية ويغسل عار الهزيمة التي منيت بها في « الحرب الاجتماعية » ، وخرج صلا لملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Coline بجيشه البالغ خمسين ألفاً في معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولاً ، جرت فيها الدماء أنهاراً ، وبعد أن تم له النصر أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رمياً بالسهم بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات ، ورفعت رؤوس من أسرى من الزعماء على أسنة الرماح أمام أسوار رانست ، حيث كان آخر جيوش الديمقراطيين محصوراً ، ثم سقطت رانست ، وانتحر ماريوس الصغير ، وعرض رأسه مسمرأ في السوق العامة - وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته في نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً .

ولم يجد صلا بعدئذ صعوبة في إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً ، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ ، وألفين وستائة من رجال الأعمال ، وكان هؤلاء الرجال ممن أمانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا في أثناء حكم المتطرفين ، وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال ، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (٧٢٤٠ ريال أمريكي) على من يأتيه بالمحكوم عليهم أموالاً كانوا أو أحياء ، وزينت السوق

العامه برؤوس القتلى وبقوائم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن لى
آن ، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا
مصيرهم أهو الموت أم الحياة . وانتشرت أهوال المذابح والنقى ومصادرة
الأملك من رومة لى الولايات ، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين
وأتباع ماريوس أينما وجدوا ، وكان عدد من قتلوا فى هذا الإرهاب
الأرستقراطى حوالى أربعة آلاف وسبعمائة نفس . ويصف أفلوطرخس هذا
الإرهاب بقوله : « وكان الأزواج يندجون بين أحضان زوجاتهم ،
والأبناء فى حجور أمهاتهم » . وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد
أو كانوا من المحافظين ، فمنهم من قتل ومنهم من نفى ، وقيل إن صلا
قد فعل بهم ذلك لحاجته لى أهوالهم ، ينفقها على جنوده أو فى ملذاته .
أو يكاء بها أصدقاءه . وكانت الأملك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أعلى
الأثمان ، أو للمقربين ذوى الخطوة عند صلا ، وأضححت هذه الأملك
أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكاتلين Catiline
واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورىة فى إصدار طائفة من المراسيم - تعرف
بالقوانين الكرنيلية نسبة لى العشيرة التى ينتمى إليها - كان يرجو أن ينشئ
بها دستوراً أرستقراطياً يظل دستور رومة طوال حياتها . وأراد أن يسد
ما طرأ على عدد مواطنى رومة من النقص بسبب الموت ، فأعطى حق
المواطنين لكثير من الأسبان وللكتل وللبعض الأرقاء السابقين ، فأضعف
من سلطان الجمعيات بحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المدينون له
بعضويتها ، وبتجديد القانون القديم القاضى بالألا يعرض قانون على الجمعية
لإبموافقة مجلس الشيوخ . ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين لى رومة فوقف
توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهلين ثم قلل ازدحام السكان فى المدينة بتوزيع
الأراضى الزراعىة على اثنى عشر ألفاً من جنوده الأقدمين ، وأراد أن يمنع
القنصل الذى يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعلياً ، فأصر
على تنفيذ السنة القديمة التى كانت تحرم على أى موظف أن يشغل منصبه مرة

ثانية إلا بعد مضي عشر سنوات على خروجه منه في المرة السابقة : وأقص
مكانة التربيون بتقييد حقه في الرفض وحرمان التربيون السابق من حق
التعيين في أى منصب من المناصب الكبرى ، واسترد من رجال الأعمال
حقهم الذى كان مقصوراً عليهم في أن يكونوا محلفين في المحاكم العليا ،
ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ ، واستبدل بنظام الالتزام في الضرائب
نظام جبايتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزانة الدولة مباشرة . ثم أعاد
تنظيم المحاكم ، وزاد في عددها ضماناً لسرعة البت في القضايا ، وحدد
اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً ، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان
له قبل ثورة ابنى جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية ،
وحق أعضاءه في لبس زى خاص . وقد فعل أصلاً كل هذا ليقينه أن الحكم
الملكى أو الأريستقراطى هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم
الإمبراطوريات حكماً حازماً حكماً ؛ ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس
الشيوخ إلى الحد المقرر ، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته. ثلثائة
من طبقة « الفرسان » ، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء
الشامل واطمئنانه له فسرح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش في إيطاليا
كلها . وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها ، وأعاد
الحكم القنصلى ، واعتزل الحياة العامة (عام ٨٠ ق . م) .

وكان في حياته الجديدة آمناً على نفسه ، لأنه قد قتل قبل كل من
يستطيعون الاثتار به . ولذلك سرح حرسه وقواصيه ، وكان يسير في السوق
العامة لا يخشى أذى ، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب
إليه أن يفسرها . ثم ذهب ليقضى أيامه الأخيرة في قصره الصغير في
كومى ، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد ، ولعله قد مل أيضاً صحبة
الناس ، فأحاط نفسه بالمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات ،
والممثلين والممثلات ، وأخذ يكتب شروحه Commentariū ويتسلى بصيد
الحيوان والسماك ، والانهماك في الطعام والشراب : وأطلق عليه الناس

من ذلك الوقت اسم « صلا السعيد » لأنه انتصر في كل معركة ، واستمع
بكل لذة ، واستحوذ على كل سلطة ، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف
ولا ندم ، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمخاطى ،
ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج في القولون بلغ من شدته
« أن اللحم الذين استحال قلا ، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من
استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله ، ولكن القمل أخذ يزداد
ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه ، وحماماته . وآنيته فحسب ، بل تلوث
به أيضاً طعامه نفسه ، (٢٣) على حد قول أفلوطنرخس ، ومات صلا على أثر
توريف في الأمعاء ، ولم يكف يقضى في عزلته عاماً واحداً (٧٨ ق : م)
ولم يفته أن يملى قبره قبل وفاته : « لم يخدمني قط صديق ، ولم يسئ إلى
أبداً عدو ، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إساءته الجزاء .
الأوفى ، »

الباب السابع

الحركة الرجعية الأجرية

٧٧ - ٦٠ ق . م

الفضل الأقل

الحكومة

على أن صلاحه قد أخطأ مرتين بإسرافه في الكرم ، وكان خطوئه الأول أنه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أنخى عدو آخر ، ذلك هو كيبوس يوليوس قيصر المرشح النابه الذي كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره في سنى الإرهاب . وكان صلاحه قد طلب إعدامه فيمن طلب إعدامهم ، ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشباب . على أنه لم يكن مخطئاً في حكمه حين قال : « إن هذا الشاب هو ماريوس مكرراً » . ولعله أخطأ كذلك إذ جعل باعتزال الحياة السياسية وأسرف في الملاذ فقرب إسرافه أجله : ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة والشجاعة لأنجى رومة من الفوضى التي ضربت أطنابها فيها خمسين عاماً ، ولأمكنها أن تستمتع في عام ٨٠ ق . م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التي أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم ، ولما كان ما عمله أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للتقديم :

ولم تكف تمضى على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله . ذلك أن الأشرف قد غرهم ما أوتوا من نصر في صراعهم المرير ، فأهملوا واجبات الحكم وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه في ترفهم وشهواتهم . واستمر

النزاع بين الأشراف والعامّة قوياً مبرراً لا ينتقصه إلا فرصة تتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشدّ ضروب العنف . وكان الأشراف : « خيار الناس » *optimates* يستمسكون بنبلهم ، ولكن لم يكن معنى استمسكهم به أن يترفعوا بسبب هذا النبل عن ارتكاب الدنيايا ، بل كان معناه في نظرهم أن الحكم الصالح يطالب قصر المناصب العليا في الدولة على الذين تولوها أسلافهم من قبل ، فإذا تقدم لمنصب منها رجل لم يكن أباًؤه ممن تولوها قبله سخرّوا منه وسمّوه « رجلاً حديثاً » *Novus homo* أى « حديث النعمة » ، وكان من هؤلاء الحديثى النعمة ماريوس وشيشرون . أما العامّة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة للذوى المواهب والكفايات ، وأن تكون السلطة كلها في يد الجمعيات ، وأن توزع الأراضى الحرة على الفقراء بالجنود المسرحين . ولم يكن الأشراف ولا العامّة ممن يؤمنون بالديمقراطية بل كانت كلتا الطبقتان تسعى لأن تكون هى الحاكمة بأمرها ، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على ملأ الناس بلا خوف ولا وخز ضمير . واستحالت الجماعات التى كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامّة فى الانتخابات ككتلا . وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص ، وطائفة من الإخصائيين ، فكان منهم المشترون *divisores* الذين يبتاعون الأصوات ، والوسطاء *interpretes* والحراس *sequestres* الذين يحتفظون بالمال حتى تعطى الأصوات^(٢) . وفى أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسبّرون بين الناخبين فى حقل المريخ وأكباس نفودهم فى أيديهم^(٣) . واستطاع بمي أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفرانىوس *Afranius* قنصلاً بدعوة زعماء القبائل إلى حدائقه ، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته^(٤) . وبلغ ما كان يستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حداً رفع سعر فائدة الأموال التى تنترض فى أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية فى الشهر الواحد^(٥) .

وكالت المحاكم نفسها - بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ - لا تقل فساداً عن عمليات الانتخاب ، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة في الشهادة ، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة . ولما أن اتُّهم ماركس مسالا *Marcus Messala* بأنه ابتاع بالمال الأصوات التي انتخب بها قنصلا في عام ٥٣ برىء بالإجماع ، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه واعترفوا بجريمته^(٦) . وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله : « لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات ، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا في جرائم القتل »^(٧) ، وكان خليقاً به أن يقول « إنسان ذى مال » ، « فبغير المال وبغير المحامي القدير » كما قال محام آخر في ذلك الوقت « قد يتهم إنسان ساذج برىء بأية جريمة لم يرتكبها قط ، ثم يحكم عليه ما في ذلك شك »^(٨) . ولما برىء لنتولس صوراً *Lentulus Sura* بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال في رشوة قاض أكثر من العدد الذي كان يجب عليه أن يرشوه^(٩) . ولما أدان المخلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس *Quintus Calidus* قال « إنهم لم يكن في وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلثمائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على بريطور »^(١٠) .

وكان ولاية الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين ، وجباة الضرائب ، والمرابون ، ووكلاء التجار ، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيرة من هؤلاء وحسد ألهم . ولسنا ننكر أنه كان من بين حكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف ، أما أكثرتهم العظمى فماذا عسى أن ينتظر منها ؟ لقد كانوا يعملون بلاأجور ، وكانت العادة المألوفة أن يظلوا في مناصبهم عاماً واحداً ، وكان عليهم في خلال هذه الفترة القصيرة أن يجمعوا من المال ما يكفي للوفاء بديونهم ، وابتاع منصب جديد ، وأن يضمّنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يلبق بالرومانى العظيم . ولم يكن البلاد

من يحول بينهم وبين أطعاهم إلا مجلس الشيوخ ، وكان في وسع الحكام أن يثقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنحهم كرم محتدhem أن يكونوا سبباً في لفظ غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام ، أو يرجون أن يفعلوا مثله بعد قليل ؛ ولنضرب لذلك مثلاً يوليوس قيصر نفسه ، فقد ذهب ليحكم أسبانيا في عام ٦١ ق . م وعليه من الديون ما يعادل ٧٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكي . فلما عاد في عام ٦٠ ق : م وفي بهذا الدين كله دفعة واحدة . وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متمت شرفه إلى حد يؤثله أشد الألم ، لأنه لم يجمع في السنة التي ولى فيها حكم قليقية أكثر من ١١٠٠٠٠ ريال أمريكي ، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله .

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها . فقد كان لوكلس بعد حروبه في الشرق مضرب المثل في الترف ؛ وجاء بمجي من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مايون ريال أمريكي لنفسه ولأصدقائه ، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخططها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى الحجاز . ويلى هؤلاء الحكام في ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهلين ضعفي ما يرسلونه إلى رومة ؛ فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفي من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها المليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين اثني عشر وأربعين في المائة ، على أن يتجمع منها رأس المال وفائدته ، إذ لزم الأمر ، الجيش الروماني نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبها . وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا في هذه القروض ، ولكن عظماء الأشراف أمثال بمبي ، والصالحين منهم أمثال بروتس ، لم يعدموا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء في إقراض المال . وحسبنا دليلاً على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسية

الرومانية قد أدت إلى الرومان فوائد على ما اقترضته منهم ضعفى ما أدته إلى
الملتزمين وإلى الخزانة الرومانية (١١) . وفى عام ٧٠ ق . م بلغ ما أدته وما لم
تؤده مدن آسية الصغرى من فوائد على الأموال التى اقترضتها للوفاء بمطالب
صلا فى عام ٨٤ ستة أضعاف هذه القروض : ولم تجد العشائر والجماعات
وسيلة لأداء أرباح هذا الدين للفادح إلا أن تباع أبنيتها العامة وتمثيلها ،
وأى يبيع الآباء أطفالهم فى أسواق الرقيق ، وذلك لأن المدين الذى يعجز
عن أداء دينه كان يعذب على العذراء : فإذا ما بقى فى الولاية شئ من
موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان
جماعات من المقاولين ، تعاقد معهم مجلس الشيوخ على « تنمية » ثروة الولاية
المعدنية والخشبية وغيرهما : وكانت التجارة تسير على الدوام فى ركاب العلم
الرومانى ، فن التجار من كانوا يشترون الأرقاء ، ومنهم من كانوا
يشترىون السلع أو يبيعونها ، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون فى
الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا . وفى ذلك يقول شيشرون
فى عام ٦٩ ق . م مبالغاً فى قوله كعادته : « لا يستطيع رجل من الغالين
أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا ينتقل درهم
واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان » .

وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد فى جميع أدواره حكومة
تضارع حكومة ذلك العهد فى ثرائها وسطوتها وفسادها .

الفصل الثاني

أصحاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات ، وبهذا تم « ائتلاف الطبقات » أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذى كان ينادى به شيشرون والذى أصبح حقيقة واقعة فى شبابه ؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو . وكان رجال الأعمال ووكلاؤهم المعتدون يملأون أروقة رومة وطرقاتها ، وتغص بهم أسواق الولايات وحواجزها . وكان رجال المصارف يصدرون خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم (١٣) ، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية . وكان التجار يتذبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ ، ثم يعودون إلى الشيوخ إذا حاول الزعماء الدهمقراطيون أن يبروا بوعودهم التى قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب .

ويعد كراسس **Crassus** ، وأتكس **Atticus** ولوكلس **Lucullus** نماذج صادقة لمظاهر الثراء الرومانى الثلاثة : الحصول عليه ، والمضاربة به ، ثم استخدامه للتنعم والترف . كان ماركس ليسينيوس كراسس **Marcus Licinius Crassus** ينحدر من أسرة شريفة ؛ فقد كان أبوه خطيباً مصقلاً ذائع الصيت ، وقنصلاً ، ورقيباً ، حارب إلى جانب صلا ثم فضل الانتحار على التسليم لماريوس ؛ وفأكما صلا ابنه بأن سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة ؛ وكان ماركس فى شبابه قد درس الأدب والفلسفة ، واشتغل بجد فى الأعمال القضائية ، ولكن رائحة المال أسكرته فى تلك الأيام الأخيرة ، فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق - وكان ذلك عملاً جديداً لم تله رومة من قبل :

وكانت إذا شبت النار سارعت إلى مكانها ، وعرضت أن تستأجر لإطفائها ، أو ابتاعت المباني المعرضة لخطر الحريق بأثمان امجية . ثم أطفأت الحريق . وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة . واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة . وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين سسترس إلى مائة وسبعين مليوناً (أى نحو ٥٠٠٠٠٠٠ ربال أمريكى) - أو ما يقرب من جميع دخل الخزانة العامة في عام كامل . ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن في مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً ، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد ويحتفظ به (١٤) . وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذى يحدده هذا التحديد . ذلك أنه بعد أن أصبح أغز رجل في رومة ظل حليف الشقاء ، شديد الرغبة في أن يشغل منصباً عاماً ، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم وقائداً لحملة أسيوية . ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدى الناس أصواتهم في ذلة وخضوع ، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا حصر له من المواطنين ، ويتظاهر بشطف العيش ، ويعمل على ضم ذوى النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤديه له متى طالبهم بأدائه . على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب ، لا يصد عن بابه من يريد لقاءه ، يكر أصدقاءه إلى أقصى حدود الكرم ، يسدى للنصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التى امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام ، وقد حقق في حياته كل آماله ، فاختر قنصلاً في عام ٧٠ ق : م ، واختير إلى هذا المنصب مرة أخرى في عام ٥٥ ، وحكم سوريا ، وأعان على تجييش الجيش العظيم الذى قاده لفتح پارثيا parthia . وهزم في كارهى Carrhae وأسر غدرأ وخيانة ، ثم قتل قتلة وحشية في عام ٥٣ ، فقطع رأسه ، وصب أعداؤه الذهب المصهور في فمه .

وكان تيتس پمپونيوس أتكس Titus Pomponius Atticus أصدق

أرستقراطية من كراسس ، ومن طراز من أصحاب الملايين أسمى من طرازه : فقد كان يضارع في الشرف والأمانة ماير أنشل سليل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schild ولا يقل علماً عن لورنزوده مديشى Lorenzo de Medici وكان حاذقاً في الشؤون المالية حذق فلتر Voltaire . ونحن نسمع به في هادى الأمر وهو يطلب العلم في أثينة حين سحر بحديثه وبقراته للشعر اليونانى واللاتينى لب صلا ، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومة ليكون فيها رفيقاً له ، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه . وكان عالماً ومؤرخاً ، كتب تاريخاً موجزاً للعالم (١٥) . وعاش معظم حياته في الأوساط الفلسفية في أثينة ، وسمى أتكس لعامه الغزير ببلاد أنكا وحبه العظيم لأهلها . ورث الرجل عن أبيه وعمه أموالاً تبلغ قيمتها نحو ٩٦٠,٠٠٠ زيال أمريكى استثمرها في مزرعة عظيمة لتربية الماشية في إپيروس Epirus وفي شراء الدور في رومة وتأجيرها ، وفي تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم ، وفي نشر الكتب : وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية ، ولكنه كان يقرض أثينة وأصدقاؤه قرضاً حسناً من غير فائدة (١٦) . وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكانوا الأصغر يودعون عنده ما ادخروه من المال ، ويعهدون إليه تدبير شئونهم ، ويجلونه لبعده نظره واستقامته وعظم ما يؤديه لإلهم من الأرباح .

وكان يسر شيشرون أن يستشره فيما يبتاعه من البيوت ، وفيما يختاره لتزيينها من التماثيل وفيما يملأ به مكاتبه من الكتب : وكان أتكس يولم الولاثم في قصد واعتدال ، ويعيش في تواضع الأبيقورى الحق ، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المثقف جعلاً بيته ملتقى العطاء من رجال السياسة ، وكان يعاون الأحزاب جميعها ، وقد نجا من اضطهادها جميعاً . ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره . وأصيب بداء عضال آلمه ويئس من شفائه منه . أمات نفسه جوعاً .

وأبخر لوسيوس لوسيليوس لوكلس Lucius Lucinius Lucullus وهو

رجل من أسرة من كبريات الأسر الشريفة ، عام ٧٤ ليعم ما بدأه صلا من حرب مترداتس : وظل ثمانى سنين يقود جنوده القلائل فى شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عدوه ؛ ثم تمرد جنوده المتعبون ، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينية إلى أيونيه وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التى خلدت اسم زينوفون Zenophon . ولما أفلحت للدسائس فى إبعاده عن قيادة الجيش ، عاد إلى رومة حيث قضى بقية حياته فى هدوء وترف ونعيم . وشاد على تل بنسيوس Pincius قصراً واسع الأبهاء ، وبوائك ، ودور كتب ، وحدائق . وكان له فى تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال ، وابتاع له فى ميسينيوم قصراً صغيراً ذا حديقة بعشرة ملايين مسترس (أى نحو مائون ونصف مليون ريال أمريكى) ، وحول جزيرة نسيدا Nesida بأكلها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه . وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل فى رومة . من ذلك أنه هو الذى أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد پنتس ، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالى أوربا وإلى أمريكا . وكانت موائده من الحادثات الهامة التى يتناقل الناس أخبارها فى رومة طوال العام . ولقد حاول شيشرون فى يوم من الأيام أن يعرف كيف يتغاطى لوكلس طعامه إذا كان بمفرده ، فطالب إليه أن يدعو له هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة ، ولكنه استحلف لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه . ووافق لوكلس على هذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى فى « قاعة أبلون تلك الليلة » ؛

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة . ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام فى قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة . وكانت قاعة أبلون مخصصة بالواجبات التى تكلف الواحدة

منها مائتي ألف سسترس أو أكثر (١٧) . واذن لوكلس لم يكن بالرجل
النهم ، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار ،
وكانت مكتباته مورداً عذبا للعلماء والأصدقاء ، وكان هو نفسه ضليعا في
الآداب القديمة وفي الفاسفة على اختلاف أنواعها ، وكان يفضل منها بطبيعة
الحال فلسفة أبيقور . وكان يسخر من حياة عبي الشاقة المجهدة ، ويرى أن
حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة ، وأن كل ما زاد على ذلك
غرور لا خير فيه .

وحذا حذوه كثيرون من أثرياء رومة وإن لم يكن لهم ذوقه ، وسرعان
ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون في مظاهر الترف والتعظيم ، على حين
كان وميض نار الثورة يلوح في الولايات المفلسة ، والناس يموتون جوعاً في
أكواخهم القنطرة الحقيمة . وكان الشيوخ لا يستطيعون من نومهم إلا وقفة
الظهيرة ، وقلما كانوا يحضرون جلسات المجلس . وكان بعض أبنائهم
يتزيون بأزياء العاهرات ، ويختالون في الطرقات كاختياهن ، على أجسامهم
ثياب مطرزة مزركشة ، وفي أرجلهم صنادل كصنادل النساء ، متعطرين
متحليين بالجواهر ، لا يقبلون على الزواج ، وإذا تزوجوا عملوا على
الأ يكون لهم أبناء ، ويتنافسون شبان اليونان في التخث . وكان الشيخ
الواحد في رومة ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سسترس . وقد
بنى كلوديوس زعيم العامة قصرأ كلفه ١٤٨٠٠٠٠٠٠ . وكان الحمامون
أمثال شيشرون وهورتنسيوس Hortensius يتنافسون في تشييد القصور
تنافسهم في الخطابة رغم قانون سنسيوس الذي يحرم الأجور القضائية ،
وكانت حدائق هورتنسيوس تحوى أكبر مجموعة من الحيوانات في إيطاليا
كلها . وكان لكل رجل ذى مقام منزل ذو حديقة في بابا Baiae أو بالقرب
منها ، حيث كان الأشراف يتمتعون بمحامات البحر وجمال خليج نابلي ،

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان ، وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومة . وكان لكل ثرى عدد من هذه القصور ، فكان يتنقل من قصر إلى قصر في فصول السنة المختلفة . وكانت الأموال تنفق جزافاً في تزيينها من الداخل ، وفي تأثيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحف الفضية وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق نحو مائة ألف سسترس على نضد من خشب الليمون . ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نضد آخر من خشب السرو ، ولقد قيل إن كاتو الأصغر ، وهو الذى كان مضرب المثل في الفضائل الرواقية بأجمعها ، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بثماني مائة ألف سسترس (١٨) .

وكان يقوم بالخدمة في هذه القصور جيوش من الأرقاء لإخصائون في أعمالهم المختلفة - منهم خدم حجرة السيد نفسه ، ومنهم حاملو رسائله ، وموقدو مصابيح ، وموسيقيوه ، وأمناء سره ، وأطباؤه ، وفلاسفته ، وطهاثه . وأصبح الأكل وقتئذ أهم أعمال الطبقات العليا في رومة . وكان القانون الأخلاقي عندهم هو قانون مثرودورس القائل بأن : « الشيء الطيب هو ما له صلة بالبطن » . وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وثقتهم في ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير في عام ٦٣ ق . م وحضرها خليط من الجلسين منهم قيصر وعلداری فستا ، كانت المشميات فيها بلح البحر ، وطيور الدج بالخنجل (الاسفراغ) والطيور السمينة ، وفضائر البطلينوس (**) ، وحشيشة القريض البحرية ، وشرائح البطارخ والسمك الصدفى الأحمر ، والطيور المغردة . ثم يجيء بعد هذا كله الطعام نفسه ويتكون من أنداء الخنازير ، ورووسها ، والسمك ، والبط المنزلى والبرى ، والأرانب ، والدجاج ، والفضائر والحلوى (١٩) . وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية ، فالطاوويس تستورد

(*) فيلسوف أبيقورى يونانى (؟ - ٢٧٧ ق . م) .

(**) حيوان بحرى . (المترجم)

من جزيرة ساموس Samos ، والقطا من فريبجيا : والكركى من أيونيا ،
والآن (التونة) من خلقدونية Chalcedon والشيق (*) من جاديز Oades ،
والبطليينوس من تارنم Tarentum والدخس (**) من رودس . وكانت
الأطعمة التي تنتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق
إلا بالسوقة : وقد أولم الممثل أيزوپس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور
المغررة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام (٢٠) . وظلت
القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام ، ولكن أحداً لم يكن يأبه
بها . وحاول شيشرون أن ينقيد بهذه القوانين فلا يأكل إلا الخضرا المباحة
شرعاً ، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن .

وأنفقت بعض الثروة الحديدية في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على
أوسع نطاق : من ذلك أن إميلوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد
ملهى يحتوى ثمانية آلاف مقعد ، وثلاثمائة وستين عموداً ، وثلاثة آلاف
تمثال ، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف
من الخشب ، وصف من الرخام ، وثالث من الزجاج . وتمرد عبيده
لشدة ما أرهقهم من العمل فحرقوا الملهى بعد الفراغ من بنائه ، وحلوه ديناً يبلغ
مائة مليون سسترس (٢٣) . وقدم بمى في عام ٥٥ ما يلزم من المال لإقامة أول ملهى
حجرى دائم في رومة - وكان يحتوى على ١٧٥٠٠ مقعد ، وعلى بستان
فسيح ذى أروقة يتنزه فيها النظارة بين الفصول . وأقام اسكريبونيوس
كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام ٥٣ ملهين من الخشب
كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما ، وكان الملهى يعرضان
مسرحيات في الصباح ، فإذا انتهى التمثيل دار البناءان ، والنظارة لا يزالون
في مقاعدهم ، على قطبيهما وعجلهما فاستحال نصفا الدائرتين مدرجاً ،

(*) نوع من السمك ويسمى أيضاً مرينة و « أبو مرينة » .

(**) نوع آخر من السمك Sturgeon (المترجم)

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة (٢٤) . ولم تبلغ الألعاب في بلد من البلاد أو في هصر من العصور من الكثرة وعظيم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغت وفتتد في رومة (٢٥) : وحسبنا دليلاً على ذلك أن ألعاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد ، وقتل فيها الكثيرون منهم . وعرض صلا قتالا للآساد اشترك فيه مائة أسد ، وعرض قيصر قتالا آخر كان فيه أربعائة ، وعرض بمبي قتالا كان فيه ستائة . وكانت الوحوش في هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً ، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مختبئون .

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل في الانحلال الخلقى وانفصام رابطة الزواج . وظلت الدعارة منتشرة في البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال . وازداد عدد المواخير والحانات التي تأوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون في الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير (٣٥) . وأصبح الزنى من الأمور العادية ، وألفه الناس حتى لم يعد يستلقت أنظار إنسان ما إلا إذا استخدم للأغراض السياسية . ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ، ولم يكن اللوم في ذلك واقعاً على النساء ، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً للمال والسياسة . ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائئات أو على صلوات يفيدون منها جاهاً ومالاً . وقد تزوج صلاح وبمبي خمس مرات ، وأراد صلاح أن يضم بمبي إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ريبية صلاح ، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملاً . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت في أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبي . وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبي ليضمن بذلك انضمامه إليه في الحلف الثلاثي . وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شؤون الزواج » (٢٥) . ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية ، وإذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كنفها إلى منصب أعلى أو مال أوفر . ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يديه ، وحسبه أن يرسل إليها خطاباً يبلغها فيه أنها أصبحت حرة في شؤونها كما أصبح

هو حراً في شئونه . وامتنع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً ، وكانت حاجتهم في هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت في حريتها ، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السراري والإماء . وكان الرقيب متلس المقدوني *Metellus Macedonicus* (١٣١) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا الأبناء لأن هذا واجب يفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات (٢٦) ، ولكن عدد الأعذار والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصح يزداد أسرع من ازدياد قبله ، وأصبح الأطفال من الكماليات التي لا يطيقها إلا الفقراء .

وهل تلام المرأة وهي تعيش في هذه الظروف إذا استخفّت بقسم الزواج ووجدت في الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسي . لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم ، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته *Patria Potestas* كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكمله . وخلعت النساء الرومانيات العذار ، وكان لهن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء ، واتخذن لهن أثواباً من الحرير المهمل الشفاف المستورد من الهند والصين ، وأرسلن رسلهن يجوبون أسواق آسية ليأزوهن بالخلي والعطور ، واختفى الزواج الذي يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها *Marriahe cum manu* ، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجاتهم ، وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية ، فتعلمن اللغة اليونانية ، ودرسن الفلسفة ، وكتبن الشعر ، وألقين المحاضرات العامة ، ولعبن وغنين ورقصن ، وأقن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشئون المالية ، ومارست فئة قليلة منهن صناعة الطب أو الحمامة •

وكانت كلوديا *Clodia* زوج كونتس كاسيليوس متلس *Quintus Caecilius Metellus* أشهر النساء اللاتي أكلن ما في أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

من أعمال الفروسية والشهامة ، فقد تملكها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء ، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرّم ، وكانت تستقبل من تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملأ من الناس ، بدل أن تغض الطرف وتنزوي في عربتها شأن النساء الراقبات في عرف تلك الأيام ، وكانت تولم الولاثم لأصدقائها من الرجال ، وكان زوجها يعتمد الغياب في أثنائها كما كان يفعل بعدئذ ماركيزده شاتليه *Marquis ds châtelet* ، ويصف شيشرون - وهو الرجل الذى لا يوثق بوصفه - « حبها ، وزناها ، وعهرها ، وأغانيتها ، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولاثم الطعام ، ومقاصف الشراب في بايا *Baiae* برأً وبحراً » (٣٧) . وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا زلت في ظرف وكياسة ، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها ، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأناية الرجال . لقد كان كل واحد من عشاقها يجب أن يستأثر بها حتى تفتقر شهوته ، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره . ومن أجل ذلك لطخها كتاس *Cutullus* (إذا كانت هى التى يسميها لزيبا *Lesbia*) بالنكات البذيئة ، وذكرها كاليوس *Caelius* في حديث له عن الذى تبتاع به أفقر العاهرات ، ووصفها علنا في المحكمة بأنها المرأة التى تبتاع بربع آس *Quadrantaria* (أى ما يعادل $\frac{1}{100}$ من الريال الأمريكى) ، ذلك بأنها كانت قد اتهمته بأنه حاول قتلها بالسم واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه ، ولم يتورع الخطيب المبره عن اتهامها بالفسق مع محارمها وبالقتل ، وقال في خلال دفاعه إنه رغم هذا « ليس عدوا للنساء وأولى له ألا يكون عدوا لامرأة هى صديقة لكل الرجال » . وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت پبليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفا في رومة وألد أعداء شيشرون .

الفصل الرابع

كاتو ثانٍ

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الحالية وداعية للسير على سننها . ذلك هو ماركس پورسيوس كاتو **Marcus Porcius Cato** الأصغر . وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوي الذي لم يفارقه قط طول حياته . وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أى ما يعادل ٤٣٢,١٠٠ ريال أمريكى) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط ، وكان يقرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قروضه فوائد ؛ وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة ، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمسالك بالمبادئ استمساكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذي يعيش فيه ؛ ذلك أن حياته نفسها كانت اتهاماً لحياتهم لا يغفرونه له ، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلاً نحو الرذيلة ، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بنى الإنسان وتادباً في حقهم . وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تنم عن سخريته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتناسل « فأعار » زوجته مارسيليا إلى صديقه هورتلسيوس **Hortensius** — أى طلقها وحضر زواجها بالخطيب الذائع الصيت — ولما مات هورتلسيوس بعدئذ أعادها إلى عصمته (٢٨) . ولم يكن في وسع معاصريه أن يجوه لأنه كان ألد أعداء الخيانة والسفالة . وأشد المدافعين عن حقوق الآباء على أبنائهم وأسرهم . وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه . وقلما كان يضحك أو يبتسم ، ولم يحاول

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً ، وكان يؤنب كل من يجروء على تملقه أشد التأنيب . وقد قال شيشرون إنه أحنق في أن ينتخب قنصلاً لأنه كان يحيا حياة مواطن في جمهورية أفلاطون لا حياة روماني بين حشالة أبناء رميولوس (٢٩) ،

ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة ، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية ، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انتقضت فترة توليه منصبه . وكان يصب تهمه على جميع الأحزاب على حد سواء ، وقد أفاد من هذه التهم آلاف المعجبين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً . ولما كان بريتورا أقنع مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية أن يحضر إلى ساحة القضاء ، وبعد أن يقسم اليمين يعرض على للقضاة بياناً مفصلاً بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية ، وما اتبعه فيها من الوسائل ، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد في انتخابها على الرشا ، فلما أن ظهر كاتو بعدئذ في السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة ، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان ، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له . ولما اختير تربيونا سار على رأس جيش إلى مقدونية ، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد ، أما هو فسار راجلاً . وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة ، ويرى أنه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا مفر من أن يحكمها ذوو الثراء ، وهذا شر أيماً شر . وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف ، وظل إلى آخر أيام حياته يقاوم كل خطوة يخطوها ممي أو قيصر نحو الطغيان الفردي . ولما أن قضى قيصر على الجمهورية تخلص سماتو من حياته بيده وإلى جانبه كتاب من كتب الفلسفة .

الفصل الخامس

اسبار تكومس

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصت الديمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً في تاريخ الدول . وحدث في عام ٩٨ ق . م أن أعاد القائد الروماني ديدويوس Didius مافعه من قبله ساپسيوس جلبا Swpicius Galba فقد خدع قبيلة كاملة من الأسبان المشاغبين حتى استدرجهم إلى معسكر روماني في أسبانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم ، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبنائهم أمرهم فذبحوا عن آخرهم ، ولما عاد إلى رومة احتفل بعودته احتفال الظافرين (٣٠) : ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضرور الوحشية التي كان يقترفها رجال الإمبراطورية ضابط سبيني في الجيش الروماني يدعى كونتس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسبان ، ونظم صفوفهم ودرجهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التي سيرت لإخضاعهم ، وظل ثمانين سنة (٨٠ - ٧٢) يحكم مملكة نائبة خارجة على حكم الرومان ، كسب في خلالها قلوب الأسبان بحكمه العادل وإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، وعرض مجلس القائد الروماني مائة تالنت أي ما يقرب من ٣٦٠.٠٠٠ ريال أمريكي ، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأي روماني يقتل سرتوريوس ، وكان لهذا العرض السخي أثره فدعاه برينا Perpenna ، وهو لاجئ روماني في معسكره ، إلى وليمة ، واغتاله ، وتولى قيادة الجيش الذي دربه سرتوريوس ، وأرسل بمجي لقتال برينا ولم يبق صعوبة ما في التغلب عليه . وأسر برينا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسبانيا من جديد .

وكان العمل الثاني من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار .

ذلك أن لنتولس بتياتس Lentulus Batiates قد أنشأ في كهوا مدرسة للمصارعين ، وجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودرهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً ، في حلبة للصراع العامة أوفى البيوت الخاصة . ولم يكن ينتهى الصراع حتى يقتل المصارع . وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلبوا واحتلوا أحد سفوح بركان فيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام (٣٧) . واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسپارتكوس Spartacus يقول فيه أفلو طرخس إنه « لم يكن رجلاً شهماً شجاعاً وحسب ، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذى كان فيه ذكاء فى العتق ودمائة الأخلاق » (٣٨) . وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء فى إيطاليا يدعوهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام . وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا فى نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم لإخضاعهم . وقذفت انتصاراته الرعب فى قلوب أثرياء الرومان ، وملأت قلوب الأرقاء أملاً ، فخرجوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم . وصار يجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا « أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال » (٣٩) . ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيشون فيها فساداً ، وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة ائقنصلين ثأديب العصاة ، والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفتتها عن آخرها . وهوجم الجيش الثانى قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله . ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى فى أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمته شرهزيمة ، ولكنه وجد جيوشاً

رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب
وزحف على رومة .

وكان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهين للثورة ، ولم يكن في وسع
أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تشب هذه الثورة في بيته ، وكانت
تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تتمتع بكل ما في وسع الرق أن يتمتع به ،
كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر في أنها ستخسر
كل شيء - السيادة والملك والحياة نفسها - ونادى الشيوخ وذوو الثراء
بطالبون بقائد قدير ، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ،
فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الحديد العجيب ، ثم تقدم
كراسس Crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون
ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا
كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها ولم يكن يخفى على أسبارتكوس أنه
يقاثل إمبراطورية بأكملها ، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شئون
العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها . فلم يعرج في زحفه
على رومة وواصل السير حتى بلغ ثورباي Thurii مخترقاً إيطاليا كلها من
شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقيا . وظل
سنة ثالثة يصد الهجمات التي يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفذ صبرهم
وسثموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا بأوامره ، وأخذوا يعيشون
فسادا في المدن المجاورة . والتقى كراسس بجعاة من أولئك النهابين وفتك
بهم ، وكانوا اثني عشر ألفاً وثلثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم .
وفي هذه الأثناء كان جنود بمبي قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش
كراسس ، وأيقن أسبارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش
الحرارة ، فالتفص على جيش كراسس والتي بنفسه في وسطه مرحباً بالموت

في وسط المعركة ، وقتل يديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته
طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع
على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جسمه لم يكن من المستطاع أن
يتعرف عليه . وهلك معه معظم أتباعه ، وفر بعضهم إلى الغابات ،
وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب سبعة آلاف من الأسرى في
الطريق الأيباوى الممتد من كپوا إلى رومة (٧١) . وتركت أجسامهم المتعفنة
على هذه الحال عدة شهور تطمينا لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد .

الفصل السادس

بمبي

ولما عاد كراسس وبمبي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومة استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون ، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة ، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا نفسيهما للقنصلية دون أن يدخلتا المدينة - وخالفا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة . وزاد بمبي على ذلك أن طلب أرضاً لجنوده وموكب نصر لنفسه . ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه ، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا منهما على الآخر . غير أن كراسس وبمبي اتفقا فيما بينهما ، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال ، ونجحا بفضل الرشا السخية في أن يختارا قنصلين في عام ٧٠ ق . م وقد لاصرهما رجال الأعمال لغرضين عاجلين أولهما رغبتهم في أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان في مناصب المحلفين الذين يحاكمونهم ، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكلس Lucullus - الذي كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهم رجلا من طبقتهم يعمل بمبادئهم . وقد وجدوا في بمبي ضالتهن المشدودة .

وكان بمبي وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جنديا ضرسته الحروب وخاض معارك كثيرة . وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان ، نال إعجاب مواطنيه أشجاعته واعتداله وحلقة كل ضروب الألعاب وفنون الحرب . وكان قد طهر صقلية وإفريقية من أعداء صلا ولقبه القنصل الفكه بلقب « العظم » جزاء له على زهوه وانتصاره في الحروب . وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد (٣٣) . وقد باغ

من الجمال حدا أنطق فلورا Flora لإحدى سرارى ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه (٣٤) . وكان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، يحمر وجهه من شدة الحجل إذا اضطر إلى خطابة في اجتماع عام ، أما في الحرب فقد كان في تلك الأيام باسلاً مقداماً يخوض غمارها ولا يبالي بما يتعرض له من الأخطار . ولما تقدمت به السن أثر حيائه كما أثرت بدائته في قدرته على القيادة ، وكان تردده سبباً في هزائمه . ولم يكن ألعياً سريع الخاطر أو عميق التفكير ؛ ولم يكن هو الذى يرسم الخطط التى يسير عليها ، بل يضعها غيره . كان يضعها له في أول الأمر السياسيون من طبقته العامة ثم الأثرياء من الشيوخ . وكان ثراؤه الواسع سبباً في انتشاله من المغريات السياسية الدنيئة ؛ فكان وهو في وهدة الفساد والأناية التى يتردى فيها أهل زمانه علماً في الوطنية والاستقامة ؛ ويلوح أنه كان في أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص . وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه ، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالى في تقدير مواهبه ، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتلكأ رومة هذا التلكؤ الطويل في أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده .

ولما تسنم صنيعتا صملاً منصب القنصلية أخذنا يعملان ما فى وسعهما لتقويض أركان الدستور الذى وضعه ولى نعمتهما . وأراد عمى وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للتربيون من سلطات ، ووطدا دعائم حلفهما مع رجال الأعمال فأمرنا لوكلس أن يخول المتزمين الإشراف التام على جباية الضرائب فى بلاد الشرق ، وأيدا التشريع الذى يقضى بأن توزع مناصب الخلفين بالتساوى بين أعضاء الشيوخ وطبقتى الفرسان ورجال المال . ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلقى جزاءه — وهو أن يصب الذهب فى جوفه صبا فى بلاد آسية . أما عمى فقد نال جزاءه فى عام ٦٧ حين حولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد فى

تأديب قراصنة قليقية . ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت في الأيام السالفة أن تظهر بحر إيجه من هؤلاء القراصنة ، فلما أن ذلت رودس وافتقرت على يد رومة وديولوس لم يكن في مقدورها أن تحتفظ بالعمارة البحرية التي تمكنها من هذا العمل ، ولم يكن الأشرف ملاك الأراضي المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدي الحرص على أن تبتى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار . أما التجار والعامّة فتمدّ تأثروا بهذه الحال أشدّ التأثر ، فقد تعذرت التجارة أو كادت في بحر إيجه بل وفي القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط ، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح في رومة حتى بلغ عشرين سسترس لكل موديس (*) أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين . وتباهى القراصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التي تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية ، وجهزوها بالمجازيف المصفحة بصنمائح الفضة ، وقد استولوا على أربعائة من المدن الساحلية ، واحتفظوا بها ، ونهبوا الهياكل في سمثريس Samothrace . وساموس Samos ، وإيدورس Epidaurus ، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتيوم Actium ، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان ، وبلغت بهم الجراة أن هاجموا سواحل أبوليا Apulia ولاتروزيا .

وأراد جابينيوس Gabinias صديق بومي أن يعالج هذا الموقف ، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاث سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعلى جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلاً من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وعارض كل الشيوخ ، ما عدا قيصر ، هذا الإجراء العجيب ، ولكن الجمعية أجازته في حماسة بالغة ووافقت على أن تمد بومي بجيش مؤلف من ١٢٥٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ، وأبلغت خزنة

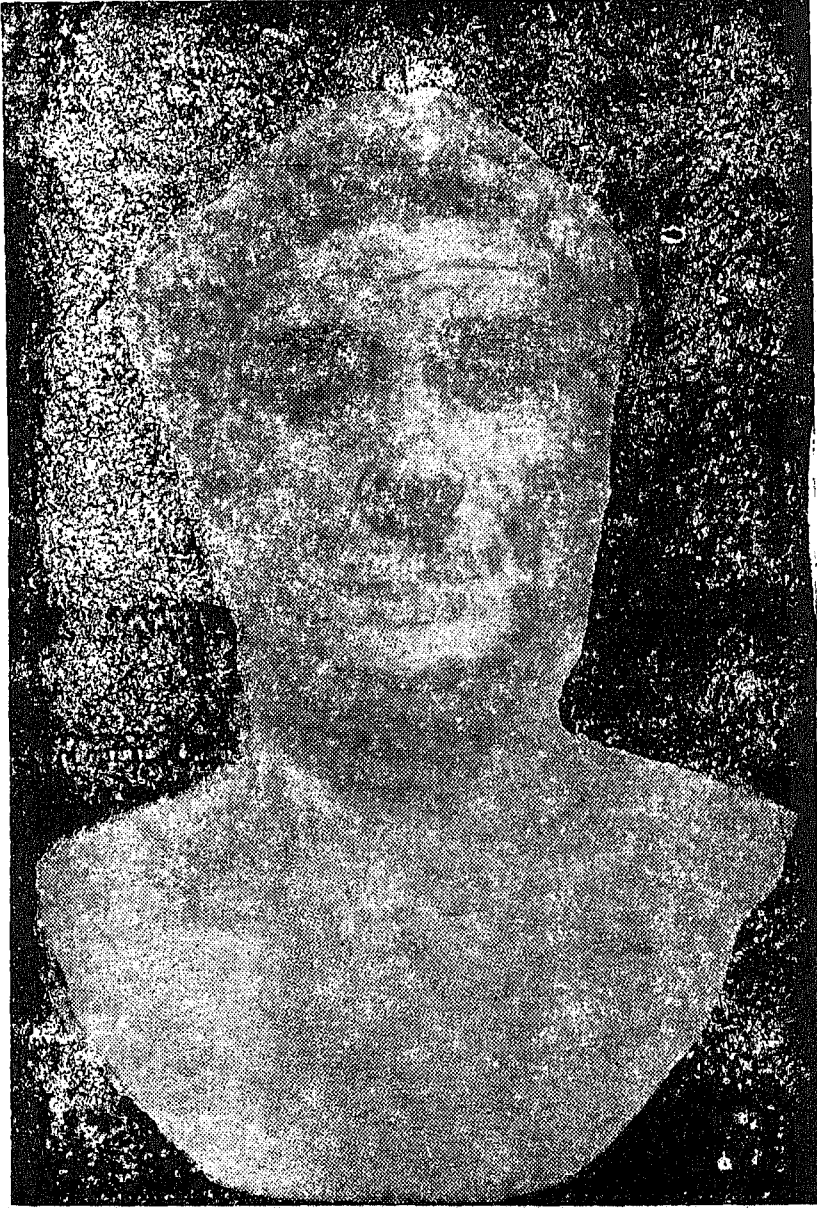
(٥) مكيال روماني سمته نحو جالونين . (المترجم)

الدولة أن تضع تحت تصرفه ١٠٠٠٠٠٠ ر ١٤٤٠ سترس . وكان هذا المشروع في واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ ، وختاماً العودة « صلا » إلى الحكم ، وإقامة الملكية مطلقة . موقفة كانت فاتحة للملكية قيصر ومثلاً له يحتديه .

وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة ، فلم يمض على تنصيب پمبي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح في الانخفاض ، وقبل أن يمضى عليه في هذا المنصب ثلاثة شهور أمم العمل الذي نيط به - فاستولى على سفن القرصنة ومعاقلمهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسيء استعمال السلطة غير العادية التي وضعت بين يديه . وتشجع التجار فأنشطت التجارة الخارجية ، ومخرت السفن عباب البحار ، وتدفق على رومة سيل من الحبوب .

وقبل أن يعود پمبي من قلبية عرض صديقه منليوس Manilius على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التي كان يقودها ويحكمها لوكلس (٦٦) إلى پمبي ، وإطالة الفترة التي حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة . وعارض مجلس الشيوخ في هذا المشروع ، ولكن التجار والمرابين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً ، ذلك أنهم كانوا يؤمنون أن يكون پمبي أقل ليناً من لوكلس لمدينهم في آسية ، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب ، وأنه لن يكتفى بفتح بثنيا وپنتس بل سيفتح كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود ، وأن هذه الحقول الغنية ستفتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية . وقام « رجل جديد » هو ماركس تليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero كان قد اختير ريتورا في ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد « قانون منليوس » وهاجم العصية المالية الحاكمة في مجلس الشيوخ بفصاحة وتهور لم يسمع بمثلهما في رومة من أيام ابني جراكس ، وبصراحة لم تعهد قط في السياسيين . ومن أقواله في هذا الهجوم :

« إن جميع النظم الخاصة بالمال والائتمان التي تسير عليها رومة ترتبط بخراج



(شکل ۹) پمپی - متحف کوبنهاجن

الولايات الأسيوية ارتباطاً لا انفصام له ، فإذا ما حجز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان في هذه البلاد . : : وإذا ما خسر بعض الناس أموالهم كلها جزوا معهم كثيرين غيرهم : فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة . : : وابتدلوا في الحرب على مترداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحتفظوا بشرف رومة وسلامة أحلافنا ، وبأئمن جزء من مواردنا ، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين » .

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون ، ولم يكن ذلك لأن العامة يعنون أقل عناية بأموال المالكين ، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا في تخويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات « صلا » و« قضا » على سلطان مجلس الشيوخ عدوهم القديم .

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم ، وأخذت حياتها تقترب من نهايتها . ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد ، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر .

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلوطنرخس إن ماركس تليوس إنما سمي شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحمصة الجبلية (cicer) . ولكن أرجح من هذا التعليل أن أباءه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجونه من حمص ذائع الصيت . ويصف شيشرون في كتاب « القوانين » وصفاً رقيقاً يخلب اللب بيته الصغير المتواضع الذي شهد مولده بالقرب من أربينوم Arpinum في منتصف المسافة بين رومة وناپلى على التلال المتصلة بجبال أپنين Appenine . وكان لولده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خبير تعليم يستطيع أن يناله في ذلك الوقت ، فاستأجر الشاعر اليوناني أركياس Archias ليعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية ، ثم أرسله ليدرس القانون مع كونتس موسيوس أسكيفولا Quinuts Mucius Scaevola أعظم رجال القانون في عصره .

وكان شيشرون يستمع في شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التي تدور في السوق العامة ، وسرعان ما أتقن الذنون والأساليب المتبعة في الخطب القانونية . وقد قال في إحدى المناسبات : « من أراد النجاح في القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته ، ويتجنب كل ضروب اللهو . ويودع التسلية والألعاب والطرب ، وأكاد أقول إن عليه أن يقطع صلته أصداقائه (٢٦) » .

وسرعان ما كان هو نفسه يشغل بالقانون ويلقى خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطهقات الوسطى والدنيا . وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

الذى أقامه صلا على أشده (٨٠ ق : م) (٢٧) . ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان ، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية ، وظل في تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة . وبعد أن قضى ثلاث سنين في أثينة هنيئاً سعيداً التقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أپولونيوس Appollonius بن مولون Molon في البلاغة ، وإلى محاضرات پوسيدونيوس Poseidonius في الفلسفة ، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه ؛ وتعلم من ثانيهما تلك الرواوية المعتدلة التي نادى بها بعدئذٍ فيما كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصدقة والشيخوخة .

ثم عاد إلى رومة في سن الثلاثين وتزوج ترنشيا Terentia واستطاع بإثنتها السخية أن يشغل بالسياسة ، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوسترا في صقلية عام ٧٥ ق . م ولما عاد إلى الاشتغال بالمحاماة في عام ٧٠ ق . م أهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكله بقضية أقامتها مدن صقلية على كيبوس فيرس Caius Verres عضو الشيوخ ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج في تلك الجزيرة (٧٣ - ٧١) كان يبيع المناصب والأحكام ، ويخفف الضرائب بنسبة ما يناله من الرشاً ، وأنه لم يكن يبق في سرقوسة شيئاً من ثمنائها ، وأنه وهب إيراد مدينة بأكملها إلى إحدى سراريه ، وأسرف في الظلم ، وابتزاز الأموال والمرقات حتى غادر الجزيرة وهي أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق . وشر من هذا كله أن فيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملتزمون عادة ، وناصر رجال الأعمال شيشرون في اتهاماته ، أما هرتنسيوس الزعيم الأرستقراطي للمحامين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن فيرس ، وأجيز لشيشرون أن يقضى في صقلية حوالي مائة يوم يجمع فيها الأدلة ، ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً ، وعرض في خطبته الافتتاحية من الأدلة للدافعة ما جعل هرتنسيوس - وكان قد زين حديثه ببعض ما نهبه

فيرس من التماثيل . يتخلى عن موكله . وحكم على فيرس بغرامة قدرها أربعون مليون سنترس ، ففر إلى خارج البلاد . ونشر شيشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التي كان قد أعدها ، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحكم الروماني في الولايات . وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجده وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقنصلية في عام ٦٣ ق . م انتخب بحماسة بالغة منقطعة النظر .

وكان شيشرون من أبناء طبقة الفرسان ، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى ، وكانت تسمتز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حكمهم ، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفين ، فقد كان يرى أن منهجهم ، بوضعه أزمة الحكم في أيدي الغوغاء ، يعرض الملكية لأشد الأخطار . ولهذا كانت الخطة السياسية التي وضعها لنفسه حين تولى الحكم أن يقيم « حلفاً من الطبقات » - أي تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال ، يحول دون عودة تيار الثورة الجارف .

على أن أسباب التذمر وقواه كانت أعمق وأكثر من أن يقضى عليها بسهولة . فقد كان كثيرون من الفقراء يستمعون إلى الخطباء ينادون بوجود قيام دولة مثالية ، وكان بعض من يستمعون إليهم على استعداد لأن يستخدموا أساليب العنف في تحقيقها . وكان يعملون هؤلاء قايلاً جماعات من العامة خسروا أملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون . وكان بعض جنود صلا القداى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالاً مربحاً ، وكانوا مستعدين للاشتراك في أي اضطراب يتيح لهم فرصة لانتهاب المال بلائد . وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدنيين المناسين العاجزين عن أداء ديونهم ، والمضارين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة في الوفاء بالتزاماتهم ، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبل الرقي تسبدها عليهم طائفة من المحافظين طالت آجالهم فوق ما ينبغي لها أن تطول . وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصين مثلهم العليا الذين

لا يخالجهم شك في أنه لا سبيل إلى تلطيف ما تئن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارفة .

ولم يحاول أحد جمع هذه الطوائف المشتتة وضمها كلها في قوة سياسية مؤتلفة إلا لرجل واحد هو لوسسيوس سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline ، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه - أي ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلاست Sallust الغني صاحب الملايين ، وما نقرؤه من اتهامات ومثالب مقلدة في خطب شيشرون ضد كاتلين ، فأما سلاست فيصفه بأنه « روح ملطخ بالإجرام ، هو والآلهة والناس على طرق نقيض ، لا يجد الراحة في نومه ولا في يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأتلف عقله المضنى المنهوك » وكان هذا سبباً في صفرة وجهه ، وحمرة عينيه ، وهرجلته في مشيه ، فتارة يسرع وتارة يبطئ ؛ وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالاً للشك في أن بعقله خبالاً^(٣٨) . ذلك وصف يوحى بالصورة التي يرسمها لأعدائهم في الحرب أقوام يكافحون في سبيل الحياة والسلطان ؛ حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً ؛ أما صورة كاتلين فلم تهذب قط ؛ فقد اتهم في شبابه بافتراء عذراء فستية ، وهي أخت غير شقيقة لزوجة شيشرون الأولى ، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن السنة السوء لم تبرئ منها كاتلين ، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هي أنه قتل ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور^(٣٩) . ولسنا نجد ما نعارض به هذه للقصص إلا قولنا إن عامة الناس في رومة - « الغوغاء اليائسين الجياع » كما يسميهم شيشرون - ظلوا أوبع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره^(٤٠) . وينقل لنا سلاست هذه الفقرة وهي كما يلوح فعوى خطبة له :

« منذ وقعت الدولة في قبضة عدد قليل من أقواء الرجال . . . أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة ، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحامات

والفقر : : وماذا بقي لنا في الحياة إلا الأنفاس التي تتردد في صدورنا ؟ . . .
أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن
نصير لعبة في أيدي السفهاء» (٤١) .

وكانت الخطة التي يريد أن يضعها لضم عناصر الثورة المتعارضة
خطة سهلة بسيطة تتلخص في كلمتين هما « سجلات جديدة » ، ويقصد
بهما إلغاء الديون كلها لإلغاء تماماً بلا قيد ولا شرط . وأخذ يعمل لهذه الغاية
جهداً لا تعادها إلاهمة قيصر ؛ والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا
لم يكن قد نال في السر معونته . وقد قال فيه شيشرون : « لم يكن ثمة
شيء لا يستطيع فعله ، ولم تكن ثمة آلام لا يقاسيها في سبيل تعاون عناصر
الثورة ويقظتها وكدحها . وكان في وسعه أن يتحمل البرد والجوع
والعطش » (٤٢) : ويقول لنا أهدارته إنه نظم فرقة قوامها أربعائة رجل
هدد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أزمة الحكم في أول يوم من
عام ٦٥ ق : م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شيء غير هادئ ، وفي عام ٦٤
ق : م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية
شديدة (*) ، روعت أصحاب رؤوس الأموال ، وبدأت أموالهم تتسرب
من إيطاليا . واتحدت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقيق بذلك ما كان
ينادي به من « تعاون الطبقات » ، ودام هذا التعاون عاماً كاملاً ، وكان
هو يمثل هذا التعاون وصوته الناطق .

ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولى وجهه شطر الحرب ،
فجهز أتباعه سرّاً جيشاً في إتروريا من عشرين ألف مقاتل ، وجمعوا في رومة عصابة
من المتآمرين كان فيها ممثلون لجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق . وكان فيها

(*) وفي هذه الحملة الانتخابية وضع كورنتس شقيق شيشرون له دستوراً يسير عليه في
حملة فقال : « عليك بالإسراف في الوعد ، لأن الوعد الكاذب أحب إلى الناس من الرفض
الصريح . . . واخترع فضيحة جديدة تذيئها عن مناسيك جريمة كانت أو رشوة أو فضيحة
خلقية » (٤٣) .

بريتوران هما شيجس Sefhegus ولنتولس Lentulus ، وتقديم كاتلين
للقنصلية مرة أخرى في شهر اكتوبر التالى .

ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح
في هذا الانتخاب ، فدبر قتل منافسه في أثناء الحملة ، واغتتيال شيشرون في
الوقت عينه . وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فلاً « ميدان المريح »
بحرس مسلح ، وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب ، وهزم كاتلين للمرة
الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له . ويحدثنا شيشرون أنه في اليوم
السابع من نوفمبر طرق بابه عدد من المتآمرين ، ولكن حراسه صدوهم عنه
وأبصر شيشرون في اليوم الثامن كاتلين في مجلس الشيوخ فأخذ يكيل
له ذلك السباب الذى كان كل تلميذ ينطق به في وقت من الأوقات . وبينما
كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين خلت المقاعد التى حوله واحداً بعد
واحد حتى لم يبق في المجلس غيره . وتحمل وهو صامت سيل التهم الجارف
والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه .

وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه ، فشبه الأمة بالأب
العام وشبه كاتلين بقاتل أبيه ، واتهمه غمزاً وضمناً بغير دليل بأنه يآتمر
بالدولة ، وبالسرقة ، والزنى ، والأفعال الجنسية الشاذة ، وتوجه آخر
الأمر إلى جوف Jove أن يقي رومة السوء ، وأن يصب عذابه السرمدى
على كاتلين .

ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد ،
وانضم إلى قواته في إتروريا . وأرسل قائده لوسيوس منليوس Lucius Manlius
آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه :

إنا لنشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا ،
أو نهدد به سلامة بنى وطننا . وكل الذى يدفعنا نحى المعدمين البائسين اللذين
تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشردونا من أوطاننا ، وحكم علينا

بالفاقة والحرمان ، وأصبحنا سخرية للساخرين - كل الذى يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا فى أن نحى أنفسنا من الظلم . وأما المال وأما السلطان ، وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان ، فلا مآرب لنا فيهما ، بل كل الذى نطلبه هو الحرية ، ذلك الكنز الذى لا يفترط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح . وإنا لتتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بنى وطنكم المعبدين (٤٤) !

وخطب شيشرون فى اليوم الثانى خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصى بأنهم طائفة ملتفة حول عصابة من الضالين المارقين المتعطرين ، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب ، وختم خطبته مرة أخرى بنغمة دينية . وعرض على مجلس الشيوخ فى الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة فى بلاد الغالين ، وأقبح فى اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولى الأمر بالقبض على لتولس ، وشيخس وخسة غيرهما من أتباع كاتلين . وصرح فى خطبة ثالثة له بالجريمة التى ارتكبوها ، وأعلن أنهم قد زجوا فى السجن ، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت ، وأن فى وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين . وفى اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين ، فاقترح سلانوس أن يقتلوا ، وأشار قيصر أن يكتفى بسجنهم ، وذكر الشيوخ بأن قانون سمبرونيوس يجرم إعدام المواطن الرومانى . ونصح شيشرون فى خطبة له رابعة أن يعدهوا ، وكان فى هذه المرة رقيقاً فى نصحه ، غير عنيف فى عرضه . وأيد كاتو بفلسفته هذا رأى ، ورجحت كفة القائلين بالإعدام . وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم . وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذى كان فيه المعتقلون ، وهناك نفذ الحكم على الفور ، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زيل شيشرون فى القنصلية ، ووالد ماركس أنطونيوس الذائع الصيت - أرسل على رأس جيش

رومانى للقضاء على قوة كاتلين . ووعده مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار ، وأن يمنحه فوق ذلك مائتى ألف سسترس . ولكن « أحداً لم يفر من معسكر كاتلين » على حد قول سلاست ، ودارت رحى القتال بين الجيشين فى سهول Pistoia (٦١) . وقاتل الثوار ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، قتال الأبطال ، ودافعوا عن أعلامهم - نستور ماريوس - العريزة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدادهم . ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان ، بل ماتوا جميعاً فى المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه .

وإذ كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل ، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة فى القضاء على هذه الفتنة الصماء . ومن أقواله فى مجلس الشيوخ : « إنى ليخيل لى أن تدبير هذا العمل للعظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين » (٤٥) وشبه نفسه برميولوس ، ولكنه قال إن حفظ رومة أعظم من تشييدها (٤٦) .

وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذى أنجاهم ، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبى الوطن Pater Patriae . ويحدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه فى عام ٦٣ ق م قدمت له جميع الطبقات ذوات الأملاك شكرها ، ولقبته بالرجل الخالد ، وسارت من حوله إلى بيته (٤٧) . ولم يشترك صعاليك المدينة فى هذه المظاهرة ، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتدائه على قوانين رومة بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام ، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جمهرة الشعب ، ومنعوه أن يخطب فى الجمعية فى آخر يوم من حكمه ، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة ، والحق أن الثورة لم ينقض عهداها فى ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصر قيصلا .

الباب الثامن

الأدب في عهد الثورة

١٤٥ - ٣٠ ق م

الفضل الأول

لكريشيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف في أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقها ، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية . من ذلك أن فارو Varro ونيپوس Nepos قد وجدوا السلامة في دراسة الآثار القديمة وفي البحوث التاريخية . وعاد بيلست من حروبه ليُدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستار من المقالات الأدبية الرائعة . ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب في النحو ويواصل حروبه في شروحه Commentaries ، وحاول كاتلس وكلفس Calvus أن يجدا في الحب وفي الغزل ملجأ يعصمهما من أعاصير السياسة ، وفر لكريشيوس وأمثاله من ذوى القلوب الضعيفة والنفوس المرهفة الحس إلى حدائق الفلاسفة ، وغادر شيشرون من آن إلى آن حرارة السوق العامة ليهدى أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب . ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطفئ عليهم جميعاً . وما من شك في أن لكريشيوس نفسه قد أحس بالقلق الذي يصفه في الفقرة الآتية :

« إن عبثاً يثقل عقولهم وجبلا من الشقاء يرسو فوق قلوبهم . . . ذلك أن

كلامهم لا يعرف ما يريد فيعمل دائماً لتبديل مكانه ظناً منه أن في استطاعته أن يلقى حمله عن عاتقه : فهناك رجلاً قد مل الحياة في منزله ، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة ، ولكنه لا يجد نفسه في خارج الدار أحسن منه حالاً في داخلها فيعود إليها فجأة . فتراه مسرعاً يسوق جياده إلى بيته الريفي لا يلوى على شيء ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتأهب أو يحاول نسيان متاعبه في النوم العميق . وقد يبلغ به الأمر أن يعود من فوره إلى المدينة . وهكذا يفر كل امرئ من نفسه ، ولكن نفسه التي لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها ، وهو يكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه . وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من ورائه ظهرياً ، ويسعى قبل كل شيء لفهم طبيعة الأشياء .

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشيوس كارس *Titus Lucretius Carus* هو قصيدته . ولم يشأ أن يذكر في هذه القصيدة شيئاً عن نفسه ؛ أما فيما عداها فإن الأدب الروماني يغفل إغفالا عجيبياً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استثنينا إشارات قليلة في مواضع منه مختلفة . وتحدد الرواية الماثورة تاريخ مولده بعام ٩٩ أو ٩٥ ، وتاريخ وفاته بعام ٥٥ أو ٥١ ق م . ، أي أنه عاش نحو خمسين سنة من سنى الثورة الرومانية : سنى الحرب الاجتماعية ، ومذابح ماريوس ، وإرهاب صلا ، ومؤامرة كاتلين ، وقتلية قيصر . وكانت الأرستقراطية التي ينتمى إليها في الأغلب الأعم آخذة في الانحلال البادى للعيان ؛ وكان العالم الذي يعيش فيه يتصدع ويتردى في الفوضى التي لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله . وقصيدته حينئذ منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية .

وبلأ لكريشيوس من متاعب انعم إلى الطبيعة والفلسفة والشعر . ولعله أيضاً قد عرج على الحب ، فإذا كان قد وقع له شيء منه فما من شك في أنه لم يوفق فيه ، لأنه يقسو في كتابته على النساء ، ويشهر بفتنة الجمال ،

وينصح الشباب المتعطش لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط الجنسي الهادئ الطليق^(٢) . وكان يجد في الغابات والحقول ، وفي للنبات والحيوان ، وفي الجبال والأنهار والبحار ، كان يجد في هذه كلها بهجة لا يعادها إلا شغفه بالفلسفة . وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث Wordsworth ، قوى الإدراك مثل كيتس Keats ، توحى إليه المدررة أو ورقة الشجرة ، كما توحى لشلى Shelley ، علم ما وراء الطبيعة ، وكان لجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه ، فكانت تحرك عواطفه صور الأشياء وأصواتها ، ورائحتها ومذاقها ؛ وكان يحس بصمت المرابض الخفية ، وسدول الليل الهادئ ، وطلوع النهار المتثاقل . وكان كل شيء طبيعي أعجوبة الأعاجيب في نظره - ماء ينساب على مهل ، ونبات يخرج من البذور ، وتغير دائم في الجو ، ونجوم في السماء ثابتة لا تحول ، وكان يرقب الحيوانات في شغف وعطف ، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال ، ويحس بالأمها ، ويعجب من فلسفتها التي لا تعبر عنها الألفاظ . ولم يرقبها شاعر عبر عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتزمة ، بمثل ما عبر عنه هو . فهنا كسبت الطبيعة في آخر الأمر معاقل الأدب ، وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هومروس وشيكسبير .

وما من شك في أن هذه الروح الحساسة التي تستجيب إلى ما حولها من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بخفايا الدين ومظاهره الخلابية ، ولكن الدين القديم الذي كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام الاجتماعي قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة في رومة . فقد كان قيصر مثلاً يتسم في لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر ، كما كانت مادب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان . وكان من الأهلين أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة ، وكان بعض الساسة الرومان يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة ، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades في أثينة^(٣) . أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم ، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل المملوطة بالدماء والتي كانت تعبد فيها « الأم الكبرى » الفريجية ، أو الإلهة ما الكيدوكية ، أو بعض الآلهة الشرقية التي جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا . وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن « أوركوس » Orcus ، وهي التي كانت تمثلها في صورة مكان تحت الأرض يأوى إليه الموتى بلا تمييز بينهم ، فصاروا يعتقدون بوجود جحيم حقيقي « تارتاروس Tartarus » أو أكبرون Acheron يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة في مجتمع جديد^(٤) . وقد نظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهين ، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب في القري المنعزلة وفي قلوب الكثيرين من الأهلين ، وأقبل العرافون والمتنبؤون الكلدان على إيطاليا يجربون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء ، ويكشفون عن الكنوز المخبأة وعمما يخبئه المستقبل ، ويفسرون الأحلام والفؤول تفسيراً ماؤه الخدر والغموض ، أو الملقى النافع . وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مألوفة ، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة . وكان الدين الذي يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والنفاق .

فلا عجب والحالة هذه إذا شمأزت نفسه منه ، وثار عليه ، وهاجه بكل ما في قلب المصلح الديني من جرأة وحماسة .

وفي وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من تقى وإيمان ، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء ، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ . فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقدته من إيمانه بالدين القديم ، فتنقل من تشكك لانيوس Ennius إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التي شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد . ولما عرف آراء أبيقور خيل إليه أنه عثر على جواب المسائل التي كانت

تخبر عقله ، وبدا له أن الرجل الحر يجهد في ذلك الخليط المعجيب من المادة وحرية الإرادة ، ومن الآلهة المرحة والعالم الذي لا يؤمن بالآلهة ، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف . ولاح أن نسمة من نسمة التمحور من المخاوف السماوية تنبعث من حدائق أبيقور ، وتكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشؤونها وسلطانها على مصائرنا ، ومن أن الموت أمر طبيعي لا تلام عليه . ولذلك اعتزم لكريشيوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذي صاغها فيه لكريشيوس ويصهرها فيخرجها شعراً ، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هي الطريقة المثلى ، وهي الحقيقة ، بل هي الحياة نفسها . وكان يحس أن في نفسه قوة نادرة مزدوجة - فيما إدراك العالم الموضوعي ، وعاطفة الشاعر الذاتية ، ويرى في نظام الطبيعة بأكمله سمواً ، وفي عناصرها جمالا ، بشجعان وبربران هذا التزاوج بين الفلسفة والشعر . وقد أبرز هذا الهدف العظيم الذي كان يعمل له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقي الفعلي ، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكا خائر القوى ، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولا . غير أن كلدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً في روحه الدينية من إخلاص عميق .

ولم يختر لكريشيوس لقصيدته عنواناً شعرياً بل اختار لها عنواناً فلسفياً هو : De Rerum Natura « في طبيعة الأشياء » ، وهي ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التي اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم . وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس مميوس Caius Memmius في عام ٥٨ ق . م لتكون لهم سبيلاً هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك . وقد حذا في طريقة عرضه لما احتوته من الآراء طريقة أنبادقليس في ملحمة ، كما احتل في تعبيره لغة إتيوس العجيبة الحالية من الزخرف والتجميل ، واختار لها

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض ، وهو الوزن السداسي الأوتاد ، ثم نسي إلى حين إهمال الآلهة شئون الناس وتباعدها عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى فينوس إذ خلها رمزاً للرغبة المبدعة ، ولطرائق السلم كما كانت محبوبة أنبادقليس فقال :

يا أم شعب إنياس ، يا بهجسة الخلق والآلهة ، أي فينوس المغذية المربية ! . . . إن جميع الأحياء تحمل بها أمهاتها وتلدها ، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت ، وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك ، وتبددت سحب السماء ؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة ، وإليك تضحك أمواج البحر وتلألأ السماء الصافية بالفضياء الشامل . ذلك أنه إذا ما بدت تباشير النهار في فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة ، هلت لك طيور الهواء أولاً ورحبت بقدموك ، أيتها الإلهة المقدسة ، لأن قوتك قد نفذت في قانها . ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراهي التي تفرح بقفزها ، وتعبث بالحدول السريعة الجريان ، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير في ركابك أينا سرت ، ثم تبعثين بالحب الجميل في صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية ، وأوكار الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء ؛ وتوحين إليها بأن تتناسل وتخذ أنواعها . وإذا كنت أنت وحدك تتحكمين في طبيعة الأشياء ، وبغيرك لا يرتفع شيء إلى شواطئ الضوء اللامعة ، ولا يوجد شيء بهيج أو جميل ؛ فإن نفسي تتوق إليك لتكوني شريكتي في كتابة هذه الأبيات . . . ألا فانهجي أيتها الإلهة ألقاظمي جمالا لا يتركها الفناء ، واجعلني في خلال ذلك الوقت أعمال للحرب الوحشية تنام وتسكن ، . . . وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانجني حوله من عليائك ، وصبني الألفاظ الحلوة من فك ، واطلبي نعمة السلام إلى الرومان(*) .

الفصل الثاني

في طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما في جدل لكريشيوس من اضطراب حماسي في صورة منطقية ، فإن فكرته الأساسية تتمثل في ذلك البيت المشهور :

Tantum religio potuit suadere malorum

« ما أكثر ما بعثه الدين في قلوب الناس من شرور ! » (٦) .

فهو يروى قصة إفجينيا في أوليس ، والضحايا البشرية التي يخطئها الحصر ، والذبايح التي تقدم قرباناً للآلة التي يمثلونها في صورة البشر النهمين ، ويذكرنا بالأهوال التي تحيط بالسذج والشبان حين يضلون في أجسام الآلة المنتقمة الجبارة ، وما يقذفه في قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب ، وبالأهوال السفلى التي يصورها الفن الإثروري والقصص الشرقية الغامضة الخفية ، وهو ينحى باللائمة على بنى الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفي ويقول :

« أيها الخلائق البائسون ما بالكم تعزون إلى الآلة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير ! كم من أحزان يهبها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) وكم من جراح تتخن بها أجسامنا ، ودموع تذرّفها أعين أبنائنا ! ذلك أن التقوى لا تكون في كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار ، ولا في الاقتراب من جميع مذابح القربان ، ولا في الركوع والسجود . . . أمام هياكل الآلة ، ولا في إسالة دماء الحيوانات على المذابح . . . بل التقوى هي أن يكون في طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادئ مطمئن » (٧) .

ولا ينكر لكريشيوس وجود الآلهة ، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة
عنا ، سعيدة كل السعادة في عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعهم ،
هنالك « وراء أسوار العالم المشتعلة » (extra flammantia moeina mundi)
بمناى عن ضحاياها وصلواتنا ، وهى تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن
الشئون الدنيوية ، فائقة بتأمل الجمال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام (٨) ،
وليست الآلهة في رأيه هى التى خلقت العالم ، وليست هى سبب ما يقع فيه
من الأحداث ، فنذا الذى يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتمهما بأنها سبب
ما فى الحياة على الأرض من تلف ، واضطراب ، وآلام ، ومظالم ؟
كلا إن هذا الكون اللانهائى الذى يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه ،
ولا شأن له بغيره ، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه ؛ فالطبيعة تفعل كل
شئ من نفسها . منذا الذى أوتى من القوة ما يستطيع به أن يتصرف فى
الأشياء مجتمعة ، ويقبض بيده على ذلك العنان القوى عنان الأبدية انى
لا قرارها ؟ منذا الذى يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة . . .
ويهز السماء الصافية بالرعد القاصف ، ويقذف بالبرق فيزلزل به فى كثير
من الأحيان هياكل الآلهة ، ويرسل الصواعق فيقبض بها على البرىء
وينجو منها المجرم (٩) . إن إله الكون الذى لا إله سواه هو القانون ،
وأصدق العبادات ، والسبيل الوحيدة إلى السلام أن يعرف الناس ذلك
القانون ويحبه . إن مخاوف العقل وظلمته لا تبيدها أشعة الشمس . . .
بل يبيدها النظر فى قوانين الطبيعة (١١) .

وهكذا « يمس » لكريشيوس « برحيق ربات الشعر » مادية دمقريطس
الحسنة ، ويصرح بأن مبدأه الأساسى المقرر أن لا وجود إلا للذرات
والفراغ (١٢) أى المادة والفضاء ، ثم ينتقل من فوره إلى مبدأ جوهرى
(واقتراض) من مبدأ العلم الحديث ، وهو أن ما فى العالم من مادة
وحركة لا يتغير أبداً ، والأشياء ينشأ من لا شئ ، وأن ليس الإنلاف
والتحطم إلا تغيراً فى الشكل ، وأن الذرات لا تحطم ، ولا تتبدل ، وأنها

صلبة ، مرنة ، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون ، وأنها لا حدود لها ، يتدخل بعضها في بعض ليتكوّن منها مركبات وصفات لا حصر لها ، وتتحرك حركة لا انقطاع لها ، فيسكون الأشياء العديمة الحركة البادى للأنتظار : « فكثيراً من نرى على سفوح الجبال : . . . الأغنام ذات الأصواف ترحف حيث يفرها بالزحف الكلاً الذى تتلأأ عليه قطرات الندى ، وترى الحملان التى شبعت ورويت تلعب وتناطح فى لعبها بروؤومها . ولكن هذه كلها تنطمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها ، وتبدو لطفة بيضاء على تل أخضر . وتنتشر الجيوش الحرارة فى بعض الأحيان فى ميادين واسعة ؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب ، تسطع دروعهم البرزية فضيء ما حولها ، وتنعكس على قبة السماء ، وتزازل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل ، وتصطدم هذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى لى نجوم السماء . ومع هذا فإن فى قلب الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك ؛ ولا تعلم أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل » (١٣) .

وتحتوى الذرات (*) على المنهات minima أو « أصغر الأشياء » ، وكل منيمة minimum جسم نهائى صلب ، لا يقبل الانقسام ، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب فى اختلاف أحجام الذرات وأشكالها ، وهو الاختلاف الذى ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها . والذرات لا تتحرك فى خطوط مستقيمة أو منتظمة ، بل إن فى حركتها انحرافاً أو زيقاً دقيقاً لا يستطاع قياسه ، وفيها تلقائية عنصرية تسرى فى جميع الأشياء وتصل لى غايتها فى إرادة الإنسان الحرّة (**).

(*) لم يستعمل لكريشيوس هذا اللفظ قط ، ولكنه يطلق على جزئياته الأولية اسم

« الأوليات » أو العناصر أو البذور **primordia, elementa. Semina** .

(**) قارن هذا بمبدأ « الحتمية » التى يمزوها بعض علماء الطبيعة فى هذه الأيام للكهارب

(الإلكترونات) . (المترجم)

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء . ، ولكن التوزيع التدريجي للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج - عن غير قصد - الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم ؛ وفي الفضاء اللانهائي تنشأ باستمرار عوالم جديدة وتنفذ عوالم أخرى قديمة ، والنجوم نيران مثبتة في حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية . وهذا الجدار الكوني الناري هو الذي يكون « أسوار العالم الملتهبة » : ثم انفصل جزء من الضباب البدائي عن هذه الكتلة وأخذ يندور وحده وبرد فتكونت منه الأرض . وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات والمجاري التي تحت الأرض : كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض : وليس المطر مرحة من جوف بل هو رجوع الرطوبة التي بخرتها الشمس إلى الأرض .

والحياة في رأيه لا تختلف في جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهي نتيجة حركة الذرات التي لا حياة في كل منها بمفردها . وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعا لقوانين المادة المتأصلة فيها ، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضاءها بطريقة الانتخاب الطبيعي لا بغيرها من الطرق .

لا شيء ينشأ في الجسم ويقصد به أن نستخدمه ، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذي يستخدم فيه^(١٤) . . . فلم يكن هدف الذرات هو الذي جعلها ترتب نفسها ترتيبا قائما على الذكاء والفتنة ، بل السبب في ترتيبها هذا أن كثيرا من الذرات منذ الأزل قد تحركت والتقت بطرق مختلفة لا حصر لها ، وجريت كل التراكيب المختلفة . . . ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة . . . وأجيال الكائنات الحية^(١٥) . وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجده من الهولاء ، فبما لم تكن له أقدام ، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملتصقة بجسمه ؛ ولكن هذه المحاولات

كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء ، ولم تستطع هي أن تجد لنفسها الطعام ، أو أن تتصل بعضها ببعض اتصالا مبعثه الحب . . . وما من شك في أن كثيراً من الحيوانات قد بادت في ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق التزاوج والتناسل ، وسبب ذلك أن الأنواع التي لم تهتم للطبيعة صفات « تحميها من أعدائها » كانت تحت رحمة غيرها ، وسرعان ما هلكه وانقرضت (١٦) .

وليس العقل (Animus) إلا عضواً كالقدمين والعينين ، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anima) أو النسمة الحيوية ، وهي مادة جد رقيقة تنتشر في الجسم كله ، وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه . وعلى الذرات الشديدة الحساسية التي يتكون فيها العقل تسقط الصور أو الأشربة التي لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء ، وهذا هو منشأ الإحساس . ويلشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الخلق أو الخياشيم أو الأذنين أو العينين أو الجلد . والحواس كلها صور اللمس . وهي الحكم النهائي حقائق ، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة أسوء التفسير ، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا حاسة أخرى ، ولا يمكن أن يكون العقل محك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أى على الإحساس .

وليست النفس شيئاً روحياً ، ولا هي خالدة ، فهي لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم ، وهي تنمو وتشيخ مع الجسم ، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخر ، وتتبدد ذراتها تتبدداً ظاهرياً حين يموت ، ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى ، وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكاً خالصاً لنا بل هي عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها ، فإذا ما استنفدنا قواها وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتبطين شاكرين ، كما يغادر

الضعيف الوليمة ؛ وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً ، بل الذى يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه فى الدار الآخرة ، ولكن الدار الآخرة لا وجود لها ، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا ، فهو العذاب للناسئ من الجهل والانفعالات والمخاصم والشبهه ؛ واللجنة توجد على ظهر هذه الأرض ، وهى معابد الحكماء الصافية sapientum templa serena (١٧) .

وليس الفضيلة فى خوف الآلهة ، ولا فى تجنب الملذات ونخشيتها ، بل هى فى تناسق أعمال الخواس والمواهب بإرشاد العقل ؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقام لهم ، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم ، ولكن « ثروة الإنسان الحققة هى أن يعيش عيشة بسيطة وعقله فى سلام » (vivere parce Aequo Animo) (١٨) ، وخير من العيش الجاملد المعنت فى الأبهاء المذمبة « الرقود فى جماعات على الكلاً الناعم بجوار غددير تحت أشجار باسقة » (١٩) ، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة ، أو أن يفقد الإنسان ذاته فى حب أطفاله والعناية بهم ، والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون ، يجرد العقل من صفائه وتدييره : « فإذا أصابت الإنسان سهام فينوس - سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة ، أو أطلقتها امرأة يشع الحب من جسمها كله - فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه » (٢٠) . ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أبا كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها فى هذا الغرام الجنونى ؛

ولما كان لكريشيوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد فى قلبه متسعاً للحب ، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائى العاطفى القديم الذى يقول به اليونان الذين كانوا يمجدون الحياة البدائية ، وينادون بالعودة إلى الطبيعة ، كما مجدها روسو ونادى بالعودة إليها .

نعم لقد كان الناس فى ذلك الوقت أصلب عوداً ، ولكنهم كانوا يعيشون فى الكهوف ، ولا يعرفون الناس ، ويتناكحون بلا زواج ، ويقتل بعضهم

بعضاً بغير قانون ، ويموت منهم جوعاً بقدر من يموت من المتحضرين
بالتخمة (٢١) .

أما الطريقة التي تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشيوس في خلاصة
موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعي يقول فيها إن التنظيم الاجتماعي قد وهب
الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التي كانت أشد منه قوة
وبطشاً . وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار
وأغصانها ، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة ، وتعلم الغناء من الطير ،
وأنس الحيوان لمنفعته ، كما استأنس هو بالزواج والقانون ؛ ثم شق
الأرض ، ونسج الملابس ، وصهر المعادن وصنع منها أدواته ؛ ثم رصد
كواكب السماء ، وقاس الزمن وتعلم الملاحة ؛ ثم رقى فن القتل ، وتغلب
على الضعفاء ، وشاد المدن ، وأقام الدول .

وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تفسأ وتزدهر ثم
تضمحل وتفتنى ، ولكن كلا منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق
والفنون تتلقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها « فهي كالعديتين في
سباق يسلم كل منهما مصباح الحياة إلى غيره » (٢٢) *(et quasi cursores*
vitali lampada tradit) وكل ما ينمو من الأشياء يضمحل : الأعضاء ،
والكائنات الحية ، والأسر ، والدول ، والأجناس ، والكواكب ،
والنجوم . والذرات وحدها هي التي لا تموت أبداً ، وتوجد إلى جانب قوى
الخلق والبناء قوى أخرى تعادها وتوازنها وهي قوى التدمير ، وهذه لا تنقطع
عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض ، وحيات وموت . وفي
الطبيعة خير وشر ، والآلام يلقاها كل كائن حي وإن لم يستحقها ،
والانحلال يتبع خطى كل تطور ، وأرضنا نفسها في طريقها إلى الموت
والفناء ، وها هي ذى الزلازل تخربها وتدمرها ، والأرض تفقد قدرتها على
الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها ، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر
إلى البحار ، وسيأتي على عالمنا النجمي كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال ؛

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تهدم وتتخرب (٢٣) ،
ولكن ساعة الفناء نفسها تكشف عما في العالم من حيوية لا تقهر ، ويمتزج
بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد (٢٤) وتتكون عوالم جديدة
ونجوم وكواكب جديدة ، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى ،
ويبدأ التطور من جديد .

وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القصيدة التي تعد « أروع نتاج الأدب
القديم كله » (٢٥) ، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب : كاضطراب
موضوعاتها التي حال موت الشاعر في مستقبل العمر دون مراجعتها ، وتكرار
عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها ، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم
ليست في حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها (٢٦) ، وعجز النظام الذي تشرحه
القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك ،
وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان في المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة
وسلوى ، وإلهام وشاعرية قوية محرقة ، كما أغفل ما للدين من آثار
اجتماعية . ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة
الجريئة التي بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً
منطقياً معقولاً (*) ، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه
القانون لا يعترى المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان . وأمام عظمة الموضوع
الذي تحدث عنه ونبل الطريقة التي عرض بها ؛ وأمام قوة الخيال المتصلة
التي تشعر في كل مكان « بجلال الأشياء » وتسمو بروى أنباقليس ،
وعلم دمقريطس ، ومبادئ أبيقور الأخلاقية ، إلى شعر يبلغ من الروعة
والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف في جميع العصور . فها هي ذى لغة
كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد في ذلك الوقت أن تكون

(*) توجد كثير من بذور الأشياء التي تمينا على الحياة ، ولكن لا شك أيضاً في أف
ثمة بذوراً أخرى كثيرة تتطاير حولنا وتؤدي إلى المرض (٢٧) .

خلاوآ من المصطلحات الفلسفية والعلمية ، ولكن لكريشيوس لم يخلق فيها مفردات جديدة فحسب ، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس ، وصاغ الوزن السداسى صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة ، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها فى شعر فرجيل . وإن ما فى قصائد لكريشيوس من حيوية لا انفارقه فى وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها ، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة .

وكيف مات لكريشيوس ؟ يقول القديس جيروم Saint Jerome إن « لكريشيوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب ، بعد أن كتب عدة كتب . . . ثم مات منتحراً فى الرابعة والأربعين من عمرة » (٢٨) . وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها ، ويشك الكثيرون فى صحتها ، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروى رواية عن حياة لكريشيوس منزهة عن الهوى . وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة فى قصيدته نفسها ؛ ذلك أن منها شواهد على المدح المكثود غير الطبيعى ، فضلاً عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة ، وأنها مقتضبة تنتهى انتهاءً فجائياً غير متوقع (٢٩) . ولكن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يكون لكريشيوس - ولكريشيوس دون غيره - لكى يكون حاد المزاج سريع التهيج ، مهوشاً ، ولكى يموت .

لقد كان لكريشيوس كما كان يوربيز رجلاً من الطراز الحديث ، وكان تفكيره وإحساسه يوائمان عصرنا الحاضر أكثر مما يوائمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد تأثر به هوارس وفرجيل فى أيام شبابهما ، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه فى كثير من عباراتهما الجزلة ، ولكن الجهود التى كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشعارين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

ليس من الحكمة أن يعبراً في صراحة عن إعجابهما بلكريشيوس ويعترفا بما في عنقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لم تكن توائم العقل الروماني ، كما كانت أعمال الأبيقورين توائم الذوق الروماني في عصر لكريشيوس(*) ، فقد كانت رومة في حاجة إلى رجل ذى فلسفة ميتافيزيقية يمجّد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية ، وإلى عالم أخلاقي يلشئ شعباً حربياً كاملاً الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء ؛ وكانت في حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتي فرجيل وهوراس ، تبرر سيطرة رومة الإمبراطورية ، ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشيوس ، ولم يبدأ يظهر أثره في الفكر الأوربي إلا بعد أن كشفه بيجيو Poggio من جديد في عام ١٤١٨ ب . م . وقد أخذ طبيب من مدينة فيرونا Varona يدعى جيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro (١٤٨٣ - ١٥٥٣) عن الشاعر نظريته التي يقول فيها إن المريض ينشأ من « بذور » Semina خبيثة تسبح في الهواء ، وفي عام ١٦٤٧ أحيا جاسندي Gassendi الفلسفة الذرية . وكان فلتير يقرأ في طبيعة الأشياء في خشوع ويقول كما قال أوفيد Ovid إن ما فيها من آيات ثورية سيبقى ما بقيت الأرض (٣٠) :

وقد خاض لكريشيوس بمفره أقسى الوقائع في زمانه ونعنى بها إحدى وقائع الحرب الأبديّة بين الشرق والغرب ، بين « القلب الحنون » والإيمان الباعث للسلوى الخفف للأحزان من جهة ، والعقل العنيد الجاسى والعلم المادى من جهة أخرى . ولسنا في حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة ، وأنه هو الذى سما بالأدب اللاتينى كما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده ؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومة .

(*) ستمستخدم لفظى أبيقورى ورواقى في هذه المندات بمعنى المؤمن بفلسفة أبيتور وزينون فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق . وقد نستعملها فى بعض الأحيان لوصف الشخص الذى يميل إلى الدعة والنعم فى الحالة الأولى أو إلى تجنّبها الحالة الثانية .

الفصل الثالث

حبیب لزبیا

فی عام ٥٧ ق . م غادر رومة کیوس ممیوس *Caius Memmius* الذى
أهدى إليه لکریشیوس قصیدته لیکون بریتورا اولاً فی بثنیا *Bithynia* ،
وكان حکام الولايات الرومان قد أخذوا فی ذلك الوقت یعتادون عادة جدیدة
هى أن یصطحب کل منهم عند سفره إلى ولايته أحد المؤلفین . ولم يأخذ هذا
الحاکم معه لکریشیوس بل أخذ شاعراً یختلف عنه فی کل شیء عدا قوة عاطفته
ویدعى کونتس (أوکیوس) فلیریوس کاتلس *Quintus Valerius Catullus* .
وكان کونتس هذا قد قدم إلى رومة من مدينة فیرونا موطنه الأصلی ،
وكان لأبيه فیها من المنزلة ما یجیز له أن یکون ضيفاً کثیر التردد علی قیصر ،
وما من شك فی کونتس نفسه كان علی جانب کبیر من الثراء ، فقد
كانت له بیوت ذات حدائق بالقرب من تیور *Tibur* وعلی شواطئ بحیرة
جاردا *Garda* ، وكان له بیت جمیل فی رومة . وهو یقول عن هذه الأملاك
إنها كانت مستغرقة فی الدین ، ولا ینفک یعلن أنه فقیر ، ولكن الصورة
التي نستطیع أن نرسمها له من قصائده هى صورة الرجل المهذب الذى لا یهتم
بکسب العیش ، ولكنه یمتج نفسه بطیبات الدنیا من غیر حساب فی صحبة
أمثاله المترفین فی عاصمة الدولة . وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع
الخطباء السیاسیین من الشبان أمثال مارکس کئیلیوس *Marcus Caelius* وهو
شریف أصبح فیما بعد شیوعياً ، ولیسینیوس کلفس *Licinius Calvus* الشاعر
النابہ والقانونی الضلیع ؛ وهلئیوس سنا *Helvius Cinna* الشاعر الذى کاد
الفوغاء من أنصار أنطونیوس یحسبونه أحد قتلة قیصر وینالون علیه ضرباً
حتى یقضى نحبہ . وكان هؤلاء یعارضون قیصر ویوجهون له کتل ما تسعفهم



(شكل ١٠) « سايفو » - المتحف القومى بنابلى

به عقولهم من نكات لاذعة ، وهم لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما
تعبر عن الثورة التي يعيشون في جوها ، وكان هؤلاء جميعا قد ملوا الأدب
القديم ، ولم يطبقوا فحاجة نيفيوس Naevius وإنيوس Ennius وألفاظهما
الطنانة المزوقة : وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان
جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوما من الأيام في الإسكندرية
أيام كليمكس Calimachus ولكن رومة لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه .
ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف
التي كانت تلتقي على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين .
وكانوا ينادون بقدمية الغرائز ، وبراءة الشهوات وعظمة التهلك والانغماس
في الملاذ ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين
كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه : من هوراس Horace
وأوفيد Ovid وتيلس Tibullus وبروبريتوس Propertius ، بل ومن فرجيل
الخبول في أيام شبابه ، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة
متزوجة أو غير متزوجة ، تقدم لربات شعرهم حبا سهلا عابرا .

وكانت كلوديا Clodia أرشقي فتاة في هذه الفئة ، وهي من سلالة
أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة (*) .
ويؤكد لنا أبوليوس Apeulius (٣١) أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزيبا
Lesbia إحياء للذكرى ساپفو Sappho التي كان يترجم قصائدها أحيانا ،
ويحاكيها كثيرا ، ويحبها دائما . ولما جاء كاتلس إلى رومة في الثانية
والعشرين من عمره اتخذها صديقة له ، بينما كان زوجها حاكما في بلاد
غالاة الإيطالية . وقد سحرت له من ساعة أن وضعت « قدمها البراقة على
عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل ، وكان يدعوها إلهته المتألقة
ذات الخطوة الرشيقه » . ولا غرابة في أن تفتنه خطاها ، فإن مشية المرأة
قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها . وقد عطف عليه فرضيت

(*) انظر ما قلناه عنها قبل في هذا الكتاب .

أن يكون من بن عبادها ، ولم يكن في وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع
في غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدمها أجمل ما في اللغة
اللاتينية من القصائد الغنائية ، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سابقو
لجنون المحبين وهو الجنون الذي كان يمتلكه وقتئذ (٣٢) ، وكتب في الطائر
الذي كانت تضمه إلى صدرها أحياناً تعد من خير ما كتب في وصف الغيرة :

أيها الطائر يا بهجة حبيتي

التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها

والتي تمد لك سباتها إذا طلبتها ،

وتفريك بأن تعضها عضمة قوية .

لست أدري أية دعاة لطيفة يلد لحبيتي الوضاء

أن تداعب بها أمنيته . . . (*) .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعادة قد غمرته ، وظل يتردد عليها كل

يوم ينشدها قصائده ، ونسى كل شيء إلا حبه إياها وافتتانه بها .

أي لزهباي حبيتي هيا بنا نعيش ،

ولا تلق يالا إلى شيء مما ينطق به العجائز القسا

ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار :

قد تغرب الشمس ثم تعود ؛

أما نحن فإذا غربت شمسنا القصيرة الأجل

غلب علينا السبات الطويل في ليانا الأبدى .

ألا فاعطني ألف قبلة ثم مائة

ثم ألفاً أخرى ، ثم مائة ثانية

(*) لم يترجم أحد حتى الآن قصيدة كاتلس شعراً إنجليزياً والعبارة العربية التي في

هذه الصفحة تكاد تكون ترجمة حرفية لما يقابلها في اللاتينية .

ثم ألفاً بعدها ، ثم مائة
حتى إذا بلغت القبيلات آلافا مؤلفة
تعمدنا الخطأ في العدد والحساب لكيلا نعرف نحن عدديدها
أو نحسدنا عليه نفس حقيرة
إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة :

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة ؛ وأكبر الظن أنها قد
ملت آلافة المؤلفة ، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من
أجله بأن تستبدل به عاشقا غيره . واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى جالها
كاتلس في نوبة من نوبات الحسنون « تعانق ثلاثة آلاف زان مرة
واحدة » (٣٥) . وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحرب تلتهم فواده
(adi et Amo) (٣٦) ، وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء
وإخلاص ، وصور لنا هذا الإباء بالصورة الماثورة عن كيتس Keats :

إن الألفاظ التي تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع ،
يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية ،
وتحفز على مجارى الماء الدافقة (٣٧) .

ولما أصبح الشك اللاذع يقيماً لا مرية فيه ، استحال هيامه بها حقداً
عليها ورغبة قوية في الانتقام منها ، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الخانات ،
وأخذ يندد بمحبها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر في
الانتحار ، على حد قوله في شعره .

وقد أظهر في الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبلة :
فقد وجه إلى صديقه مانليوس في يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على
ما يتيحه له زواجه من صحبة طيبة صالحة ، وبيت آمن مستقر ، ومن متاعب سعيدة
هي متاعب الأبوة . ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب ميموس Memmius

إلى بيثينيا *Bithynia* ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من استعادة نشاطه وماله . ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة ، وأدى لهذا الأخ الميت في خشوع مراسم الدفن التي يؤديها الأبناء لأبائهم ، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة :

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت في كثير من الدول وجبت البحار .

وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن .

وأهدى إليك آخر ما يهدى إلى الأموات ،

فتقبل هذه الهدايا التي تبللها دموع الأخوة ؛

وودعاً يا أخي إلى أبد الدهر .

وبدل مقامه في آسية حاله ، وهدأ من طبعه ، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتفالاته في هذا المتشكك الذي وصف الموت من قبل بأنه « سبات الليل الأبدى » ، فوصف في « أتيس » *Alys* وهي أعظم قصائده كلها وأعدبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة سيبييل *Cybele* وصفاً رائعاً قوياً ، وامتألت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم ، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب . وقد قص في قصيدته « بليوس وثيتس *Peelus and Thetis* » قصة بليوس وأرديانى *Ariadne* في شعر سداسي الأوتاد حلوا النغم لا يكاد يجاريه شعر فرجيل نفسه . وابتاع بعدئذ في بلده أمستريس *Amastris* ينجياً صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخيبيل والبحر الأدرياوى وسار به صعوداً في نهر الپو *Po* حتى وصل إلى بحيرة جاردا *Garda* وإلى بيته في سرميو *Sirmio* . وهنا أخذ يسأل نفسه قائلاً : « وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب العالم أحسن من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعايذنا ، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة ؟ » (٢٩) إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام .

إن علمنا بكاتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد في جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره ؛ وإن هذه الصرخات الغنائية ، صرخات الحب والكراهة ، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات عواطف كريمة حتى للأهل والأقارب ؛ ولكن الذى لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره ، ويعتمد الفحش في القول ، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم ، ويشنع على ميلهم للواط ، وعلى رائحة أجسامهم النتنة ، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً في ذلك عادة أسبائية قديمة (٤٠) ، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات كل من حوله (٤١) . فهو والحالة هذه يتذبذب في غير عناء بين الحب والقذارة ، يقبل ويلوط ، وينافس مارتياك Martial في قيادة الناس إلى أقذار رومة ومباذنها في أركان شوارعها ؛ ويمثل ما يتصف به معاصروه وأبناء طبقته من مزيج بين خشونة البداوة ورقة الحضارة ، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا في آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الاصطبلات والمعسكرات . ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتياك فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأقذار لكي يسترعى بها انتباه مستمعيه .

على أنه قد كفر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة في الوصول به شعره إلى درجة الكمال . ففي أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعي غير المتكلف ما تعجز عنه صنعة هوراس وتكلفه ، وما يسمو في بعض الأحيان فوق أناقة فرجيل نفسه ، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التفنن . وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانیه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلوا شعره سريع الفهم بين السهولة . وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يعرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التي يتداولها الناس شعراً رقيقاً . وقد أغنى الآداب اللاتينية بألفاظ التصغير الرقيقة ، كما أضاعها بلغة الحانات الدارجة .

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها ، كما كان يتجنب الإبهام والغموض ؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة ، خفيفة على السمع ، ترحب بها الآذان . وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين(*) ، وشعراء أيونيا الأقدمين ، وأنقن ما يمتاز به شعر كليمكس Callimachus من عبارات سهلة وأوزان متعددة ، وما في شعر أركلوكس Archelochus من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض ، وما في شعر أنكريون Anacreon من نغميات قوية ، وما في شعر سابقو من حب ونشوة ؛ والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم ، فإن علينا أن ندرس كاتلس ، فقد درس هذا الشاعر أشعارهم ، وأجاد فهم دروسهم إجادة رفعتهم من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح في مرتبتهم ؛ وقد فعل في الشعر اللاتيني ما فعله شيشرون في النثر اللاتيني ، تسلمه قوة فجة فعما به حتى أصبح فنا لا يفوقه فيه أحد غير فرجيل .

(*) الذين لم يكونوا يونانيين الاصل ولكنهم اصطبغوا بالصيغة الهلنستية (اليونانية) .

(المترجم)

الفصل الرابع

العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم ، وتجلّد وتُنشر ، وتباع ؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية ، والرسائل القصيرة ، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلاً ؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدني ذي طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع ، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم . وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتيني مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع في مصر من أوراق نبات البردي التي يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالفراء . ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان الخفيفة ينافس نبات البردي في القرن الأول الميلادي لكتابة الآداب والوثائق الهامة . وكانت الربلوما (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق . وكان الكتاب الأدبي يصدر عادة في صورة ملف (Volumen أي الملفوف) وتفلك طياته في أثناء قراءته . وكان النص يكتب عادة في عمودين أو ثلاثة أعمدة في كل صفحة ، خالياً في كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها . وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالحبر ، فقد كان كتاب Imagines لفارو Varro مثلاً يتألف من سبعمئة صورة لعظماء الرجال ، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها . وكان في وسع أي إنسان أن ينشر أي مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه ، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها . وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب ، ويطعمونهم ، ولكنهم يؤجرونهم على عملهم ، ولذلك كانت الكتب رخيصة : وقد جرت العادة في أول الأمر أن تكتب

ألف نسخة من كل مخطوط . وكان بائعو الكتب يشترون المسخ جملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى في محال بيعها . ولم يكن الناشر أو البائع يعطى المؤلف شيئاً ، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية في بعض الأحيان ، ذلك أن الرسوم التي تؤدي الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد ، وقد جعل أسنيوس بليو Asinius Pollio في عام ٤٠ ق . م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة في رومة . وفكر قيصر إنشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل فارو مديراً لها ، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا في عهد أغسطس ، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته .

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التي خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم ، أن أخذ الأديباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدبائها ، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنثرات ، وكتب التاريخ ، والكتب المدرسية ، لا يقل في قوته عن فيضان نهر التبر نفسه . فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر ، وكانت كل سيده تكتب وتلحن ، وكل قائد يدون مذكرات ، وكان العصر عصر « الملخصات » ، تخرج في كل موضوع من الموضوعات لتفي بحاجات ذلك العصر التجاري السريع . وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس فارو Marcus Terentius Varro ، رغم حملاته الحربية الكثيرة ، خلال حياته التي دامت تسعة وثمانين عاماً (١١٦ - ٢٦ ق . م) ، لتلخيص كل فرع من فروع العلم بعرفه أهل زمانه . وكانت ملفاته البالغ عددها ٦٢٠ ملفاً (نحو ٧٤ كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده . وقد افتتن بالبحث في أصول الكلمات فكتب مقالا « في اللغة اللاتينية » لا يزال حتى الآن أكبر ما يهديننا إلى معرفة لغة الرومان الأولى . ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول في رسالته « عن الحياة الريفية » De Re Rustica

٣٦ ق ٥ م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ يعصمهم من فوضى النزاع المدني ؛ وقد جاء في مقدمة هذه الرسالة : « إن السنة الثمانين بتذرنى لإبان على أن أحزم متاعى وأستعد للخروج من هذه الحياة » (٤٢) ، وهو يرى أن تكون آخر وصيته له مرشداً يهديه إلى الحياة الريفية الهادئة السعيدة ، ويعجب بالنساء القويات اللاتي يلدن في الحقول ثم يواصلن عملهن من فورهن (٤٣) . ثم يبدى حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد بين الوطنيين ، وهو النقص الذى أخذ يبدل سكان رومة ويقول : « لقد كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها ، أما الآن فإنها تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على أن تلد طفلاً واحداً » ؛ ويقول في « هاديته المقرسة » Divine Antiquities إن كثرة النسل والنظام والشجاعة في أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها عقيدة دينية . يأخذ بقول المشرع العظيم كونتس موسيوس أسكيثولا Q. Muciu Scaevola إن الدين نوعان - أحدهما للفلاسفة والثاني لعامة الشعب ، وينادى بأن ثانيهما يجب أن يقوى وتثبت دعائمه ، على الرغم مما فيه من عيوب وتفاصيل لا يرتضيها العقل ، ويشير إلى بذل الجهود لإرجاع عبادة آلهة رومة القديمة إلى عهدها الأول ، وإن كان هو نفسه يؤمن بنوع غامض من وحدة الوجود (٤٥) . ولقد تأثر بكاتو وپوليبيوس فألقى بنفسه في تيار سياسة أغسطس الدلية وإن لم يكن من المؤمنين بمبادئها ، كما نهج منهج فرجيل في تقواه الريفية .

وكانما أراد فارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر في جميع الميادين فأكمل كتاب الرقيب المعروف باسم « الأصول Oirgines » في كتابه هو المسمى « حياة الشعب الرومانى » - وهو كتاب في تاريخ الحضارة الرومانية . ومما يؤسف له أن الدهر

(٤٥) « روح العالم هو الله وأجزائه التى يكون منها أرباب حقه » (٤٥) .

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات ثارو تقريباً ، على حين أنه أبقى التراجم التي كتبها كرنليوس نيبوس **Cornelius Nepos** ، والتي لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس . لقد كان التاريخ في رومة فناً ، لم يضم إلى صفات الفن خصائص العلم ، ولم يرق حتى في كتابات تاسيتس **Tacitus** إلى درجة البعث الانتقادي وإلى تلخيص المصادر . ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد في ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعني به كيبوس سلسيتيوس كرسپس **Caius Sallustius Crispus** (٨٦ - ٣٥ ق . م) ، وقد قام كيبوس بعمل هام في السياسة والحرب إلى جانب قيصر ، وحكم نوميديا وبرع في السرقة ، وأنفق كثيراً من المال على النساء ، ثم ركن إلى حياة الترف والآداب في بيت له في رومة اشتهر فيما بعد بمحادثته الغناء وأصبح مسكناً للأهطارة . وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها . فقد كانت « التواريخ وصرح جوهرتين ، وكتلين » كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً غنياً على « الحرس القديم » . وقد أظهر فيها كلها ما كان في رومة من انحلال خلقي (*) ، واتهم مجلس الشيوخ والمحاكم بأنها ترفع حقوق المملكية فوق الحقوق الإنسانية ، ويُنطق ماريوس **Marius** بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية ، ويطالب بأن تفتح السبيل لذوى المواهب أيا كان مولدهم (٤٦) . ويزيد في تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحليل أخلاقية نفسية . وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريراً أصبح هو المثل الذي احتذاه تاسيتس **Tacitus** .

(*) يدعى ثارو أن أنيوس ميلو **Annius Milo** قد ضبطت سلسلتاً متهمة بجرمة الزنى فانها عليه ضرباً بالسياط ، ولم يطلقته إلا بعد أن أدى مبلغاً من المال (٤٦) . ولكن هذا أيضاً قد يكون سياسة لا تاريخاً .

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى في السوق العامة وفي المحكم ، شأنه في هذا الشأن جميع النثر الروماني في القرن الذي كان يعيش فيه سلسلت وفي القرن الذي يليه . ذلك أن تقدم مهنة القضاء ونشأة الديمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة العامة ، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عديدها على الرغم من عداة الحكومة لها . وفي هذا يقول شيشرون إنك تجد « الخطابة في كل مكان » ، وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير) ، ولوسيوس كراسس Lucius Crassus ، وسلبيوس روفوس Sulpicius Rufus ، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius . وفي وسعنا أن نتصور ما كان لهؤلاء الخطباء من رثاء قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون لهم كانت لا تتسع لهم السوق الهامة ، بل كانت تغص بهم الهياكل والشرفات المجاورة لها . وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنى أغنياء رومة . وقد ترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر (٤٦) ، وكان لإقاؤه قويا حيا حتى كان روسيوس وإيسوس وغيرهما من كبار الممثلين الدائمي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقاءه ؛ وقد حدثوا كاتو الأكبر فراجع خطبه ونشرها ، وهو الفن الذي وصل به منافسه شيشرون إلى ذروة الكمال ، والذي جعل للخطابة أبلغ الأثر في النثر الروماني كله ؛ ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى في البلاغة والرونق والقوة والجمال الذي يبلغ جمال اللغات الشرقية ؛ والحق أن الخطباء الشبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا يعيبون على ما يسمونه الأسلوب « الأسيوي » إسرافه في المحسنات اللفظية ، وفي إثارة عواطف السامعين ، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

وبروتس Brutus و بليو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة « الأتكي » الذي يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال . وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين « الإبداعية » و « الاتباعية » أى بين للنظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة ، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب ؛ وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعي يجأرون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومة على أمرها فى كل شىء حتى فى الخطابة نفسها ،

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الروماني ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأتيكية ، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة في فن الخطابة ، وقد لخص في بعضها تاريخ البلاغة الرومانية في حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التي يجب اتباعها في تأليف الخطب وفي الإيقاع والإلقاء . ولم يسلم في هذه الرسائل بأن أسلوبه « أسوي » ، وقال إنه قد حدا فيه حدو دمستين Demosthenes واتهم « الأتيكيين » بأن خطبهم الفاترة الحالية من العواطف تقيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التي وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الحيل التي يلجأ إليها الخطباء الناجحون ، فهي توفى على الغاية في عرض ناحية واحدة من نواحي الموضوع الذي يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماسة ؛ وفي إدخال السرور على المستمعين بالقكاهات والنوادر ؛ وفي إثارة كبرياتهم وأهوائهم ، وعواطفهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم ؛ وفي عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاه سواء كانت صحيحة أو مما يرونها للناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ؛ وبخلفه في تحويل انتباه السامعين من النقط التي في غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكيل التهم في جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ؛ ولا تدعى هذه الخطب أنها عادلة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهي خلاصات يستغل من

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة في المسارح ، ولكنها مباحة في السوق العامة وفي ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون في أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القنطرة » ؛ ويقول لپيزو **Piso** إن العذارى يقتلن أنفسهن ليبتقين شر عهده ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمخلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد . ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى پيزو رسائل تفيض ودا وصدافة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه في **In Pisonem** . وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن في خطب شيشرون من الأناية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، بل إن فيها من الأناية والبلاغة أكثر مما فيها من الغبطة أو التعمق القالوني ، ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط . إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الحيوى ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبني الإنسان ؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فائقة ، وقوة عاطفية وجمال ؛ لقد كانت خطبه أسهى ما وصل إليه النثر اللاتيني ؛ وقد كتب إليه قيصر الكريم وهو يهدى إليه كتابه « في التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ؛ لقد نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد ، لأن الذهن البشرى أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية » (١٧) .

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية . لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستنتشر على الملأ ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

وسريته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريته ؛ وفي ذلك يقول نيبوس Nepos « لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك أن في وضع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ؛ وأسلوبها في الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، مليء بالملح والفكاهات^(٤٩) ، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغة الدارجة . وهي أكثر ما بقي من آثار شيشرون . بل من النثر اللاتيني كله طرافة ومثابة ؛ ومن الطبيعي أن نجد في هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهي تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص . وليس فيها كلها أثر واحد للثقى والإيمان اللذين يطالعاننا كثيرا في مقالات شيشرون أو في تلك الخطب التي يجعل الآلهة فيها ماجأه الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص في كثير من الناس ، وخاصة في قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة^(٥٠) ، وفيها يظهر غروره الشديد الذي لا يكاد يصدق العقل ألطف وأحب إلى النفس مما يظهر في خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب . وهو يقر مبسما بأن « تقديري لنفسي وثنائي عليها أعظم الأشياء قدراً عندي »^(٥١) ؛ ويؤكد لنا في سداجة ساحرة أنه « إذا كان في الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا »^(٥٢) . ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال ، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة . فقد كان له فضلاء عن بيوته ذات الحدائق في أربينوم Arpinum وأستورى Asturae وبتيولي وبي Pompeii كان له فضلاء عن هذه البيوت ضيعة في فورميا Formiae تبلغ قيمتها ٢٥٠٠٠٠ سسترس ، وأخرى في تسكولوم Tusculum تساوى ٥٠٠٠٠٠ ، وقصر على تل پلاتين

Palatine كلفه ٣٠٠٠٠٠ ر (*). ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شذيفة مشينة إذا ما اتصف بها الفيلسوف .

ولكن هل في الناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة؟ والحق أن الإنسان إذا أمعن في قراءة هذه الرسائل يكاد يجب هذا الرجل . إنه في واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور في نثر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملاً مجداً ، وأباً رحماً ، وصديقاً وفياً ؛ وفي وسعنا أن نراه بيته مولعاً بكتبه وبأبنائه ، يحاول أن يحب زوجته ترنتيا Terentia الغضوب المصابة بالثرثبة والتي لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة . ولقد أوتي هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة ، وكانت متاعهما ومنازعاتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة ، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن هلى المال نشأ بينهما ، ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج بيبليا Publia ؛ وقد استلقت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن ، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا Tullia طلقها هي الأخرى ، وكان يجب تليا أشد الحب ، فلما ماتت حزن عليها حزناً كاد يذهب بعقله ، وأراد أن يشيد لها معبداً كمعابد الآلهة . ومن ألطف رسائل شيشرون رسائله التي كتبها إلى تيرو Tiro كبير أمناء سره والتي كتبها عنه . وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مختزلاً ، ويشرف له على أمواله بقدره وأمانة كافأه عليهما شيشرون بتحريره من الرق . وأكثر الخطابات عدداً هي التي كتبها إلى أنكس Atticus الذي كان

(*) وهذا المبلغ الأخير اقترضه شيشرون من أحد عملائه . ولسنا نعرف هل رده له أو لم يرده . وقد كان المحامون يقترضون المال من عملائهم لأن القانون يحرم عليهم أن يتقاضوا منهم أجوراً . وكان من الوسائل الأخرى التي يستحوذون بها على المال من عملائهم ألا يتسامح هؤلاء في رصايهم . وقد ورث شيشرون هذه الوسائل وغيرها عشرين مليون سسترس في ثلاثين عاماً (٥٣) . إن أخلاق الناس وطبائعهم لتبدل دستير الدول .

يستثمر لشيخرون أمواله المدخررة والذى أنجاه من عدة ورطات مالية ،
ونشر له مؤلفاته ، وأسدى إليه من النصح السديد ما لم يعمل به . وقد
كتب شيخرون إلى أتكس ، وكان غائبا فى بلاد اليونان عن حكمة وفطنة
حين بلغت الثورة عنفوانها ، مخاطبا يعد مضرب المثل فى الوفاء وعدوبة
اللفظ قال فيه :

لست أشعر بحاجة أشد من حاجتى إلى من أستطيع أن أفضى إليه
بكل ما يتصل بى ، ومن يحببى ، ومن أثق بحزمه وحصافة رأيه ، ومن
أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ . إن أخى الذى يفيض
بصراحة وحنانا غائب عنى . . . وأنت يا من أنجيتنى من متاعبى وأسباب
قلقى برأيك السديد ، ويا من كنت رفيقى فى الشؤون العامة وموضع ثقى
فى جميع شئونى الخاصة . وشريكى فى جميع أقوالى وأفكارى - أين أنت؟ (٥٤)

وبينا كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر
الروبيكون وهزم بيمبي ، ونصب نفسه حاكما بأمره ، اعتزل شيخرون
الحياة العامة إلى حين وأخذ ينشد الراحة من عنائها فى قراءة الفلسفة
والكتابة فيها . وقد كتب إلى أتكس فى ذلك الوقت يقول له : « تذكر
ما وعدتني به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لى . لى أحها أعظم
الحب ، وتشمز نفسى أشد الاشمزاز من كل ما عداها » (٥٥) . وقد عمل
وقتئذ بما كان ينصح به غيره ، وأصدر فى فترة لا تزيد إلا قليلا على
سنتين ما يكاد يكون مكتبة فى الفلسفة (*) . ذلك أن ضعف العقيدة
الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغا أخلاقيا لاح .

(*) De Republica ، ٤ ، De Legibus ، ٥ ، Academia De Consolatione
and De Finibus ، ٤ ، De Narure Dcorum ، De Divinatioen ، De Fato ، De
Virtutibus ، De Officiis De Amicitia ، De Senectute ، De Go oria ، Disputaciones
Tusclianae

وكل هذه فى سنة ٤٤ ق . م وفى ماى ٤٥ - ٤٤ ألف شيخرون خمسة كتب
فى فن الخطابة .

أن رومة تزدى فى مهاوى الانحلال الخلقى والاجتماعى . وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين فتهدى هذه الطبقات إلى الحياة الطبية ، وتحضرها لأن تحيا هذه الحياة ؛ ولم يكن يعززم أن يضيف إلى النظم الفاسفية السابقة نظاما جديداً ، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم فى حياته (٥٧) . وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر فى غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحسدين (٥٨) ، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفاً جديداً ؛ بل إنه فى بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل ؛ ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الخاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة ، واضحة ، جذابة ، وجمل بحوثه بالحوار . وكان يتنقل فيها تنقل سريعاً من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجذباء ، إلى المشاكل الحية ، مشاكل السلوك وحكم البلاد . وقد اضطر كما اضطر لكريشيوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة ، ونجح فى هذا نجاحاً جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كليهما . والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون مثل الذى ازدانت به فى عهد شيشرون . وكان أفلاطون هو الذى استمد منه شيشرون معظم أفكاره ؛ ذلك بأنه لم يكن يجب تحكم الأبيقوريين الذين « يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الواثقين ، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا اساعتهم من مجتمع الآلهة » . وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقين الذين يلون الحجج عن قصد وتعمد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسهم إنما وجدت لمنفعة الآدميين (٥٩) . وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه فى بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل . وكانت النقطة التى بدأ منها فلسفته هى بعينها بداية فلسفة الأنديمية الجديدة The New Academy — أى التشكك الهين الذى لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد ، والذى يرى فى الاحتمالات الراجعة ما يكفى مطالب الحياة البشرية ؛

وفي ذلك يقول في بعض كتاباته : « إن فلسفتي في معظم الحالات هي فلسفة الشك (٦٠) ولعلمكم تأذنون لي ألا أعرف ما لا أعرفه » (٦١) . ويقول ، في موضع آخر : « إن الذين يريدون أن يعرفوا رأيي الشخصي يظهرون قدراً من التشوف لا يقره العقل » (٦٢) . ولكن ما أوتي من قدرة فائقة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته ؛ فهزأ بالتضحيات الدينية ، والهاتفين والعرافين . ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب ، ويتساءل في معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم ، وهو الاعتقاد الذي كان واسع الانتشار في تلك الأيام ، هل كل من قتلوا في واقعة كافي قد ولدوا في مطلع نجم واحد (٦٣) . بل إنه ليشك في أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه ، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريها كغيره من الحقائق الكثرية التي يدفعا حممنا إلى الجري وراءها . ويظن شيشرون أن في مقدوره أن يقضى على العقائد القديمة كلها قضاء مبرما بالسخرية منها والاستهزاء بها . فيقول مثلاً : « إذا سميت الحب سيريز Ceres (*) وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة ، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذي يعتقد معه أن ما يأكاه إله بحق » (٦٣) . على أن شكه في الإلحاد لم يكن يقل عن شكه في أية عقيدة تحكيمية أخرى . فهو يرفض العقيدة اللرية (**) التي كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس ، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهدها ولو ظلت تفعل كذلك أبد الدهر ، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنسا الذي نعيش فيه . وشأنها في ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها « هولبات إنيوس » (٦٤) . ويقول إن

(*) سيريز هو الاسم الروماني لديمتر Demeter إلهة الحرث والحب عند اليونان .

(**) هي العقيدة القائلة بأن الذرات قد تجتمعت ونظمت نفسها فنشأ الكون من ذلك

(الترجم)

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفي في حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة : ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام ، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل (٦٥) ؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمي في الوقت الذي كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة . ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح ، ولعله كان يسميه سياسة وحسن تصرف . ذلك أن الأخلاق الرومانية ، والمجتمع الروماني ، ونظام الحكم فيه ، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم ، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كى يموت . (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمثل هذه الحجج) . ولما توفيت تاليا التي كان يجبها أعظم الحب ، اشتدت به نزعة الأمل في الخلود . وكان قبل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعار من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس في « حلم سيبو » الذي اختتم به « مهورية » أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت ، ينعم فيها الموتى من العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى . أما في رسائله الخاصة - وحتى في رسائله التي يواسي فيها الثاكليين من أصدقائه - فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة .

وإذ كان على علم بما يسرى في أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التي أقام عليها بجهته في الأخلاق والسياسة كانت أساساً دنيوية محضة ، لا تعتمد قط على تأييد غير تأييد القوى الطبيعية : فهو يبدأ (في De Finibus) بالتساؤل عن الطريق الموصل إلى السعادة . ثم يوافق الرواقين في شيء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفي للوصول إليها ، ومن أجل هذا تراه (في De Efficiis) يبحث عن طريق الفضيلة . ويفلح بفضل جمال أسلوبه في أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين ، وفي ذلك يقول : « الناس جميعاً إخوة ، وخليق بنا أن نعد العالم كله مدينة مشتركة للآلهة والبشر على السواء » (٦٦) . ثم يواصل حديثه قائلاً إن

اسمى المبادئ الخلقية هي الولاء لهذا الكل ، ولاء يكون الحافظ له هو الضمير الحى . وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللمجتمع ، أن يقيم حياته على أساس اقتصادى سليم ، وعليه بعدئذ أن يؤدي واجباته بوصفه مواطناً فى بلده ، والسياسة الحكيمة أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية (٦٧) .

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحاً ، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً - وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت فى رومة نفسها ، وعنده أن الحكومات الأرسقراطية تصالح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقاً ، ولكن شذشرون ، وهو من أفراد الطبقة الوسطى ، لا يسلم تسليماً مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرسقراطيتها خير الأسر . والحكم الديمقراطى فى رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلاً ، وهذا فى ظنه لا يكون أبداً . هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون . ولذلك كان خير الحكومات هى التى تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومة قبل عهد ابنى جراكس ، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الديمقراطية ، وِساطة مجلس الشيوخ الأرسقراطية ، وسلطة القنصايين التى لا تكاد تقل عن سلطة الملوك فى السنة التى يتولىان فيها منصبهما . والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازن تصيح حكومة استبدادية ، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرسقراطية ألجركية ، وتجعل الديمقراطية حكم الفوغاء وتستحيل إلى فوضى وطغيان . وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية ، وكأنه فيما كتب كان يصوب السهم إلى صدر قيصر :

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينبتون من مغالاة الناس فى التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، كما ينبت النبات من الجذور . . . وإن هذه الحرية تهوى بالأمة آخر الأمر إلى درك الاستعباد . . . إن كل شىء يزيد على

حده ينقلب إلى ضده . . . وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم بسيط عليها تختار من بينها في العادة زعيما يتودها . . . وهو إنسان جرىء لا ضمير له . . . يسمى لنيل رضا الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم . ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام ، ويجددون له هذه الحماية على الدوام ، فيحيط نفسه بحرس مسلح ، وينتهى به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذي حباه القوة والسلطان (٦٨) .

ولكن قيصراً رغم هذا نال بغيته ، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد في القانون ، والصداقة ، والحج ، والشيخوخة ، وبأن « القوانين تلتزم الصمت في أيام الحرب » *Silent lege enter arma* على حد قوله هو نفسه . على أنه كان في وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير في فلسفة القانون ، وقد عرفه كما عرفه الرواقيون بأنه « التفكير الصحيح المتفق مع الطبيعة » (٦٩) أي أن القانون يعمل لجعل الصلات التي تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلات منظمة مستقرة . وفي ذلك يقول إن « الطبيعة قد غرست في نفوسنا الميل إلى حب الناس » (المجتمع) ، « وهذا هو أصل القانون » (٧٠) ويرى شيشرون أن الصداقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التي تدعمها ، وتحدها الفضيلة والعدالة ، وأن قانون الصداقة هو « ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة ، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها (٧١) ، وعنده أن الحياة الشريفة هي خير ضمان للشيخوخة السارة ، وأن الاستهتار والإسراف في أيام الصبا يتركان للشيخوخة جسماً محطاً منهوكاً قبل الأوان . أما الحياة التي تقضى على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين ، ولنضرب لذلك ماسينسا *Masinassa* والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان « يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية » (٧٢) . وللشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجاده - ففيها الحكمة المتسامية ،

وفيها حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم ، وفيها تنهياً عن الرغبات والمطامح . وقد تخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كوّنته الفلسفة ، فأدرك أن وراء القبر ، في أحسن الأحوال ، حياة جديدة أسعد من الحياة الدنيا وفي أسوأها راحة من عنائها (٧٣) .

وفي وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون في الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر ، وأنها كآرائه في الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية . وسبب ذلك أنه وإن أوتي تشوف العالم فقد أوتي معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم . ولذلك ظل في فلسفته نفسها سياسياً يكره أن يسقى إلى شخص واحد من الناس ، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب . وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويجيد الموازنة بين ما لها وما عليها ، فإذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذي دخل منه ، لا يدري أى الكفتين ترجح على الأخرى . ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لعنى عليها الزمان ، ولما بقي لها ذكر الآن . فما أجمل لاتينية شيشرون وما أسهل قراءتها ، وما أسلس لغتها وأوضحها ! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التي تسرى في خطبه ففسرعى الأسماع وتسحر الألباب ، وإذا وصف شخصاً أظهر في هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخي رومة (٧٤) ، وإذا انطلق في الخطابة أفاض على السامعُ جُملاً متزنة ، جميلة اللفظ ، قوية العبارة ، مما أخذته عن إيزوقراطيس Isocrates ، وجعل السوق العامة تدوى بالتصفيق والاستحسان .

إن آراء شيشرون هي آراء الطبقات العليا ، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب ؛ ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكي يكون

هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه ، وأن تكون الحقائق التي يوردها
بما همز مشاعر السامعين هزاً ، وهو يمزج المعنويات بالنواتر والفكاهات ،
وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً ،
فوسّع نطاق مفرداتها ، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة ،
وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوروبا الغربية سبعة عشر قرناً
من الزمان . وإن الأجيال التي جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر
منه رجل سياسة ، ولما أن نسي الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال
مجيده ، أو كادوا ينسونها ، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ،
ظلوا يمجّدون فتوحه في عالم الأدب والفصاحة . وإذا كان من عادة الناس
أن يمجّدوا الصورة كما يمجّدون المادة ، وأن يعظموا الفن كما يعظمون
العلم والسلطان ، فقد نال شيشرون ، دون سائر الرومان ، من الشهرة
ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده ، ولم يغفر هو لرومة هذا الاستثناء
الوحيد .

الباب التاسع

قيصر

١٠٠ - ٤٤ ق م

الفصل الأول

الرقيع

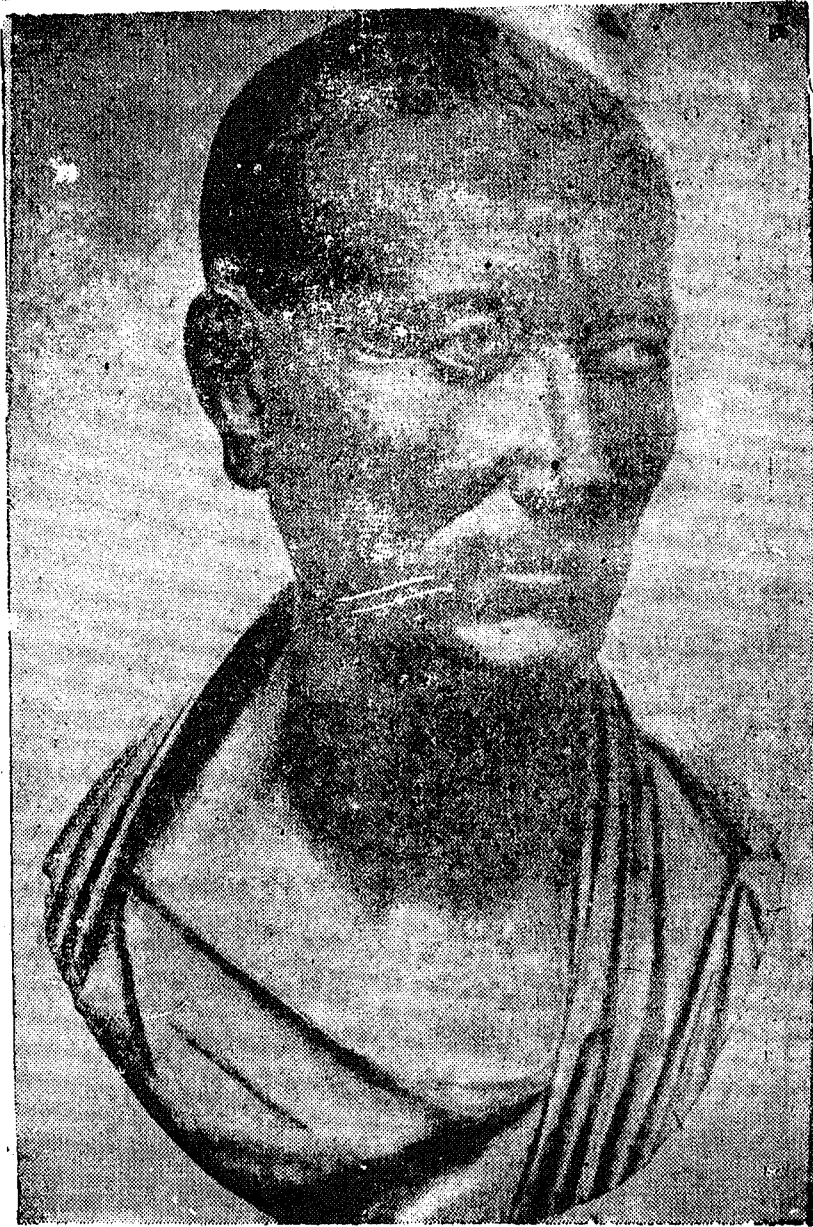
يقول يوليوس قيصر انه ينتمى إلى يولوس أسكانيوس *Julus Ascanius* ابن إينياس *Aeneas* ابن فينوس *Venus* الزهرة) ابنة جوبيتر : أى أنه بدأ حياته إلها واختتمها إلها : وكان آل يوليوس من أقدم الأسر في إيطاليا وأعلاها شرفاً ، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بما لها وأقرها ، فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلا في عام ٤٨٩ ، وكان منها قنصل آخر في عام ٤٨٢ ، وكان ثوبسكس يوليوس *Vopiscus Julius* قنصلا في عام ٤٧٣ ، وسكستس يوليوس *Sextus Julius* في عام ١٥٧ ، وآخر في عام ١٠٩(١) : وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس - كما يرث الناس في بعض الأحيان عن أعمامهم - ميلا إلى المبادئ السياسية المتطرفة ، وكانت أمه أورليا سيده وقورة حكيمة مقتصدة في تدبير شئون بيتها الصغير ، وكان هذا البيت في حى سابورة - وهو حى من الطراز القديم ، ومن الأحياء التي تكثر فيها الخوانيت والحانات والمواخير : في هذا البيت

ولد قيصر في عام ١٠٠ ق . م ، وكان مولده نتيجة لجراحة هي التي كانت سبباً في تسميته باسمه الأول(*) .

ويقول سيوتونيوس Suetonius فيما نقله عنه هلند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القياد إلى حد يدعو للعجب ، كما كان شديد الميل إلى التعلم « ، وكان المعلم الذي يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلاً من الغالين . وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها . ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيماً للخطابة ، وبدأ في شبابه يكتب ويؤلف . ثم أنقذه من هذه النزعة تقيينه.ياوراً حربياً للاركس ثرمس Marcus Thermus في آسية . وأجبه تقوميدس Nicomedes وإلى بيشنيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرارين المغتابين إلى أن يعبروه بأنه « أسلم عذرتة لملك » (٢) . ولما عاد إلى رومة في عام ٨٤ تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه . فلما أن توفي والده بعد زواجه منها بزمن قليل طلقها وتزوج كورنليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذي تولى قيادة الثورة بعد ماريوس . ولما تولى صلا زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر صلا أملاكه التي ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه في المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب في قليقية ، حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة (٧٥) . ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهي فيها غادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة في الطريق واقتادوه إلى كمين لم في قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقه واسرّاحه نظير فدية قدرها عشرون

(*) وكانت الجراحات حتى في ذلك الوقت البعيد وسيلة قديمة من وسائل الولادة . وقد ورد ذكرها في القوانين المنزوة إلى نوما Numa . على أن اسم قيصر لم يكن مشتقاً من هذه الجراحة (Caesus ad utero matris) فقد سمي به من قبله كثيرون من أسرة اليوليوسيين .



(شكل ١١) قيصر من حجر البازلت الأسود - متحف برلين

ثالثتا (٧٢٠٠٠ ريال أمريكي) ، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدروه حق قدره ، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين ثالثتا . وأرسل خدمه ليأتوه بالمال ، وأخذ في هذه الأثناء يسلي نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على أسريه ، فلما لم تعجبهم قصائده سماهم برابرة همجا ، وأوعدهم بأنه سيشتقهم في أول فرصة تتاح له . ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس *Miletus* وأعد السفن والملاحين ، وطارد القراصنة وقبض عليهم ، واستعاد منهم الفداء ، وصلبهم ؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولا (٣) ، وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة .

ولما عاد إلى رومة وزع جهوده بين السياسة والحب : وكان ويسم الوجه وإن كان تسقوط شعر رأسه في هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله . ولما توفيت كرنليا في عام ٦٨ تزوج ممبيا ابنة حفيدة صلا ، وإذ كان هذا الزواج زواجا سياسيا محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجلسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت ؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن القنوع الشاذ حداً جعل كوريا *Curia* (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه « زوج كل امرأة وزوجة كل رجل *omnium mulierum vir et omnium virorum mulier* » (٤) . وظل يتبع هذه العادات نفسها في حروبه فيبعث مع كليوباترة في مصر ، ومع الملكة إيونو *Eunoe* في نوميديا ، ومع كثيرات من النساء في غالة ، حتى كان جنوده يلقبونه في مزاحهم بلقب « الزاني الأصلع » . ولما تم له النصر في بلاد الغالين أخذ جنوده ينشدون بيتين من الشعر المقتفي يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم ما دام قبصر في المدينة . وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم ، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم ؛ وطلق ممبي زوجته لاتصالها بقبصر ، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختا له غير شقيقة تدعى

سرفليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له ، ولما ارتاب كاتو في صلات قيصر بكاتنين وظنه شريكاً له في مؤامره طلب إليه في مجلس الشيوخ أن يقرأ جهره رسالة جيء بها إليه في تلك اللحظة ، فإذ كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها ، فإذا هي رسالة حب بعثت بها إليه سرفليا (٥) . وظلت تميم بحبه طوال حياته ، وكانت أسنة السوء القاسية تتهمها في أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشيح شهواته . وحدث في مزاد علني أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرفليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بشمن اسمي زهيد . ولما أظهر بعضهم دهشته من ضالة الثمن قال شيشرون في سخرية لاذعة كانت خبايعة بأن تطيح برأسه إنه *tertia deducta* ، وهي عبارة تحمل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن « ينقص ثلثه » وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهي أن سرفليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر . وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر ، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التي تندلع نيرانها في الدول .

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات ، وراعلها أيضاً قد أعانت على سقوطه . فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع ، وبخاصة في معسكرات الأعداء ؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تزيد على الحجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء . من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالاً طائلة ليستخدمها في الدعاية لنفسه وهو يطالب بالقنصلية فيرشو بها الشعب ، ويقيم له الألعاب ، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر .

وحسبك دليلاً على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان في يوم ما مديناً له بثمانمائة تالنت (٢٨٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) . ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصدقة ، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها في الحملات

تود إليهم في صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية ؛ فقد كان كراسس - كما كان أنكس - في حاجة إلى من يحمي ملايينه ويتابع له فرص استثمارها . وكان معظم الساسة الرومان في ذلك الوقت ينوعون بمثل هذه « الديون » . فقد كان ماركس أنطونيوس مثلاً مديناً بنحو ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ روماني ، وسيسرون بستين مليوناً ، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة .

وجملة القول أن علينا أن نتمثل قيصر في أول حياته في صورة السياسي الذي لا ضمير له ، والرقيع المستهتر ، الذي بدلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدار رجال الحكم وأرعاهم المحرمات في تاريخ العالم . وينبغي لنا - ونحن نظرب من عيوبه ونقائصه - ألا ننسى أنه كان رجلاً عظيماً على الرغم من هذه العيوب والنقائص . وليس في وسعنا أن نسوي بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضلل بالنساء ، ويزشو الزعماء ، ويؤلف الكتب .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذي قاومه في شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية . وكان كل فتح حربي جديد يزيد في ثراء رومة كما يزيد في فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت نمارها عدداً حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر هائق قائم في سبيل الانقسام والفتن في المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان ؛

الفصل الثاني

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سراً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومة . ذلك أنه لم يكذب يمضي عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيوس دلابلا Onaeus Dolabella أحد العاملين في حركة صلا الرجعية ، وكان قرار المخلفين على غير ما يشتهي قيصر ، ولكن العامة هلت له حين هاجم ذلك القرار في خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الديمقراطية ، نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون في تحمسه وفكاهته ، أو في جملة الموزونة القوية ، أو في حدة لسانه . والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون « الأسوي » لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوي ذا البساطة الصارمة التي امتازت بها فيما بعد « تعليقاته » على الحربين الغالية والأهلية . على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء في رومة إذا استثنينا شيشرون نفسه^(٦) .

واختير قيصر كوسترا في عام ٦٨ ، وأرسل للعمل في أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التي سيرت لتأديب القبائل الوطنية ، فخرّب مدنها ، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون . على أن هذه المدن قد حمدت له في الوقت نفسه أن خفض فوائده قروضها من المالبين الرومان ، ولما قدم إلى مدينة جاذز وشاهد فيها تمثالا للإسكندر الأكبر أخذ يَوْم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل في مثل السن التي قنح القتي المقدوني حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط .

ثم عاد بعدئذ إلى رومة واندفع في الصراع القائم وقتئذ في سبيل المنصب والسلطان . فاختر إيديلا أو مشرفاً على المياني العامة في عام ٦٥ ، وأنفق أمواله

- أى أموال كراسس - فى تزوين السوق العامة بما أقامه فيها من المباني والأعمدة الحديدية ؛ وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب ، وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته ، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها واغتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط ، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس ؛ واحتج المحافظون على هذه السياسة ، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه .

وكان فى عام ٦٤ ق . م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل ، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل ، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام . وفى عام ٦٣ ق . م اقترح فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين ، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد المات (٧) ؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسيء فيه إلى أحد . واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الرومانى *pontifex maximus* ثم اختير فى عام ٦٢ بريتورا *praetor* وأمر فى ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاس بعض الأموال العامة . وفى عام ٦١ عين والياً على أسبانيا ولكن دائنيه حالوا بينه وبين السفر إليها ، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥٠٠٠٠٠ سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً قط ، فتقدم كراسس لمعونته وضممته فى جميع ديونه . وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسبانيا ، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية . وعاد بعدها إلى رومة ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم . ولعل

الأشراف قد أظهروا بعمالهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأي ، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية ، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد ، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال - وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب . ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره ، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتها .

وكان سبب نجاحه مهارته في ضم پمبي إلى قضية الحرية . وكان پمبي قد عاد توأ من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المحيطة ، فقد طهر البحر من القراصنة ، وأمن بذلك سبل التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، وأعاد الرخاء إلى المدن التي كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة . وكان قد أرضى أصحاب المال في رومة بفتح بيشنيا وبنفس وسوريا ، وكان قد خلع ماوكا وأجلس على العرش آخرين ، وأقرضهم الأموال من غنائه الحربية بفوائد باهظة ، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذي دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لبيبها في تلك البلاد . ثم عاد فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع (٩) ، ونشر لواء السلام في ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومة ، وأنشأ تسعا وثلاثين مدينة جديدة ، وأقر حكم القانون والنظام والسلام . وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسى الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير . فإما رجع إلى رومة حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب ، والحراج ، والبضائع التي غنمها في حروبه ، ومن الأموال التي افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها ، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتي مايون سسترس ، وأن يضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلثمائة وخمسون مليوناً ، وأن يوزع على جنوده ثلثمائة وأربعة وثمانين مليوناً ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها ، فلما علم أن پمپی قد نزل في برنذريوم^(٦٢) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص ، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكماً بأمره على البلاد ، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب . ولكن پمپی كان رجلاً كريماً عظيماً ، فسرح جنوده ودخل رومة وليس معه إلا أتباعه الأخصاء . ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين ، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التي تصور انتصاراته وتظهر مغامته .

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنيناً ، فرفض طلبه القاضي بتوزيع الأرض على جنوده ، ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين ، وأعاد التظم التي أقامها من قبله لوكلس في بلاد الشرق والتي أغفلها پمپی . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات *Concordi ordinum* ، وأن ألقى پمپی والرأسماليين في أحضان الطبقات الدنيا واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن پمپی وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى^(٦٣) وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهم . واتفق پمپی أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلاً ، كما تعهد قيصر ، إذا ما اختير لهذا المنصب ، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها پمپی ورفضها مجلس الشيوخ .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين . ولما سمع كاتوزعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل ، واختار العامة قيصر كما اختار الأشرف پيباوس *Pibulus* . وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (٥٩) حتى عرض على مجلس الشيوخ

المطالب التي تقدم بها پمپي : وهي توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود پمپي ، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها پمپي في بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التي تعهد زمواد بجزء منها من ولايات آسية بمقدار ثلثها .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابنا جراكس ، فعرضها على الجمعية مباشرة : واستطاع المحافظون أن يقنعوا پبيلوس ، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها : ولم بأبه قيصر لأقوال العرافين ، وحمل الجمعية على أن تتهم پبيلوس بالخيانة ، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس پبيلوس .

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر ، وكانت تجمع ، كما تجمع مشروعات ابني جراكس ، بين السياسة الزراعية وخطة مالية ترضى رجال الأعمال . وأعجب پمپي بوفاء قيصر بعهده ، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له ، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصدقة . وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا پبيلوس كلوديوس Publius Clodius في أن ينتخب تريبونا في خريف عام ٥٩ ، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضاء الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة .

وتقدم قيصر بمشروعه الثاني الخاض بتوزيع الأراضي في شهر إبريل من ذلك العام نفسه . وكان هذا المشروع يقضى بتوزيع الأراضي التي تملكها الدولة في كمانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ، وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى ، وأجازت الجمعية المشروع ، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابني جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة : ولزم پبيلوس Bibulus في ذلك الوقت بيته واكتفى بأن أخذ يصدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير موثوقة للتشريعات الجديدة : أما قيصر فكان يصرف الشؤون العامة

من غير ان يسدشيره فيها ، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل
المدينة يصفون هذا العام بأنه « قنصلية يوليوس وقيصر » . وأراد أن يفرض
رقابة الشعب على مجلس الشيوخ ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية ، بأن جعل
الكتابة يسجون أعمال الشيوخ وغيرهم ، مضافة إلى الأخبار اليومية ، ثم تعلق
هذه « الأعمال اليومية » Acta Diurna على جدران السوق العامة ، وتكتب
التقارير من هذه « الأعمال اليومية » ، بحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية
رُسل يخصصون لهذا العمل .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفاح قيصر فى أن يعين
والياً على بلاد الغالة الجنوبية . وغالة ناربونة فى الخمس تسنين التى تلى سنة
القنصلية . وإذ كان القانون يحرم إقامة الجنود فى إيطاليا نفسها فإن قيادة
الفيالق المقيمة فى شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على
شبه الجزيرة بأكملها . وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة ،
فعمل على أن ينتخب صديقه جابنيوس Gabinius وبيزو Piso قنصلين
فى عام ٥٨ ، وتزوج كاهرنيا Calpurnia ابنة بيزو ؛ ولكى يضمن
استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تريبوناً
فى عام ٥٨ . ولم يحز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقه الحديث لزوجته
لثالثة مهبيا بسبب ارتيابه فى صلاتها غير المشروعة بكلوديوس .

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان بلبليوس كلوديوس بلشر Publiws Claudius Pulcher أى بلبليوس كلوديوس الجميل فرعاً من دوحه آل كلوديوس . وكان شاباً أرسقراطياً باسلاً لا يهاب الردى ولا يتورع من اللناحية الخلقية عن اقرار أية موبقة . وقد نزل من مرتبته السامية ، كما نزل منها كاتلين وقيصر ، ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء ، وأراد أن يكون من حقه أن يختار ترببونا فأقنع إحدى الأسر الفتميرة فى أن تنبناه، وأراد أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدي بعض الطبقات فى رومة ، وأن يقضى على شيشرون - وكان قد استطال فى عرض أخته كلوديا وأخذ يلدابع عن حرمة المراكية - فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة . وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته ، واحتمال للوصول إليها بأن تزنى بزى امرأة ودخل بيت قيصر ، ثم تزنى بزى كاهن واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea . ثم افترض سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها ، وحوكم على هذه التهمة . ولما نودى على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس . فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه بمبها قال إن سبب هذا الطلاق هو « أن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات » .

وكانت هذه لإجابة لبقة تسمى إلى ذلك العون السياسى القيم ، ولا تسمى إليه هو ؛ وشهد كثيرون من اليهود بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا ، وأنه ضاجع أخته ترشياً بعد زواجها من لوكلس : واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن رومة فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنى ، ولكن

شيشرون شهد بأن كلوديهوس كان معه في رومة في ذلك اليوم نفسه . وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه ، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه ؛ ورشا كراسس عدداً من القضاة - بتحريض قيصر كما يقول بعضهم - ليحكموا في صالح كلوديهوس ، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون ، وبرئ كلوديهوس ؛ ولم بدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاصتبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب .

ولم يكف قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التي أصدرها إلغاء تاماً ؛ ولم يكتم كاتو رأيه في هذه القوانين اليوليوسية ، وطالب بمحوها مع سجلات القوانين الرومانية . وتردد مجلس الشيوخ في الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه المحافظ الرومانية ، ولكلوديهوس المسيطر على التريبونية ؛ وكان كاتو في عام ٦٣ قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام للقاضي بتوزيع الغلال على الأهلين بثمن بخس . وأراد كلوديهوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها ، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة ، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها . وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع مجتمعة ، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له ، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحاً . وإذا كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون ، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه ، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقد أقنع الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانيا في قبرص وإصدار قرار يقضى بنفى كل من يتسبب في قتل أى مواطن روماني دون أن يحصل على موافقة الجمعية ، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة . ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون ، ففر إلى

(٢٥ - ج ١ ، جلد ٣)

بلاد اليونان حيث خذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس في تكريمه والاحتفاء بمقدمه . وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون ، وهدم بيته القائم على تل الپالاتين Palatine .

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر ، فأخذ يهاجم پمپي وقيصر ، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب ، وكان جواب پمپي على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذي تقدم به كونتس Quintus أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومة أن يعود إليها . ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع في عاصمة الدولة ليبدوا رأيهم في هذا الاقتراح ، وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتشرف على عملية الاقتراح ، واستخدم پمپي رجلاً فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لناوأها ، وكانت نتيجة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء ، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات . على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه ، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومة بعد نفي دام عدة شهور (٥٧) ، وحيثه في طريقه من برنديزيوم إلى رومة جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته (١١) .

ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة پمپي ، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر ، نظراً سماحهما بعودته . وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالاً كثيرة ليغظم بها شئونه المالية من جديد ، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة (١٢) ، وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ .

ولما لاح في أفق رومة خطر نقص الحبوب مرة أخرى (٥٧) استطاع أن

يحصل ليمبي على تفويض عجيب ، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام في رومة ، وعلى جميع الدولة وتجارتها الخارجية ، واستطاع يمي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة ، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء ، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون : وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر في غالة . وفي عام ٤٤ أفلح في دفاعه عن حكم أولس جابنيوس *Aulus Gabinius* ، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية ، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف في الحصول عليها : وفي عام ٥٥ خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته بهجومه العنيف على وال روماني آخر يدعى كاپرنيوس *Calpurnius Piso* : ذلك أنه لم ينس قط أن يذو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه ، ونسى أن ابنة يذو كانت زوجة قيصر .

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق : م بعد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو يمي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعبرهم بحبة الشعب وعصاباته السفاحة : واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصائد كلفص *Calvus* وكاتلس *Catullus* الهجائية تصوب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية . وكلما توغل قيصر في بلاد الغالين ، وتواترت أنباء ما كان يلاقه فيها من الأخطار الكثيرة ، أخذ الأمل يدب من جديد في صدور الشخصيات النبيلة ، وقال شيشرون وقتئذ إن « من لم يممت بالنسيف مات بغيره » .

وإذا بجاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر ، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا يأترون مع أروستس Ariovistus القائد الجرمانى على اغتيال قيصر (١٣) . وسارع دمتيوس Domitius يرشح نفسه للتصليية ، ويعلن أنه إذا ما فاز بها فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر - أى أن قيصر سيتهم ويحاكم . وتلون شيشرون بلون الزمان ، فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر مايو فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

الفصل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر في عام ٥٨ ق . م مهام منصبه ، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية ، أى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا . وكان أريوفستس قد سار في عام ٧١ ق . م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى . وقدم لها القائد الألماني المعونة التي طلبتها ولكنه لم يغادر البلاد ، بل بقى فيها ليلسط حكمه على جميع القبائل الضاربة في شمال غالة الشر . واستنجدت قبيلة الإيدوى **Aedui** إحدى هذه القبائل برومة لتعينها على الألمان (٦١) . ونحو مجلس الشيوخ الحاكم الروماني على بلاد غالة النربونية حتى إجابة هذا الطلب ، ولكنه في الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لرومة . وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا في هذه الأثناء نهر الرين ، واستقروا في فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس ، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة ، وشرع يفتي نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها (١٤) .

وبدأت في الوقت عينه قبائل الهلثي **Helvetii** الضاربة حول جنيفاً تهاجر نحو الغرب ، وكانت عدتها نحو ٣٦٨,٠٠٠ ، وأندر قيصر بأن هذه القبائل تعزم اختراق بلاد غالة النربونية في طريقها إلى جنوبي فرنسا الغربي . ويصف ممسن **Mommsen** حركات هذه القبائل بقوله : « لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك في جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطي ، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التي انقضت فيها قبائل الألمانى والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية . . . بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت » (١٥) وأخذ قيصر يحتمل لإنقاذ رومة بينما كانت رومة نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وجند قيصر من ماله الخاص . ومن غير أن يرجع في ذلك إلى مجلس الشيوخ - وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه - نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع الفرق التي كانت تحت إمرته . ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره لبيحث الموقف معه . ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها ، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلثي ، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلثي معركة حامية عند بركتي Bibracte عاصمة الإيدوي ، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية . وانتصرت جيوش قيصر في هذه المعركة انتصاراً غير حاسم ، أقرب ما يكون إلى الهزيمة ، كما يقول قيصر نفسه ، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء . وعرض الهلثي أن يعودوا إلى موطنهم في سويسرا ، ووافق قيصر على أن يؤمنهم في عودتهم إليه ، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التي كانوا يحتلونها إلى حكم رومة . وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها ، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس . والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim*) ، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً ، كما يقول هو نفسه (٥٨) . وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل .

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفترق في شيء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومة ، وحينئذ في ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان . ولم تقنع هذه الحججة بعض الغالين فناروا ، واستعانوا عليه البلجي Belgae وهم قبيلة ألمانية كلتية

(•) على بعد عشرة أميال من شاطئ نهر الرين الغربي وعلى بعد ١٦٠ ميلاً جنوبي

قوية تسكن شمال غالة بين نهري السين والرين ، والتقى بهم قيصر على شواطئ نهر الآين Aisne وهزمهم ، ثم سار بسرعة خاطئة لم تمكن أعداءه من لم شعثهم ، والتقى بالسويسيون Suissiones ، والأمبياني Ambiani ، والرفياني Nervii ، والأدوتيشي Aduatici ، وهزم كلا منهم على انفراد ، ونهب بلادهم ، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين . وأعلن في ذلك الوقت فتح بلاد الغالة ، وكان في إعلانه هذا متعجلاً بعض الشيء ، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية ، ورفع العامة في رومة - ولم يكونوا يقلون في نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد - عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد . وعاد قيصر فعبّر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية ، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص في فيالقه ، ودعا بمجي وكراسس أن يقابلاه في لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التي يقوم بها المحافظون . وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دمتيوس Domitius فانفقوا على أن يتقدم بمجي وكراسس للقنصلية في عام ٥٥ ق : م منافسين له ؛ وعلى أن يعين بمجي والياً على أسبانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (٥٤ - ٥٠) ؛ وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (٥٣ - ٤٩) ، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية . وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التي غنمها من الغالين لخوض المعركة الانتخابية ؛ وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومة ليجد ببعضها أعمالاً للمتعطلين ، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه ، ويرفع ببعضها مكانته في أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة ؛ وحبيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية ، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التي كانت ترمى إلى إلغاء ما أصدره من القوانين . واختير بمجي وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغالين أن السلام أحلى من الحرية .

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالي كولوني تنذر بالشمر المستطير ،
عبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلجيكية ، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا
لييج Liege ، واستعانهما الحزب الوطني في غالة على الرومان ، والتقى
قيصر بالغزاة عند أكسانتن Xanten (٥٥) ، وصددهم إلى نهر الرين ،
وقتل منهم كل من لم يمت في النهر غرقاً رجالاً كانوا أو نساءً أو أطفالاً .
ثم أقام مهندسوه في عشرة أيام جسراً على النهر العظيم ، وكان عرضه وقتئذ
١٤٠٠ قدم ، وعبرت عليه فيالتي قيصر ، وحاربت أعداءها في الأراض
الألمانية زمنياً يكفي لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية ، ثم عاد
بعد أسبوعين إلى بلاد غالة .

ولسنا نعرف السبب الذي حدا به إلى غزو بريطانيا في ذلك الوقت ،
ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب
والؤلؤ فيها ، أو لعله كان يرغب في الاستيلاء على ما في بريطانيا من
قصدير وحديد لتصدره رومة إلى البلاد الخارجية ، أو لعله قد أغضبه
ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغالين ، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية
في غالة آمنة من جميع جهاتها . ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة
صغيرة عبر بها بحر المنش في أضيق أجزاءه ، وهزم البريطانيين الذين
لم يكرنوا مستعدين لحربه ، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة ،
ثم قفل راجعاً (٥٥) . ولكنه عبر البحر إليها مرة أخرى في العام الثاني وهزم
البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelaunus ، ووصل إلى نهر التاميز ،
وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية ، ثم رجع إلى غالة .

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لها مرة أخرى بين
القبائل الغالية ، فلما عاد أخضع أولا الإبورون Eburones . ثم زحف على ألمانيا
(٥٣) . ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه في غالة الشمالية ، ثم ذهب
مع من بقي من هذا الجيش ليقضى الشتاء في شمالي إيطاليا ، وكان يرجو أن يخصص
بضعة شهور لإصلاح أسواره في رومة ، ولكنه سمع في أوائل عام ٥٢ أن

فرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغالين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً في حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها ؛ وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان في شمال إيطاليا ، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش في أيدي الثوار . ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق ثلوج جبال السثن Cevennes وهاجم مدينة أوفرنى Auvergne . ولما جاء فرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولى قيصر ديمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها ، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترقاً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال ، وانضم إلى جيشه الرئيسي ، وقاده من فوره إلى القتال ، وحاصر أفريكوم Avaricum (بورج Bourgas) وسنايوم Cenabum (أورليان Orleans) ، واستولى عليهما ، وأعمل فيهما السلب والنهب ، وقتل أهلها ، وملاً بكنوزهما خزائنه الخاوية . ثم زحف بجيشه على جرجنيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرتهم إلى الانسحاب وفي ذلك الوقت تهلّى عنه الأدويون الذين أنجاهم قبل من الألمان ، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء ، ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته في سواسون Soissons ، وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة الزيبونية .

وكان هذا هو الوقت الذى ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسو من قبل ولا من بعد ، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل في النجاة . وفي هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia (أليز سنت رين Alise Ste-Reine) ، وجازف بكل شيء في هذا الحصار لأن فرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده . وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠,٠٠٠ من الغالين بدءوا يزحفون نحو المدينة من الشمال . فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب ، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم ، وانقضت جيوش فرسنجتركس وحلفائه

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة ، ولكنها باءت في كل هجياتها بالخسران . وواصل الجيش المتقدم هجياته على هذا النحو أسبوعاً كاملاً ، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده ، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول في الساعة التي نفذت فيها موارد الرومان ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير حرب ، ثم استسلمت للرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (٥٢) . وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسها بسوء ، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم . وسيق فرسنجتركس مكبلاً بالأغلال إلى رومة حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر ، وجوزى بالقتل على حبه للحرية .

وقرر حصار إيزيا مصير بلاد غالة ، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية . ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعف مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية . يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة ، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة الجسد والثروة والسلطان . وظلت بلاد غالة عاماً آخر تشور ثورات متفرقة عقيمة ، أخذها قيصر بقسوة لم تألفها منه ، ثم خضعت لرومة وأسلمت لها أمورها . وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم ، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومة حين شبت فيها نار الحرب الأهلية ، ولم يكن في مقدورها ولا في مقدور قيصر أن يؤدبا هذه القبائل . وظلت بلاد غالة بعدئذ ثلثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء في ظلال السلم الرومانية ، وتعلمت في خلالها اللغة اللاتينية ، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التي نقلت بها ثقافة اليهود الغابرة إلى

شمالى أوروبا . ولا جدال فى أن قيصر ومعاصره لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى ، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا ، وضم لها ولاية جديدة ؛ وأنشأ لها جيشاً قوياً ، لكنه لم يدر بخلده أنه منشىء الحضارة الفرنسية .

ودهشت رومة إذ وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتره ملل ، وقائد محنك واسع الخيلة ، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيق ، وسياسى ، ومصالح . ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم . ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من رومة ، كان يسجل فتوحه فى غالة ، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries ، وقد سماها لإيجازها العسكرية - إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف - وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى . وحتى شيشرون نفسه ، بعد أن قلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية ، أخذ يتغنى بمدح قيصر ويستعجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال :

ليست معاقل الألب المنيعه ، ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة ، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغالين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدّها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لاستطعنا أن نحتفظ ببلادنا حضيئة منيعه بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة . ألا ما أعظم فضله علينا! (١٦) .

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أتى به عليه ألمائى عظيم إذ قال :
إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس وزومة المجيد بتاريخ أوروبا

الحديث ، الذي هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً ، وإذا كان غرب أوروبا رومانياً ، وإذا كانت أوروبا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة . . . فما ذلك كله إلا من عمل قيصر ؛ وإذا كان ما أوجده سلفه العظيم (*) في بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمها زعازع العصور الوسطى ، فإن الصرح الذي شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التي تبديت فيها الأديان وتغيرت الدولة (١٧)

(*) زويد الإمام كندر الأكبر . (المترجم)

الفصل الخامس

فساد الديمقراطية

انحطت السياسة الرومانية في خلال الخمس السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف ، فقد كان القنصلان يمي وكراسس يسيران في حكمهما هل خطة شراء أصوات الناخبين ، وإرهاب الخلفين ، والالتجاء إلى القتل في بعض الأحيان (١٨) ، ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا ، ثم عبر نهر الفرات ، والتقى بالپارثيين عند كرهية Carrhae ، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الپارثيين ، وقتل ولده في المعركة .

وبينا كان كراسس يرتد بقواته بظلام ، دعاه قائد الپارثيين إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن القائد الپارثي غدر به وقتله ، وأرسل رأسه ليحمل به دور بنثيوس Benteus في احتفال في بلاط ملك الپارثيين ، مثلت فيه مسرحية باخية Bacchae ليورپديز Euripidia . وأصبح جيشه بغير قيادة ، وكان قد مل القتال ، فانهلت عراه وتبدد شمله (٥٣) .

وكان يمي في هذه الأثناء قد جمع له جيشاً ، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا ، ولو أن قيصر نجح في خططه لفتح يمي أسبانيا القاصية ، ولأخضع كراسس أرمينية وپارثيا ، ولبسط رومة سلطانها على هذه البلاد جميعها في الوقت الذي كان فيه قيصر يمد حلود الإمبراطورية الرومانية إلى نهري التاميز والرین . ولكن يمي أبقي فيالقه في إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا ، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التي نجمت عن ثورة الغالين . وحدث في عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقى التي كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا في أثناء

الوضع ، و عرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت ، و طلب أن يتزوج هو بابنة يمي ، ولكنه رفض كلا العرضين ، وأخذت النكبة التي حلت بكراسس وجيشه في العام التالي من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه : ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو يمي . وعقد يمي من ذلك الوقت حلفاً صريحاً مع المحافظين ، ولم يبق أمامه لنجاح خططه التي كان يبغى بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة في الظاهر إلا عقبة واحدة ، هي مطامع قيصر وجيشه . وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهي في عام ٤٩ ، فاستصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ، و طلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكري له هو شخصياً ، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومة (١٩) .

وبينا كان القائدان اللذان يبغى كلاهما أن يكون الحاكم بأمره في رومة يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد ، فكانت الأحكام القضائية ، ومناصب الدولة ، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها ، تباع إلى من يعرض فيها أعلى الأثمان . من ذلك أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد استولى في عام ٥٣ على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده (٢٠) ، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال (٢١) أو كشف الستار عن ماضي الناس ، والتهديد بالكشف عن فضائحهم ، فلم يروا أمامهم سبيلاً غير الإذعان . وفشا الإجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم ، ولم يكن في هذه ولا في تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم ، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية . واستهوت رائحة المال أو هبات الجيوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت إلى رومة ، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، وكان كل من يقبل

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطني رومة أو من غير مواطنيها ، وكان يحدث في بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هي التي لها حق الاقتراع . وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة في الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً . وأضححت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هي التي تشرع للدولة ، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ، ثم تشعل النار بعد الضرب في بيوتهم . وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول : « لقد امتلأ التبر بجثث المواطنين كما سددت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفننج من السوق العامة » (٢٢) .

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين في هذه المهزلة البرلمانية ، فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية ، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار . من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون في أحد شوارع المدينة في يوم من الأيام ، وحرق أجراؤه بيت ميساو في يوم ثان ، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه في يوم آخر وقتلته (٥٢) . غير أن صعايليك المدينة الذين لم يكونوا يجهاون ما يدبره من المؤامرات وفعوه إلى مقام الشهداء ، واحتفلوا بجزائه احتفالاً عظيماً ، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التي تحرق عليها جثث الموتى .

وجاء بمي بجنوده ففرقوا الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعيسته « قنصلاً بغير زميل » ، وهي عبارة نصيح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور . ثم عرض بمي على الجمعية ، بعد أن أرهبها بجنده ، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرذيلة والفساد السياسي المنتشرين في البلاد ، كما عرض عليها

اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب التمنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومة ، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمجي نفسه في عام ٥٥) ، وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية ، وعلى أعمال المحاكم ؛ ولم يؤخذ عليه في هذا الإشراف شيئ من الهوى أو المحاباة . وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديبوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه (*) ثم هرب إلى مرسيليا ، وغادر شيشرون رومة ليحكم قليقية (٥١) ، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشنا أصدقاءه وأغضبتهم عليه . ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها في عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمجي ، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلطف على عودة قيصر .

(*) وقد أدخل كثير من التعديل على نص الخطبة الذي وصل إلينا ، حتى بلغ الاختلاف بينه وبين النص الأصل - وكانت عباراته قد اضطربت بسبب ما ساد من الهرج بفعل أعدائه حين إلقائها - مبدلاً محل ميلو حين قرأها على أن يصبح قائلاً : « أي شيشرون ! لو أذاك نطقت بما كتبت لما كنت الآن أطمع السمك الجليد في مرسينية » (٢٣) .

الفصل السادس الحرب الأهلية

دامت الفتن والثورات في الدولة الرومانية مائة عام ، حطمت في خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التي كانت تتولى شؤون الحكم في البلاد ، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها . فأما الجمعية فقد أفسدها البعطل والرشوة والخبز ومجادلة الوحوش ، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة . وانحطت الديمقراطية حتى أضحت وكأنها هي المعنية بقول أفلاطون : « صارت الحرية إباحية ، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية » (٢٤) . ولم يختلف قيصر مع عبي في أن الجمهورية قد ماتت ، وأنها أصبحت على حد قوله : اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة » . (٢٥) ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور في أيدي قيادة تعمل لتقدمها ورقياً ، قيادة غير جامدة لا تبقى البلاد على حالها التي تردت فيها ، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفسد ومظالم وفاقه أفسدت الديمقراطية وهوت بها إلى الحضيض . وكان قيصر وقتئذ في الرابعة والخمسين من عمره ، وما من شك في أنه قد أوهنته حزوبه الطويلة في غالة ، وأنه لم يكن يجب أن يتورط في محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التي تحاك له ، والفخاخ التي تنصب لاقتناصه ، وكان يؤمله أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هي الجزء الذي يجزى به من أجي إيطاليا من الدمار والحراب . وكانت مدة حكمه في غالة تلتهمي في اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق : م ، ولم يكن في وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا في

خريف ذلك العام ، وفي الفترة الواقعة بين الزميين يفقد الحصانة التي يسبها عليه منصبه ، ولا يستطيع دخول رومة دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون ، وهو السلاح المألوف الذي كانت تاجراً إليه الأحزاب المختلفة في رومة في نزاعها على السلطة ، وكان ماركس مارسلس Marcus Marcellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها ، ومعنى هذا العزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة ، وكان التريونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض ، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضياً عن هذا الاقتراح ، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر ، وأن يحاكم وينتفى من إبطالها .

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً في العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه . فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز پمبي أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال پارثيا ، أجاباه قيصر من فوره إلى طلبه ، وإن لم تكن القوة التي لديه كبيرة ، ولما طلب پمبي إلى قيصر أن يعيد إليه الفيلق الذي أرسله له قبل عام من ذلك الوقت ، بادر أيضاً بإرساله إليه ، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلوا إلى پارثيا بل بقيا في كاپوا . وطلب قيصر على لسان مؤيديه في مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذي كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومة ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده . وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه ، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه في مثل هذه الأزمة ، غير أنه في ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وپمبي منصبهما - وبدا هذا العرض معقولا لا غبار عليه في نظر الشعب ، حتى أنه كمل جبين رسوله بالأزهار ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢ ، ولكن پمبي أبي أن يخضع لهذا القرار ، حتى إذا أشرف عام ٥٠ على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

أمام ، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يولية : وفي أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعدادة لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى في رفضه إعلاناً للحرب عليه ، ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح ، ووافق عليه بيمبي ، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل في الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيرى قيصر من المجلس (٢٦) ، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وبإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بيمبي أمراً وسلطة « يعمل بهما على ألا تصاب للدولة بسوء » : وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكري .

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عاداته : فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل ، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التي يعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته ، وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة في غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها ، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز وللرجعية ، وترأى إليه في أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر موئيديه وهو تيتس لبيلس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بيمبي ، فإكان منه إلا أن استدعى الفيالق الثالث عشر ، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه ، وعرض الأمر كله على رجاله . وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهي « زملائى الجنود : Commilitones » كافية لكسب قلوبهم ، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه في استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبيل يشترك معهم في الصعاب ويتعرض معهم للأخطار ، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب . وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذي كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

من القواد . وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية ، وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان ، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة ، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلاً من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر ، على الرغم من أن جلد المواطن الرومانى كان عملاً لا يجزه القانون . وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه - بل أن يجروه على طريقتهم الخسنة الصامتة فى الحب . وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام ، ولكته كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية ، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويمنحهم ما لا ضرورة له من الأخطار ، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته . هذا إلى أنه ضاعف أجورهم ، ووزع عليهم كثيراً من غنائم الحربية ، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ ، وكيف قابل المجلس هذه العروض ، وذكر لهم أن الأرسقراطية المتعطله الفاسده لا تستطيع أن توفر لرومه النظام والعدالة والرئاء ، وسألهم هل يتبعوه ؟ فلم يعارض واحد منهم ، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يودى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم . وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق . عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الحد الجنوبى لغالة الجنوبية ، ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور : « لقد قضى الأمر » *lacta est alea* (٢٧) ، ونخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحتم بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع ، على حين أن يمي كان لديه عشرة فيالق ، أى ستون ألف جندى ، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى ، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم . وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيالق الثمانى عشر من فيالقه عند *Picenum* ، والفيالق الثامن عند *Corfinium* ، ثم

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أمرى لحرب ومن المنطوعين ومن أهمل لبلاد ؛ ولم يكن يلقى صعوبة في جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته في الحرب الاجتماعية (٨٨) ، كانت ترى في قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين ؛ فكانت مدائنها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى ، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكره أبيهم ليحيوه ويرحبوا به (٢٨) ؛ وقد كتب شيشرون في ذلك يقول : « إن المدن تحببه كأنه إله معبوده (٢٩) ؛ وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل ، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها ، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط ، وبعث إلى معسكر بومي بكل ما تركه لبيئس Labienus من المال والعتاد . ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع في يده من الأعداء وإن كان في ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال - وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر ، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهليين على الحياد ؛ وأعلن في ذلك الوقت أنه سيعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً . وكان في كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه ؛ من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد ، وعرض في رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بومي على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته (٣٠) ؛ وبذل شيشرون جهده في التوفيق بين القائدين ، ولكن منطقته لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعاؤها المتعارضة (٣١) .

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بومي هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً . وانسحب من ورائه في غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبنائهم تحت رحمة قيصر . ورفض بومي عروض الصلح جميعها ، وأعلن أنه سيعد كل من

لم يغادر رومة وينضم إلى معسكره عدواً له : ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت في رومة ، وتذبذب شيشرون بين الفريقين ، وكان يحتمر تردد بيمبي وخور عزيمته ، فقسم وقته بين ضياعه في الريف وسار بيمبي إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدريايوى . وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام ، وأنه في حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود في وجه فيالتي قيصر ، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الرومانى الذى يسيطر هو عليه أن يجوع إيطاليا في هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه .

ودخل قيصر رومة في اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقى في دخولها أية مقاومة ، دخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده في البلدان المجاورة لها ؛ وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها ، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعى . ودعا التريبونان مجلس الشيوخ إلى الانعقاد وطلب إليه قيصر أن يعينه حاكماً بأمره (دكتاتوراً) ، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه ، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلاً إلى بيمبي ليفاوضوه في عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً : فطلب المال من الخزانة العامة فوقف في سبيله التريبون لوسيوس متلس *Lucius Metellus*

فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس : واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف في أموال الدولة ، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة ، فأودع في الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال في حروبه الأخيرة . ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التى كان بيمبي وأنصاره يعدونها في بلاد اليونان وأفريقية وإسبانيا ، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التى تعتمد عليها في حياتها ، فأرسل كوريو *Curio* المتهور العنيف ومعه فيالقان من جيشه ليستولى على صقلية ، فلما نزل في الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى أفريقية ، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجولوس *Regulus* ، واشتبك معه في معركة

لم يكن قد كمل استعداده هو لها ، فهزم وقتل في ميدان القتال ، ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر . وكان قيصر في هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسبانيا ، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا ، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف للملاقاة بمي ، وارتكب في إيطاليا كما ارتكب في غالة عدة أغلاط عسكرية فنية (٣٢) ، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه - الذي كان أقل من جيش أعدائه عدداً - للهزيمة وللهلاك جوعاً ، ولكنه أنجاه وأنجى نفسه ، كما لوف عادته ، بسرعة خاطره وشجاعته (٣٣) ، فقد حول مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذي كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه ، وظل صابراً زمناً طويلاً حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار وأخذوا يطالبون بالهجوم على العدو . ثم استسلم أنصار مي . آخر الأمر ونخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة ٤٩) . وغاد بعدئذ إلى إيطاليا براً ، ولكنه وجد الطريق مغلقة في وجهه عند مرسليليا ، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس Lucius Domitius وهو القائد الذي أسره في كورنثيوم ثم أطلق سراحه . واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، ثم أعاد تنظيم الإدارة في غالة ، ولم يجل شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومة :

وقوت هذه الحملات مركزه السياسي ، كما طمأنت البطون المتخوفة في العاصمة على كفايتها من الطعام ، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ في أن يعينه دكتاتوراً . ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين في عام ٤٨ ق . م . ولما وجد أزمة النقد مستحكمة في إيطاليا ، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان ، وأبى المديون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة - لما وجد هذا أصدر قراراً

يلجأ أداء الديون سلعاً يقدر أثمانها محكّون من قبل الحكومة كما كانت
تقدر قبل الحرب . وكان يرى أن هذه « خير وسيلة للاحتفاظ بشرف
المدينة ، ولتبيد أو تقليل الخوف الذى كان يساور البعض من أن تُلغى هذه
الديون إلغاء تاماً ، وهو الإلغاء الذى يحتمل حدوثه فى أعقاب الحروب » (٣٤) .
ومن الشواهد الدالة على بطء سير الإصلاح فى رومة قبل ذلك للعهد
أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه ، وأنه أباح
خصم الفوائد التى دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين ، وحدد سعر
الفائدة بواحد فى المائة كل شهر . وأرضت هذه الإجراءات معظم
الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم ، ولكنها أغضبت المتطرفين
الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها
ويعيد توزيع الأراضى على السكان ، ووزع قيصر الحبوب على المعوزين وألغى
جميع أحكام النقي ما عدا الحكم الصادر على ميلو ، وعفا عن كل من يعود
إلى البلاد من الأشراف . ولكن أحداً لم يحمده اعتداله ، ذلك أن المحافظين
الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه ، وبينما كان يواجه بمجيء في تساليا
Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كتيبيوس Caelius . بعد أن
وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً ، وبمصادرة الأملاك الواسعة ، وتوزيع
الأراضى على الأهلين توزيعاً جديداً .

وفى أواخر عام ٤٩ انضم قيصر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما
لصاره فى برنذبزيوم . وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدرىاوى شتاء فى
تلك الأيام عملاً لم يسمع به أحد قط . ولم يكن فى استطاعة الاثنى عشرة سفينة
التى تحمّ تصرفه أن تقل من جنوده إلاستين ألفاً فى كل مرة ، وكانت أساطيل
بمجيء التى تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر
المجاورة لهذا الشاطئ . ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده ، ونزل فى إبيروس
ومعه عشرون ألفاً منهم . غير أن سفنهم تحطمت وهى عائدة إلى إيطاليا . ولم يعرف

قيصر السيب الذى أخر بقية جيشه ، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير : وأخذ الملاحون يجلفون والموج يعاكسهم حتى كادوا بفرقون ، ولكن قيصر لم تن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام ، وأخذ يقوى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلفين :

« لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه » (٣٥) ،

ولكن الريح والموج قدفاً بالقارب إلى الشاطئ الذى بدأ منه ، واضطر هو أن يعود من حيث أتى :

وكان بمبي فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشيوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية ، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلت مؤنثه ، وكان بمبي فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد ونخور العزيمة . وبينما كان هو فى تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولا جديداً حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا ،

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال ، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانيا ، فأرسل رسولا إلى بمبي يعرض عليه أن يتخلى للقائدان كلاهما عن قيادتهما ، ولكن بمبي لم يرد عليه (*) ، فهاجمه وأخفق فى هجومه ، غير أن بمبي عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه . ثم قتل ضباط بمبي جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى ، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه (٣٧) ، وهو عمل رفيع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة جنود بمبي . وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية ، فلو لم يجهم إلى ما طلبوه توساوا إليه

(*) وقيصر هو المرجح الوحيد الذى نعتد عليه فى أخبار هذه البعثة .

أن يعود بهم إلى ساحة القتال ، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت .

واستقر رأى عمي وقتئذ على القرار الذي قضى على حياته . فقد أشار عليه أفرانيوس Afranius أن يعود إلى إيطاليا الحالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها ؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضى عليه . وبالغ الأشراف الذين كانوا في معسكر عمي فيما أحرزه من النصر في درهسيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها في ذلك المكان . وهال شيشرون — وكان قد انضم إليهم آخر الأمر — أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه ، وأن يرى ما يتقبلون فيه من الترف وهم في ميدان القتال ، فقد كان الطعام يقدم لهم في صحاف من الفضة ، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوفيرة تزينها الصور الرائعة وطاقت الزهر الجميلة .

وكتب شيشرون في ذلك يقول :

« وكان المميون ، ما عدا عمي نفسه ، يحاربون بوحشية شديدة ، وينطقون في أحاديثهم بمبادئ القسوة ، حتى كان الرعب يستولى على إذا ما فكرت في نصرهم . . . لأنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم . . . وقد ر لقد كانوا يفترضون أن بعدم أعدائهم جملة لا أفراداً متفرقين . . . وقد ر لتتأس نفسه أن يستولى على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وپاياني» (٢٨) .

وكان عمي نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك في معركة فاصلة ، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما أن عبروه بالجن والخور ، فأصدر أمره بالزحف .

ودارت رحى المعركة الفاصلة في فارسالس في اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م ، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة ، وكان

جيش پمبي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان ؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة ، وألف من الفرسان . ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف .

« وكان عدد قليل من أنبل رجال رومة يشاهدون المعركة عن كثب ... ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ... لقد التقت في هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها في صراع عنيف ، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما في الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثرت شهواتها » (٤٠) .

لقد كان أقرب الأفراب ، بل كان الإخوة أنفسهم ، يقاثل بعضهم بعضاً في الجيشين المتعادين . وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان ، أما الشباب الأرستقراطي ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى ، فإذا لم يجدوا سبيلاً إلى هذا فليسمحوا له بالفرار (٤١) . وروع الثمبيون لتفوق أعدائهم القيادة ، والتدريب ، والقوة المعنوية . وقتل منهم وجرح خمسة عشر ألفاً ، واستسلم عشرون ألفاً ، وولى الباقون الأدبار . ونزع پمبي شارة القيادة عن ملابسه ، وفر مع من فروا من رجاله . ويخبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين (٤٢) - وهو قول يحملنا على الشك في كتبه كلها . وأخذ رجاله يتنذرون بما في خيام أعدائهم من وسائل الزينة ، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهى الذي أعد لساعة الاحتفال بالنصر . وأكل قيصر عشاء پمبي في خيمة پمبي نفسه .

وسار پمبي على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لارسا Larissa ، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية ، وعرج في طريقه على متليني Mytilene حيث انضمت إليه زوجته ، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ، ولكنه رفض طلبهم في أدب ومجاملة ، ونصحهم أن يستسلموا للفاتح في غير

خوف لأن « قيصر » على حد قوله « رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة » (٤٣) ،
وفر بروتس أيضاً إلى لارسا ، ولكنه أطال المكث فيها ووجهه منها رسالة
إلى قيصر . وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتياب حين سمع أن بروتس ،
حتى يرزق ، وعفا عنه من فوره ، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة
بروتس . وكان كذلك ليناً في معاملة أمم الشرق التي أيدت بمجي مدفوعة
إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها . ووزع ما جمعه بمجي من الخبواب
على سكان بلاد اليونان الجياع ، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو
عنهم ، أجابهم وعلى شفقيه ابتماعه اللوم بقوله : « إلى متى ينبغيكم مجد
آبائكم الأولين من موارد الهلاك التي توردونها أنفسكم ؟ » (٤٤) .

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمجي يفكر في معاودة
القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها ، وعلى القوة التي كان كانو
ولبيانس Labienus ومتلس صبيو يعدونها في يتكا Utica . ولكن حدث
بمعد أن وصل بمجي إلى الإسكندرية أن أمر بوثنيس Pothinus خصي
الشاب بطليموس الثاني عشر ووزيره خدومه أن يقتلوه ، ولعله فعل ما فعل
رجاء أن يكافئه عليه قيصر . فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه
شاطئ مصر ، بينما كانت زوجته تنظر إليه في هلع وهي على ظهر السفينة
التي أقلتها إلى تلك البلاد . فلما جاء قيصر أهدى إليه رجاله بوثنيس رأس
القائد الذي فصل عن جسده ، فولى وجهه عنهم في هلع ، وأخذ يبكي من
فرط تأثره بهذا الشاهد الجديده على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً ،
وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير . ونزل قيصر في قصر
البطالة الملكي وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة .

الفصل السابع

قيصر وكليوباترة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (١٤٥) تسير مسرعة في طريق الاضمحلال وعجز ماوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى أو حريتها القومية ؛ وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه ويملى عليها إرادته ، بل إنه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية . وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه پمپى وجابليوس على العرش إلى ابنته بطليموس الثانى عشر وابنته كليوباترة ، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده ، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً .

وكانت كليوباترة من أصل يونانى مقدونى ، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة(٤٥) ؛ ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل ؛ وخفة روحها ، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وحسن صوتها ، مضافة إلى مقامها الملكى قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً . وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه . وقد جمعت إلى فتنة أسبازيا الذهبية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية . ويقال إنها ألقت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازين وانتقود المصرية ، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب(٤٦) . وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة ، نجحت فى نشر التجارة المصرية ، وارتقت على يديها الصناعة ؛ وكانت تجيد تدبير الشؤون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شرك الحب . وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية ، ووحشية

عنيفة تصب على أهدائها العذاب والموت صعباً ، ومطامع سياسية بعيدة ، تحلم
ببناء إمبراطورية واسعة ، ولا تحترم في سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً
إلا قانون النجاح . ولو أنها لم يجر في عروقتها دم البطالة المتأخرين الداعرين
لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة
تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على
البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ، ولم تر ما يمنحها أن تكون هي المسيطرة
على الدولة المتحدة .

وقد استاء قيصر حين عرف أن پوثيلس نفي كليوپطرة ، ونصب
نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه ، ولذلك أرسل إليها سراً ،
وجاءته سرا وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها في فراش حمله
تاها أبولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر ، وذهل القائد الروماني
حين رآها ، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديتها ، وهو الذي لم يدع انتصاراته
في ميدان القتال تربي على انتصاراته في ميادين الحب : ووفق بينها وبين
بطليموس وأجلسها هي وأخاها على عرش مصر كما كانا من قبل ، وعرف
قيصر من أخيه أن پوثيلس هو والقائد المصري أخلاص Achilles
كانا يآتمران به ليقنلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التي جاءت معه
إلى مصر ، فدبر في الخفاء اغتيال پوثيلس ، وفر أخلاص ، واتصل
بالجيش المصري ، وحرّضه على الثورة : وسرهان ما امتلأت الإسكندرية
بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، ويجرض ضباط الحامية الرومانية التي
وضعها مجلس الشيوخ في تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد
هذا الدخيل الخائن الذي سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالة ،
وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش في المستقبل .

وعمل قيصر في هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحان
القصر الملكي والمهوى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله . ثم أرسل
يطلب المدد من آسيا الصغرى وسوريا ورودس ، ولما أدرك أن أسطوله الضعيف

الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع في يد أعدائه ، أمر به فحرق
والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد .
ورأى أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل
الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس ،
واستولى عليها ، ثم جلا عنها ، ثم عاد فاستولى عليها ، وحدث في إحدى
هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة فى البحر لينجو من الموت بعد أن
صوبت إليه عاصفة من السهام ، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة
من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض
المدينة . وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر ، فخرج
من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ ، ولما جاء المدد إلى قيصر هزم
به المصريين وحامية مجلس الشيوخ فى معركة النيل ، وكافأ كليوباترة على
إخلاصها له فى هذه الأزمة بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث
عشر ملكاً معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية .

ويصعب علينا أن ندرك السر فى بقاء قيصر تسعة أشهر فى الإسكندرية ،
والجيوش تجيش لقتاله فى يتكا Utica ، ورومة فى أشد الحاجة إلى يده
الصناع ، لأن كئيلوس Caelius وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه . فلعله
كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشرين سنين ؛
وفى هذا يقول سيوتونيوس Suetonius إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله
حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوباترة ، وكان بوده أن يسير معها فى
قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصل إلى بلاد الحبشة لولا أن هدده
جنوده بالخروج عليه «(٤٧)» ، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً ،
أو لعل شهامته قد أجزته على أن ينتظر حتى تفيق كليوباترة من آلام
الوضع ، فقد وضعت طفلاً فى عام ٤٧ ق . م سمي قيصرينون Caesarion ،
ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده «(٤٨)» . ولا يبعد
أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

ويتزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد ، ذلك كله ظن وهو إلى ذلك لثم ؛ فليس ثمة ما يؤده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة . وما من شك في أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثرداتس قد استولى مرة أخرى على بنتس Pontus وأرمينية الصغرى ، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من حديد على رومة المتقسمة على نفسها . ووضحت في ذلك الوقت حكيمته في « تهديئة » أسبانيا وغالة قبل لقائه بمجي ؛ فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة وأن يزحف « البرابرة » نحو الجنوب ، ولأ تشهد رومة قط عصر أغسطس . لكن قيصر حال دون ذلك كله ؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة ، ثم غادر مصر في شهر يونية من عام ٤٧ ق م ، وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسية الصغرى إلى بلاد بنتس وهزم فرناسس في واقعة زيلا Ziela (٢ أغسطس) ، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ : « جئت ، ورأيت ، وهزمت » *veni, vidi, vici* (٤٩) وقابله شيشرون عند تارنتم (٢٦ سبتمبر) ، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين ، فأجابيه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود ، وهاله بعد أن عاد إلى رومة أن الحرب الأهلية قد استعالت في العشرين شهراً التي قضها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية ، وأن دلابلا Dolabella زوج ابنة شيشرون انضم بقوته إلى كئيلدوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون ، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صماليك دلابلا المسلحين ، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا في السوق العامة . وكان كئيلدوس قد استخدم سلطته وهو بريطور Praetor فأعاد ميلو إلى رومة ، ونظماً معاً جيشاً في جنوبي إيطاليا ، وطلبوا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما في ثورة جائحة على النظام القائم . ولم يلقيا في هذه الثورة إلا قليلاً من النجاح ، ولكن روح الثورة كانت قد أشريت بها جميع النفوس ، فكان المتطرفون في رومة

يحتفلون بذكرى كاتلين ويثرون الأزهار مرة أخرى على قبره : وكان جيش يمي في أفريقية قد ازداد عدده حتى أصبح في قوة الجيش الذي هزم في فرساليس ، وكان سكستس Sextus بن يمي قد أنشأ في أسبانيا جيشاً جديداً ، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها : تلك هي الأحوال التي كانت قائمة في شهر أكتوبر من عام ٤٧ حين عاد قيصر إلى رومة وإلى زوجته كلبيرنيا Calpurnia ومعها كليوباترة وأخوها - زوجها الغلام وقيصرون .

وشرح في الأشهر القليلة التي أتت له بين الحروب بعيد النظام إلى رومة ، ولما عين حاكماً بأمره من جديد لسترخص المتطرفين إلى حين بإلغاء القوانين الأخرى من قوانين صدر ، وألغى في رومة كل ما قل عن ألفي مسترس من أجر الأراضي ، وحاول في الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فمبني ماركس بروتس حاكماً على بلاد غالة الجنوبية ، وأكد لشيرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية ، وأمر بإعادة تماثيل صلبا التي حطمها الرعاع . ولما وجه أفكاره نحو يمي وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه ، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإنجاز إلى أفريقية . وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية ، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها . ولما سئل في ذلك قال إنه قد تعلم أن الجنود يعتمدون على المال ، وأن المال يعتمد على القوة ، والقوة تعتمد على الجنود . ثم ظهر فجأة بين الجنود المتمردين ، وجمعهم حوله وقال لهم في هدوء إنه قد سرحهم ، وإن في مقلوبهم أن يعودوا إلى منازلهم ، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر في أفريقية على يد « غيرهم من الجنود » .

ويقول أبيان لأنهم « لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم في الساعة التي يحيط به العدو من كل جانب . . . فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه ، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم في خدمته » (٥١) فأجابهم إلى ما طلبوا في إباء ساحر ، وأبصر بهم إلى أفريقية . (٢٧ - ج ١ ، مجلد ٢)

والتقى في اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٤٦ ق : م بقوى متلس سيبو Metellus Scipio في ثبوس وكاتو وليليس Labienus وجوبا الأول Juba I ملك لوميديا مجتمعة . وخسر المعركة الأولى في هذه المرة أيضاً ، ولكنه فعل ما فعله من قبل ، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه . ولامه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رافة بأعدائه في فرسالس ، واعتقدوا أنه لولا هذه الرخمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى ، ولذلك قتلوا من جنود سبي الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رافة ، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى في ميدان القتال . وانتحر جوبا وفر سيبو ومات في مناوشة بحرية ، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يتيكا .

ولما اقتنى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة ، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا ، وأعد المال لمن أرادوا القتال ، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر . أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطين ، وقضى السهرة في بحوث فلسفية ، ثم آوى إلى حجرة نومه ، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون . وأيقن أصدقائه أنه سيقبل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه . فلما غفلت عنه أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف ، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ، ثم قام فجاءة وأمسك بسيفه وبقر به بطنه ، وهرب إليه أصدقائه ، وأعاد الطبيب أحشائه إلى بطنه ، وخاط الجرح ، وضمده ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح ، وأعاد فتحه وأخرج منه أحشائه ، وقضى نحيبه .

ولما جاء قيصر كان أشد ما أحزنه أنه لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن وده .

وشيع أهل يتيكا الرواق المنتحر في مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون .



(شكل ١٢) قيصر - المتحف القوي بنابلي

الفصل الثامن

قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومة في خريف عام ٤٦ بعد أن نصب سلاست والياً على نوميديا ، وأعاد تنظيم ولايات أفريقية ، وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة ، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكي المطلق ، فاختره حاكماً بأمره مدة عشر سنوات . واحتفلت رومة بعودته احتفالاً لم تشهد له مثيلاً من قبل ، وكافأ قيصر كل جندي من جنوده بخمسة آلاف درنمة أتيكية (حوالى ثلاثة آلاف ريال أمريكي) ، أي أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به ، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة . وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية ، اشترك فيها عشرة آلاف رجل . ثم غادر رومة إلى أسبانيا في أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش بيمبي عند مندا Munda .

ولما عاد إلى رومة في شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى . ذلك أن الحكم الأجركي الفاسد ، والثورات التي دامت مائة عام كاملة ، قد أشاعا الاضطراب والفوضى في الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية . أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات ، وحبس رؤوس الأموال ، وزعزعة أركان الاستثمار ، أدت كلها إلى اضطراب سوق المسال . هذا إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب ، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال ، وأن آلافاً مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التي تنتجها الضياع الكرى التي يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع وبتوطنهم حاوية إلى الوعود التي يمنهم بها الزعماء المهرجون . وأخذ من أبت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

يأتمرون به في قصورهم ونوادبهم ، ولما أن طلب إليهم في مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها ، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب . وبسطوا ألسنتهم في استضافته لكليوباترة في رومة ، وأخذوا يشيعون سرّاً أنه يعيد العدة ليكون ملكاً ، ولينتقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى اليوم Ilium . ومن أجل ذلك شرخ قيصر ، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره ، يعمل بهمة الرومان الأصيل ليحني موات الدولة الرومانية . وكان يعلم أن انتصاراته لن تكون لها قيمة إن لم يكن في مقدوره أن يشيد في مكان الحطام التي أزالتها صرحاً أحسن منها وأثبت دعامة . ولما أن مد أجل دكتاتوريته في عام ٤٤ من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم يرفقا كبيراً بين الحالين ، وإن لم يكن قد أدرك في ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور .

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم ، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك . وأجاز له المجلس أن يلبس إكاليب الغار الذي كان يوارى به صلعمته ، وأن يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور *imperator* . وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال ، كما كان منصب الحبر الأكبر *Pontifex Maximus* يمكن من السيطرة على الشؤون الدينية في البلاد ، وكان له ، بوصفه قنصلاً ، أن يقترح القوانين وينفذها ، وبوصفه تريبونا كانت ذاته مصونة لا تمس ، وبوصفه رقيباً كان له أن يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم . واحتفظت الجمعيات بحقها في الاقتراع على القوانين المعروضة عليها ، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجلى قيصر كانا يسيطران عليها ، وكانت توافق عادة على سياسته . وكان هو من ناحيته يجتهد في أن يقيم

دكتاتوريته على محبة الشعب له ورضائهم عنه شأنه في هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين

وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شيء بمجلس استشارى له ، ورفع عدد أعضائه من ستائة عضو إلى تسعمائة ، وكان يحدده على الدوام باستبدال أربعائة عضو جديد يمثل عددهم من أعضائه السابقين : وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجدد من رجال الأعمال ، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين في المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية ، ومنهم من كانوا من أعضاء المثين أو الجنود أو أبناء العبيد ، وارتاع الاشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخاؤون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية ، بل إن الماجين من أهل العاصمة قد ساءم هذا التصرف ونشروا في طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها « إن قيصر يقود الغاليين في موكب نصره ، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ ؛ لقد خلع الغاليون سراويلهم القصيرة ولبسوا المئزر العريض الأطراف » الذى يلبسه الشيوخ (٥٢) .

ولعل قيصر قد نعد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة ؛ ولذلك اختار طائفة من أصدقائه هم بلبس Balbus ، وأبيوس Oppius ، وماتيوس Matius وغيرهم ، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته ؛ وأدخل النظام البيروقراطى في الدولة بأن وضع الشئون الكتابية في دولاى الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية في أيدي من كان في بيته من المحررين والرقيق . وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام في المدينة ، واختار هو النصف الباقى بطريق التوصية ، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام . وكان من حقه ، بوصفه تريبوناً ، أن يعترض على قرارات غيره من التريبونين والقناصل ويبطلها ، ورفع عدد البريتوريين Praetors إلى ستة عشر ، والكوسترين Quaeators إلى أربعين لينجز بذلك

أعمال البلدية والأعمال القضائية ، وراقب بنفسه شئون المدينة كلها على اختلاف أنواعها ، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وقساد وإتلاف ، ونص في جميع العقود التي منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التي يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة . وأراد أن يقضى على السنة القديمة سلطنة السيطرة على الشئون السياسية باتباع أصوات الناخبين جملة . ولعله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعاع ، فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم ، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة : وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر في أهم القضايا وأخطرها شأنها ، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه ، وليس ثمة من ينكر ما تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة . وقد اقترح على المشرعين في أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ في كتاب واحد منظم ، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع .

ثم سار على خطة ابنى جراكس ، فوزع الأرض على يهوده القدامى وعلى الفقراء ، وصار أغسطس نفسه على هذه السياسة ، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين ، وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى التركز فحرم بيع الأراضي الجديدة قبل مضي عشرين عاماً ، كما أمر أن يكون ثلث الفهال في المزارع من الأحرار ، وذلك لكي يحول دون استغلال الأراضي كلها على أيدي الأرقاء ، وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين في المدينة بمن جندته منهم في الجيش ، وبإقطاعهم الأرض الزراعية بعد تسريحهم . ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفاً من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقيين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس . من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد في ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات ، وإضافة مبنى

جديد للسوق العامة يدهى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة .
ثم جعل كثيراً من المدن في إيطاليا وأسبانيا وغالة وبلاد اليونان :
وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها في
الناس ، فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على
إعانات من الحبوب ، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من
٣٢٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ .

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة ، يهدف إلى إسعادهم في
جميع ما وضعه من المشروعات . ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية
ثروة زراعية أكثر منها صناعية ، وأنها موجهة في الغالب إلى طبقة الأشراف
التي تسخر لخدمتها الأرقاء ، ثم إلى المرابن ، وأنها لم يوجه إلا القليل
منها لرجال الأعمال . فواصل خطة ابني جراكس الزراعية ، ودعا رجال
الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية .

وكان شيشرون قد حاول أن يعقد حلفاً بين الطبقات الوسطى
والأشراف ، أما قيصر فحاول أن يؤلف بين أولئك وبين العامة ،
وأمدّه بالمال كثيرون من الممولين على اختلاف درجاتهم من كراسس إلى
بليس ، كما أمد للكثيرون من أمثالهم بالمال الثورتين الأمريكية والفرنسية .
ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال
المالي والربح غير المشروع - وهو جباية الضرائب في الولايات على أيدي
جماعات الملتزمين . ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة ، وسنّ قوانين
صارمة لتحريم الربا الفاحش . وأسعف العاجزين عاجزاً شديداً عن الوفاء
بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف في جوهره عن القانون المعمول
به في هذه الأيام : وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساساً لها ،
وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوى في قوتها الشرائية
الجنيه الاسترليني في القرن التاسع عشر ، وكانت صورته تطبع على النقود

الحكومة وتزيتن برسوم لم تعرفها رومة من قبل :

وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيمًا جديدًا ، وطعمت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد في خزائنها حين قتل قيصر ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس ، وفي خزينته الخاصة ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠

وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمي سليم ، فأجرى إحصاء عاما في إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله في سائر أنحاء الإمبراطورية ، ثم أراد أن يعوض النقص الكبير الذي أحدثته الحروب في عدد المواطنين الرومان ، فتوسع إلى أقصى حد في منح حق المواطنة الرومانية - وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون في رومة . وكان النقص المطرد في المواليد قد أقص من قبل مضجعه ، فقرر في عام ٥٩ ق . م أن تكون الأولوية في امتلاك الأراضي التي توزعها الحكومة لأبناء الثلاثة الأبناء . والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة ، وحرّم على من ليست لمن أبناء من النساء أن يركن المحفّات أو يتحاين بالجواهر - وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلّها نفعا .

وظل قيصر كما كان رجلا لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيدا كل البعد عن الخرافات (٥٤) . ولكنه بقي الرئيس الأعلى للدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال ، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة . وكانت فينوس أمه الحنون تلتقي منه أعظم ضروب التكريم ، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية في الفكر والعبادة ، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس ، ومنع التعرض لليهود في ممارسة شعائر دينهم . ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسجينس Sosigenes العالم اليوناني ا سكندري السنة من ذلك الحين لتشتمل على ٣٦٥ يوماً ، يضاف إليها يوم في آخر شهر فبراير كل أربع سنين . وأخذ شيشرون يشكو من هذا

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إن تنظيم النجوم والتحكيم في شئونها ، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول ، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كوينكتيليس *Quinctilis* (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام :

ولم تكن الأعمال التي شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأناً من الأعمال التي تمت فعلاً . ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم ، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم ، وعين ثارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة . وعمل على إنقاذ رومة من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس *Fucinus* ومنافع بنتين *Pontine* ، واستصلاح الأراضي الجففة وزرعها . وأشار ببناء جسور حول التيبر لمنع طغيان مياهه على الأرض المجاورة له ، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيا *Ostia* الذي كان غرين النهر يسده من آن إلى آن . وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمي إلى إنشاء طريق يمتد من وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة في برزخ كورنثة *Corinth* .

وكان أشد ما أغضب أهل رومة من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومة نفسها من حقوق ، وأن سوى بين الولايات وبين إيطاليا . ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالبية الجنوبية في عام ٤٩ ، ثم وضع في عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين رومة ، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر في إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً ديمقراطياً في حكومته الملكية (٥٥) . ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشي الفاسد ، وشرح هو لهذه المناصب رجالاً عرفوا بالمقدرة والكفاية ، وجعلهم في كل آن عرضة للزلزل بأمر منه وحده . وخفض الضرائب في الولايات إلى ثلثي ما كانت

عليه ، وعهد بجايتها إلى موظفين مسئولين أمامه ، ولم يأبه باللعنات القديمة التي كانت تصب علي من بعيد بناء كهوا وقرطاجنة وكورنثة ؛ وأتم في هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا جراكس ، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود ، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل . ولا جدال في أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنة الرومانية لجميع الذكور الراشدين في الإمبراطورية كلها ، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلاً لطبقة واحدة في رومة بل يكون ممثلاً لعقلية الولايات جميعها وإرادتها . وهذه الفكرة التي سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، مضافة إلى تنظيمه الجديد لرومة وإيطاليا ، تكمل في رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير - المعجزة التي جعلت من الشاب المتلاف العرييد رجلاً من أفقر رجال السياسة المشثومة في جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلاً واستنارة .

وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته ؛ فلما أن رسم في ذهنه صورة لدولته في نظائها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدانوب والرين ، فأخذ يفكر في إرسال حملة عظيمة لإخضاع پارثيا والأخذ بثأر كراسس الذي أمده بالمال في أزماته ، وفي الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوديا Scythia ، وفي ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا (١٦) . حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومة مثقلاً بالمجد والمغانم ، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضى على الكساد الاقتصادي في البلاد ، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يقض الطرف عن كل معارضة ؛ ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه ، وأن يموت بعد أن يورث العالم « السلم الرومانية » Pax Romana ، وهي أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه

الفصل التاسع

بروتس

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومة رحب بها العامة الذين يحبون المجد ، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شتموا فيها رائحة الحرب ، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد ، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدر في خزائهم الأموال ؛ أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد .

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه . وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه ، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم ؛ وكان قد أحرق كل الرسائل التي عثر عليها في خيمة بيمبي وسيبو من غير أن يقرأها ، وأرسل ابنة بيمبي وأحفاده الأسرى إلى سكتس ابن بيمبي ، وكان لا يزال في حرب معه ، وأصلح تمثال بيمبي وأقامه في موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض ؛ وعين بروتس وكاسيوس والين على اثنتين من الولايات ، كما عين غيرهما من الأشراف في بعض المناصب العليا ، وصبر على كثير من الأذى والمطالب دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم ياتمرون به ليقتلوه . أما شيشرون الذي طالما لبس لكل حالة لبوسها ، وأدار شراعه لكل ريح ، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم يبخل عليه بشيء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البمبيين ، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون ، فعفا عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذي خرج على قيصر ولم يتدم على فعله ؛ وقد امتدح شيشرون في خطبة له رنانة عنوانها « إلى مرسلس » (٥٦)

« كرم قيصر الذى لا يصدقه العقل » ، وقال عن ميمى إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاما من أعدائه : ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية الشهورة lam satis vivi لقد نلت كفايتى من طول الحياة ومن الشهرة . . . ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء . . . ولا تكن حكيماً إذا عرضتلك هذه الحكمة للأخطار . . . إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة ، بل إنك لم تضع بعد أسسها » ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه (٥٧) : وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر له ولم يكن هذا القصر غير قصر صلا نفسه ، وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوه إليها أنطونيوس ويلبس وغيرهما من أعوان قيصر ، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت (٥٨) ، غير أن قيصر لم يتخذ بهذا كله ، فقد كتب إلى ماريوس يقول : « إذا كان فى الناس من هو ظريف فذلك شيشرون ولكنه يبغضنى أشد البغض » (٥٩) ، وكان قيصر صادقاً فى قوله ، فلما أن عاد الهميون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتضى هذا الأديب التلرانى (*) فى أحضانهم وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار . غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو Anti-Cato لا تدل على حصافة عقله : ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به ، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه ، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام .

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم

(٥) للشبهه ن أخلاقه بتلران السامى الفرنسى الشهير (١٧٥٤ - ١٨٣٨) .

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان ، وليس عفوك عن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عن آذيته . ومصداق هذا أن الأشراف في مجاس الشيوخ الذى لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التى عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون وينددون تنديد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التى أتخمت بالمال خزائنها ، وعز عليهم أن يقرروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم . وقد روعهم وجود كليوبطرة وقيصريون فى رومة . نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كلبيرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة فى الظاهر ، ولكن منذ الذى يعرف - ومنذ الذى تطاوعه نفسه على ألا يذبح - ما كان يحدث فى أثناء زيارته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة ؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكا ، وأن يتزوج كليوبطرة ، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق . ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكپتول بجوار تماثيل ملوك رومة الأقدمين ؟ - ألم تطبع صورته على النقود الرومانية ؟ وهى وقاحة لم يسبق يسبق لها نظير . ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذى كان يحتفظ به عادة للملوك ؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد ليركاليا فى الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ عارى الجسد إلا من جلود الماعز التى كان يلبسها الكهنة فى ذلك العيد (*) ثملا من كثرة ما احتسى من الخمر ، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكى على رأس قيصر ؛ ورفضه قيصر فى المرات الثلاث ؛ ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أهدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً ؟ ألم يقصن التريونين عن منصبها لأنهما رفعاً عن تمثاله الإكليل الملكى الذى وضعه عليه أصدقاؤه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس فى هيكل فيوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم . وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتلته نوبة صرع ، وقال غيرهم إنه كان يشكو إصمها لا شديداً ، وإنه ظل جالسا حتى لا تتحرك أعضاؤه فى هذه اللحظة غير

(*) انظر ما قلناه من الأمياد فى الفصل الثانى من الباب الرابع .

المروانية (٦٠) ، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادى به ملكاً في أى يوم .

وأقبل كيوس كاسيوس ، وهو رجل مريض الجسم - « أصفر نحيل » كما يصفه أفلوطرخس (٦١) ، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض المولعين الذين قل ما ينبهونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين ، بل عرضها أيضاً على بعض القواد في جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حياهم به من المناصب والغنائم كان أقل مما يستحقون ، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوه عليها . وكان المتآمرون في حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة ، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكاً بالفضيلة ، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك للوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً . وكانت أمه سرقليا أختاً غير شقيقة لكاتو ، وزوجته پورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر ؛ ويقول أبيان « إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرقليا في الوقت الذى ولد فيه بروتس » (٦٢) . ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده (٦٣) . ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد ، وأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضطرباً في أفواه الرومان ، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس ؛ وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظمناً حل به يجم على صدره ويشغل باله ، وذلك في الوقت الذى كان فيه فخوراً معجباً بنفسه ، لأنه أيا كان مولده يجرى في عروقه دم الأشراف ؛ وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة ، وكان في علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون ، وفي الأخلاق من أتباع زينون ؛ وكان مما انطبع في ذهنه أن الرواقية تطبق مع المبادئ اليونانية والرومانية في الحث على قتل الطغاة الظالمين ، وقد كتب

في هذا إلى صديق له يقول : « إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي لنا أن نخضع للمستبد ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه » (٦٤) . وقد ألف رسالة في الفضيلة وخلط الناس في المستقبل بينه وبين هذا الوصف ، وإن كان بعيداً عنه ، فقد أقرض أهل سلاميس Salamis في قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالاً بسعر ثمانية وأربعين في المائة ، ولما تنعمروا من أداء ماتراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ، وكان وقتئذ قنصلاً في قليقية ، أن يستعين بالجيوش الرومانية على جمع المال (٦٥) : وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية ، ولما عاد إلى رومة عينه قيصر بريتورا Praetor على الحواضر .

وقد ثار كل عصر طيب فيه على مقترحات قيصر ، وأخذ كاسيوس يذكره بأبائه الذين ثاروا على الظلم ، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتجدها بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحدو حدوهم : وكان هذا الشاب الحسام يحمراً وجهه خجلاً حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة :

« أي بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك برآء منك » (٦٦) .

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها في تلك السنين ، وسرت في ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كوتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ في اجتماعه المقبل الذي سيكون في الخامس عشر من شهر مارس اقتراحاً بتنصيب قيصر ملكاً ، لأن عرافة سيبيل قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك (٦٧) ، وقال كاسيوس إن المجلس ، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر ، سوف يوافق على هذا الاقتراح ، وإنه لن يبتى بعد ذلك أمل في عودة الحكم الجمهوري : وتأثر بروتس بهذا كله ، وامتلأ ، وأخذ الملتأمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم ، واستخلصت بورشيا

السر من زوجها ، بأن طعنت نفسها بخنجر في فخذها لئلا يبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها في جسمها يحملها على أن تنطق بشيء رغم إرادتها . وأصر بروتس في لحظة غير مواتية له على ألا يمسه أنطونيوس بأذى .

وحدث في مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين في منزله أن يكون موضوع حديثهم « ما هي خير طريقة للموت ؟ » وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله : « إنها الميتة المفاجئة » . وتوسلت إليه زوجته في صباح اليوم الثاني ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ ، وقالت إنها رأتة في نومها ملطخاً بالدماء ؛ وحاول خادم آخر ، كان يرى مثل رأها ، أن يفتعل نذيراً بمنع قيصر من الذهاب ، فنتسب في سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار ، ولكن دسمس بروتس *Decimus Brutus* ، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين ، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه في رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر . وأقبل صديق لقيصر حرف نبأ المؤامرة ليحضره فوجده قد غادر داره في طريقه إلى المجلس . وقابل في طريقه عرافاً كان قد أسر إليه من قبل أن يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس وقال له قيصر وهو يتسهم ، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء ، فأجابه اسبورنا *Sburinna* « نعم ولكنه لم يمض بعد » .

وبينا كان قيصر يقرب القربان الذي كان من المألوف تقريره قبل الجلسة أمام ملهى ممجي حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم في يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبا بها . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت في يده بعد مقتله (*) .

(*) وردت هذه القصص الخاصة باليوم الخامس عشر من مارس في مؤلفات سيوتونيوس وأفلوطرخس وأبيان (٧٨) ، ولكنها رغم ورودها في هذه المؤلفات كلها قد لا تكون إلا خرافة من الخرافات .

وشغّل تريبونيوس Trebonius - وهو أحد المتآمرين ، وكان من قبل،
أحد قواد قيصر المقربين - أنطوليوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع ؛
ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم « دعاة الحرية » من فورهم
عليه ، ويقول سيوتونيوس : « لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم
عليه ماركس هروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon - « وأنت أيضاً
يا ولدى » (٦٩) ؛ ويقول أبيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل
مقاومة ، وغطى وجهه ورأسه بثوبه ، واستسلم للضربات ، وسقط عند
قدمي تمثاله بمبي (٧٠) ، وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل لإنسان
أنجيته الأيام الخالية (*) .

(*) يقصد بهذه الرغبة ميته المفاجئة . وقد روى شيكسبير في مسرحيته الذائعة الصيت
هذه الحوادث كلها ووصفها أروع وصف .
(المترجم)

الباب العاشر

انطونيوس

٤٤ - ٣٠ ق . م

الفصل الأول

أنطونيوس وبروتس

لقد كان مقتل قيصر مأساة من مآسي التاريخ الكبرى ، وليس السبب في عظم هذه المأساة مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملاً من أجل الأعمال السيامية والإدارية ، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاماً أخرى . ولو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لكان الخطب ، فقد عاشت الحضارة بعده ، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر ، بل إنه مأساة من نوع آخر وهو أن الحزبين المتعارضين في مجلس الشيوخ كان كلاهما في أغلب الظن على حق : فالمتآمرون محقون في اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً ، كما أن قيصر نفسه كان محقاً في ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطوري قد جعلاً الملكية أمراً محتوماً . وقد انقسم الناس بين الرأيين ولا يزالون منقسمين منذ اللحظة الرهيبة التي مرت بمجلس الشيوخ ، وقد استولى عليه الملح من وقع الحادث ، ثم فرأعضاؤه مذعورين مضطربين من قاعة الاجتماع . وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه ، ورأى أن الحكمة هي عين الشجاعة ، فاحتفى في بيته ، وخانت شيشرون فصاحته حتى

في الوقت الذي حياه بروتس وخنجره يقطر دماً في يده قائلاً له مرحباً (بأبي بلده) .
ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً في الميدان العام ، وأرادوا أن يضموه
إلى جانبهم بالألفاظ الحرية والجمهورية ، ولكن العامة الذين جن جنونهم من
هول الحادث لم يعبروا بهذه الألفاظ التي طالما استخدمت لسر المطامع والشه
ولجأ القتل إلى البناء القائم على الكبتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم ،
وأحاطوا أنفسهم بحراسهم من المصارعين . وانضم إليهم شيشرون في آخر
النهار ، وأرسلوا رسلهم إلى أنطونيوس يستطلعون طلعه فأجابهم جواباً ودياً .

واحتشد في اليوم الثاني جمع غفير في السوق العامة وأرسل المتآمرون
صنائعهم ليلتاعوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية . ثم
استجمعوا شجاعتهم ، ونزلوا من فوق الكبتول ، وألقى بروتس على
الاجتماعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها في مجلس الشيوخ . غير
أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر في السامعين ، وحاول كاسيوس أن يؤثر
هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور ، فعاد المحررون إلى الكبتول ،
حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسالوا إلى بيوتهم . واعتقد
أنطونيوس أنه وارث قيصر ، فحصل من كليرنيا - وقد أذهبتها الفاجعة
وكادت تذهب بعقلها - على كل ما تركه قيصر في القصر من أوراق
وأموال ، ثم دعا في الوقت نفسه جنود قيصر القدامى المضربين للحضور
إلى رومة . وفي اليوم السابع عشر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع مستخدماً
في ذلك حقه بوصفه تريبوناً ، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه ،
فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً ، ووافق على أن يعين
بروتس وكاسيوس واليين لاثنتين من الولايات ، (أي أن يفرا وينجوا
ويستمتعا بالسلطان) ، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر
والقوانين والتعيينات التي أصدرها قيصر . وإذا كانت كثرة للشيوخ مدينة
بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها فقد وافقت على هذا الشرط ،
لما فض الاجتماع أنني الجميع على أنطونيوس وقالوا إنه هو السياسي

الذى انزع السلم من بين أنياب الحرب ، وفى مساء ذلك اليوم نفسه أولم
وليمة عشاء لكاسيوس ، وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد فى اليوم الثامن
عشر وأقر وصية قيصر ، ووافق على أن يحتفل بجنائزه احتفالاً عاماً ،
واختار أنطونيوس ليؤبئه التأبين المألوف .

وفى اليوم التاسع عشر حصل أنطونيوس من العذارى الفستية على
وصية قيصر ، وكان قد أودعها عندهن ، وقرأها لجماعة صغيرة فى بادئ
الأمر ثم لجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً . وقد جاء فيها أنه يوصى
بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة من أحفاد إخوته (وكان ذلك مثار دهشة
أنطونيوس وغضبه) وسمى واحداً منهم بالذات وهو كيرس أكتافوس
متبناه ووريثه ، وجعل الدكتاتور حدائقه متنزهاً عاماً للشعب ، وأوصى
لكل مواطن فى رومة بثلاثمائة سسترس . وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان
فى جميع أنحاء المدينة ، ولما جرى فى اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر
إلى السوق العامة ، بعد أن حنطت فى بيته ، لإجراء المراسم النهائية احتشد
حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه .
ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع فى بادئ الأمر بجمطة فلم
يطلق لسانه العنان ، ولكن عواطفه المكبوتة لم تلبث أن تغلبت عليه فأطلقت
لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة . ولما رفع من النعش العاجى
الثوب الممزق الملطخ بالدماء والذى مزقته الطعنات التى وجهت إلى قيصر ،
ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن فى وسع أحد أن يكبح جماحه ،
وعلا النحيب والعيول ، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة
لإشعال النار التى ستحرق بها الجثة . وألقى الجنود القدامى أسلحتهم
فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقرّبونها إلى قيصر ، كما ألقى
الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم ، كما ألقى النساء
أغلى ما يمتلكن من الحلى . وانزع بعض المتحمسين مشاعل من النار
وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتأمرين ، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على

هذه المباني ، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من رومة . وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل ، كما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم . فيما أصدره من قوانين ، ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثلاثة عن ترديد أناشيدهم الجنائزية . وظلت العاصمة في هذه الأيام الثلاثة تفتحها الفتن والقلاقل حتى أمر أنطونيوس جنوده في آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام ، وأن يلقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تريبيا Tarpeia .

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثاني ؛ فقد كان أنطونيوس قائداً عظيماً كما كان أغسطس حاكماً فذاً ممتازاً ، ولكن الصفتين لم تجتمعا في واحد منهما . وقد ولد أنطونيوس في غالة ٨٢ ق . م ، وقضى الشطر الأكبر من حياته في المعسكرات كما قضى أكثرها في معاورة الخمر ، ومجالس النساء ، والاستمتاع بالمرح وشهوى الطعام .

وكان رغم كرم محته وبهاء طلعتته يتصف بفضائل عامة الناس . كان قوياً الجسم ، حيوانى الروح ، طيب القلب ، كريماً ، شجاعاً ، وفيماً . وقد أساء إلى سمعته وسمعته قيصر نفسه إذ احتفظ في داره برومة بطائفة كبيرة من النساء والغلمان ، وبعشيقه يونانية في محله كلها غادر رومة (١) . وكان قد ابتاع منزل يمي في المزار العام وأقام فيه ، ثم أبى أن يؤدي ثمنه (٢) ؛ وها هو ذا يجد في أوراق قيصر - أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم - كل ما يستفيد من وجوده - مناصب لأصدقائه ، ومراسم يصل بها إلى أغراضه ، وخيراً كثيراً لنفسه ، فلم يمض على مقتل قيصر أسبوعان حتى وقى بليون كانت عليه يبلغ مقدارها نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ربال أمريكى ، وأصبح بعد عشية وضحاها رجلاً ثرياً . واستولى على الخمسة والعشرين مليون ربال التي كان قيصر قد أودعها في هيكل أبس Aps وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة . ولما رأى أن ديمس بروتس ،

الذى عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية ، قد تولى هذا المنصبه المريح رغم اشتراكه في اغتيال قيصر ، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع العسكري الخطير ، ويعوض ديمس عنها بولاية مقدونية . ثم استصدر قراراً آخر بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقدونية لديمس ، وعن سورية لدابللا ، وأن يقنعا بقورينة وكريت .

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة ، فدعا إلى رومة كيوس أكتافانوس متبني قيصر لكي يقضى على هذه القوة وقد صار كيوس في مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكين في التاريخ الرومانى ، أما في عام ٤٤ فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر ، وقد تسمى باسم الرجل الذى تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة وعدله بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيوس يوليوس قيصر أكتافانوس ، وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اسم أغسطس ، وهو اللقب العظيم التى تعرفه به القرون التالية . وكانت جدته هى يوليا Julia أخت قيصر ، أما جده فكان صرفيا من أصل عاى فى فلترا Velitrae من أعمال لاتيوم . وكان أبوه قد عمل إبدىلا شعبيا ثم بريتورا ثم عين فيها بعد والياً على مقدونية .

وقد نشئ الغلام على البساطة الاسبارطية ، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانية والرومانية ، وقضى معظم الثلاث السنن الأخيرة فى قصر قيصر . ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون ، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبني أكتافانوس ، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا فى عام ٤٥ ، وسره أن رأى الشاب المريض ، العصبى ، الضعيف الجسم ، قد تحمّل أخطار الحرب وشدائدها بشجاعة عظيمة . وعمل قيصر على أن يدرّب الشاب على فنون الحرب والحكم (٣) . ولما نعرف ملامحه من التماثيل الكثيرة التى أقيمت له : فهو رقيق ، نحيل ، جاد ، حى وحازم معاً ، مستسلم وعنيد ، مثال اضطرتة الظروف

لأن يكون واقعياً ، ومفكر علمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل . وكان أصفر للوجه ، هزيل الجسم ، معوداً يشكو سوء الهضم ، ولذلك لم يكن يأكل إلا قليلاً ، ولا يشرب إلا أقل ؛ وعاش أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحكمة وتنظيم الحياة .

وجاء في أواخر مارس عام ٤٤ عبد محرز إلى أبولونيا Appolonia من أعمال اليريا Illyria حيث كان اكتافيان مع جيشه يحمل إليه نبأ مقتل قيصر ووصيته .

وارتاع الشاب المرفف الحس لجحود الناس وكفرهم بنعم المنعم عليهم ، وثار في نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لأخى جلده الذي كان يعزه أعظم إعزاز ، والذي كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المحطمة ، وعقد النية في صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه . ثم ركب من فورهِ إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم وأسرع إلى رومة ؛ وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل مخفياً عن الأنظار لثلاثين يوماً ، ونصحته والدته ألا يقوم بعمل من الأعمال ولكنها انتهجت حين سخر من هذه النصيحة . وكان كل ما أشارت به عليه أن يصبر . كلما كان الصبر في مقدوره ، وأن ياجأ إلى الختل بدل الحرب السافرة ، وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه .

وتوجه لزيارة أنطونيوس وسأله عما هو فاعل بقتله قيصر . وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولاً بإعداد جيش يزحف به على ديمس بروتس ، لأنه أرى أن يتخلى عن بلاد غالة الجنوبية ؛ وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته ، وخاصة ذلك الجزء الذي يوصى بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالاً . غير أن أنطونيوس وجد أسباباً كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية ، فما كان من اكتافيان إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالاً استدانها من أصدقاء قيصر وأعد بنفسه جيشه .

واغتاز أنطونيوس من وقاحة هذا « الولد » على حد قوله : وأعلن أن بعضهم قد حاول قتله ، وأن الذي كان يريد اغتياله قد قال إن أكتافيان هو المحرض له . وأنكر أكتافيان هذه التهمة ، وقال إنه برىء منها ، وانتهز شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل في روع أكتافيان أن أنطونيوس فظ غير مهذب يجب أن يهزم . ووافق أكتافيان على هذا الرأي ، وضم فيلقه إلى فيالتي القنصلين هرتيوس Hirtius وبنسا Pansa ، وزحف بها كلها شمالاً لقتال أنطونيوس . وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقلدة ضمنها أربع عشرة « فلية(*)» قوية « في الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة ، التي بعضها في مجلس الشيوخ أو في الجمعية ، ونشر بقيتها للدعابة ضد أنطونيوس على أحسن الصور التي صارت الدعابة الحربية تنشر بها في مستقبل الأيام . ولما التقى الجيشان في موتينا Mutina (مودينا Modena) هزم أنطونيوس وفر من الميدان (٤٤) ؛ ولكن هرتيوس وبنسا قتلا في المعركة . وعاد أكتافيان إلى رومة وأصبح القائد الأوحيد سيالتي مجلس الشيوخ وفيالقه هو ، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلاً ، وأن يلغى العفو الذي أصدره عن المتآمرين وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام . ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه ، وأن كل ما في الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس ، وكون منه ومن أنطونيوس ولهدس الحكومة الثلاثية الثانية . (٤٣ - ٣٣ ق . م) ، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة على رومة واستولت عليها دون أن تلتقي مقاومة ، وفر كثون من الشيوخ ومن المحافظين إلى جنوبي إيطاليا وإلى الولايات الخارجية ، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية ، ووخولتها سلطات كاملة مدى خمسة أعوام .

(*) كان هذا اللفظ يطلق أولاً على كل خطبة من خطب ثلاث لديموستين ضد فليب المقدوني ، ثم صار غلاماً على كل خطبة فيها طعن - واتهام كخطب شيشرون ضد أنطونيوس . (المترجم)

ولكى يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم ، وملاء خزائنتهم ، والانتقام من قتلة قيصر ، بسطوا على رومة حكماً لا يماثله في تاريخ الرومان كله حكم آخر في الإرهاب وسفك الدماء ، فقد أعدوا قواتهم تحتوى على أسماء من لا بد من إعدامهم ، وكانوا ثلثمائة من الشيوخ ، وألفين من رجال الأعمال ، وعرضوا على كل حر يأتهم برأس واحد من هؤلاء ٢٥٠٠٠ درنحة (١٥٠٠٠ ريال أمريكى) ، وعلى كل عبد ١٠٠٠٠ (٤) ، وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام فكانوا يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالا ، وينفذون فيهم الحكم ، وكان ينتزع من الأرامل ما يرثه من الأموال ، وقد أرغمت ١٤٠٠٠ امرأة على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن ، ثم استولوا آخر الأمر على الأموال المدخرة المودعة عند « العذارى القسبية » . وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلثيا Fulvia زوجة أنطونيوس ، ولكنه رغم اعترافه بهذا الفضل أرسل مبالغ طائلة من المال إلى بروتس وكاسيوس . وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة ، واختبأ المحكوم بإعدامهم فى الآبار والبالوعات والحجر العليا فى الدور والمداخن . ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم ، ومنهم من استسلموا لقاتليهم وهم هادئون ، ومنهم من أمانوا أنفسهم جوعاً أو شتقاً أو غرقاً ، ومنهم من قفزوا من فوق الأسطح أو ألقوا بأنفسهم فى النار . ومن الناس من قتل خطأ ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من قتلوا من أقاربهم : وكان التربيون سلفيوس Salvius يعلم أنه من المقتضى بإعدامهم ، فأقام وليمة وداع لأصدقائه ، ودخل عليه رسل الحكام الثلاثة فى أثناء الوليمة ، وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة ، وأمروا المدعويين أن يستمروا فى طعامهم وشرابهم . وانتهز العبيد هذه الفرصة للتخلص من ساداتهم ، ولكن كثيرين منهم قضوا نحبهم وهم يدافعون عن ملاكهم ، وقد تخفى واحد منهم فى زى سيده وقتل بدلا منه . ومات

بعض الأبناء دفاعاً عن آباؤهم ، ونم بعضهم على آباؤهم ليرثوا نصيباً من أموالهم . ومن الزوجات الزانيات أو اللاتي خانن أزواجهن من نمت عليهم ، وأنقذت زوجة كوبيونيوس Coponius بعلمها بالنوم مع أنطونيوس . وكانت ثقيفاً زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشتري منزل جارها رفوس Rufus ، فأبى ذلك عليها ثم حاول في ذلك الوقت أن يقدمه لها هبة من غير ثمن ، ولكنها استطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، فاما قطع رأسه أمرت به فدى بالمسامير على باب بيته الأمامي^(٥)

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم . وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس ، وابن زوجة لتتولس الكتالينارى Lentulus the Catalinarian الذى قتله شيشرون في السجن ، وقد ساءه بحق ما احتوته « فإيات » شيشرون من تجريح وطن شديد . وعارض أكتافيان في هذا ولكنه لم يستمر طويلاً في معارضته ، ذلك أنه لم يكن في وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر ، كما لم ينس العبارة التي قالها للمحافظين يهر بها مغالته لوريث قيصر^(*) وما فيها من تورية . وحاول شيشرون الفرار ، ولكنه لم يتحمل دواز البحر فغادر المركب وقضى الليل في بيته الريفي في فورميا Formiae ؛ وأراد أن يقض فيه اليوم الثانى في انتظار مقتله لأن ذلك في نظره خير من البحر الهائج المضطرب ، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج ، وساروا به نحو السفينة ، وبيناهم في طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس . وأرادوا العبيد أن يقاومهم ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا . ثم مد الرجل رأسه « وجسمه يعلوه العثير ، وشعر رأسه ولحيته منفوش ، ووجهه قد أضناه القلق والتعب »^(٧) ، حتى يسهل على الجنود قطعه^(٤٢) . وكانت أوامر أنطونيوس تقضى بأن تقطع أيضاً يده اليمنى .

(*) كان شيشرون قد قال عن أكتافيان : « إن الغلام جدير بالثناء والتزين والسمو »
laudandum adolescentem, ornandum, tollendum ولكن tollendum بمعنى
أيضاً القتل .

فقطعت وجيء بها مع رأسه إليه . وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز ،
ووهب القتلة ٢٥٠,٠٠٠ درنجة ، وأمر بتعليق الرأس واليد في السوق (٨) .

وفي أوائل عام ٤٢ عبر الحكام بقواتهم البحر الأدريايوى واخترقوا
مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية ،
واستعاننا على تموينه بالمال ينتزعونه بطرق لا تماثلها في قسوتها حتى السوابق
الرومانية . فقد طلبا من الولايات الشرقية للإمبراطورية ضرائب عشر سنين
مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب ؛ ولما أظهر أهل رودس شيئا
من المعارضة في هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم ، وأمر الأهليين
جميعهم بتسليم ثروتهم ، وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه عشرة ملايين
ريال أمريكى . وفي قليقية أنزل جنوده في بيوت طرسوس Tarsus ،
ولم يبارحوها حتى أدت إليه تسعة ملايين ريال ، ولم يستطع السكان أداء
هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضي البلدية ، وصهروا جميع آنية الهياكل
ووحليها ، وباعوا كل الأحرار عبيداً - فباعوا أولا الأولاد والبنات ، ثم
النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشبان ؛ وانتحر الكثيرون من الأهليين
حين علموا أنهم يبيعوا . وجمع كاسيوس من بلاد اليهود أربعة ملايين ريال ،
وباع سكان أربع من المدن عبيداً ؛ ولم يتحرج بروتس أيضاً عن جمع المال
بالقوة ، من ذلك أنه لما رفض سكان أكسانثوس Xanthus من أعمال ليثيا
مطالبه حاصرهم حتى نفذت مؤونتهم ولم ينفذ عنادهم فانتحروا جميعاً (٩) .
وأطال بروتس المكث في أثينة لحبه الفلسفة ؛ ولكن المدينة كانت خاصة
بالشبان الرومان النبلاء الذين كانوا ينادون بالحرب التي تعيدهم إلى أوطانهم .
ولما أن جمع بروتس كفايته من المال طوى كتبه وانضم بجيوشه إلى كاسيوس
ونزل إلى الميدان .

واللقت جيوش الطرفين المتقاتلين في فلهاى في شهر سبتمبر من عام ٤٢ هـ

وزحف جناح بروتس على جناح أكثافيان وزحزحه عن موضعه واستولى على معسكره ، ولكن جيوش أنطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة ، وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل : ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور ؛ لأن المرض أقعد أكثافيان فلزم خيمته واحتل نظام جيشه ، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله : وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس ، وأوقع بمن بقي من الجيوش الجمهورية هزيمة وتوا على أثرها الأدبار : ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك - ولعله قد سره أن يدرك - أنه خسر كل شيء ، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات .

ولما أقبل أنطونيوس على جيشه غطاها بثوبه الأرجواني ؛ فلقد كان هو وبروتس صديقين في يوم من الأيام .

الفصل الثاني

أنطونيوس وكليوباترة

لقد كانت معركة فلپاى آخر معركة برية للأشراف القدامى ، وقد حذا الكثيرون منهم - ابن كاتو ، وابن هورتنسيوس ، وكونتيليوس فارس ، وكاسيوس لانترورا : وقسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم : فأعطى ليدس أفريقية وأخذ أكتافيان الغرب ، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق : وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال ، فعرض على مدائن الشرق ألا يواخذها على ما أمدت به أعداءه من المال إذا هي أمدته بمثله - أى بعشرة أمثال الضرية السنوية في مدى عام : وعاد قديم مرجه وبشاشته إليه حين ظن أن النصر قد أحاد إليه أمنه وطمأنينته ، فأنقص مطالبه من الإفزين حين أقبلت عليه نساؤهم في ثياب كاهنات باخوس يجيئنه ويتسمينه الإله ديونيسس ؛ ولكنه وهب طاهيه بيت موظف مجنزي Magnesian كبير مكافأة له على عشاء شهى أعده له . وعقد مجلساً من أهل المدن الأيونية في إفسوس وأقر فيه حدود تلك الولايات ، وحسم ما بينها من خلاف بحكمة لم ير معها أغسطس بعد عشرة أهوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ في هذا المجلس من قرارات . وعفا عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا في مقتل قيصر . ومد يد المعونة للمدن التي لاقت العذاب على يد كاسيوس وبروتس ، ورفع عنها جميع الضرائب الرومانية ، وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء ، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكوماتها الديمقراطية (١٠) .

وبينا كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة نشبعة من طيبة قلبه وبساطة

خلقه ؛ استسلم للشهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته . فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات ، والمهرجين والصخابين ، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاح له امرأة وأعجبته . وكان قد أرسل الرسل إلى كليوباترة يدعوها للمثول بين يديه في طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوباترة ، ولكنها جاءت في الوقت الذى اختارته وعلى الطريقة التى اختارها . فبينما كان أنطونيوس جالساً على عرش فى السوق العامة ، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها - ركبت هى نهر سندس Cyndus فى قارب ذى أشعة أرجوانية ، وسُكَّان مذهب ، ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناي والمزمار والقيثار . وكادت وصيفاتها هن بحارة القارب ، ولكن فى زى حور البحار وربات الجمال . أما هى فقد تزينت بزى الزهرة (فينوس) ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً ، وتركوا أنطونيوس وحده جالساً على عرشه . ودعته كليوباترة إلى العشاء معها فى قاربها ، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبية ، فأولبت وليمة فاخرة ، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب ، وأفسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات . وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع فى حبها وهى لا تزال فتاة حين شاهدها فى الإسكندرية ، فلما أبصرها فى تلك اللحظة وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتها ؛ وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت ؛ واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية ، وسوريا الوسطى ، وقبرص ، وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود^(١١) : وكافأته هى بما يشتهى ، ودعته إلى الإسكندرية ، فأجاب الدعوة ، وقضى فى تلك المدينة شتاء بعيداً عن المهوم والأكدار (٤١ - ٤٠) يعب حب الملكة عبسا ، ويستمتع إلى المحاضرات فى

متحف ، ناسيا أن له إمبراطورية في حاجة إلى من يحكمها . أما هي فلم تكن أسيرة حبه . بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها رومة الشرهة القوية ، وأن السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تزوج بسيد رومة . ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر ، وهي تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس ، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر . فقال إلى تحقيق الحلم القديم ، وهو توحيد رومة ومصر ، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل :

وبينا كان أنطونيوس يلهو ويلعب في الإسكندرية ، كانت زوجته فلثيا وأخوها لوسيروس يأتمران بأكتافيان ليسقطاه ويتزعا سلطانه على رومة . والحق أن أكتافيان كان أهد ما يكون عن السعادة في ذلك البلد : فقد أضحى مجلس الشيوخ بويرة للمغامرين والقواد ، ودب التلذذ بين العمال المتعطلين ، واختل نظام الشعب كل الاختلال . وكان سكستس عمى يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام ، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما صاد البلاد من خوف ، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكذب يتي منها شيء ، وأخذ الكثيرون من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسي الطليق ، محتجين بأن الغد قد يأتي بإلغاء العملة ، أو بانتهاب جديد ، أو بالموت .

وكان أكتافيان نفسه من أبعد الناس طهارة الذليل في ذلك الوقت ، وكأنا أردت فلثيا وأراد لوسيروس أن يبلغا بالفوضى غايتها القصوى فجيشا جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أكتافيان ، فحاصر ماركس أجريبا Marcus Agrippa قائد جيوش أكتافيان أوسيوم في بروزيا Perusia حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاذ مؤونته (مارس عام ٤٠) . وماتت فلثيا من شدة مرضها . وعدم تحقيق مطامعها ، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها . وعفا أكتافيان عن لوسيروس لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس ، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أكتافيان في برنديزيوم . وكان الجيوش أكثر حكمة من قائديهما

فامنع كل منهما عن قتال الآخر ، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية (٤٠) . وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك ، فزوجه أكتافيان أخته أكتافيا اللطيفة الطاهرة ، وسر كل إنسان بهذه النتيجة إلى حين ، وتنبأ فرجيل - وكان وقتئذ يكتب نشيده للرباع - بعودة حكم « زحل » العادل المثالي .

وفي عام ٣٨ وقع أكتافيان في حب ليثيا Livia زوجة تيبيريوس كلوديوس نبرون Tiberius Cladius Nero وكانت وقتئذ حاملا ، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريبونيا Scriponie . وأقنع نبرون بالتخلص من ليثيا ، وتزوج بها ، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة ، وصلاتها بأشراف البلاد - لأنها من سلالة أسرة كلوديوس النبيلة - استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك ، فخفض الضرائب ، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الأبقين إلى سادتهم . وشرع يعمل في صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا ، وأمكنه بمعونة أجريا وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس أن يحطم أسطول سكتس بمبي ، ويستورد الطعام إلى رومة ، ويقضى على مقاومة الغميين (٣٦) . وحمد له مجلس الشيوخ عمله واختاره تريونا طول حياته .

وذهب أنطونيوس إلى أثينة مع أكتافيا بعد أن زُفّت إليه باحتفال رسمي في رومة . وفي ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة متعة الحياة مع امرأة صالحة ، وتغلى عن مشاغل السياسة والحرب ، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة وأكتافيا إلى جانبه . على أنه كان في هذه الأثناء يدوس الخطط التي وضعها قيصر لفتح پارثيا . وكان لابينس Labienus ابن قائد من قواد قيصر قد دخل في خدمة ملك پارثيا ، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر في قليقية وسوريا - وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال (٤٠) . وألغى أنطونيوس نفسه في حاجة إلى الجند لمواجهة هذا التهديد الخطير ، كما جد في حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود ، والمال عند كليوباترة

موفور ، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم ، فأعاد أكتافيا إلى رومة وطلب إلى كليوباترة أن تقابله في أنطاكية ، وجاءت إليه كليوباترة بعدد قليل من الجنود ، وابتها عارضت في مشروعاته الضخمة الواسعة ، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا النزر اليسير ، وزحف أنطونيوس على پارثيا بمائة ألف جندي (٣٦) ، وحاول عبثاً أن يستولى على قلاعها ، وفقد نحو نصف رجاله في تفهقر يدل على منتهى الجراءة والبطولة مدى ثلثمائة ميل في بلاد معادية له ، وضم أرمينية إلى الإمبراطورية الرومانية في أثناء تفهقره ، وأقام لنفسه موكب نصر ، وصدّم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب في الإسكندرية ثم أرسل رسالة طلاق إلى أكتافيا (٣٧) ، وتزوج كليوباترة ، وثبتها هي وقيصريون حاكين معاً على مصر وقبرص ، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوباترة ، وإذ كان يعرف أنه لا بد أن يسوى الأمور بينه وبين أكتافيا في القريب العاجل أطلق لنفسه العنان في اللهو والترف ، وشجعته كليوباترة على أن يغامر آخر مغامرة في سبيل السلطة العليا ، وساعدته على حشد جيش وأسطول ، وأقسمت له بقسمها المحبب إليها أنها وافقة مع النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم في الكبتول يوماً من الأيام (٣٨) .

الفصل الثالث

أنطونيوس وأكتافيان

صبرت أكتافيا على هجرها صبر الكرام ، وعاشت ساكنة هادئة في بيت أنطونيوس في رومة ، تربي أطفاله الذين رزقهم من فلقيا وابنتها منه . وكان منظرها المحزن أمام أكتافيان في كل يوم ، وصمتها الفصيح ، يثيران كوامن غضبه ، ويؤكدان له أنه هو وإيطاليا جميعاً مقضى عليهما إذا نجح أنطونيوس في خطته ، فأخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف ، تدرك أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر ، وأنه وهبها هي وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً ، وأنه سيضع رومة وإيطاليا بأجمعها في المقام الثاني بعد مصر .

ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ - وكان قد تجاهله سنين طويلاً - يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة ، وأن تعود جميع للنظم الجمهورية إلى سابق عهدها ، تخلص أكتافيان من هذا الموقف الحرج بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس انتزعها هو قسراً من العذارى الفستية ، وفيها يوصى أنطونيوس بأن يكون ولداه من كليوبطرة وريثيه دون غيرها ، ويأمر بأن يدفن إلى جانب الملكة في الإسكندرية^(١٤) . وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياح في صحتها . ذلك أنها لم تثر في نظر المجلس الشك في أن وصية تودع في رومة تشترط هذه الشروط ، بل أفتنته وأقنعت إيطاليا أن كليوبطرة تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبنى بها الاستيلاء على الإمبراطورية . ولجأ أكتافيان إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه ، فأعلن الحرب (٣٢) على كليوبطرة لاعلى أنطونيوس ، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا .

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترة في شهر سبتمبر من عام ٣٢ إلى البحر الأيوني، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية ، ولم يكن أسطول بهذه القرة قد ظهر على متن البحر من قبل . وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة ، واثني عشر ألفاً من الفرسان ، أمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومة . وعبر أكتافيان البحر الأدرياي بآربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثني عشر ألفاً من الفرسان . وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها ؛ فلما كان اليوم الثاني من شهر سبتمبر عام ٣١ التحم الجهشان والأسطولان عند أكتيوم في الخليج الأبراسي في معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ ؛ وبرهن أجريا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط ، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية . وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحمارة أكتافيان مشاعل متقدة . ويصف ديوكاسيوس Dio Cassius ما حدث وقتئذ بقوله :

« وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران ، ومنهم من نضج لحمهم في دروعهم التي احرمت من شدة اللهب ، ومنهم من شوتهم النار شيئاً في سفنهم كما تشوى اللحوم في الأفران . وألقى الكثيرون منهم أنفسهم في البحر ، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان ، ومنهم من قتلوا رمياً بالمهام ، ومنهم من قضوا نحسهم غرقاً . ولم يمت من هذا الجيش كله مائة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً (١٥) .

ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه ، وأشار إلى كليوباترة أن تنفذ خطة الانسحاب التي اتفقا عليها من قبل . فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب ، وانتظرت قدوم أنطونيوس . ولما هجز من إنقاذ السفينة المعقود لواوها له ، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوباترة ، وجلس هو وحده في مقدم السفينة

أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه ، فقد أدرك أنه خسر كل شيء ، حتى الشرف .

وسار أكتافيان من أكتيوم إلى أثينة ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر ، ثم رجع إلى آسية ليعاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس ، وليجمع أموالا جديدة يسعف بها المدن التي طال عليها عهد الشقاء والحرب ، ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية (٣٠) ، وكان أنطونيوس قد ترك كليوباترة وأقام في جزيرة قرب فاروس ، وأرسل منها رسلا يطلب الصلح ، ولكن أكتافيان لم يعبأ بهم ، وأرسلت كليوباترة إلى أكتافيان على غير علم من أنطونيوس ، صولجانا وتاجاً وعرشاً من الذهب دليلاً على خضوعها له ، وكان جوابه لها - على حد قول ديون - أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسيها بأذى إذا قتلت أنطونيوس (١٦)

وكتب الحاكم المهزوم إلى أكتافيان مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا ، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوباترة ، ولم يرد عليه أكتافيان في هذه المرة أيضاً ، وجمعت كليوباترة كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر في أحد أبراج القصر ثم أبلغت أكتافيان أنها ستتلف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفاً . وسار أنطونيوس على رأس القوة للصغيرة التي كانت باقية لديه ليحارب عدوه في المعركة الأخيرة ، واستطاع بشجاعة اليائس أن يكسب نصراً مؤقتاً ، ولكنه أبصر في اليوم الثاني جنود كليوباترة المرتزة تستسلم للعدو ، وتراعى إليه أن كليوباترة قد ماتت ، فظعن نفسه طعنة قضت على حياته . ولما علم أن الخبر مكذوب طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذي آوت الملكة ووصيفاتها إلى حُجْره العليا وأغلقت عليهن الأبواب ، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها وسمح لها أكتافيان أن تخرج منه البرج وتدفع حبيبها ، ثم أجاز لها

المثول بين يديه ، ولم يتأثر بما كان باقياً من المفاتن في امرأة محطمة مهزومة في التاسعة والثلاثين من عمرها ، وعرض عليها شروطاً للصلح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة ، ولم يخالجه شك في أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى رومة لتزين موكب نصره ، فما كان منها إلا أن ليست ثيابها الملكية ، ووضعت صلا على صدرها ، وماتت . وحذت حذوها وصيفتها شارميون Charmion وإيريس Iris فانتهرتا (١٧) .

وسمح أكتافيان أن تدفن إلى جوار أنطونيوس ، وقتل هم فيصريون وأكبر أبناء أنطونيوس من فلقيا أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربهما أكتافيا وعنيت بهما كما لو كانا ابنيها . ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الوفور ما كان يحلم به . ونجت مصر من المألة التي كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية . ذلك أن كل ما فعله أكتافيان أن جلس على عرش البطلمة وورث أملاكهم ، وترك في مصر حاكما يدبر شئون البلاد باسمه .

وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وضم ملك الإسكندر إلى ملكه ، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى ، كما انتصر من قبل في مراثون ومجنيزيا ، وانتهى صراع الجبابرة ، وكان الفوز فيه لرجل عليل . وقضى على الثورة في أكتيوم ، كما قضى على الجمهورية في فرسالس وأتمت رومة الدوة المشقومة التي يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن : ملكية ، نأرستقراطية ، فاستغلال أبحركى ، فدمقراطية ، ففوضى ثورية ، فذكتاتورية . وانتهى مرة أخرى ، في جزر التاريخ ومدته ، عهد من عهود الحرية ، وبدأ عهد من عهود النظام

(انتهى الجزء الأول)

المراجع بمجلة

يوصى المؤلف بقراءة الكتب التي أمامها هذه العلامة (*) لمن أراد التوسع في دراسة موضوع هذا الكتاب .

- ABBOTT, F., *The Common People of Ancient Rome*, N.Y., 1911.
- ACTON, LVRD, *The History of Freedom*, London, 1907.
- ALCIPHRON, *Letters*, London, n.d.
- ANDERSON, W., and Spiers, R., *The Architecture of Greece and Rome*, London, 1902.
- APOCRYPHA AND PSEUDEPIGRAPHA OF THE OLD TESTAMENT.
Oxford, 191. 32v.
- APPIAN, *Roman History*, Loeb Classical Library. 4v.
- APULEIUS, *The Golden Ass*, rr. W. Adlington, N.Y. 1907.
- STOTLE, *Physics*, Loeb Library 2v.
politics, Everyman Library.
- ARNOLD, W., *Roman System of Provincial Administration*, Oxford, 1914.
- ARRIAN, *Anabasis of Alexander*, London, 1893.
- ATHENAEUS, *The Deipnosophists*, London, 1854, 3v.
- AUGUSTINE. St., *The City of God*, London, 1934.
Select Letters, Loeb Library.
- AUCUSTUS, *Res gestae*, Loeb Library.
- BAILEY, C., *The Legacy of Rome*, Oxford, n.d.
- BALL, W.W., *Short History of Mathematics*, Londod, 188.
- BALSDON, J., *The Emperor Gaius*, Oxford. 1984.
- BARNES, H. E., *History of Western Civilization*, N.Y., 1935 2v.
- BARON, S, *Social and Religious History of the Jews*, N.Y.. 1937. 3v.
- BATTIFOL L., *The Century of the Renaissance*, N.Y., 1935.
- BDARD, M., *History of the Business Man*, N.Y., 1938.
- BEVAN, E., *The House of Seleucus*, London, 1602, 2v.
The Legacy of Israel, Oxford, 1927.
- *BIBLE, Revised Version of the King James Translation.
- BIESER, M., *History of the Greek and Roman Theater*, princeton, 1939.
- BIGO. C., *Neo - Platonism*, London, 1935.

- BOISSIER, G., *L'Afrique romaine*, Paris 1885.
Cicero and His Friends, N.Y., n.d.
La fin du paganisme, Paris, 1894.
L'opposition sous les Césars, Paris, 1875.
La religion romaine, Paris, 1909. 2v.
Rome and Pompeii, London, 1896.
Tacitus and Other Roman Studies, London, 1906.
- BOOKS OF ENOCH AND WISDOM, cf. Apocrypha.
- BOUCHIER, E., *Life and Letters in Roman Africa*, Oxford, 1913.
- BREASTED, J., *Ancient Times*, Boston 1916.
Oriental Forerunners of Byzantine Painting, Chicago, 1924.
- BRECCIA, E., *Alexandria ad Aegyptum*. Bergamo, 1923.
- BRITAIN, A., *Roman Women*, Philadelphia, 1907.
- BUCHAN, J., *Augustus*, N.Y., 1937.
- BUCKLAND, W., *Textbook of Roman Law*, Cambridge U.P., 1921.
- BURCKHARDT, J., *Die Zeit Constantins des Grossen*, Phaidon Verlag, Wien, n.d.
- AURY, J., *History of the Roman Empire*, N.Y. n.d.
History of Freedom of Thought, N.Y., n.d.
- CAESAR, J., *De bello civili*. Loeb Library.
De bello Gallico, Loeb Library.
- CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, N.Y., 1924f. 12v.
CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, N.Y., 1924f. 8v.
- CAPES, W., *University Life in Ancient Athens*. N.Y., 1922.
- CARPENTER, EDW., *Pagan and Christian Creeds*. N.Y., 1920.
- CARTER, T., *The Invention of Printing in China*, N.Y., 1925.
- CASTIGLIONE A., *History of Medicine*, N.Y., 1941.
- CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, N.Y., 1913. 16v.
- CATO, M., *De agri cultura*, Loeb Library.
- CATULUS, *Poems*, tr. Horace Gregory, N.Y., 1931.
- CATULLUS, *Tibullus, and Pervigilium Veneris*, Loeb Library.
- CHARLESWORTH, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, Cambridge U.P., 1926.
- CICÉRO, *Academica*, Loeb Library.
De divinatione, Loeb Library.
De finibus, Loeb Library.

- De legibus, Library.
- De natura Deorum, Loeb Library.
- De officiis, Everyman Library.
- De re publica, Loeb Library.
- De Senectute and De amicitia, Loeb Library.
- Disputationes Tusculanae, Loeb Library.
- Letters, tr. Meimoth ; cf. Middleton.
- Pro Milone and Other Speeches, Loeb Library.
- CLEMENS OF ALEXANDRIA**, Writings and Opinions, ed. Kaye, London, n.d.
- COLLINGWOOD, R.**, and **MYRES, N.**, Roman Britain, Oxford, 1887.
- COLUMELLA**, De re rustica, Loeb Library.
- CONYBEARE, W. J.**, and **HOWSON, J. S.** Life, Times, and Travels of St. Paul, N. Y., 1869. 2v.
- COULANGES, F. DE**, The Ancient City, Boston, 1901.
- CUMONT, F.**, Oriental Religions in Roman Paganism, Chicago 1911.
- CUNNINGHAM, W. C.**, Western Civilization in its Economic Aspects, Cambridge U. P. 1900. 2v.]
- DAVIS, W. S.**, Influence of Wealth in Imperial Rome, N. Y., 1913.
- DAVIS, W.S.** and **WEST, W.M.** Readings in Ancient History, Boston, 1912.
- DECLAREUIL, J.**, Rome the Eaw, Oiver, N. Y. 1976.
- DENNIS, G.**, Cities and Cemeteries of Etruria Everyman Library. 2v.
- DILL, SIR S.**, Roman Society from Nero to Marcus Aurelius, London 1911.
- DIO CASSIUS**, History of Rome. Troy, N. Y., 1905. 8v
- DIO CHRYSOSTOM**, Orations. Loeb Library. 3v
- DIODORUS SICULUS**, Library of History, Loeb Library 10v
- DIONYSIUS OF HALICARNASSUS**, Roman Antiquities, London, 1758. 4v.
- DOUGHTY, G.**, Travels in Arabia Deserta, N.Y., 1923. 2v]
- DUCHESNE. MON. L.**, Early History of the Christian Church London 1925. 8v
- DUFF, J.**, Literary History of Rome. London, 1909.
- Literary History of Rome in the Silver Age, N. V., 1920.
- DURUY, V.**, History of the Roman People, Boston, 1888. 8v.
- EDERSHEIM, A.**, Life and Times of Jesus the Messiah, N.Y., n.d. 2v.
- ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA**, 14th ed. 24v.

- EPICETUS**, Works, Loeb Library. 2v.
Encheiridion, Girard, Kan., n.d.
- EUSEBIUS PAMPHILUS**, Ecclesiastical History, N.Y., 1863.
Historical View of the Council of Nice, in preceding.
Life of Constantine, in Ancient Ecclesiastical Histories:
London, 1650.
Praeparatio evangelica, Oxford, 1843.
- PATTORUSSO**, J., Wonders of Italy, Florence, 1930.
- FERRERO**, G., Ancient Rome and Modern America, N.Y., 1914.
Greatness and Decline of Rome, N.Y., 1909. 5v.
The Ruin of Ancient Civilization, N.A., 1921.
The Women of the Caesars, N.Y., n.d.
- FINKELSTEIN**, L., Akiba, N.Y., 1963.
- FLAUBERT**, G., Salammbô, Modern Library.
- FLICK**, A. C., Rise of the Medieval Church, N.Y., 1909.
- FOAKES-JACKSON**, F., and **LAKE**, K., Beginnings of Christianity.
London 1920. 5v.
- FOWLER**, W.W., Religious Experience of the Roman People, London, 1933.
Roman Festivals of the Period of the Republic, N.Y., 1899.
Social Life at Rome, N.Y., 1927.
- FRANK**, T., Economic History of Rome, Baltimore, 1927.
Roman Imperialism, N.Y., 1914.
Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore. 1933. 5v.
- FAZER**, SIR J., Adonis, Attis, and Osiris, London, 1907.
The Magic Art, N.Y., 1935. 2v.
The Scapegoat, N.Y., 1935.
Spirits of the Corn and Wild, N.Y., 1935. 2v.
- FRIDLANDER**, L., Roman Life and Manners under the Roman Empire.
London, 1928. 4v.
- FRONTINUS**, Stratagems and Aqueducts, Loeb Library.
- FRONTO**, M., Correspondence, Loeb Library.
- GAIUS**, Elements of Roman Law, ed. Poste, Oxford, 1876.
- GALLEN**, On the Natural Faculties, Loeb Library.
- GARDINER**, E., Athletics of the Ancient World, Oxford, 1930.
- GELLIUS**, AULUS, Attic Nights, Loeb Library. 3v.

- GARRISON, F., *History of Medicine*, Phila., 1929.
- GATTESCHI, O., *Restauri della Roma Imperiale*, Rome, 1924.
- GEST, A., *Roman Engineering*, N.Y., 1930.
- GIBBON, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library 6v.
Ed. Bury, J.B., London 1900. 7v. Only when so specified.
- GLOVER, T.R., *The Conflict of Religions in the Early Roman Empire*,
London, 1932.
- GOOUEL, M., *Life of Jesus*, N.Y., 1933.
- GOODSPEED, E.J., *The New Testament, An American Translation*, Univ.
of Chicago, 1937.
- GRAETZ, H., *History of the Jews*, Phila., 1891. 6v.
- GREEK ANTHOLOGY, Loeb Library.
- GUHL, E., and KONEK, W., *Life of the Greeks and the Romans*, N.Y., 1876.
- GUIONEBERT, C., *Christianity Past and Present*, N.Y., 1927.
Jesus, N.Y., 1935.
- GUMMERE, *Seneca the Philosopher*, Boston, 1922.
- HADZSITS O., *Lucretius and His Influence*, London, 1935.
- HAGGARD, H., *Devils, Drugs, and Doctors* N.Y., 1929.
- HALLIDAY, W.R., *The Pagan Background of Early Christianity*, London, 1926.
- HAMMERTON, J., *Universal History of the World*, London, n.d. 8v.
- HARRISON, JANE, *Prolegomena to the Study of Greek Religion*, Cambridge
U.P., 1922.
- HASKELL, H., *The New Deal in Old Rome*, N.Y., 1939.
- HASTINGS, J., *Encyclopedia of Religion and Ethics*, N.Y., 1928. 12v.
- HATCH, E., *Influence of Greek Ideas and Usage upon the Christian
Church*, London, 1890.
- HAVERFIELD, F., *The Romanization of Roman Britain*, Oxford, 1923.
The Roman Occupation, of Britain, Oxford, 1924.
- HEATH, SIR T., *History of Greek Mathematics*, Oxford, 1921. 2v.
- HEINE H., *Memoirs*, London, 1910. 2v.
- HEITLAND, W., *Agricola*, Cambridge U.P., 1921.
- HELVDORUS, Longus, etc., *Greek Romances*, London, 1901.
- HENDERSON, B., *Life and Principate of the Emperor Hadrian*. N.Y., n.d.
Life and Principate of the Emperor Nero, Phila.; 1903.
- HERODIAN, *History of Twenty Caesars*, London, 1629.
- *HERODOTUS, *History*, ed. Rawlinson, 1862. 4v.

- HIMES, N, *Medical History of Contraception*, Baltimore, 1936.
- HISTORIAE AUGUSTAE, Loeb Library, 2v.
- HOLMES, T.R., *The Architect of the Roman Empire*, Oxford, 1928. 2v.
- HOMO, L. *Primitive Italy*, London, 1927.
 Roman Political Institutions, N.Y. 1930.
- *HORACE, *Odes and Epodes*, Loeb Library.
 Satires and Epistles, Loeb Library.
- HOWARD, C., *Sex Worship*, Chicago, 1909.
- INGE, DEAN W.R., *The Philosophy of Plotinus*, London, 1929. 2v.
- IRENAEUS, *Adversus haereses*, Oxford, 1872.
- JEROME, *Select Letters*, Loeb Library.
- JONES, A., *Cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford, 1937.
- JONES, H, *Companion to Roman History*, Oxford 1912.
- JONES, W, *Malaria and Roman History*, Manchester U.P., 1909.
- JOSEPHUS *Works*, tr. Whiston, Boston, 1817, 2v.
- JULIAN, C, *Histoire de la Gaule*, Paris, 1908. 6v.
- JUSTINIAN, *Digest*; cf Scott, S P.
- JUVENAL AND PERSIUS, *Satires*, Loeb Library.
- JUVENAL, PERSIUS, SULPICIA, AND LUCILIUS, *Satires*. tr. Gifford
 London, 1852.
- KALTHOFF, A., *Rise of Christianity*, London, 1907.
- KAUTSKY, K., *Ursprung des Christentums*, Vienna, 1908.
- KLAUSNER, J, *From Jesus to Paul*, N.Y., 1943. •
 Jesus of, N Y., 1929.
- KOHLER, C., *History of Costume*, N. Y., 1928.
- LACTANTIUS, *Works*. in *Ante-Nicene Christian Library*, vols. XXI-II.
 London 1881.
- LAKE, K., ed., *The Apostolic Fathers*, Loeb Library, 2v.
- LANCIANI, R., *Ancient Rome*, Boston, 1899.
- LANG, P., *Music in Western Civilization*, N Y., 1941.
- LEA, H.C., *Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy*. Boston, 1884.
- LECKY, W., *History of European Morals*, N.Y., 1926 2v.
- LESLIE SHANE, *The Greek Anthology*, N.Y., 1929.
- LIVINGSTONE, R. W., *The Legacy of Greece*, Oxford, 1924.

- LIVY, T., *History of Rome*, Everyman Library. 6v
- LONGINUS ON THE SUBLIME, Loeb Library.
- LOT, FERDINAND, *End of the Ancient World*, N. Y., 1931.
- LUCAN, *Pharsalia*, Loeb Library.
- *LUCIAN, *Works*, tr. Fowler, Oxford, 1905. 4v.
- *LUCRETIUS, *De rerum natura*, Loeb Library.
- MAC GREGOR, R., *The Greek Anthology* London, n.d.
- MACKENNA, STEPHEN, *The Essence of Plotinus*, N.Y., 1934.
- MACROBIUS, *Works*, French tr., Paris, 1827.
Opera, London, 1694
- MAHAFFY, J., *The Silver Age of the Greek World*, Chicago, 1906.
- MAINE, SIR H., *Ancient Law*, Everyman Library.
- MAIURI, A., *Les fresques de méit*, Paris, n.d.
Pompeii, Rome, Rome. n.d.
- MANTZIUS, K., *History of Theatrical Art*. N.Y., 1937. 6v.
- *MARCUS AURELIUS, *Meditations*, tr. Long, Boston, 1671.
- MARTIAL, *Epigrams*, Loeb Library 2v.
- MATTHEWS, B., *Development of the Drama*, N.Y., 1921.
- MAU, A., *Pompeii*, N Y., 1902. *
- MERIVALE, C., *History of the Romans under the Empire*, London, 1865, 8v.
- MIDDLETON, C., *Life of Marcus Tullius Cicero*, London, 1877.
- MINUCIUS, FELIX, *Octavius*, in *Tertullian, Apologeticus*, Loeb³ Library.
- MOMIGLIANO, A. *Claudius*, Oxford, 1934.
- *MOMMSEN, T. *History of Rome* London, 1901 5v.
The Provinces of the Roman Empire, N.Y., 1887. 2v.
- MONROE, P., *Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period*, N Y. 1932.
- MONTESQUIEU, CHARLES DE, *Grandeur et Décadence des Romains*.
Paris, 1924.
- MOORE, G.F., *Judaism in the First Centuries of the Christian Era*, Cambridge,
Mass., 1932. 2v.
- MULLER-LYER, F., *Evolution of Modern Marriage*, N.Y., 1930.
- MURRAY, G., *Five Stages of Greek Religion*, Oxford, 1930.
- NEPOS, CORNELIUS, *Lives* N.Y., 1895.
- *OVID, *Ars amatoria*, Loeb Library.

- Fasti**, Loeb Library.
Herodes and Amores, Loeb Library.
Love Books of, tr. May, N.Y., 1930.
Metamorphoses, Loeb Library. 2v.
Tristia and x Ponto, Loeb Library
- OWEN, JOHN**, *Evenings with the Sceptics*, London, 1881. 2v.
PATER, WALTER, *Marius the Epicurean*, n.d.
PAUL-LOUIS, *Ancient Rome at Work*, N.Y., 1927
PFUHL, E., *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*, London, 1926
PHIDO, *Works*, Loeb Library. 9v.
PHILOSTRATUS, *Life of Apollonius of Tyana*, Loeb Library. 2v
PHILOSTRATUS AND EUNAPIUS, *Lives of the Sophists*, Loeb Library,
PLAUTS, *Comedies*, London, 1889.
PLINY THE ELDER, *Natural History*, London, 1855. 6v
PLINY THE YOUNGER, *Letters*, Loeb Library,
PLOTINUS, *Select Works*, London, 1912.
PLUTARCH, *De Iside et Osiride*, French tr., Paris, 1924.
 De tranquillitate animi, tr. Harvard U.P., 1931.
 Lives, Everyman Library. 3v.
 Moralia, Loeb Library.
 Quaestiones Romanae, tr. Holland, London, 1892.
- POLYBIUS**, *Histories*, Loeb Library. 6v. "
POPE, A.U., *Survey of Persian Art*, London 1938. 6v.
PORPHYRY, *Life of Plotinus*, in MacKenna, S., *The Essence of Plotinus*,
 N.Y., 1934.
- PROPERTIUS**. *Poems*, Loeb Library.
QUINTILIAN, *Institutes of Oratory*, Loeb Library. 4v.
RAMSAY, W.M., *The Church in the Roman Empire*, N.Y., 1893.
RANDALL-MAC IVER, D., *The Etruscans*, Oxford, 1927.
RAWLINSON, G., *The Sixth Great Oriental Monarch*, N.Y., n.d.
REID, J., *Municipalities of the Roman Empire*, Cambridge U.P., 1913.
REINACH, S., *Apollo, a History of Art*, N.Y., 1917.
 A Short History of Christianity, d.Y., 19 2.
RENAN, E., *Antichrist*, London, n.d.

- The Apostles**, London, n.d.
The Christian Church, London, n.d.
Lectures on the Influence of Rome on Christianity, London, 1884.
Life of Jesus, N.Y., n.d.
Marc Auréle, Paris, n.d.
St. Paul, Paris, n.d.
- ROBERTSON, J.M.**, *Short History of Freethought*, London, 1914 2v.
RODENWALDT, G., *Die Kunst der Antike: Hellas und Rom*, Berlin, 1927.
RÖSTOVITZ, M., *History of the Ancient World*, Oxford, 1928. 2v.
Mystic Italy, N.Y., 1927.
Social and Economic History of the Hellenistic World
N Y, 1924. 2v.
Social and Economic History of Roman Empire,
Oxford, 1926.
- SACHAR, A.**, *History of the Jews*, N.Y., 1932.
SALLUST, *Works*, Loeb Library.
SANDYS, SIR J., *Companion to Latin Studies*, Cambridge U.P., 1925.
SARTON, G., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930 Vol. I.
SCHÜRER, E., *History of the Jewish People in the Times of Jesus*, N.Y.,
1890. 9v.
SCHWEITZER, A., *The Quest of the Historical Jesus*, London, 1962.
SOCTT, E. F., *First Age of Christianity*, N.Y. 1935.
SCOTT, S.P., *The Civil Law of Rome*, Cincinnati, 1932. 17v.
SENECA, *Epistulae Morales*, Loeb Library. 2v
Moral Essays, Loeb Library. 3v.
Quaestiones naturales, tr. in Clarke, *Physical Science in the Time-*
of Nero, London, 1910.
Tragedies, Loeb Library. 2v.
- SETTUS EMPIRICUS**, *Works*. Loeb Library 3v
Opera, Leipzig, 1840. 2v.
- SHOTWELL, J.**, *Introduction to the History of N.Y.*, 1936.
SHOTWELL, J., and **LOOMIS, L.**, *The See of Peter*, Columbia U.P., 1937.
SIDONIUS APOLLINARIS, *Poems*, Loeb Library.
SIMPSON, F., *History of Architectural Development*, London, 1921. Vol I.
SMITH, R.B., *Carthage and the Carthaginians*, N.Y., 1908.

- SMITH, WM., Dictionary of Greek and Roman Antiquities, Boston 1859
- ELLAR, W., Horace and the Elegiac Poets, Oxford, 1937.
Roman Poets of the Augustan Age: Virgil, Oxford, 1877.
Roman Poets of the Republic, Oxford, 1881.
- SOCRATES, Ecclesiastical History. London, 1892.
- STATIUS, Poems, Loeb Library. 2v.
- STRABO, Geography, Loeb Library. 8v.
- STRONG, E., Art in Ancient Rome, N. Y., 1928. 2v.
- SUETONIUS, Works. Loeb Library 2v.
- *SUMNER, W. G. Folkways, Boston, 1906.
War and Other Essays Yale, U.P., 1911.
- SYME, R., The Roman Revolution, Oxford. 1939.
- SYMONDS, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
- *TACITUS, Annals, Loeb Library.
Histories, Loeb Library.
Workst tr. Murphy, London 1830.
- TAINÉ. H., Essai sur Tite Live, Paris. 1874.
Modern Regime, N.Y., 1890 2y.
- TALMUD, Babylonian tr., London, 1935f. 24v.
- TARN, W.W., Hellenistic Civilization, London, 1927.
- TAYLOR, H., Cicero, Chicago, 1916.
- TERENCE, Comedies, London, 1898.
- TERTULLIAN, Apologeticus, etc, Loeb Library.
- THIERRY, A., Histoire de la Gaule sous l'administration romaine Paris, 1840 2v.
- TAOMPSON, SIRE., Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912
- THORNDIKE, L., History of Magic and Experimental Science N.Y., 1929 2y.
- THUCYDIDES, History of the peloponnesian War, Everyman Library.
- TIBULLUS, Poems, or Catullus.
- TOULAIN, J., Economic Life of the Ancient World, N.Y., 1930.
- TONNBEE, A. J., A Study of History, Oxford, 1935. 3v.
- *TRENCH, R., Plutarch, London, 1874.
- UEBERWEG, F., History of Philosophy, N.Y., 1871. 2v
- USHER, A., History of Mechanical Inventions, N.Y., 1929.
- VALERIUS MAXIMUS, Factorum et dictorum, Berlin, 1854.
- VARRO, M., Rerum rusticarum, Loeb Library, 2v.

- VIRGIL**, *Poems*, Loeb Library. 2v.
VITRUVIUS, *De architectura*, Loeb Library
VOGELSTEIN, H. *Rome*, Phila. 1940.
VOLTAIRE, *Philosophical Dictionary*, N.Y., 1901.
WARD, C.O., *The Ancient Lowly*, Chicago, 1907. 2v.
WATSON P.B. *Marcus Aurelius Antoninus*, N.U., 1884.
WEIGALL, A., *The Paganism in Our Christianity*, N. Y., 1928,
WEISE, O., *Language and Character of the Roman People*, London. 1909
WESTERMARCK, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, London
1917. 2v.
WHITE, E.L., *Why Rome Fell*, N.Y. 1927
WICKHOFF, F., *Roman Art*, London. 1900.
WILLIAMS, H., *History of Science*, N.Y., 1909 5v.
WINCKELMANN, J., *History of Ancient Art*, Boston, 1880. 2v
WRIGHT, F. *History of Later Greek Literature*, N. Y., 1932.
ZEITLIN, S., *The Jews*, Phila, 1939.
The Pharisees and the Gospels, N. Y., 1938.

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال في الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER

1. Pliny, *Natural History*, xxxvii, 77
2. Virgil, *Georgics*, ii, 149.
3. *Ibid.*, ii, 198.
4. Strabo, *Geography* v, 4, 8.
5. Polybius, *History*, i, 2. 15.
6. In Taine, *Modern Regime* 17.
7. Aristotle, *Physics* 1329b.
8. Thucydides, *Peloponnesian War*, vi, 18. 2.
9. Homo, *Primitive Italy*, 32 Toutain, *Economic Life of the Ancient World*, 207.
10. Dennis, *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 36.
11. Herodotus, *Histories*, v, 94 ; Strabo, v. l. 2 ; Tacitus. *Annals* iv, Appain. *Roman History* viii, 9. 66 ; etc. Dionysius of Halicarnassus, i, 30, regarded the Etruscans as indigenous to Italy ; so did Mommsen, *History of Rome* I, 155. Dennis, I, 17, Frank *Economic History of Rome*, 16, Randall - MacIver, *Etruscans*, 23, and Rostovtzeff, *History of the Ancient World*, II, 180, accept the tradition.
12. Dennis, I, 39.
13. Paul - Louis, *Ancient Rome at Work*, 66 ; Toutain 211.
14. Dennis I, 329.
15. Athenaeus, *Dicynosophists* xii, 3.
16. Garrison, *History of Medicine* 119
17. Castiglione, *History of Medicine*. 192.
18. Aristotle in Athenaeus, i, 19 ; *Census*, I, 321.
19. *Ibid.*, 21.
20. *Cambridge Ancient History* ; IV, 415.
21. Frazer; Sir J. *Magic Art*, II, 287,
22. Schollast on Juvenal, vi, 565.
23. Frazer, l.c.
24. CAH, IV, 420-1 ; Mommsen, I, 282.3 ; Dennis, II, 168.
25. *Enc. Brit.*, VIII, 787.
26. Anderson and Spiers, *Architecture of Greece and Rome*, 121; Strong, E., *Art in Ancient Rome*, 21 ; CAH, VII, 386.
27. Pliny, xxxv, 6.
28. Rodenwaldt, G., *Die Kunst der Antike : Pallas* 509.
29. Ovid, *Fast.* iii. 15.
30. Livy, *History of Rome*, i, 9-13.
31. Frazer. II, 891.
32. Livy, I, 19.
33. Tacitus, *Ann.*, iii, 25.
34. Cicero, *De re publica*, ii, 14.
35. Livy, I, 22.
36. *Ibid.*, 27.
37. Dio Cassius, *History of Rome* fragment vii.
38. Strabo, v, 4.

39. Livy, i, 35.
40. Pais, E., *Ancient Legends of Roman History*, 38.
41. Cicero, *Republica*, ii, 21.
42. Livy, i, 46.
43. Pais, 137-8.
44. Dio, iii, 7, and frag x, 2.
45. Livy, i, 56-7.
46. Syme, R., *The Roman Revolution*, 85n.
47. Cicero, *Republica* i, 39; Cowlanges, F., *The Ancient City* 384.
48. Tacitus *Histories*, iii, 72.
49. Mommsen, I, 414.
50. Dennis, I, 26.
51. Duff, J. W., *Literary History of Rome*, 6; CAH, IV, 407.
52. Livy, i, 8; Strabo, v, 2. 2; Dennis II, 166.
53. CAH, VII, 384.
54. Livy, i, 8.
55. CAH, VIII 387; Hammerton, J., *Universal History of the World*, II, 1158.
56. Strabo, v, 2. 2.

CHAPTER II

1. Livy, i, 8.
2. Aulus Gellius, *Attic Nights* vi, 13.
3. Livy, ii, 56; CAH, VII, 456.
4. Aulus Gellius, xx, 1. 45-51; Dio, frag. xvi, 4.
5. Livy, ii, 2330; Dio, iv, 7 and frag. xvi, 6; Dionysius, vi, 45; Plutarch, "Coriolanus."
6. Livy, iv, 13; Dio, vi, 7.
7. Livy iii, 52.
8. Dio, v, 7.
9. Ibid.
10. Livy, i, 43.
11. Frank, *Economic History*, 20
Smith, W., *Dictionary of Greek*

and Roman Antiquities, s. v. *exercitus*.

12. Mommsen, III, 60,
13. Plutarch, "Pyrrhus."
14. Coulanges, 244.
15. Dio, iv, 7.
16. Twelve Tables, iv, 1-3 in Nonroe, P., *Source Book*, 337.
17. Twelve Tables, iii, 1.6.
18. Ibid., viii, 8.
19. Ibid., 21-26.
20. Cicero, *Pro Roscio Amerino*, 25-6.
21. Polybius, iii, 6.
22. Livy, vii, 24.
23. Vitruvius, *De Architectura* ii, 12.
24. Polybius, vi, 37
25. Frontinus, *Stratagems and Aqueducts*, iv, 1.
26. Frank, *Economic History*, 338; Id., *Economic Survey of Ancient Rome*, V, 160; Fowler, W. W. *Social Life at Rome*, 32; Edwards, H. J., Appendix A to Caesar, *Gaulic War*.
27. Dio vi, 96.
28. Livy, ii, 84; Dionysius, vii, 60; Dio, v, 7 and frag. xvii, 2; Appian, *Roman History*, ii, 8; Plutarch, "Coriolanus."
29. Polybius, ii, 15-20.
30. Livy, v, 42.
31. Dio vii, 7.
32. Coulanges, 494.
33. Plutarch, "Sayings of Great Commanders" in *Moralla* 184C.

CHAPTER III

1. Mommsen, II, 138.
2. Smith, R.B., *Carthage*, 29.
3. Appian, vii 95.
4. Polybius, vi, 56.

3. Plutarch, *De republica ger.*, iii, 6.
6. Frazer, *Adonis, Attila, Osiris*, 1, 114.
7. Diodorus Siculus, *Library of History*, xx, 14.
8. St. Augustine. *Letters*, xvii, 2.
9. Appian, viii, 127.
10. Aristotle. *Politics*, 1272b.
11. *Ibid.*, 1273a.
12. Polybius, iii, 22.
13. Strabo, xvii, 1, 19.
14. Polybius, i, 20-1.
15. Cicero, *De Officiis*, iii, 26; *In Pisonem*, 43.
16. Ocellus, vii, 4.
17. Polybius, i, 80.
18. Smith. R.B., *Carthage*, 151.
19. Polybius, i, 37. Flaubert has told the story with perfect art in *Satanambo*.
20. Mommsen, ii, 223.
21. Dio, frag lii, 2.
22. Livy, xxi, 4.
23. Mommsen, ii, 243.
24. Livy, xxii, 57.
25. Plutarch, *Moralia*, 195.D.
26. Livy, xxii, 57.
27. Polybius, ii, 75 118.
28. Livy, xxii, 50.
29. Livy, xxiii, 12.
30. Diodorus, xxvii, 9; Appian, vii, 69
31. *Ibid.*, viii, 134.
32. Livy, xxxix, 51.
4. Pliny, xxviii, 19.
5. Livy, xxiii, 31.
6. Virgil, *Georgics*, ii, 419; Horace, *Odes*, i, 125.
7. Frazer, *Magic Art*, II, 190; the derivation is questioned by Fowler W. W., *Roman Festivals of the Republic*, 99.
8. Virgil, *Aeneid*, vii, 761; Ovid, *Fasti* vi, 753; *Metamorphoses*, xv, 497; Strabo, v, 3. 12; Pliny, xxx, 12-13; Frazer, *Magic Art*, 1, 11.
9. Boissier G. *La religion romaine*, I, 27.
10. Livy, v, 21-2; vi, 29; Coulanges i 199.
11. Ovid metam, xv, 626.
12. Livy viii, 15; Lanciani, R., *Ancient Rome*, 143.
13. Fowler, W. W., *Religious Experience of the Roman People*, 337.
14. Mommsen, iii, 11.
15. Cicero, *Pro Archia* 4; Fowler, op. cit., 30. The derivation is not certain: Cicero gives another in *De natura deorum*, ii, 28.
16. Reinach. S. *Apollo*, 109.
17. Livy, vii, 5.
18. Pliny, xxviii, 10.
19. Harrion, J., *Prolegomena to the study of Greek Religion*, 35.
20. Plautus, *Curculio*, 3^a-8.
21. Ovid, *Fasti*, iii, 523.
23. Howard, 66.
24. Athenaeus, xiv, 44.
25. Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas* I. 430; Cicero *Pro Caelio*, 20.
26. Brittain, A, *Roman Women*, 135-6
27. Coulanges, 63
28. Plutarch, "Numa and Lycurgus."

CHAPTER IV

1. Twelve Tables, iv, 1,
2. St. Augustine, *City of God*, vi, 9.
3. Horace, *Satires*, i, 8, 35; Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 55; Castiglione, 195; Howard, C., *Sex Worship*, 65, 79; *Enc. Brit.*, 11th ed., XVII, 467; XXI, 245.

29. Oellius, x, 23.
30. Abbott, F., *Common People of Ancient Rome*, 87.
31. Catullus, *Poems*, xxv.
32. Pliny xxxiii, 16.
33. Fowler, W. W. *Social Life of Rome*, 50-1, 270.
34. Polybius, xxxi 26.
35. *Ibid.*, vi, 56.
36. Cf. Appian, vi, *passim*.
37. Polybius, vi, 58.
38. Plutarch, *Questiones Romanae* 59.
39. Livy, iii, 38.
40. Heine, H., *Memoirs*, 1, 12.
41. Thompson, Sir E., *Greek and Latin Palaeography*, 5.
42. Schlegel, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, 202.
43. Livy, viii 2; Bieber, N., *History of the Greek and Roman Theater* 307.
44. In Duff, J. *Literary History of Rome* 130.
45. Castiglione, 196.
46. Lanciani, R., *Ancient Rome*, 53.
47. Glover, T.R., *Conflict of Religions in the early Roman Empire*, 13; Friedländer, L., *Roman Life, and Manners under the early Empire* III, 141.
48. Twelve Tables, x, 9.
49. Pliny xxx, 6.
50. Frank, *Economic Survey*, I, 12; CAH, VII., 417; for the contrary cf. Mommsen, *History*, I, 192, 238
51. Pliny, xviii, 3.
52. Virgil, *Georgics*, i 299.
53. Ouhl, E., and Koner, W., *Life of the Greeks and Romans*, 503.
54. Cato, *de agricultura*, viii; Varro
Resum rusticarum libri tres, pret
55. Cicero, *Letters*, vii, 1.
56. Pliny, xxxiii, 13.
57. CAH, VIII, 345.
58. Mommsen, *History*, III, 75.
59. CAH, X, 395; Frank, *Economic History of Rome*, 340, For other Comporative prices cf. *ibid.*, 66.
60. Twelve Tables viii, 18; Tacitus, *Annals*, vi, 16.
61. Livy, viii, 19-21, 42.
62. Paul-Louis, 118.
63. Frank, a *Economic History*, 119; for contrary view cf. Ward, C. O., *The Ancient Lowly*, 208-9.
64. Livy, viii, 12; Dionysius of Halicarnassus, ix, 43.
65. Mommsen, *History*, I, 248-9; Paul-Louis, 47.
66. 77% between 200 and 150 B.C. Frank, *Economic Survey*, I, 146.
67. *Ibid.*, 41; CAH, VIII, 344; Paul-Louis, 102; Mommsen *History*, II, 55.
68. Pliny, xxxvi, 24.
69. *Enc. History*, XIX, 466.
70. Richard, T., *Man and Metals*, I, 280.
71. Twelve Tables, x, 4.
72. E. g. in Flautus, *Captives* 998.
73. Lucian, *Dialogues of the dead*, xxv.
- CHAPTER V
1. Livy, iv, 302.
 2. Plutarch, ¹ Flamininus
 3. Livy, xlv, 22.
 4. Appian vi; 9-10; Mommsen, *History*, III, 220.
 5. Livy, xxxix, 7; Mommsen, 201
 6. Polybius, vi, 17.
 7. Davis, W. S., *Influence of Wealth*

- in Imperial Rome*, 74,77; Mommsen, III, 88.
8. Polybius, xxxi, 25; Mommsen, III, 127; Sellar, W. V., *Roman Poets of the Republic*, 234.
9. Mommsen, III, 40.
- 10 Polybius, xxxi, 25.
11. Guhl, 490.
12. Plutarch, "Cato the Elder."
13. Livy, xxxiv, 1.
14. Brittain, 95.
15. Polybius, xxx, 14.
16. Mommsen III, 21, 127.
17. Ibid., 44, 294, 301-2.
18. CAH. VIII, 359.
19. Plutarch, "Marcellus."
20. Anderson, 137
21. Cicero, *De divinatione*, ii, 24:52.
22. Polybius, vi, 56,
23. Livy, xxxix, 8.
24. Cicero, *De re publica*, ii 19.
- 24a. Horace, *Epistles* ii, 1.156.
25. Cicero, *De senectute*, vii, 26.
26. Cf. Bk. II of the *Republic*.
27. Appian, vi, 9.53.
28. Ennius, *Telamo*, frag. in Duff, 141
29. Cicero, *De div*, ii. 50.
30. Ennius, frag. in Gellius, xii, 4.
31. Ennius in Cicero, *Disp. Tusc.*, ii, 1.1.
32. Collins; W. L., *Plautus and Terence*, 33-4; Matthews. B., *Development of the Drama*, 98
33. Cicero, *De re publica*, iv. 10.
34. Collins 45.
35. Plautus, *Amphitryon*, iii, 2, 4.
36. Batiffol, L.: *Captury of the Renaissance*, 164.
37. Suetonius, *On Poets*, "Terence" II
38. Terence *Heauton Timoroumenos*. prologus
39. Terence, *Adelphi*, prologue.
40. Suetonius, I. c.
41. Plutarch, *Moralia*, 198 E, 199 C.
42. Pliny, vii, 28.
43. Livy, xxxix, 42; Plutarch, "Cato the Elder."
44. Fowler. *Social Life*, 191.
45. Pliny, viii, 11.
46. Plutarch. I. c.
47. Ibid., Plny, xxix, 7.
48. Appian, viii, 14.
49. Strabo, xvii, 3.15.

CHAPTER VI

1. Mommsen, *History*, III, 306.
2. Livy xli, 28; x lv, 34.
3. Ibid., xxxiy, 29.
4. Heitland, W., *Agricola*, 161; Ward, I, 121.
5. Dio Cassius, xxxiv, frag. ii, 23; Livy. Epitome of Book xc.
6. Plutarch. "Tiberius Gracchus'.
7. Ibid.
8. Appian, *Civil Wars* i, .
9. Pliny, xxxiii, 14.
10. Appian, *Civil Wars*, i, 8.
11. Julius Philippus in Cicero, *De off.* ii, 21.
12. Appian, *Civil Wars* i, 4.
13. Plutarch, "Marius."
14. Sallust, *Jugurthine War.* xiii; xx-xxviii.
15. Plutarch, I. c.
16. Ibid.
17. Plutarch, "Sylla"
18. Sallust, xcv.
19. Ibid, xcvi,
20. Mommsen, IV, 142.
21. Appian. *Civil Wars*, i, 8.
22. Plutarch, I. c.
23. Ibid.
24. Ibid.

CHAPTER VII

1. Plutarch, "Caesar".
2. Davis, 13-14.
3. Cicero, *Ad Atticum*, iv, 15.
4. Plutarch, "Pompey."
5. Cicero, *Ad Quintum*, iii, 5.
6. Cicero, *Letters*, iii, 29.
7. Cicero, *Ad Quintum*, iii 2.
8. Mommsen, V, 849.
9. Plutarch, "Cicero."
10. Cicero, *I In Verrem*, 18.
11. Frank, *Economic History*, 295.
12. Mommsen, IV, 173.
13. Frank, 289.
14. Cicero, *De off.*, I, 8.
15. Plutarch, l. c.
of History, 238.
16. Nepos, "Atticus."
17. Plutarch, "Lucullus."
18. Frank *Economic Survey*, I, 254.
19. Macrobius, *Saturnalia*, iii, 13.
20. Varrō, iii, 16; Cicero, *Letters*, ix, 18; Mommsen, V, 387.
22. Cicero, *Letters*, vii, 26.
23. Pliny, xxxvi, 24.
24. L. c.
25. *Historiae Augustae*, "Alex. Severus," 33; Livy, xxxix, 8f; Mommsen, V, 384; Ward, I, 406
26. In Boissier, G., *Cicero and His Friends*, 164.
27. Cicero, *Pro Caelio*.
28. Plutarch, "Cato the Younger."
29. Cicero, *Ad Atticum*, ii, i; Plutarch l. c., and "Phocien."
30. Appian, *Roman History*, vi, 16.
31. Plutarch, "Crassus."
32. Ibid.
33. Plutarch, "Sertorius."
34. Plutarch, "Pompey."
35. Cicero, *De lege Manilla*, vii 181-9

36. Cicero, *Pro Caelio*, 16.
37. Cicero, *Pro Sexto Roscio*.
38. Sallust, *The War of Catiline*, xv.
39. Ibid., Plutarch, "Cicero."
40. Haskell, H., *The New Deal in Old Rome*, 125.
41. Sallust, *Catiline* xx, 7-13.
42. Cicero *III In Catilinam*, vii.
43. Haskell, 167.
44. Sallust, xxxiii, I.
45. Cicero, op. cit., viii.
46. Ibid., i,
47. Cicero, *In Pisonem*, vii-vii.

CHAPTER VIII

1. Lucretius, *De rerum natura*, iii, 1053f; tr. W. D. Rouse.
2. Ibid., iv, 1045-71.
3. Mommsen, IV, 207.
4. Fowler, *Religious Experience of The Roman People* 301.
5. Lucretius, I, 1-40.
6. Ibid., i, 101.
7. V. 1202.
8. I, 73.
9. II, 646.
10. II, 1090.
11. VI, 35.
12. I, 330.
13. II, 312.
14. Iv, 834.
15. V, 419.
16. V, 887.
17. II, 8.
18. V, 1116.
19. II, 29.
20. IV, 1052.
21. V, 625f.
22. II, 79.
23. II, 1148.
24. II, 676.
25. Shotwell, *Introduction*, 221.

25. Appian, ii, 2.
 26. Lucretius, v, 564.
 27. VI, 1092.
 28. In Eusebius, *Chronicles in Hadzsits, O., Lucretius and His Influence*, 5.
 29. Sellar, *Poets of the Republic* 277.
 30. Voltaire, *Letters de Memmius à Ciceron*, in Hadzsits, 327.
 31. Apuleius, *Apology*, in Sellar, 411.
 32. Catullus, *Poems*, ii.
 33. Id., ii.
 34. V.
 35. XI.
 36. LXXXV.
 37. LXX.
 38. CI.
 39. XXXI.
 40. XXX VIII.
 41. XCVIII.
 42. Varro, pref.
 43. Ibid., ii, 10.
 44. St. Augustine, *City of God*, iv 27.
 45. Ibid., vii, 5.
 46. Sallust, *Jug. War*, lxxxv.
 46a. Gellius, xvii, 18.1.
 46b. Pliny, xiv, 17.
 47. In Weise. O., *Language and Character of the Roman People*, 86.
 48. Nepos, "Atticus," vii.
 49. Cf. the letter to Trebatius, in Cicero, vii, 10.
 50. Cf. the letter to Lentulus in Cicero, I, 7 with the speech *Pro Balbo*, 27.
 51. *Ad Atticum*, vii, 1.
 52. *Letters*, xv, 4, to Cato.
 53. Boissier, *Cicero*, 84; Frank, *Economic Survey*, I, 395.
 54. *Ad Atticum*, i, 18.
 55. Ibid., i, 7.
 56. *Pro Archia*, vii.
 57. *De div.*, i, 2.1; 2.4.5.
 58. *De off.*, ii, 17.
 59. *De natura deorum*, i, 2, 8.
 60. *De div.*, ii, 12.28.
 61. *Academica*, ii, 41.
 62. *De natura deorum*, i, 5.
 63. *De div.*, ii, 47.97.
 63a. *De natura deorum*, iii, 16.
 64. Ibid., ii, 37.
 65. Ibid., i, 1; *De legibus* ii, 77 *De off.*, ii, 72. 148.
 66. *De legibus*, i, 7.
 67. *De re publica*, i, 2.
 68. Ibid., i, 44.
 69. III, 22.
 70. *De legibus*, 15.
 71. *De amicitia*, xii, 40.
 72. *De senectute*, xi, 38.
 73. *Disp. Tusc.*, i.
 74. *De legibus*, i, 2.
- CHAPTER IX
1. Suetonius, *Supplement*, i, 3.
 2. Suetonius, "Julius," 49.
 3. Ibid., 4; Plutarch, "Caesar."
 4. Suetonius, "Julius," 62.
 5. Plutarch, "Cato the Younger."
 6. Quintilian, *Institutes*, v, 1.114.
 7. Sallust, *Cataline*, ii.
 8. Appian, *Civil Wars*, ii, 2.
 9. Ferrero, O., *Greatness and Decline of Rome*, I, 261.
 10. Boissier, *Tacitus*, 216f.
 12. Mommsen, V, 132.
 13. Caesar, *Galli War*, i, 44.
 14. Mommsen, V, 34.
 15. Ibid., 38.
 16. Cicero, l.c., 81.
 17. Mommsen, V, 100.
 18. Plutarch, "Pompey", "Crassus", "Cato the Younger."
 19. Homo. L., *Roman Political Institutions* 184; Mommsen, V, 165.
 20. Ibid., 385.

21. Appian, *Civil Wars*, ii, 3.
22. Cicero, *Pro Sextio* 85; Mommsen V, 108f, 370; Ferrero, I, 313; Boissier, *Cicero*, 213; Fowler, *Social Life*, 58.
23. Dio Cassius xl, 57.
24. Plato, *Republic*, 562i.
25. Suetonius. "Julius," 77.
26. Appian, *Civil Wars*, ii, 5; Ferrero, II, 187.
27. Suetonius, "Julius," 32; Appian i.e.
28. Syme, 89.
29. Cicero *ad Atticum*, viii, 16.
30. Ferrero, II, 212.
31. Cicero's *Letters*, xvi, 12, to Tiro 49 B.C.
32. Cf., e.g., *De bello civili*, I, 43-52.
33. *Ibid*, i, 53; Appian, iii, 15.
34. Caesar, *Bello civili*, fil, I.
35. Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 8.
36. Caesar, iii, 10.
37. *Ibid*, iii, 53.
38. Cicero, *Letters*; vii, 3 to Marcus Marius, 46 B.C.; *ad Atticum*, xi 6.
39. Appian, ii, 10.
40. Plutarch, "Pompey"
41. Plutarch, "Marcus Brutus,"
24. Caesar, iii, 88.
43. Plutarch, "Pompey."
44. Appian, ii, 13.
45. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek World*, 199.
46. CAH, X, 37; Buchan, *Augustus*, 117.
47. Suetonius, "Julius," 52.
48. *Ibid*,
49. Plutarch, "Caesar."
50. Dio Cassius, xlii, 46.
51. Appian, ii, 13.
52. Suetonius, "Julius," 80.
53. Pliny, xxvii, 2.
55. Frank, *Economic History*, 851.
56. Plutarch, "Caesar."
57. Cicero *Pro Marcello*, 6-10.
58. Cf. *ad Familiares*, viii. 14, 22-5; ix, 11.
59. In Cicero, *ad Atticum*, xiv, 1.
60. Dio Cassius, ii, 44.
61. Plutarch, "Brutus."
62. Appian, ii, 16.
63. Plutarch, i.e.
64. From a doubtful letter of Brutus in Boissier, *Cicero and His Friends*, 334.
65. Cicero. *ad Atticum*, v, 21; 1-9
66. Appian ii, 16.
67. Suetonius, "Julius," 79.
68. *Ibid* 81-87; Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 16-21.
69. Suetonius, 82.
70. Appian, i.e.

CHAPTER X

1. Ferrero, II, 226.
2. Boissier, *Cicero*, 192.
3. Appian, *Civil Wars*, ii, 2; Dio, xiv, 2.
4. Appian, iv, 11.
5. *Ibid.*, 2-6; Plutarch, "Antony."
6. Brutus to Cicero, *ad Familiares*,
7. Plutarch, "Cicero."
8. Appian, iv, 4; Plutarch, "Antony."
9. Philo, *Quod omnis probus*, 118-20; Appian, iv, 8-10.
10. Plutarch, "Antony;" Appian, v, 1.
11. *Ibid*; Athenaeus, iv, 29.
12. CAH, X, 79.
14. Suetonius, 17. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 29, thinks the will a forgery; CAH, X, 97, accepts it as genuine.
15. Dio, li 35.
16. *Ibid.*, 6.
17. *Ibid*.
18. *Ibid*, Suetonius, 17.

فهرس الاعلام والاماكن

١٥١ ، ١٣٢ ، ١٠٦ ، ٨١ ، ٧٩
 ٢٩٦ ، ٢٨٩ ، ٢٣٥ ، ١٥٣
 أنكس : ٢٨٥ ، ٣٤٥ ، ٣٣٢ ، ٣٢٤
 أتلس : ١٩٦
 أتلس الثالث : ٢٤٠
 أتيس : ١٩٧
 أتیکا : ٨ ، ٣٢ ، ١٤٩
 أثنيون : ٢٥٢
 أثينة : ٢١ ، ٢٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٦
 أتيكيز : ٨٩٠
 أتيكيز : ٢٣٥
 أجيريا : ١٣١
 أخلاص : ٣٨٢
 أخيل ، البطل الأسطوري : ٨١
 أدريا : ٢٥
 أريينوم : ٢٤٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣١
 إرتيمس : ١٣٠
 إرتيوم : ١٢
 أرجيمس ، الفنان : ٢١
 أرجوس : ٢٨٩
 أربديا : ٣٣ ، ٧٧
 أرزو : ١٢ ، ٢٢
 أرسطوطاليس ، أرسطو :
 ٥٥ ، ٩١ ، ٢٥٧
 أرسطوفان : ١٥٤ ، ٢٠٧
 أرشجانوس : ١٥٧
 أرفال : ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٥٢
 أركلوكس الشاعر اليوناني المنافق : ٧١٤ ،

(١)

أثتريا : ٨
 أيدوين : ١٣٠ ، ٢٥٩
 الأبرة ، نهر : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١١١
 أيس ، الإلهة : ١٢٩
 أيس ، هيكلها : ٤٥٥
 أيسوس : ٣٢٧
 أيسكودس : ٣٣٦
 أيلو ، الإله : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١٣٠ ،
 ١٣٢
 أيلودورس : ٣٨٢
 إينين ، جبال : ٧ ، ٢٥ ، ١٠٦ ، ٢٥٣ ،
 ٢٨٩
 أپولونيا ، بالقرب من قالونا : ٤٠٧
 أپولونيدوس : ٢٩٣
 أپوليا : ١٠٧ ، ١١٣ ، ٢٨٩
 أپوليوس : ٣١٧
 أپوليوم : ٣٩١
 إيبان : ٢٤٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠١
 إيبروس : ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩ ،
 ٣٧٦
 أيقور : ٣١٣
 أيقوس : ٣٨٩
 أيبوس كلوديوس : ٥٠ ، ٥١ ، ٨١ ،
 ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٨٨
 أيبوس كلوديوس كيكس : ٦٣ ، ٦٨
 أيبونا : ١٢٣
 إتروريا : ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٨

الإسكندرية : ٢٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
 آسفيوس پليو : ٣٢٤
 آسية : ٨٦ ، ١٩١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ،
 ٢٦٠ ، ٣٤٢ ، ٤٢٠ ،
 آسية الصغرى : ١١ ، ١٢ ، ١٩ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
 أشيلية : ٣٩٠
 إيثون ، الإله : ٨٨ ، ٨٩ ،
 أغسطس : انظر كيوس اكتافيو.
 واكتافيان
 افرائوس ؟ : ٢٦٦ ، ٣٧٨ ،
 إفجيفيا : ١٤٩ ،
 أفريقي - فيثوس : ٢٧ ،
 أفريقية : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٨٥ ،
 ٣٧٤ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ،
 ٤١٣
 أفريكوم (بورج) : ٣٦١
 الإفزيون : ٤١٣
 أفسوس : ٤١٣
 إفلاطون : ١٤٩ ، ٢٨٢ ، ٢٣٤ ،
 ٣٣٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٤٢١ ،
 أفلو طرخس ، بلوتارك : ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١٥٠ ، ١٧٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ ،
 ٢٦٤ ، ٢٩٢ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨ ،
 أفنتين ، تل : ١٧٢
 أقراطيس الملموسى : ٢٠٠
 أكلازنتيا : ٢٧ ،
 اكتافيا : ٢٦٦ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
 اكتافيان : انظر اكتافيو.
 اکتافيوس ، كيوس : ٣١٤ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،

٦٧٦ ، ق. م ١٥٨ ؟
 ريفيس أو أرخيدس : ١٤٩ ، ١٦١ ،
 أركومنس : ٢٦٠
 لاركون باسليوس : ٢٩ ،
 أركياس : ٢٩٢
 أرمينوم : ١٦٣
 أرمينية : ٣٦٥ ، ٤٠٧ ،
 » الصغرى : ٣٨٤
 أورسيو : ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،
 أروسيا : ١٢٨ ، ٣٧٧ ،
 أرمينوم : ٣٧٣
 أريوشتس : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 إرسپارتكوس : ٢٨٣ - ٢٨٦ ،
 اسبارطة : ١٨٢
 إسبازيا : ٣٨١
 إسبانيا : ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٣٤٦ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ،
 اسپنديوس : ٩٨ ، ٩٩ ،
 اسبورنا : ٤٠٠
 اسپوريوس كاسيوس : ٥٠ ،
 » ميلوس : ٥٠ ،
 استركيواس : ١٢٣
 استورى : ٣٣١
 أستيا : ١٦٤ ، ٣٩٣ ،
 أرسثيم : ٣٥٨ ،
 اسكلنديه : ٧٨ ،
 اسكريبونا : ٤١٦ ،
 اسكريبونوس كوريو : ٢٧٦ ،
 اسكلابيوس : ١٣٠ ،
 اسكلولايوس : ١٥٦ ،
 الإسكندر الأكبر : ٦١ ، ٨١ ، ٨٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٩٤ ، ٤٢١ ،

إليوم : ٢٨٨
 أبراشيا : ١٩٢
 الأمير افااليا : ١٣٦
 أمير : ٨١ ، ٢٠٨
 الأميريون : ١٠ ، ٧٦
 أمبورياس : ١٠١
 أمريكا : ٢٧٣
 أمستريس : ٣٢٠
 أمليوس : ٢٧
 الأميل ، مشائر : ٤٦
 إميليا : ٢٧٨
 أنا ، منهنه : ٢٣٥ ، ٢٣٦
 أنابارنا : ١٣٦
 الأناضول : ١٤
 أنبادقليس ، الفيلسوف اليوناني (٥٠٠ -
 ٤٣٠ ق . م) : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
 ٣١٣
 أنتيبيس : ١٦٢
 أنتيوخوس الثالث : ١١٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥
 أنتيوخوس الرابع : ٢٢٤
 انطاكية : ١١٦ ، ٤١٧
 أنطونيوس ، ماركس القائد الروماني (٨٣ -
 ٣٠ ق . م) : ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٢١
 أنطونيوس ، ماركس القائد الروماني ووالد
 أنطونيو الشهير (القرن الأول ق . م) ؟
 أنكريون : ٣٢٢
 أنكس : ٣٠ ، ٣١
 أنيو ، نهر : ٤٩
 أنيوس ، كورنتس ، الشاعر والكاتب
 المسرحي (٢٣٩ - ١٦٩ ق . م)
 (١٤) ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٥
 أنيوس سيلو ، تيتس أنيوس ميلويو باثيانوس ،
 السياسي (؟ - ٤٨ ق . م) : ٣٥٩ ،
 ٣٦٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦

٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٠ ، ٤٢١
 اكتافيوس ، ماركس الترييون (القرن
 الثاني ق : م) : ٢٣٩
 اكتافيوس ، نيوس ، القنصل (؟ - ٨٧
 ق م) : ٢٥٧ ؟
 اكتيوم : ٢٤٣ ، ٢٨٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
 ٤٢١
 أكسانتن : ٣٦٠
 أكسانثوس : ٤١١
 أكنوموس : ٩٥
 أكواسكستيا ، معركة : ٢٥٠
 أكيوس : ٢٠٥
 أليا : ١٦
 ألب ، جبال : ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٥ ،
 ٧٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٨٣ ، ٣٥٩
 ألبيا ، جزيرة : ١٣
 ألبانجا : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠
 ألبان ، جبل : ٢٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢
 إلتوريبس : ٣٣
 ألفيري : ٧
 ألقبيادس ، السياسي والقائد الأثيني : (٤٥٠ -
 ٤٠٤ ق . م) : ٣٠٢
 ألكينا : ١٩٥ ، ٢٠٩
 الألسان : ٣٥٧
 الألساني ، قبائل : ٣٥٧
 ألمانيا : ٧٨ ، ٧٩ ، ٣٣٤ ، ٢٤٧ ، ٣٦٠ ،
 ٣٩٤
 الأمبياني : ٣٥٩
 ألبيا ، نهر : ٧٩
 ألبيريا : ١٠١
 ألبيريا : ٣٦١
 ألبيسا : ٨٥

١٩٦ ، ١٨٤ ، ١٦٩ ، ١٦٣
 ٢٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ١٩٧
 ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٤٩
 ٢٦٩ ، ٢٦٣ ، ٢٥٩ ، ٢٥٤
 ٢٨٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣
 ٣٥١ ، ٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٢٩٦
 ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٧
 ٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٠ ، ٣٦٥
 ٣٩١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤ ، ٣٧٦
 ٤٢١ ، ٤١٨ ، ٤٠٨ ، ٣٩٣

إيمليانس : ٢٤٠

إيمليوس : ٢١١

إيمليوس اسكورس : ٢٧٦

إيمليوس بولس : ٢١١ ، ٢٠١

الآين ، نهر : ٣٥٩

إيفنياس : ٢٧ ، ١٢٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٥

٣٤١

الآيوربون : ٣٦٠

أيونو : ٣٤٣

أيونيا : ٢٧٦

(ب)

بابل : ٢٧٥ ، ٢٠ ، ١٦

باخوس : ٤١٣ ، ٣٣٥

باريتا : ٢٧١ ، ٣٦٥ ، ٣٩٤ ، ٤١٦

٤١٧

بارما : ١٢٥

البارنتاليا : ١٣٥

بافيا : ١٥٠

بالس : ١٣٢

بانثيبوس الرودسي الفيلسوف الرواق (١٨٠)

— ١١٠ ق. م.) ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣٣٤

باپا ، جزيرة : ٢٧٤ ، ٢٨٠

ببركتي ، معركة : ٣٣٢ ، ٣٥٨

أوتون : ٣٥٨

أوربا : ١٣ ، ٨٦ ، ٢٧٣ ، ٣٦٣

أورليا : ٣٤١

أورفيوس : ١٩٧

أوركوس : ١٧٦ ، ٣٠٣

أورليوس كوتا : ١٦٢

أورليوس ، ماركن أنيوس أورليوس

أنطونينس ، الإمبراطور الفيلسوف

الروماني (١٢١ - ١٨٠)

أوريوس : ٣٩١

أوغسطين ، القديس : ٩٠ ، ١٢٥

أوفد ، بيليوس أوفديوس تاسو ، الشاعر

(٤٣ ق. م. - ١٧ م.) ١٢٨ ،

١٤٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧

أوفرني : ٣٦١

أولس پستميوس : ٧٧

أوليس ، جبل : ٧٧ ، ١٢٦

أولنيا : ٢٢٩

أوتولاريا : ٢٠٩

إيجاديا : ٩٨

إيجيريا : ٣٥

الإيدوي : ٣٥٧ ، ٣٥٨

الإيديل ، الموظف الروماني : ٤٩

أيرلندة : ٧٨

أيريس : ٤٢١

أيزوپس : ٢٧٦

أيزوقراطيس : ٢١٦ ، ٢٣٩

أيزوقراطيس : ٢١٦ ، ٢٣٩

إيسكين : ٢٠٠

إيطالس : ٨٠

إيطاليا : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٧٦ ،

٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٦١ ،

پرس : ١٩٢
 پرسپینا : ١٧٧
 پرسپوس [بن فلیب الخامس : ١٨٠
 ٢٠١ ، ١٨٥
 برنده یزیوم : ١٦٢ ، ٢٠٤ ، ٢٦٠
 ٣٤٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٥
 پرنیسی (بلستریا) : ٢٥
 پروبرنیوس : ٣١٧
 پروتس ، دیمس یونیوس القائد (؟ - ٤٣
 ق . م) ٣٦١ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٧
 « ؛ لوسیوس یونیوس القنصل
 (القرن السادس ق . م) : ٣٤ ،
 ٣٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 « ؛ مارکس یونیوس السیامی (٨٥
 - ٤٢ ق . م) ٣٢٨ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،
 ٤١١
 پرونیوم : ١١٣
 پروزیا : ١٢ ، ٤١٥
 پروفانس : ٢٥٠
 پریایس : ١٢٥
 پریام : ٢٧
 البریتور ، موظف رومانی : ٥٣ ، ٦٢ ،
 ٦٩
 بریطانیا : ٨٦ ، ٣٦٠
 بستوم : ٧٦
 بستویا : ٢٩٩
 بستیس : ١٦٩
 بستینوم : ٣٧٢
 البطالمة : ٤٢١
 بطلمیوس السادس : ٣٨١
 بطلمیوس الحادی عشر : ٣٨١
 بطلمیوس الثانی عشر : ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢

بلیا : ٣٣٢
 بلیوس : ٣٩٨
 « ترنتیوس : ٢١٠
 « دیسیوس : ١٣٣
 « فالیریوس أو بیلکولا : ٣٥
 « کرنیلیوس سبیو : ١٩١
 « کلودیوس : ٢٨٠ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥١ و ٣٣٢
 بیولوس : ٣٤٩ ، ٣٥٠
 بیولونیا : ١٣
 پیرونوس : ١٢٥
 پتری : ٢٦٠
 پیولی : ٣٣١
 پیو : ٣١٥
 البحر الأبيض المتوسط : ٧ ، ١٣ ، ٣٩ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٤ ،
 ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ،
 ٢٣٤ ، ٢٨٩ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٤
 البحر الأدریادی : ٨٠ ، ٨١ ، ١٠١ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٦ ، ٤١١ ، ٤١٩
 بحر الأرخیبیل : ٣٢٠
 البحر الأسود : ٢٣٤ ، ٣٢٠ ، ٣٩٤
 بحر ایجه : ٢٨٩
 البحر الأنونی : ٤١٩
 البحر الترهیقی (الأتروری أی التسکانی) : ١٣
 ودوا ، مدینة ٢٥ ، ١٦٣
 یدنا : ١٨٠ ، ٢٠٢
 البرانس ، جبال : ١٠٤
 برانسی : ٢٥٣
 برانست : ٢٦١
 برینا : ٢٨٣
 برجوم : ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٤٠
 برزخ کورنثة : ٣٩٣

٣٨٤ ، ٣٤٨
 بنتين ، مئانغ : ٣٩٣
 بنثيوس : ٣٦٥
 بنسا : ٤٠٨
 بنسيوس : ٣٧٣
 بنفنتم : ١٦٢ ، ٨٢ ، ٨٠
 بنورمس (يلرمو) :
 البو ، نهر : ٨١ ، ٧٨ ، ١٠ ، ٨
 ٣٢٠ ، ٢٠٥ ، ١٠٥
 البوقى ، قبائل : ١٠٥
 بوتيكيا : ٨٤
 البوتيون : ٨١
 بوثيقس : ٣٨٢ ، ٣٨٠
 بوثيقس : ٣٨٢ ، ٣٨٠
 بورشيا : ٣٩٩ ، ٣٩٨
 پوسيدن : ٢٩٣ ، ١٣٠
 پوسيدوينوس ٣٣٤
 پوليبوس ، المؤرخ الهوناني (٢٠٤ -
 ١٢٢ ؟ ق. م) ، ٧٤ ، ٥٥ ، ٧
 ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٩
 ١١٩ ، ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٨٨
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ٣٢٥ ، ٣٢٤
 پولونيا : ٢٥ ، ١٠
 پوليكليتس : ٢٠١
 پورماشيه (ده ، بيير أوجست كارون ،
 الكاتب المسرحى الفرنسى (١٧٣٢
 - ١٧٩٠) ؟ ٢١٣
 پومونا : ١٢٣
 پونونيا : ١٦٣
 پييونيا : ٢١٦
 پيشيفيا : ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٢
 ٣٤٨
 پيرس : ٦١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٨ ، ٢٠٥
 ٢١٧
 پيزا ، ٢٦٢
 پيزو : ٣٣٠ ، ٣٥١

بطليموس الثالث عشر : ٢٨٣
 بعل : ٧٩
 بعل - هامان : ١٠٠ ، ٨٩
 بكوفيروس : ٢٠٥
 البلاطين ، تل : ٩ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٥
 ٣٥٤ ، ٣٣١
 بلاقتيا : ١٠٢ ، ١٦٣
 بلبس : ٣٨٩
 البلجى ، قبائل : ٣٥٨
 بلجيكيا : ٧٨
 بلروفون : ٢٢
 بلكس : ٧٧ ، ١٣٠
 بلنى الأكبر : ٦ ، ٢٣ ، ١٢٦
 بلوتس : ١٥ ، ١٤٥ ، ١٨٨ ، ١٩٤
 ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 بلوتو أو بلوتون : ١٣٠ ، ١٧٦
 بلوسوس : ٢٣٧
 بلونا ، الإلهة : ١٢٩
 البلجار ، جزائر : ٨٦
 بليو : ٣٢٨
 بيمى ، مدينة : ٢٣ ، ٧٦ ، ٣٣١
 بيمى ، سكستس بيموس ماجنس ، القائد
 (؟ - ٣٥ ق. م) ، ٣٨٥ ، ٣٩٥
 ٤١٥
 بيمى ، نينوس بيموس ماجنس القائد ومضو
 الحكومة الثلاثية الأولى : ٢٦٨
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧
 - ٢٩٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
 ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩
 ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١
 ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧
 ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
 ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠١
 ٤٠٥
 بيميا : ٣٤٣
 بناديا (الإلهة الصالحة) : ١٣٦
 بنتس أر بنت : ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣

جوبتر توفانز : ١٢٧
 جوبتر فلوقفوس : ١٢٧
 جوفنال : ١٤١ ، ١٥٣
 جيرولاما قراكتورو : ٣١٥
 جيروم : ٣١٤

(خ)

خلقدونية : ٢٧٦
 خلقيس ، جزيرة : ١٥١
 الخليج الامبراسي : ٤١٩

(د)

دانقي : ١٧
 الدانوب : ٣٩٤
 دريانا : ٩٨
 درهشوم : ٢٧٧ ، ٢٧٨
 دروسين : ٢٤٤
 دشمس بروتس : انظر بروتس
 الدسفر اوى : ٥٠
 دلايلا : ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٦
 دمتر : ١٣٠
 دمرتس : ٣١
 دمستين : ٢٠٠ ، ٣٢٩
 دمقريطس : ٣١٣
 دمشق : ١٦٣
 دمنيموس : ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٥
 ديانا : ١٢٨٠ ، ١٣٠٠ ، ١٧٢
 ديدو : ٥ ، ٨٩
 ديدويوس : ٢٨٣
 ديلوس : ١٨١ ، ٢٢٤
 ديودورو : ٩٠
 ديوكاسيوس : ٣٠ ، ٥٢ ، ٤١٩ ، ٤٢٩
 ديونيسس : ٤١٣
 ديونيسيوسن : ١٣٠

(ت)

ثانيت ، الالهة : ٨٩
 تسلونيكيا (سلانيك) : ١٦٣
 ثوريان : ٨١ ، ٢٨٥
 تيسوس : ١١٦
 ثيوپميس : ١٥

(ج)

جابقيوس اولس : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٥١
 ٣٨١ ، ٣٥٥
 جاديز : ٢٧٦ ، ٣٤٦
 جارها ، بحيرة : ٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٠
 جاسندى : ٣١٥
 جانيكيولده : ٢٨
 جايوس لوسليوس : ٢٠٢
 جايوس ليليو : ٢٠٢
 جايوس ماريوس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
 ٢٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥١
 جبل طارقي ، مضيق : ٨٤ ، ٨٦
 چراكس : الاخوان : ١٠١ ، ٣٦٣
 ٢٩٠ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٠
 ٣٩٤ ، ٣٩١
 جرجفيا : ٣٦١
 جتسكو : ٤٩
 جلاشيا : ١٨٠
 جندلقو : ٢٩
 جنوى : ١٦٣
 جنيفقا : ٣٥٧
 جوبا الاول : ٣٨٦
 جوبتر اوجوف : ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٠
 ١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩
 ٣٤١
 جوبتر ، هيكل : ١٩٢

٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٥٤ ، ٣٤٧

٣٩٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٤ ، ٣٧٢

٤٠٩ ، ٣٩٨

رومة : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ،

٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ،

١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،

١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،

٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،

٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ،

ديولهيوس باخوس : ٢٩٧

(ر)

راقيا ، مدينة : ٢٥ ، ١٦٣

رتينيا : ١٦

رجيلس ، بحيرة : ٧٧

رجيولوس : ٩٤ ، ٩٦ ، ٣٧٤

رجيوم : ٧٦ ، ٩٤

الزقيبة (سلفين) : ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٣

رميني ، مدينة : ٢٥

رميولوس : ٩ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٨ ،

٤٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩

الروبيكون : ١٠٤ ، ١٧٠ ، ٣٧٢

الروتيل :

رودس : ١٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ،

٣٤٣ ، ٣٨٢ ، ٤١١

الروسيا : ٢٣٤

روسيسوس : ٣٢٧

روقوس : ٤١٠

الرومان : ١١ ، ١٤ ، ٢١ ، ٦٣ ، ٦٥ ،

٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،

١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ،

١١٨ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ،

٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٢٩ ، ٢٨٦ ،

٢٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ،

السيون : ١٠ ، ٤٦
 سيبو : ١٠٥
 » الأستر : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
 » الأكبر ، الإبريق : ١٠٨
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٩٢ ، ١٩٦
 ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨
 ٢٣٧
 » إميليانوس : ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢٢٧
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 » متلس : ٢٩٥
 » ناسيكا : ١٣٨ ، ٢٥٠
 شيجس : ٢٩٧ ، ٢٩٨
 سجنتم : ١٠١ ، ١٠٣
 سرهانية : ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٩
 ٢٢٤
 سرقليا : ٣٩٨ ، ٣٤٤
 سروفوبوس ثاوس : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥
 ٥٨
 سرلوسة : ٨٧ ، ٨٩ ، ١١١ ، ١٧٥
 ١٩٢
 سوزمو : ٢٢٠
 السفن ، جبال : ٢٦١
 سقراط : ٢١٨
 سكستس تاركوين : ٢٤
 سكستس جيسى : ٤١٥ ، ٥٠٦
 » بوليوس : ٢٤١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥
 سكستوس : ٥٢
 سكولها : ٢٩٤
 سلاميس : ٢٩٩
 سايسوس جلها : ١٨٤ ، ٢٨٢
 » رولس : ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٢٧
 سلست : ٢٩ ، ٥٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩
 ٣١٠ ، ٣٨٧
 سلفانس : ١٧٤

٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦
 ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
 ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
 ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
 ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧
 ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
 ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧
 ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١
 لرون ، نهر : ١٣ ، ١٠٤
 رواسلفيا : ٢٧
 ريت : ٢١٤
 ريموس : ٢٧
 لرين ، نهر : ١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
 ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٤

(ز)

زاما : ١١٣ ، ١٩١ ، ١٩٢
 زحل أوساتون : ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٦
 ١٣٧
 زليكس : ٩٨
 زيلا : ٢٨٤
 زيتوفون : ٢٧٣
 زيوس : ١٢٧ (انظر أيضا جويتر)

(س)

سافنو : ٢١٧ ، ٢٢٢
 سانوره : ٢٤١
 ساتزن : انظر وشل
 ساترناليا : ١٣٦
 السالون : ١٣١
 ساموس ، جزيرة : ٢٧٦ ، ٢٨٩

(س)

شارميون : ٤٢١
 شل ، الشامر ، ٢٠٣
 شبلون : ١١
 شيشرون : ٣٠ ، ٣٢ ، ١٤١ ، ١٥١
 ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٤
 ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
 ٢٤٨ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤
 ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣٢٢
 ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩١
 ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩
 ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٠

شيكسير : ٣٠٢

شيزوي ، مدينة : ٢١

(ص)

صقل : ٩
 صقلية ، جزيرة : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦
 ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨
 ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ٢٢١
 ٢٣٥ ، ٢٨٥
 صلا : ٦٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٤٨
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤
 ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧
 ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠١
 ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧
 صور ، مدينة : ٨٤ ، ٨٥
 صولون : ٥٠ ، ٦٨
 صيدا : ٨٤ ، ٨٥

سلفيوس : ٢٥٢ ، ٤٠٩

سنا : ٣١٦

سلمانصر : ٨٥

سلوقس الرابع : ١٨٠

سليبي ، للفنان : ٢٢

صبرونيوس ، قانون : ٢٩٨

السبيريون : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٤٧

سميريوس : ٢٨٩

السميون : ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٣

٢٦١

سقا : ٣٤٢

سنايوم ، (أورليان) : ٣٦١

سقيوم : ٨١

سندس ، نهر : ٤١٤

سفناتس : ٦٦

سفسويوس : ٦٩ ، ٧٦

سقا ، قانون : ٢٧٤ ، ٢٧٦

سنتكا : ١٩٩ ، ٢٠٣

سواسون : ٣٦١

سوريا : ١٨٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٠

٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢

٣٨٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤

٤١٦

سوسجيفس : ٣٩٢

سويسرا : ٣٥٨

سويسيون : ٣٥٩

سبيدل : ١٣١ ، ١٩٦ ، ٣٢٠

سيرنيكا ، ٨٦ ، انظر أيضا قورينة

سبريز : ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٧٧

السدين ، نهر : ٣٥٩

سينوسا : ٢٣٦

سينوسفل : ١٧٩

سينياس : ٦٢ ، ٨١

سيوتونيوس : ٣٤٢ ، ٣٨٣ ، ٤٠١

فريس ، الإلهة : ١٥٦
فينولينا : ١٢٣
فتروفوس ، المهندس : ١٩
الفرات ، نهر : ٣٩٤
الفراليا : ١٣٥
فرانسوا ، مزهرية : ٢١
فرايبو : ١٢٨
فرجيل الشاعر : ٦ ، ١٧ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٥٥ ، ٢٠٥ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،
٣٢٢
فرجينيا : ٥١ ، ١٠٥
فرسالس : ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٤٢١
فرسلا ، مدينة : ٢٥٠
فرسنجترس : ٣٦١ ، ٣٦٢
فرناسس ، ٣٨٤
فرناكس : ١٢٣١
فرنسو : ٢٢٤
الفرنجة ، قبائل : ٣٥٧
فرونا ، مدينة : ٢٥ ، ١٦٣ ، ٢١٥ ،
٣١٦
فريانوس : ١٨٢
فريجيا : ١٩٦
فريس : ١٩٢
فستا : ٢٧ ، ٢٧٥
» ، هيكل : ٩ ، ١٢٩
فلاجوليا : ٢٣
فلامينوس : ٢٠١
فلانوفيا ، ١٠ ، ٢٦
فلباي : ٤١١
فلترا : ٤٠٦
فلتير : ٢٠٧ ، ٢٧٢
فلسطين : ٣٤٨
فلشي : ٢١ ، ٣٣

(ط)

طارطوس : ٨٤ ، ٨٦
طرسوس : ٤١١ ، ٤١٤
الطونجة ، نهر : ٢٣٢ انظر أيضاً الدانوب

(ع)

العداري القستية : ٢٧٥ ، ٤٠٤ ، ٤١٧
انظر أيضاً قستا
العرب وبلاد العرب : ٤١٤
عشتروت ، الإلهة : ٨٩
عطارذ ، الإله : ١٢٦ ، ١٩٥ انظر
أيضا هرمس

(غ)

غابا : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٦ ، ٢٣٤ ،
٢٤٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٩١
غالة الإيطالية : ٤٠٦
غالة الجذوبية : ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٣٨٥
غالة التربونية : ٣٥٧ ، ٣٦١
الغاليون : ٢٦ ، ٩٢ ، ٧٦ ، ٨١ ،
٢٦٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٨٩

(ف)

الفاي ، عشائر : ٤٦
فايبوس بكتور : ١٤٨ ، ١٥٣
الفاتيكان : ٢٨
فارو ، ماركس قرتنيوس فارو : ١٠٨ ،
٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٠٠
فاروس : ٤٢٠
فاليريوس فلاكوس : ٢١٤ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠
كورفوس : ١٤٨

(ق)

قبرص : ٣٥٣ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٩
 قرطاجنة : ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦
 ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣
 ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١١٣ ، ١١٤
 ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ، ١٨٣
 ١٨٤ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢١٠
 ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٣
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٠
 ٣٩٤
 قرطاجنة الجديدة ، فوفا كرتاجو : ١٠٠ ،
 ١١٢ ، ٢٣٥
 القرطاجنيون : ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩
 ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٢
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١٤٦ ، ٢٢١
 ٢٢٢ ، ٢٢٣
 قطانا : ١٢٨
 قليقية : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٢ ، ٣٦٨
 ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٦
 القنصل : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٣
 ٦٤ ، ٦٥
 القوانين الكبريلية : ٢٦٢
 قورسقة : ٨٣ ، ٨٦
 قورينة : ٤٠٦
 قبرونة : ٢٦٠
 قيصر : يوليوس : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤
 ١٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨
 ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

الانشيون : ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٧ ، ٨٠
 فلغيا : ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢١
 فلقيوس : ١٩٢
 فلكان : ١٢٣ ، ١٣٠
 فلمبي : ١٣١
 فلورا : ١٣٦ ، ٢٨٨
 فلوراليا : ١٣٦
 فليب الخامس ملك مقدونية : ١٧٩ ، ١٨٠
 فليري ، عشائر : ٤٦
 فليمون : ٢٠٧
 فبريا : ٢٦٠
 فوبسكس ، يوليوس : ٣٤١
 فورميا : ٣٣١ ، ٤١٠
 فوسينس ، بحيرة : ٣٩٣
 الفوقيون : ١٦
 فولس : ١٢٣ ، ١٥٣
 فيا ألبيا : ١٦٢
 فيا بوليا : ١٦٣
 فيالاتينا : ١٦٢
 فياي : ١٢ ، ٢٢ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٧٨
 ٧٩ ، ٢٩٠
 الفيتالي : ١٣١
 الفيتو ، حق الرفض أو الاعتراض : ٦٥
 فيشاغورس : ٣٣٦
 فيدون : ٣٨٦
 فيدياس : ٢٠١
 فيديي : ٢٥
 فين ، مدينة : ١٠٤
 فينا : ١٦٣
 فينوس (الزهرة) : ١٢٨ ، ٣٤١ ، ٤١٤
 فينوس ، ميكلها : ٣٩٧
 فينيقية : ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ٤١٤
 الفيبييون : ٨٤ ، ٨٥ ، ٢٢٠

كجوا : ٢٥ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١٦٧ ، ٢٩٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٤ ، ٢٤٢
 كتلين : ٢٦٢
 كرازا ، مدينة : ٢٢
 كراسن انظر ماركس ليسيڤينوس كراسن
 كرسولوراس : ٢٠٠
 كرفيڤيوم : ١٦٣
 كرمونا : ١٠٢ ، ١٨٣
 كرونكيڤوس : ٦٨
 كرنليا : ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢ ، ٣٤٣
 ٣٤٣
 كرهية : ٣٦٥
 كريفتيو : ٢٥
 كرنديس : ٢٠٠
 كرنديوس أسرة : ١٩١
 » سيڤو : ٢٠١
 الكرنيل ، عشائر : ٤٦
 كرينديوس سنا : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٦٠
 كرنديوس يفيوس : ٣٢٦ ، ٣٣١
 كروتولوس : ٢٠٠
 كروتس : ١٣٠
 كروتونا ، أو أقراطونا : ٧٦ ، ٨١
 كريت : ١١٦ ، ٤٠٦
 كريبلاي : ٧٧
 كريلينس ، كيوس ماريوس : ٧٧
 كلاتنس : ٣٤
 كليرنيا : ٣٥١ ، ٣٨٥ ، ٤٠٣
 كليرفيوس ييزو : ٣٥٥
 الكلت : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ٣٤٧ ، ٢٤٨
 الكلتريان : ١٨٤
 كلتس : ٣٠٠ ، ٣٢٧ ، ٣٥٥
 كلمكس : ٣١٧ ، ٣٢٢
 كلوديا : ٢٧٩ ، ٢٠٨ ، ٣٠٧ ، ٥٢

٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 ٣٤١ ، ٣٤٢
 قيصر يون بن يوليوس قيصر : ٣٨٣
 ٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٧ ، ٤٢١

(ك)

كاتلس ، كوتس فالير بوس كاتلس : ٢٨٠
 ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١
 ٣٢٢ ، ٣٥٥
 كاتلين : لوسيوس سرجلوس كاتلين ٢٩٢
 ٢٩٥ - ٢٩٩ ، ٣٤٤ ، ٣٨٥
 كاتو الأصغر : ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨
 ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣٤٣
 ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ ، ٣٨٠
 ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٢
 كاتو الرقيب : ٨ ، ١١٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٧
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٢٥
 كارثيا : ٢٤١
 كارداس : ٦٨
 كارهي : ٢٧٢
 كاسترا : ٧٧ ، ١٣٠
 كاسيوس استاتيوس : ٢١٠ ، ٢١١
 كاسيوس ، كيوس : ٣٨٠ ، ٣٩٥
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣
 ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٢
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٩٦
 كاليوس : ٢٨٠
 كاملس : ٧٨
 كاق : ٧٤ ، ٩٧ ، ١٤٨
 كاتيري : ١٦ ، ١٨
 كاتيلوس : ٣٨٣ ، ٣٨٤
 الكيتول : ٧٩ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٧
 الكيتولين : ١٧٢
 كبدوكيا : ٢٩٠

كوتيس متوسوس اسكيفولا : ٢٩٢
 ٣٢٥
 هورتنسوس : ٣٢٧
 يوليوس قيصر ، انظر قيصر
 كوفتليوس فاروس : ٤١٣
 كونكتيليس ، فلامينيوس : ١٧٩
 كورنيوس : ٢٩
 كيتس ، الشاهر الإنجليزية : ٣٠٢ ، ٣٠٩
 كيري : ٣٥٣
 الكوريون ، أو الكوريون : ٢٩
 كوروس دنتوس : ١٤٨
 كيوس : ٣٤٤
 كورتليوس فارو : ١٠٧
 جراكس : ٢٣٧ ، ٢٤٥
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
 ٢٤٥ ، ٢٤٦
 سلستيوس كريس : ٣٢٦
 فلاميليوس : ١٠١ ، ١٠٥
 ١٠٦ ، ١٦٣
 ليرس : ٢٩٣
 كلوديويس : ٩٤
 كينوليوس : ٥١
 كيوس «ميسوس» : ٢٥١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦
 يوليوس قيصر ، انظر قيصر

(ل)

اللائين : ١٠ ، ٢٦ ، ٧٦ ، ٧٧
 لانيوم : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٩٣
 ٤٠٦
 لارسا : ٣٧٩ ، ٣٨٠
 لارس پورستا : ٣٦ ، ٧٦
 لاسا ، الإلهة : ١٦
 لافيينا : ٢٧
 لبتس : ٢٢٠

كلوديويس : ٢٧٥ ، ٣٥٣ ، ٣٦٧
 ٤١٠ ، ٣٦٨
 كلوريون : ٧٦
 كلوزيوم : ٣٦ ، ٧٩
 كليتياس ، الفان : ٢١
 كليستيز : ٣٢
 كلوپطرة : ٣٤٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
 ٣٨٣ ، ٣٩٧ ، ٤١٣
 ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩
 ٥٢٠
 كبانها : ٣٨ ، ٣٩ ، ٨١ ، ١٢٩
 كيلوس : ٥٣ ، ٧٩
 كنفرينوم : ٢٥٤
 كنفرزيوم : ١٠٨
 كنيس أوليس ليفيوس : ١٥٥
 كوما : ١٢٣
 كورونيوس : ٤١٠
 كودوين : ٨٠
 كورفينوم : ٣٧٢ ، ٣٧٥
 كورنطة : ١٨٢ ، ٢٢٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
 كوريا : ٣٤٣
 كوريو : ٣٧١ ، ٣٧٤
 كوسوتيا : ٣٤٢
 كرمو ، بحيرة : ٩
 كوي أو كومية : ٣٥ ، ٧٦ ، ٨٠
 ١٣٢ ، ١٥١ ، ٢١٧ ، ٢٥٣
 ٢٦٣
 كوتيس أخو شيشرون : ٣٥٤
 « إيفيوس : ٢٠٤
 « سرتريوس : ٢٨٣
 « فايوس مكسموس : ١٠٧
 « كليديس : ٢٦٨
 « ليو : ٤١٣
 « مثلس : ٢٤٨
 « متوسوس : ١٨٣

لوسيموس لوسينيوس لوكانس : ٢٧٢
 » لوكلس : ١٨٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
 » ليسينيوس كراسس : ٢٦٢ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٩٤
 » مانليوتس : ٢٩٧
 » متلس : ٣٧٤
 لوشيان : ١٢٦
 لوكانس : ٢٨٩
 اللوكانيون : ٧٦ ، ٨١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٥٢
 ليز : ١٣٦ ، ١٣٠
 ليترونوم : ١٩٢
 ليتس الصغرى : ٨٧
 » مينا (الكبرى) : ٨٤
 ليثيا : ٤١١
 ليدس : ٤١٣
 ليديا : ١٢ ، ٢٠ ، ٢٦٠
 ايسينيوس : ٥٢
 » كلفس : ٢٣٨ ، ٣١٦
 ليسياس : ٢٠٠
 ليتي : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦
 ٥١ ، ١١٣ ، ١٥٠ ، ١٩٨
 ليفيا : ٤١٦
 ليفيوس انديركوتس : ١٥٤
 » دروسس : ٢٥٤
 ليتورغ : ٦٧
 الليولي عشائر : ٤٦
 ليتيج : ٣٦٠
 (م)
 ماتو : ٦٨
 ماجو : ٨٥ ، ٩٠ ، ١٠٠
 ماديره ، جزائر : ٧٩
 مارتياال : ٣٢١

البراليا : ٣٦
 لبركاليا ، عيد : ١٣٠ ، ٣٩٧
 لبيثس : ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤١٦
 لتوقيوم : ٧٧
 بلورى : ٩
 اللجوريون : ٧٦
 لزيبا : ٢٨٠ ، ٣١٨
 لينج : ٢٠٩
 لكري : ٨٦ ، ٨١
 لكريشيا : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥١
 لكريشيوس ، تيتس لكريشيوس كارس
 ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
 ٣٠١ - ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥
 لكسوتس : ٨٤
 لنتلس : ٤٠١
 لتولس ، بتتاس : ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٣
 » صورا : ٢٦٧
 لوبا : ٢٧
 اللوبرني : ١٣١ ، ١٣٥
 لوبركاليا : ١٣١ ، ١٣٥
 لوييه : ٩٣
 لورنزو ده مديشى : ٢٧٢
 لولتانيا : ١٨٤
 لوسلس : ١٥٣
 لوسيان : ١٧٧
 لوسيموس : ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٤٥
 » استوريتس : ٢٥٠ ، ٢٥١
 » ايمليوس پولوس : ١٠٧ ، ١٠٨
 » تاركوينيوس : ٣١ ، ٣٤
 » جوينوس هروتس : ٣٤
 » فرجنيسوس : ٥١
 » كتا : ٣٩٩
 » كراسس : ٣٢٧
 » كرنيليوس صلا : انظر صلا

مازيا الإلهة : ١٦
 مانيوس : ٣٨٩
 مازوس أوكوليس : ٢٥٣
 مايرانشل روتشيلد : ٢٧٢
 متابتم : ٧٦
 مترودرس : ٢٧٥
 متلمس سيو : ٣٨٠
 متلمس المقدوني : ٢٧٩
 متلفي : ٣٧٩
 متورس ، نهر : ١١٢
 ميثراتس : ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩
 ٢٨٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٩
 مجرداس : ٨٥
 مجنيزيا : ١١٦ ، ١٨٠ ، ٤٢١
 مجيوري ، بحيرة : ٩
 المحيط الأطلنطي : ٣٥٧
 مراثون : ٤٢١
 مرسلينا : ٣٦٨ ، ٢٥٠ ، ٣٧٥
 المريخ : ٢٧ ، ٢٧٣ ، ١٢٧ ، ١٧٢
 مساليا : ٩٣ انظر أيضاً مرسلينا
 مسانا : ٩٤
 مسكيولم : ٢٥
 المسيح : ١٤٩
 مصر : ١١ ، ١٩ ، ٣٤٣ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
 مفتتيس ، الإلهة : ١٥٦
 مقدونية : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ٩٧
 » ٢٠١ ، ٢٨٢ ، ٤٠٦
 ملك ، الإله : ٨٩
 ملكارت : ٨٩
 ملخير : ٢٠٩
 الممرتيون : ٩٣ ، ٩٤
 ممسن : ١٠٣ ، ١٥٤ ، ٢٥٧
 ميوتس : ٣١٩

مارس ، شهر : ٣٩٣
 ماركس مارسلس : ٣٩٥
 مارسلس : ١٠٧ ، ١١١ ، ١٧٤ ،
 ١٩٢
 مارسليا ، زوجة ، كاتو الأصغر : ٢٨١
 ماركس أنطونيوس (الأب) : ٢٩٨
 » » انظر انطونيوس
 » » ابن انطونيوس القائد
 الشهير : ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥
 » أورليوطي : ٢٩ ، ٢٠٣
 » بوريوس كاتو : ٢١٤
 » ترمس : ٣٤٢
 » تليوس انظر شيشرون
 » ترنتيوس فارو : انظر فارو
 » كانوا : ١٨٣
 » كتيليوس : ٣١٦
 » كورنيوس : ١٣٣
 » ليسينيوس كراسس : ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
 ٣٤٩
 » ليفيوس التريبون : ٢٤٤
 » ماتليوس : ٥٠
 ماركس مارسلس : ٣٧٠
 ماركس مسالا : ٢٠٧
 ماركيذه ساتلميه : ٢٨٠
 ماريوس : ٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٦ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٧
 ماريوس الصغير : ٢٦١ ، ٢٦٢
 ماسينسا : ١١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ،
 ٢٤٧ ، ٣٣٨
 مالطة : ٨٦
 ماتليوس : ٢١٦ ، ٢٩٠
 فلسو : ١٨٥

يوريلديز : ١٩٧ ، ٣١٤ ، ٣٦٥

يورجوتا : ٢٤٧ ، ٢٤٨

يورك : ١٦٣

يولوس اسكاليوس : (٢٤)

يوليان ابنة قيصر : ٧٧٨ ، ٣٦٥ ، ٤٠٦

يوليان الإمبراطور : ٣٨

يوليوس ، شهر : ٣٩٣

اليونان : (١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠)

٢٣ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ٧٧

٨٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٤

١٠٢ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠

١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٤٩

١٥٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٠

١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٢ ، ١٩٢

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٨ ، ٢١٨

٢٣٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٩ ، ٢٦٩

٢٢٤ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠

٢٩١ ، ٣١٢

اليونان الكبرى : ٨١

يولوس : ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٧٧

يونوريينا : ١٢٧

يوزروس : ٢٠٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٤

١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٠

٢٥٣

هوراس : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٥٣ ، ٣١٧ ، ٣١٧

٣٢١

هوراشي : هشائر : ٤٦

هوراشيوس ككليز ، ٣٦

هورتقسيا ، لكس أو قانون : ٥٣

هورتلسيوس : ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٤١٣ ، ٤١٣

هورميروس : ٢٠٥ ، ٢٠٢

الهيتريا : ١٥

هيدلس : ١٣٠

هيرو صاحب سر قوسية : ١٠٩

هيرو الثاني دكتاتور سر قوسية : ٩٤

هين : ١٥٠

(و)

الوادى الكبير : ٨٤

وردسورث ، الشاعر : ٣٠٧

ويلز : ٧٨

(ى)

يتكا : ٢٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٢

٢٤٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٤٠